لغز ماركنمور

جوزيف سميث فليتشر

ترجمة أحمد سمير درويش



لغز ماركنمور

تأليف
جوزيف سميث فليتشر

ترجمة
أحمد سمير درويش

مراجعة
شيماء طه الريدي



لغز ماركنمور

جوزيف سميث فليتشر

The Markenmore Mystery

J. S. Fletcher

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٤٢٢ ٠

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٢.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

المحتويات

مجموعة ألغاز جوزيف سميث فليتشر القصصية

السيد فليتشر خبير بارع في الحبكة الروائية، ولا يجاوز حدود المنطق أبدًا في تسلسُلها وتطوُّرها. بل ويُتقن استخدام اللغة الإنجليزية بصفتها وسيلةً لا غنَى عنها في تلبية غاية السرد والوصف، ولا يفشل أبدًا في إظهار أنه أستاذها البارع. لذا يَسعد القارئ بقراءة قصصه، ليس لسِماتها المُسلية فحسب، بل كذلك للجاذبية المُمتعة الكامنة في طابعها وأسلوبها.

صحيفة «بوسطن إيفيننج ترانسكريبت»

الفصل الأول

عودة المُسافرَيْن الهائمَيْن

كان براكسفيلد — الذي كان كبيرَ الخَدَم لدى السيد أنطوني ماركنمور، بارونيت قصر ماركنمور كورت، طَوال ثلاثين عامًا — رجلًا منظَّمًا. فقد اعتاد فعل أشياءَ معينةٍ في أوقاتٍ معينة، وغرس في نفسه هذه العادة على مرِّ حياته؛ فكلما تقدَّم به العمر (وقد كان متجاوزًا الستين بقليل وقت أحداث هذه القصة)، ازداد تقديرًا لهذه العادة. كان بمثابةِ سيد المنزل الفعلي تقريبًا؛ فالسير أنطوني كان قعيدًا يُلازم غرفته، والسيد جاي ماركنمور، الابن الأكبر، لم يَخطُ عتبة بيت أبيه منذ سنوات، والسيد هاري ماركنمور، الابن الأصغر، كان يُفضِّل أن يتولَّى أيُّ شخص سواه كل مقاليد السيادة على الشئون المنزلية؛ أمَّا الآنسة فالنسيا ماركنمور، الابنة الوحيدة، فلم تتخرَّج في المدرسة إلَّا مؤخرًا؛ ومن ثَمَّ، استبدَّ براكسفيلد، بصورةٍ أو بأخرى، بالتحكُّم في شئون البيت استبدادًا غير صارم ولا ملحوظ، ومن دون أن يبدو عليه أنَّه يفعل ذلك. وقد كان يفرض قواعدَ جيدة، لكنَّ بعض قواعده الأخرى كانت أشبه قليلًا ببدعٍ قائمة على هوًى شخصي، وكان من بين تلك الأخيرة إيصاد باب المنزل في تمام الساعة الثامنة من كل مساء.

لو كان أيُّ شخص قد سأل براكسفيلد عن سر هذه القاعدة الغريبة، لكان كبير الخَدَم العجوز سيُبرِّر إصراره عليها بأسبابٍ يراها وجيهة. كان ماركنمور كورت بيتًا عتيقًا وكبيرًا جدًّا؛ إذ شُيِّد أصلًا في السنوات الأخيرة من عهد الملكة إليزابيث، ثم وُسِّعَت مساحته في عهد تشارلز الثاني، وأخيرًا شهد ترميمًا وتحديثًا في عصر جورج الرابع. كان البيت يقع على تلَّةٍ مائلة ذات انحدارٍ طفيف على بُعد مِيلٍ من قريةٍ سُمِّيت على اسم عائلة ماركنمور، التي استقرَّت في هذه المنطقة منذ الأيام الأولى للغزو النورماندي، ولم يكن يُوجَد أيُّ مسكن بالقُرب من القصر، عدا كوخٍ عند بوابات دخوله. كان للقصر عدد هائل من الأبواب؛ أبواب تُفتَح على الشرفة، وأخرى تُفتَح على الفناء، وأخرى على الحدائق، وأخرى على المروج، وعلى

حظائر الخيل، وعلى ممرَّات خاصة تمتدُّ مُلتوية عبر الشجيرات الكثيفة، وكان يحوي أيضًا أروقة وصالات عرض وغرفًا قلَّما كان أفراد الأسرة والخَدَم يستخدمونها.

كانت الأسرة صغيرة وكان الخَدم قليلين؛ لأن آل ماركنمور كانوا فقراء نسبيًّا ولم يحفظوا سوى أقل القليل من ثرائهم القديم. ولكن بالرغم من فقرهم، كانوا يملكون نصيبًا كبيرًا من الأواني الذهبية والفضية، والأوعية الخزفية النادرة، والأشياء الزجاجية القيِّمة، وكان البيت يحوي كذلك صورًا تُقدَّر بأموال طائلة، ونادرًا ما يتوانى أصحابُ أيِّ بيتٍ يحوي بعض المُقتنيات السهلة الحَمل، التي قد تُباع بثمن باهظ في المزادات، عن عرضها علانية.

شَعَر براكسفيلد، الذي كان يحظى بضميرٍ شديد اليقظة، بأنَّه مسئول عن حفظ هذه الكنوز العائلية، وعاش في خوفٍ مُتوتر دائم من أن تُسرَق. ولو كان القرار بيده، لشيَّد منذ أمدٍ بعيد غرفةَ تخزين مُحصنة ضد الحرائق والسرقة، ووضع فيها كل شيءٍ قَيِّم يحويه المنزل القديم. لكنَّ آل ماركنمور، وإن كانوا يتساهلون في السماح لكبير خُدَّامهم بأن يتحكَّم في بعض شئون بيتهم، كانوا أناسًا لا يسمحون بالتدخُّل في العادات والنظام المُتعارَف عليه منذ قديم الزمان؛ ومن ثَمَّ كانت الكئوس الذهبية والصواني الفضية، التي كانت تلمع بإتقانٍ شديد وتُنظَّف من الغبار بعناية مُتناهية، تتلألأ على الخِزانات الجانبية الضخمة المصنوعة من خشب البلوط حيث كانت أعداد هائلة منها تُترَك بمُنتهى اللامبالاة، وكانت المشغولات العاجية النادرة والمُقتنيات الخزفية التي لا تُقدَّر بثمن تُوضع على الخِزانات الكبيرة المفتوحة القديمة، كأنَّها ليست أقْيمَ من الأشياء التافهة المرصوصة في متحف سوق المدينة المجاور، كما قال براكسفيلد بنبرة حزينة. ولذا كان يُوصِد أبواب المنزل في الساعة الثامنة كل ليلة، ويضع مفاتيح الأبواب التي يبلغ عددها ثلاثة عشر تقريبًا في غرفته؛ وبذلك كان أيُّ مَن يريد الخروج من ماركنمور كورت بعد تلك الساعة، سيدًا كان أو رجلًا عاديًّا، خادمة كانت أو سيدة، يُضطر إلى اللجوء إلى براكسفيلد طلبًا لوسيلةٍ للخروج.

وذات مساء في ثالث أسابيع شهر أبريل من عام ١٩١٢، بدأ براكسفيلد جولته المُعتادة على أبواب المنزل ليوصِدها بعد انتهاء العشاء البسيط الذي كان السيد هاري ماركنمور يتناوله مع شقيقته فالنسيا في الساعة السابعة من كل ليلة. ودائمًا ما كان براكسفيلد يبدأ جولته بالأبواب الأصغر ويُنهيها بالباب الكبير ذي المصاريع الثلاثة الذي كان يُفتَح على الشرفة. وهنا كانت تأتي عادة أخرى من عاداته المُبتدَعة؛ فقبل أن يغلق هذا الباب ويوصده أخيرًا، دائمًا ما كان يخرج إلى الشرفة، ويتخطَّاها إلى أن يبلغ الدرابزين الذي كان

يُحيط بها ويفصلها عن المُتنزَّه الواسع المُمتد أمامها، ثم يُلقي نظرة على المشهد كله المُمتد أمامه، وكان يفعل ذلك بغض النظر عن فصول السنة؛ لذا أحيانًا لم يكن يرى سوى ظلامٍ كئيب، كما في أمسيات الشتاء المُعتمة، وأحيانًا ما كان يرى قدرًا هائلًا من الجمال، كما في أمسيات الصيف. وفي هذه المرة تحديدًا، رأى الشفق يُسدِل أستاره على أشجار الدردار والزان العتيقة، وفوق المروج المُموَّجة التي تقع بين قرية ماركنمور والسهول المُستوية الواقعة جنوبها. كان الشفق يُسدِل أستاره سريعًا، ثم صار براكسفيلد يراه من خلال الغسَق في غضون الدقائق القليلة التي كان واقفًا فيها هناك وهو ينظر حوله، وصارت الغابات والأجمات أشكالًا ضبابية وغير واضحة، ومن ورائها على بُعد ميلٍ واحد منها، بدأت أضواء القرية تتلألأ في الظلام. حينئذٍ استدار براكسفيلد نحو الباب، ثم توقَّف فجأة. ففي مكانٍ ما كان خلفه رجلٌ يعبُر المرج الواقع تحت الشرفة بخطوات سريعة واسعة.

كان يُوجَد مصباح قوي الإضاءة داخل المدخل الكبير مباشرة، وكانت أشعته منتشرة كالمروحة عبر الشرفة وفوق الدرجات المؤدية إلى المرج. وحين أبطأ براكسفيلد الخطى، مُتسائلًا في قرارة نفسه عن هوية ذاك الشخص المُقترِب (لأنَّ بيت ماركنمور كورت نادرًا ما كان يستقبل زوَّارًا في تلك الأيام)، خَطَت قامةٌ طويلة خطوةً واسعة داخل هذا القوس الذي شكَّله الضوء، وصعدت الدرجات سريعًا مُتجهة نحو الباب، كانت قامة رجل رياضي ضخم البنيان يرتدي معطفًا خفيفًا مفتوح الأزرار يَستر جزءًا من ثياب السهرة الرسمية التي يرتديها. وكان جليًّا أنه لم يأتِ من مكانٍ بعيد لأنه كان حاسر الرأس، بل بدا كرجلٍ قام على عجل من مائدة عشائه وأتى مُسرعًا إلى منزل أحد جيرانه. ومع ذلك، أطلق كبير الخدَم صيحة تعجُّب حادة متفاجئة حين رآه.

قال وهو ينتفض خارجًا من الظل الذي كان واقفًا فيه: «ليُبارك الرب حياتي وروحي! السيد جون هاربورو؟ مرحبًا بعودتك يا سيدي، لم أكن أعلم أنَّك عُدتَ إلى الديار مُجددًا.»

وهنا التفت الرجل الذي خُوطِب بهذه الكلمات — والذي صار آنذاك في وهَج المِشكاة الكامل، بوجهه البرونزي وعينيه العميقتَين الداكِنتَين الحادتَين — نحو خدَّي كبير الخَدَم العجوز المُستديرين وقامته المُكتنزة. ومَدَّ يده اليُمنى ضاحكًا.

قال بابتهاج ونبرة شخصٍ يُحيِّي أحد معارفه القُدامى: «مرحبًا يا براكسفيلد!» واستطرد قائلًا: «أهذا أنت؟ ما زلتَ مُفعمًا بالنشاط كما كنتَ دائمًا، هاه؟ لا يبدو أنَّ العمر قد تقدَّم بك يومًا.»

رَدَّ براكسفيلد وهو يصافحه باحترام وتبجيل، قائلًا: «الرجال في عمري هذا لا يتغيَّرون كثيرًا يا سيدي. بل يحدُث هذا بعد ذلك بقليلٍ يا سيد هاربورو. ولكن هل عُدت حقًّا يا سيدي؟ لم أسمع بذلك، وإن كنا لم نَعُد نسمع الكثير عمَّا يحدُث حولنا الآن؛ إذ صار ماركنمور كورت أهدأ من أي وقتٍ مضى، يا سيدي.»

رَدَّ هاربورو قائلًا: «لم أعُد إلى الديار إلَّا عصر اليوم يا براكسفيلد. وبينما كنتُ على وشك الانتهاء من العشاء، سمعتُ أنَّ السير أنطوني مريض؛ لذا جئتُ فورًا لمعرفة حالته. أهي خطيرة؟»

قال براكسفيلد: «حسنًا، يا سيدي، لقد ساءت حالته قليلًا في اليوم أو اليومين الماضِيَين. إن حاله يتبدَّل بالطبع؛ لقد مرَّ عامان كاملان منذ آخر مرةٍ غادر فيها غرفته. وبيني وبينك يا سيد هاربورو، قد يُفارِق الحياة في أي لحظة ... في أي لحظة. هذا ما يقوله الأطباء يا سيدي.»

فسأله هاربورو وهو يُلقي نظرةً خاطفة على النوافذ المُضاءة في مقدمة المنزل: «مَن موجود هنا؟»

أجاب كبير الخدَم قائلًا: «لا أحد سوى السيد هاري والآنسة فالنسيا. أمَّا السيد جاي ... آه، فلم نرَهُ في ماركنمور منذ ... نعم، منذ سبع سنوات كاملة. لقد رحل ... رحل في نفس وقت رحيلك بالضبط يا سيد هاربورو، ولم يَعُد قَط، ولا مرة واحدة! لا أعرف مكانه، وأعتقد أنهما لا يعرفان أيضًا.»

فقال هاربورو: «إممم!» وأضاف: «هاري، حسنًا ... لقد كان صبيًّا حين غادرتُ، وفالنسيا كانت فتاةً صغيرة ضئيلة الجسد جدًّا.»

قال براكسفيلد: «نعم يا سيدي، لكنَّ السيد هاري صار الآن شابًّا في الثالثة والعشرين من عمره، والآنسة فالنسيا صارت شابة تخطَّت التاسعة عشرة. لقد ابتعدتَ فترة طويلة يا سيدي! ولكن تفضَّل بالدخول يا سيد هاربورو، تفضَّل! أنا سعيد برؤيتك في ماركنمور مرة أخرى يا سيدي.»

سار هاربورو وراء كبير الخدَم العجوز إلى داخل المنزل، وعبَرَ الصالة الحجرية القديمة، التي كانت مُزينة ببعض قرون الغزلان ووجوه الثعالب والبنادق القديمة وغيرها من غنائم الصيد والحياة الريفية، إلى غرفةٍ تذكَّرها جيدًا، صارت العائلة تستخدمها مُلتقًى مُعتادًا. كانت المِدفأة تحوي حطبًا مُشتعِلًا بنيران مُتوهجة، وسَحَب براكسفيلد كرسيًّا ووضعه بجوارها.

ثم أسرَّ إليه هامسًا: «لم نَعُد نستخدِم غرفة الضيوف قطُّ يا سيد هاربورو. لقد صارت هذه الغرفة تُلبِّي كل الأغراض؛ إذ أصبحت غرفة الطعام وغرفة الجلوس وما إلى ذلك. لم نَعُد موسرين كما كنا دائمًا يا سيدي، هاه؟ ولكن ما زالت لدينا زجاجة من النبيذ البرتغالي الفاخر النادر للأصدقاء القُدامى! هل أُحضِرُ لك أيَّ شيء يا سيد هاربورو؟ اطلُب ما شئت يا سيدي!»

أجاب هاربورو قائلًا: «لا شيء، لا شيء يا براكسفيلد، شكرًا لك.» ثم نظر حوله وأومأ برأسه نحو أشياءَ مُتنوعة. وتمتمَ قائلًا: «أتذكَّرُ كل شيء. لا شيء تغيَّر! حسنًا، أخبِر الشاب والفتاة بأنني هنا يا براكسفيلد.»

حين ذهب الخادم، وقف هاربورو بجوار رف المدفأة — الذي كان عبارة عن قطعةٍ ثقيلة منحوتة ببراعةٍ من خشب البلُّوط القديم — ونظر حوله مرةً أخرى إلى أرجاء الغرفة. كان يعرف تلك الغرفة في أيام صباه، قبل حوالي ثلاثين عامًا، كانت آنذاك غرفة الفطور وغرفة الجلوس النهارية والمكان الأكثر راحة في المنزل الكبير المُترامي الأطراف. كانت لا تزال مُريحة في هذه اللحظة، بأثاثها القديم وصُوَرها القديمة وكُتبها القديمة؛ إذ كان كلُّ ما فيها يوحي بعراقة العائلة التي كانت تملكها. ولكن بالرغم من هذه الراحة، التي كانت تكفي المرء وتُشعِره بأنه في بيته، لاحظت عينا هاربورو الحادَّتان وبصيرته الفطنة طابعًا عامًّا لخَّصه في كلمةٍ واحدة: التحلُّل! التحلُّل الذي كانت شواهده واضحة في كل مكانٍ من حوله. كان كل شيءٍ يَبلى بوتيرة بطيئة بالطبع، لكنه كان يَبلى بلا ريب.

رفع ناظريه فجأةً عن السجادة البالية التي كان واقفًا عليها ليرى الباب وهو يُفتَح بينما دخلت فتاةٌ واقتربت منه مادَّةً يدَها، كانت فتاة طويلة ليِّنة القوام وداكنة الشعر، كسائرأفراد آل ماركنمور، وحسناء، وتُوحي بطريقةٍ ما بالحياة والحيوية إيحاءً لم يستطِع تمييز ماهيته فورًا. كانت شابةً جميلة، وكانت نضارتها أشدَّ فتنةً بكثير في هذا المحيط القديم؛ إذ خَلَبت هاربورو بشدة إلى حدٍّ جعل لسانه ملجومًا، وأمسك يدَها وحدَّق إليها مذهولًا طوال دقيقة كاملة قبل أن يجد كلمة واحدة.

ثم صاح أخيرًا وهو خافض عينَيه إليها من علوِّ قامته التي كانت تبلُغ ستَّ أقدام وبوصتَين، مع أنَّ الفتاة كانت طويلة، وقال: «يا إلهي!» وأردف: «هل ... هل أنت فالنسيا؟»

أجابت ضاحكة: «ولا أحد سِواها، على حدِّ علمي! ألم تعرفني؟ لقد عرفتك.»

فقال هاربورو: «آه! كنتُ رجلًا كبيرًا بعض الشيء حين رحلت! في حوالي الثلاثين من عمري. لكنَّكِ آنذاك كنتِ ...»

فقاطعته قائلة بضحكة أخرى: «في الثالثة عشرة. ونحيلة للغاية على ما أظن. إذن فقد عُدتَ إلى الديار مرة أخرى حقًّا؟»

أشارت إلى كرسيٍّ وارتمت على آخَرَ، فيما جلس هاربورو أيضًا وواصل التحديق إليها وهو لا يزال مُتعجبًا من أنَّ تلك التي يتذكَّرها طفلةً عادية خرقاء بعضَ الشيء قد تحوَّلت إلى هذه المخلوقة الشابة المُفعمة بالحيوية والتألق.

أجاب قائلًا: «عُدت اليوم فقط، وحالما سمعتُ بمرض أبيكِ، جئت فورًا للسؤال عن حالته.»

فقالت ببساطة: «شكرًا لك. لكنِّي لا أرى حالته أسوأ ممَّا كانت على مدار فترة طويلة. إنه يمر بأيامٍ سيئة بالطبع — إذ لم يكن بخير حالٍ يوم أمس — ولا شكَّ أن هذا هو سبب مجيئك لتطمئن على حالته. لقد صار طاعنًا جدًّا في السن الآن كما تعلم، وواهنًا للغاية.»

فاقترح هاربورو تقديمَ المساعدة قائلًا: «هل بإمكاني فعل أي شيء؟» وأضاف: «فكما ترين، لقد عُدت إلى الديار إلى الأبد. بعد حوالي سبع سنوات من التَّرحال.»

قالت فالنسيا: «من المؤكَّد أنَّك قد رأيتَ الكثير.»

قال هاربورو مؤيدًا ما قالته: «أشياء لا حصر لها. في كل أنحاء العالم! ولكن راوَدَني شعورٌ بأنِّي لم أرَ أي شيءٍ يُضاهي نصف جاذبية بيتي القديم حين عُدتُ إليه اليوم! ولن أتركه مرة أخرى. إنه الاستقرار، كما تعلمين.»

قالت فالنسيا: «جرايكلويستر مكان جميل. كثيرًا ما كنت أتمشَّى في حديقتك في أثناء غيابك، وأتساءل كيف استطعتَ أن تترُكها كل هذه الفترة الطويلة.»

قال هاربورو: «كانت عندي أسباب. ومع ذلك، فها أنا ذا قد عُدتُ مُجددًا، ويُسعدني جدًّا أن أرى الجميع مرةً أُخرى. لقد أحضرتُ معي إلى الديار أشياء كثيرةً للغاية من كل الأنواع، أرجو أن تزوريني وتريها، ستفعلَين قريبًا، أليس كذلك؟»

ردَّت فالنسيا قائلة: «بكل سرور!» وأردفت: «أظنك ستُنشئ متحفًا أو ما شابه؟»

قال هاربورو: «أظنني سأتبرَّع بالكثير منها. فقد جلبتُ أشياءَ لا حصر لها من أماكنَ متفرقة. ولكن ... يا إلهي، أهذا هاري؟»

كان الباب قد فُتِح مُجددًا، وفي هدوء دلفَ شاب إلى الغرفة. كان طويلًا نحيفًا داكن الشعر ويرتدي نظَّارة، وكان مظهره يتَّسِم بطابعٍ خجول مُتحفِّظ يوحي بأنَّه طالب. ابتسم ابتسامةً خفيفةً وهو يُصافح الزائر لكنه لم يقُل شيئًا.

ردَّت فالنسيا على استفسار هاربورو بالإيجاب قائلة: «إنه هاري بالتأكيد. لقد تغيَّر بالطبع، بقدْر ما تغيرتُ أنا أيضًا. ومع ذلك، فأنت تتذكَّره؟»

فقال هاربورو: «أتذكَّر أنه خرج معي للصيد في الغابة القريبة من بيتي قبل رحيلي بيومٍ أو اثنين.» ثم نقل عينَيه من الأخ إلى أخته بفضول ممزوج بتفكيرٍ عميق. كان يقول في قرارة نفسه إنَّ هذين الاثنين كانا أصغر فردَين في الأسرة، أمَّا جاي ماركنمور، شقيقهما الأكبر وابن السير أنطوني ماركنمور من زوجته الأولى، فكان يكبُرهما بعدة سنوات؛ لذا فمن المُؤكَّد أنَّ عمره في هذا الوقت سيكون قريبًا من عمر هاربورو نفسه. تابع حديثه وهو يرمق الأخ بنظرة خاطفة: «لا شكَّ أنَّك مارست الكثير من الصيد منذ تلك الأيام.» وأضاف: «فدائمًا ما كانت أراضيكم مشهورة بكل أنواع الرياضات.»

ابتسم هاري ماركنمور مُجددًا، ولم يقُل شيئًا هذه المرة أيضًا، فردَّت أخته نيابةً عنه.

قالت: «هاري لا يمارس الرياضة كثيرًا. إن اهتمامه منصبٌّ بالكامل على الكُتب وشئون المال والأعمال. إنه يبذل جهدًا من أجل ... من أجل إصلاح الأوضاع. فبطريقةٍ ما، ساء الوضع المالي للعائلة. صحيحٌ أننا ربما نملك الكثير من حيوانات القواع والأرانب وطيور الدرَّاج والحجل، ولكن ليس لدَينا سوى قدر قليل جدًّا من المال!»

وهنا تكلَّم هاري ماركنمور أخيرًا؛ إذ علَّق قائلًا وهو يرمق هاربورو بنظرةٍ ذات مغزًى: «كان لدَينا مديرٌ ماليٌّ سيِّئ. ترك الأوضاع تسُوء. لذا تولَّيتُ إدارتها بنفسي في العامين الماضيين. لكنَّ كل أراضينا مؤجَّرة بأسعارٍ زهيدة للغاية، يجب رفع قيمة الإيجارات.»

قال هاربورو: «هذا اقتراح قاسٍ.»

وأضاف: «إن معظمهم يريد خفض الإيجارات بدلًا من رفعها. أظنُّني سأُضطر أنا أيضًا إلى الخوض في مثل هذه المسائل، وربما نستطيع التعاون والتفكير معًا في حل.»

فقالت له فالنسيا بنظرةٍ تنمُّ عن دراية: «آه، لكنَّك لستَ معتمِدًا على إيجارات مزرعتك!» وأضافت: «فلديك أملاك وعقارات في البلدة. أترى كم أنا فتاة مُطَّلعة! كلُّ ما نحصل عليه هو إيجار مزارِعنا، لكننا مُلَّاك أراضٍ تُعَساء الحظ؛ فلسْنا أثرياء كأولئك الذين أجَّرنا أراضينا لهم. ولو كان بإمكاننا، أنا وهاري، أن نتصرَّف كيفما نشاء، لكنا سنبيع الأراضي ونُنهي تلك المسألة.»

قال هاربورو: «أحيانًا ما تكون هذه طريقة جيدة. لِمَ لا؟»

نظر الأخ وأخته أحدهما إلى الآخر.

ثم قالت فالنسيا: «لأنَّ حقَّ ملكيتها مقصور على ورَثةٍ مُحدَّدِين.»

ونظرت إلى هاربورو نظرةً خاطفة ذات مغزًى ظاهرٍ في عينيها، وأومأ هاربورو برأسه.

ثم قال: «هكذا الأمر. ولكن ... يُمكن التغلُّب على ذلك إذا ... إذا كان شقيقكما الأكبر مُستعدًّا للموافقة.»

فتبادل الأخ وأخته النظرات مرةً أخرى.

وقال هاري: «لا نعرف مكان جاي. ولا أحد يعرف، أو على الأقل لا أحد ممَّن نعرفهم. فلم يُسمَع أيُّ خبرٍ عنه منذ ... منذ حوالي سبع سنوات على ما أظن.»

قالت فالنسيا: «إنها سبع سنوات. أتذكَّر جيدًا.» ثم نظرت مرةً أُخرى إلى هاربورو. وأضافت: «لقد رحل فجأة، قُبيل رحيلك مباشرة. وكان ذلك منذ سبع سنوات.»

تململَ هاربورو قليلًا في كرسيه. فلم يكن يريد أن يُجرَّ إلى مناقشة أسرارِ آل ماركنمور. لكنَّه شعر بفضولٍ ما.

سألها قائلًا: «هل تقصدين ذلك ... حرفيًّا؟»

أجابت فالنسيا: «بكلِّ تأكيد!» وأردفت قائلة: «لم يسمع أحد منَّا — ولا من أقربائنا أو معارفنا — خبرًا واحدًا عنه منذ ذلك الحين.»

فقال هاربورو: «ولكن ... ماذا عن المال؟» وأضاف: «من المُفترض أنَّه يريد أموالًا. ألم يرسِل إليكم في طلب أي أموال من قبل؟ مبلغ يُخصَّص له لتغطية نفقاته مثلًا؟»

فقال هاري: «كان لديه ماله الخاص. فقد آلت إليه كل أموال أُمِّه عند وفاتها. لا؛ كما تقول فالنسيا، لم نسمع عنه أيَّ شيء قَطُّ منذ أن غادر ماركنمور، ولا نعرف مكانه. ليتنا كنا نعرف! فوالدي لا يمكن أن يبقى على قيد الحياة طويلًا.»

قام هاربورو من كرسيه.

وقال: «حسنًا، أنا مُضطر إلى المغادرة. ستحرصان على إخباري إذا وُجِد أي شيء يُمكنني فعله، أليس كذلك؟ لكنَّكما تقولان إن السير أنطوني ليس مُهددًا بخطرٍ وشيك؟»

ردَّ هاري قائلًا: «ليس وشيكًا. لكنَّه قد يُباغته في أي لحظة. ولأنَّه لا يُطيق صبرًا على البقاء وحده، فهل ستلتمِس لي العُذر إن عُدتُ إليه؟ إذا بدا عليه شيء من التحسُّن يوم غد، فسأخبره بأنَّك عُدتَ إلى الديار مرةً أخرى، ومن المؤكد أنك تستطيع رؤيته حين تزورنا. ستأتي مُجددًا عمَّا قريب، أليس كذلك؟»

قال هاربورو: «بكل تأكيد.» وسار مع فالنسيا إلى داخل الصالة حين ذهب هاري، ورمقَها مُجددًا بنظرة تحذيرية. وأضاف: «لن تنسَي أن تستدعيني إن كان بوسعي تقديم أي مساعدة! ينبغي ألَّا تعتبروني مجرد جارٍ عادي، كما تعلمين، بما أنني قد عُدت الآن.»

فقالت: «لن أنسى.» ثم ألقت نظرةً خاطفة حولها تزامنًا مع ظهور براكسفيلد للتوِّ في الطرف الأقصى من الصالة المغمورة بالظل، حاملًا مفتاحًا في يده؛ فتنحَّت بهاربورو جانبًا. ثم همست له قائلة: «أريد أن أسألك عن شيءٍ ما. هل لديك أي فكرة عن سبب رحيل أخي جاي عن الديار، وعدم رجوعه قَط؟ إنني أسألك أنت، بذاتك؟»

كانت عيناها الكبيرتان الداكنتان تُحدِّقان إليه بجدية غريبة، ورأته ينتفض قليلًا ويضغط شفتيه.

قالت: «أخبِرني.» وأردفت: «أخبِرني أنا!»

وهنا ألقى هاربورو أيضًا نظرةً خاطفة على براكسفيلد؛ إذ كان كبير الخدم العجوز يقترب منهما لكنَّه لم يسمع ذاك السؤال الشائك ولا إجابته اللاحقة.

ثُم تمتم هاربورو قائلًا: «ربما أكون على درايةٍ بشيءٍ ما. وإذا ... إذا رأيت، بعد التفكير مليًّا، أنَّني يجب أن أُخبرك، فسأفعل. لاحقًا.»

منحته إيماءةً مُتفهمة وكلمة شُكر هامسة، ثم تركته وصعدت الدرَج المظلم الذي كان خلفهما. وبعدئذٍ تحدَّث إليه براكسفيلد بكلمةٍ أو اثنتين وفتح له الباب لينصرف، وأوصد الباب الكبير، ثم وضع بعرضه كرسيًّا ثقيلًا كان يُستخدَم لهذا الغرض على مرِّ العديد من أجيال آل ماركنمور. وبهذا أُحكِمَ تأمين المنزل ليلًا.

عاد براكسفيلد إلى حُجرته، التي كانت غرفة جلوس دافئة مريحة تقع في نهاية الرواق الرئيسي الكبير. كانت في الغرفة نيرانُ تدفئة مُتوهجة، وكان كرسيه الوثير ذو الذراعين المحشو ببطانة كثيفة ليِّنة موضوعًا بجوارها. كان هذا الوقت هو وقت الراحة والاستجمام بالنسبة إليه. فكل المهام قد أُنجِزَت وعمَّ السكون أرجاء المكان؛ لذا كان يعمد إلى تدخين غليونه وقراءة الجريدة والاستمتاع بكأسٍ من الويسكي. كان غليونه في مُتناول يدِه، وكانت الجريدة تجاوره، واتجه براكسفيلد إلى الخزانة ليُخرِج إناء الويسكي والكأس. ولم يكد يضع يدَه على هذه الأشياء حتى سمع صوتًا. فأرخت أصابعه قبضتها عنها، ونزلت إلى جواره، وبدأت ترتجف. فقد كان يعرف هذا الصوت؛ إذ كان مألوفًا جدًّا له برغم مرور سبع سنوات منذ آخر مرةٍ سمعه. ثم وقف يُنصِت فسمعه مجددًا. كان صوت نقرة خفيفة

لكنها مُحكَمة تكرَّرت ثلاث مرات على نافذة الحجرة. وحينئذٍ غادر الحجرة، وانعطف إلى مَمرٍّ جانبي وفتح بابًا يؤدي إلى حديقة الورد. فدخل منه رجل، وفي الضوء الخافت المُنبعث من مِشكاة مجاورة، رأى كبير الخدم وجهه.

فصاح وهو ينتفض مُتراجعًا إلى الحائط: «ليرحمنا الرب!» وأضاف: «السيد جاي؟»

الفصل الثاني

حجرة كبير الخَدَم

ألقى ذاك الرجل الذي خاطبه براكسفيلد، والذي كان آخر شخص في العالَم يتوقَّع كبير الخَدَم رؤيته، مع أنَّه كان يتذكَّر إشارته على نافذة الحجرة جيدًا، نظرةً خاطفة حادَّة امتزج فيها الفضول بالارتياب على المَمر الضيق الذي كان مفتوحًا على رواق المنزل الرئيسي. ثم تحوَّلت نظرته بحدةٍ مُماثلة إلى وجه كبير الخدم العجوز الذي كان مشدوهًا ومُضطربًا، وكان السؤال الذي تلاها حادًّا مثلها.

«هل نام البقية؟»

بدأ براكسفيلد يرتجِف. كثيرًا ما كان يسمح لجاي ماركنمور بالدخول في وقتٍ متأخِّر ليلًا من هذا الباب نفسه في الأيام الخوالي، حين كانت النقرة المُتكرِّرة ثلاث مرات إشارةً مُتفقًا عليها بينهما. وكان يسمع منه في تلك الأيام هذا السؤال نفسه مراتٍ لا يستطيع تذكُّرها من كثرتها. لم يكن ذاك السؤال يُقلقه آنذاك، لكنَّ سماعه مُجددًا في هذه اللحظة، بعد غياب السائل سبع سنوات كاملة بلا مُبرر، قد بثَّ الرعب في نفسه. فلماذا أتى وريث بارونية عائلة ماركنمور ومُمتلكاتهم إلى بيت أبيه مُتسللًا في وقتٍ متأخِّر ليلًا، ساعيًا إلى الدخول خلسة وهو يبدو متوترًا بسبب شيءٍ ما؟ نظر إليه براكسفيلد مُرتابًا.

ثم أجاب قائلًا: «ذهبوا إلى غرفهم يا سيد جاي. أو ربما يكونون في غرفة أبيك. فالسير أنطوني في ... في أواخر أيامه يا سيدي.»

فألقى جاي ماركنمور نظرةً عبر المَمرِّ مرةً أخرى. وبينما كان ينظُر، نظر براكسفيلد إليه. رأى براكسفيلد أنَّ جاي قد تغيَّر قليلًا. فقد كان ذلك الأخير مشهورًا دائمًا منذ صباه بحُسن مظهره؛ صحيح أنَّه كان لا يزال حسَن المظهر بعد أن صار في الخامسة والثلاثين من عمره؛ إذ كان طويلًا ونحيفًا وداكن الشعر وحادَّ النظرات؛ أي من نوعية الرجال الذين يجذبون النساء ويثيرون اهتمامهن. لكنَّه بدا كرجلٍ عاش حياة صعبة ورأى بعضًا

من جانبها الكريه، وكانت عيناه الجميلتان وتجاعيد فمه، التي كان يُخفيها بالكاد شاربٌ داكنُ اللون ومُعتنًى به جيدًا، تبثُّ إيحاءً شرِّيرًا يُحذِّر أقوياءَ الملاحظة اليقظين من الوثوق به مثقال ذرة. كانت عيناه وشفتاه مفعمةً بالحذَر والحرص حين التفت إلى كبير الخدَم مرة أخرى.

قال بهدوء: «لنذهب إلى حجرتك يا براكسفيلد. أوصِد هذا الباب.»

سار بسرعة عبر المَمرِّ وانعطف إلى الرواق بعدما أصدر هذا الأمر، وحين تبعه كبير الخَدَم، بعد تنفيذ أمره، كان واقفًا عند مدخل الحجرة من الداخل ومُمسكًا الباب بيدِه. وبعدما دخل براكسفيلد وهو لا يزال قلقًا ومندهشًا، أغلق جاي الباب وأوصده بالمفتاح.

قال بصوتٍ خفيض وهو يتَّجِه ببراكسفيلد إلى جوار المدفأة ولهيبها المُبهِج: «أصغِ إليَّ! أريد أن أعرف شيئًا، أظنني قد رأيتُ شخصًا ما وأنا آتٍ. من المؤكد أنك ستعرف. هل عاد جون هاربورو إلى الديار مُجددًا؟»

شعر براكسفيلد بأفكاره تتسارَع عند سماع نبرة هذا السؤال. ثم أومأ مُتفرسًا في وجه جاي.

وأجاب قائلًا: «نعم يا سيدي.» وأردف قائلًا: «عاد إلى الديار اليوم، عصر اليوم تحديدًا.»

سأله جاي: «هل أتى إلى هنا؟»

«أجل يا سيدي، مساء اليوم.»

«لماذا؟ ما سبب مجيئه؟»

«سمع أنَّ أباك مريض يا سيد جاي، فجاء للاطمئنان عليه.»

«هل ذكرني في كلامه؟»

«كلَّا يا سيدي، على حدِّ علمي. لقد ... لقد قابل السيد هاري والآنسة فالنسيا.»

«هل عاد إلى ... إلى الأبد؟ أقصد ليستقر؟»

«أجل يا سيدي، حسبما فهمت.»

كان براكسفيلد يتساءل في قرارة نفسه عن المقصد من هذه الأسئلة، وظهر هذا التساؤل على قسمات وجهه. لكنَّ وجه جاي كان قد صار جامدًا كأبي الهول. أشاح بوجهه عن كبير الخدَم، وخلع قُبَّعته الأنيقة ومعطفه وقفازاته، ثم ألقى كل ذلك على كرسيٍّ مريح في أحد أركان الغرفة، وبعدها أخرج علبةً من جيب صدره، وأخذ منها سيجارًا وأشعله على مهل. كان براكسفيلد على دراية كافية بأنواع السيجار ليعرف أنَّ

هذا السيجار باهظ الثمن، وكان يعرف أيضًا، بناء على مظهر جاي، أنَّ ذاك الابن الضال، الذي ظلَّ غائبًا سبع سنوات دون سماع أي خبرٍ عنه، لم يرجع إلى الديار مُبدِّدًا ثروته ونادمًا على ذلك. فقد كان جاي يرتدي ثيابًا عصرية للغاية؛ فحُلَّته الرمادية الصوفية، التي كانت تحمل علامة «سافيل رو» المُميَّزة، كانت مُتناقضة تناقضًا صارخًا مع الثياب البالية القديمة التي كان هاري ماركنمور يرتديها في أرجاء هذا البيت القديم. وحول الإصبع الوسطى من يدِه التي رفعت عود ثقاب لإشعال السيجار، تلألأ خاتمٌ ألماسي رائع كان بمثابة مِحبس لخاتم آخر مصوغ ببراعة شديدة.

قال جاي مُجددًا: «أصغِ إلي!» وأضاف: «لديَّ سؤال آخر. سمعتُ أنَّ السيدة تريزيرو — التي كانت الآنسة فيرونيكا لايتون — قد عادت إلى هذه المنطقة مُجددًا. أهذا صحيح؟»

أجاب براكسفيلد: «نعم يا سيدي. لقد عادت هي أيضًا، منذ وقتٍ قريب جدًّا. وأخذت بيت الأرملة الموجود عند أقصى مُتنزَّهنا. لقد أخذَتْهُ قبل حوالي شهر من السيد هاري — فهو المُتصرِّف في كل شيء الآن يا سيدي — وانتقلت إليه.»

فصاح جاي مُشدِّدًا على ضمير الغائبة: «أخذَتْه؟» وأضاف: «هي التي أخذته! ماذا؟ ... هل مات الكولونيل تريزيرو إذن؟»

أجاب براكسفيلد: «مات في الهند يا سيدي منذ حوالي عام، حسبما فهمت. لذا عادت إلى الديار وجاءت لتبحث عن بيتٍ هنا، وكما قلت، أخذت بيت الأرملة الخاص بنا. ولا يبدو عليها أيُّ مظهر لتقدُّم العمر يا سيد جاي، ولا بأقل قدر! بل أصبحت أجملَ من أي وقتٍ مضى يا سيدي.»

كان براكسفيلد في هذه اللحظة يستعيد ثقته وطلاقة لسانه. وصار يريد التحدُّث.

وتابع قائلًا: «يُقال إنها أرملة شابة فاحشة الثراء يا سيد جاي. وقد قيل لي إنَّ الكولونيل تريزيرو ترك لها كل شيء، وإنه كان رجلًا ثريًّا. وهي تبدو هكذا أيضًا؛ إذ لدَيها طاقم مُميز من الخدم، وأنفقت أموالًا طائلة على البيت بالفعل، وما زالت تُنفِق المزيد. إنها تُقيم حفلًا مَنزليًّا هناك الآن لأناس قادمين من لندن، على حدِّ اعتقادي. أظنها تميل إلى إمتاع نفسها يا سيدي، على ما يبدو.»

فسأله جاي: «ألديها أي أطفال؟»

أجاب براكسفيلد: «ليس لديها أطفال يا سيدي. فلم تُنجِب أي طفل قَط، حسبما قيل لي.»

نظر جاي حوله إلى المَعالِم المألوفة للِمحراب الخاص لكبير الخدم العجوز. بدا له أن لا شيء في الغرفة قد تغيَّر. ثم استقرت عينه على إناء الويسكي الذي كان براكسفيلد قد وضعه على المنضدة قُبيل سماعه صوت النقرة على النافذة مباشرة.

فقال فجأة: «أعطِني كأسًا من الشراب يا براكسفيلد. أظنُّ ما زال لديك قدْر مُتبقٍّ من الويسكي القديم الذي كنا نشربه، حتى بعد مرور سبع سنوات. وبعض المياه الغازية. ولتُعِدَّ شرابًا لنفسك أيضًا؛ فقد مضى وقت طويل منذ أن احتسَينا شرابًا معًا، مع أننا كنا نشرَب معًا كثيرًا في هذه الغرفة نفسها في الأيام الخوالي!»

وضحك ضحكةً ساخرة وهو يرفع الكأس التي أعطاه براكسفيلد إيَّاها بعد قليل، لكنَّ كبير الخدم العجوز لم يُبادله الضحك. فبعدما رفع براكسفيلد كأسَه بوقارٍ وتمتم مُعرِبًا عن أطيب تمنياته، بدا نزَّاعًا إلى العاطفية.

إذ قال: «إنه وقت طويل جدًّا يا سيدي. نعم، وقت طويل جدًّا يا سيد جاي! لكنني واثق بكل تواضُع من أنه قد انتهى يا سيدي، أتمنى أن تكون عائدًا إلى الديار إلى الأبد.»

ردَّ جاي بضحكة ساخرة أُخرى قائلًا: «إذن، فآمالك محكوم عليها بالخيبة يا براكسفيلد. فأنا لا أنوي ذلك! لن أعيش مرةً أخرى في ماركنمور كورت. فأنا أحيا حياةً ناجحة وأجني أموالًا طائلة من دونه، ولا أعتزم زراعة الكرنب هنا في الوقت الذي أستطيع فيه زراعة أشياء أكثر إدرارًا للربح في مكانٍ آخر. لا يا براكسفيلد. لن أعود.»

قال كبير الخدم العجوز: «ولكن يا سيد جاي، ماذا عن أبيك؟» وأضاف: «لن يظلَّ على قيد الحياة طويلًا يا سيدي. واللقب والأملاك يا سيد جاي!»

أجاب جاي قائلًا: «لا أستطيع تجنُّب وراثة لقب البارونية يا براكسفيلد، وإن كنتُ لا أكترث بذلك مثقال ذرة، وأمَّا الأملاك، فيُمكن أن تُدار جيدًا بما يكفي دون مساعدتي أو وجودي. وفي الواقع، أنا لا أريدها أصلًا! فأنا رجل ميسور؛ فقد كنتُ أعمل في سوق الأوراق المالية لأكثر من ستِّ سنوات يا براكسفيلد، وجنيتُ أموالًا طائلة.» ثم أضاف مقاطعًا التهنئة التي قدَّمها له كبير الخدم العجوز: «ولكن أصغِ إليَّ الآن، لقد قُلت إن هاري صار بمثابة مديرٍ مالي للأملاك، هل يؤدي مهامه جيدًا؟»

أجاب براكسفيلد: «بل جيدًا جدًّا يا سيدي، من وجهة نظري. لقد ترك تشارلزورث — مديرنا المالي القديم — أظنك تتذكره جيدًا يا سيد جاي — الأوضاع تسوء، ووالدك لم يكبح جماحَه. ولكن حين بلغ أخوك سنَّ الرشد، أجرى مع أبيك بعض الترتيبات وتولَّى السيد هاري مقاليد الأمور، ثم أحال تشارلزورث إلى التقاعُد، ومنذ ذلك الحين، صار

مسئولًا عن كل شيء. وبالطبع حظِيَ بمساعدةٍ كبيرة من الآنسة فالنسيا يا سيدي؛ إذ صارت أختك شابةً ذكية جدًّا يا سيد جاي. أظنك سوف ... سوف تسمح لي بالذهاب لإحضارهما يا سيدي قبل أن تخلُد إلى فراشك؟»

تجرَّع جاي آخرَ ما تبقَّى في كأسه، ومزج لنفسه شرابًا آخر، ثم جلس على كرسي كبير بجوار الحطب المُشتعِل، وهزَّ رأسه.

وأجاب قائلًا: «لن أخلُد إلى الفراش يا براكسفيلد. لقد أتيتُ من البلدة من أجل مسألة خاصة، وسأعود إلى البلدة في قطارٍ سينطلِق في الصباح الباكر جدًّا من محطة ميتبورن. لكني سأقابل الصغيرين؛ فالمسألة التي جئتُ من أجلها، في الواقع، ستُسوَّى معهما. ولكن أولًا وقبل كل شيء، أريدك أن تُخبرني بشيءٍ أو اثنين، ثم يُمكنك أن تذهب وتخبرهما بأنني هنا، بهدوءٍ تام ومن دون أن تزعج السير أنطوني؛ فلا أريده أن يعرف أنني موجود بالقُرب منه. والآن، أولًا، تقول إن السيدة تريزيرو تقيم حفلًا منزليًّا الآن في بيت الأرملة؟»

ردَّ براكسفيلد قائلًا: «نعم يا سيدي. حفل كبير.»

فعلَّق جاي قائلًا: «إذن فمن المُستبعَد أنَّهم يستيقظون مبكرًا هناك في الوقت الحالي.»

قال براكسفيلد: «بل سمعتُ أنهم ينامون متأخرًا جدًّا يا سيدي. فهم يظلُّون ساهرين يرقصون وما إلى ذلك.»

واصل جاي كلامه: «ممتاز. والآن، أصغِ إليَّ، هل ما زالت السيدة رين تملك نزل سيبتر إن، الواقع في القرية؟»

وهنا تغيَّر لون وجه براكسفيلد المُكتنِز؛ إذ احمرَّ خجلًا كفتاةٍ صغيرة.

ثم قال مُتلعثمًا بضحكةٍ خجولة: «حسنًا يا سيدي. كلَّا، لم تعُد تملكه. فالحقيقة يا سيدي — وأظنك ستضحك عليَّ يا سيد جاي — أنني والسيدة رين يا سيدي، قد تزوَّجْنا منذ أربع سنوات يا سيدي. لذا فالسيدة رين صارت السيدة براكسفيلد الآن.»

فصاح جاي: «يا إلهي!» وأردف قائلًا: «لقد أوقَعَت بك أخيرًا يا براكسفيلد، هاه؟ إذن، أظن أن السيدة براكسفيلد موجودة هنا؟»

فأجاب كبير الخدم: «لا يا سيدي، ولم تكن هنا قَط. فأنا أعيش هنا كالمعتاد. أما زوجتي، يا سيدي، وابنتها بوبي — هل تتذكرها يا سيد جاي؟ كانت فتاة جميلة صارت شابة حسناء — تعيشان الآن في كوخ وودلاند كوتيدج الريفي الواقع على الجانب الآخر من مُتنزَّهنا. فقد أخذتْهُ زوجتي يا سيدي حين تركت سيبتر.»

فقال جاي: «أوه!» وأضاف قائلًا: «إذن مَن صار يملك سيبتر الآن؟»

«رجل يُدعى جريمسدِل يا سيدي، كان يعمل في السابق سائسًا لدى السير جيمس مارشانت. لقد أضفى على النزل تحسينًا كبيرًا يا سيدي؛ لأنَّ طريقَنا الرئيسي صار يشهد مرور الكثير من السيارات منذ أن بدأ الاعتماد على التنقُّل بها.»

أومأ جاي برأسه وأخرج ساعته ناظرًا إليها.

تمتم قائلًا: «لم تبلُغ العاشرة بعد.» ثم جلس دقيقة أو اثنتين مُستغرقًا في تفكيرٍ عميق كما بدا عليه بوضوح، بينما كان براكسفيلد يُراقبه بفضول. ثم قال جاي أخيرًا وهو يرفع ناظرَيه من على المدفأة: «حسنًا يا براكسفيلد. اذهب وأخبِر الصغيرَين بأنني هنا. ولكن تذكَّر أن تفعل ذلك بهدوء! وشدِّد عليهما أنَّ والدي ينبغي ألَّا يعرف أي شيء.»

وافق براكسفيلد قائلًا: «حسنًا يا سيدي. ربما يكون كلاهما — أو أحدهما — معه، لكنِّي سأتدبَّر ذلك الأمر. تُوجَد مُمرضة مُدرَّبة في المنزل يا سيد جاي؛ لذا ستعتني بالسير أنطوني في أثناء وجودهما هنا بالأسفل.»

لم يرُدَّ جاي، وغادر براكسفيلد الغرفة عبر المنزل الصامت وصعد الدرَج إلى غرفة هاري ماركنمور في الطابق العلوي. كانت الغرفة مُضاءة لكنها فارغة. فقال براكسفيلد لنفسه إنَّ هاري سيكون مع أبيه. فعبَر الرواق وقرع باب فالنسيا برفق. فلبَّت فالنسيا الاستدعاء فورًا، وخرجت مُرتدية رداءً منزليًّا، ولكن شيئًا ما في وجه كبير الخدَم العجوز جعلها تنظُر إليه بقلق. لكنَّ براكسفيلد هزَّ رأسه.

وسارع بالقول: «ليس ما يجول في بالك يا آنسة فالنسيا. لا، لا داعي للقلق؛ فالحقيقة أنَّ السيد جاي موجود في الطابق السُّفلي! لقد أتى مباشرة بعد صعودِك أنتِ والسيد هاري، ويريد أن يلقاكما، أنتما الاثنان. ولكن ينبغي ألَّا يعلم السيد أنطوني.»

تجمَّدت قسمات وجه فالنسيا. فلم يكن لدَيها ذكرى عن أي محبةٍ شعرت بها في طفولتها تجاه أخيها الأكبر، وبقدْر ما كانت تتذكَّر، لم تسمع عنه أي شيءٍ طيب قَط؛ فالشيء المؤكَّد أنَّه تجاهل أُسرته كأنها غير موجودة، طوال سبع سنوات كاملة. فنظرَت بارتيابٍ وتردُّد إلى براكسفيلد.

وسألته: «ماذا يريد؟»

رَدَّ كبير الخدم العجوز قائلًا: «كلُّ ما أستطيع قوله يا آنسة أنه يقول إنه جاء ليقابلكِ أنتِ والسيد هاري بشأن مسألة خاصة، ويريد ألَّا يعرف والدك بذلك.»

تحوَّلت فالنسيا بناظريها عن براكسفيلد مُلقية نظرةً خاطفة عبر الرواق المُعتم. كان يحوي على جانبيه عددًا هائلًا من المداخل المُتراصَّة التي كانت تُؤدي إلى غُرَف كالمغارات؛

إذ كان من الممكن أن يبيت في منزل ماركنمور كورت حوالي دزينتين أو ثلاث من الضيوف، لكنها كانت تعلم استحالة تجهيز أيٍّ من هذه الغُرَف في أقل من أربع وعشرين ساعة؛ إذ كانت كل غرفة منها رطبة وباردة ومهجورة.

قالت: «أين ستُبيِّته بحق السماء يا براكسفيلد؟» وأردفت قائلة: «لا يُوجَد في المنزل فراش جاهز لتمنحه إيَّاه.»

أجاب براكسفيلد: «لن يمكث يا آنسة فالنسيا. لستُ ... لستُ على درايةٍ تامة بتحركاته المُقرَّرة، لكنِّي أظنه سيرحل حالما يُقابلكِ أنتِ والسيد هاري. لقد تحدَّث عن استقلال قطار في الصباح الباكر جدًّا من ميتبورن.»

تردَّدت فالنسيا لحظة، ثم تحرَّكت صوب الغرفة التي كان والدها المريض يُلازِمها.

وهمست قائلة لبراكسفيلد: «أخبِره بأننا سننزل في غضون بضع دقائق. أين هو، في غرفة الجلوس النهارية؟»

أجاب براكسفيلد: «كلَّا يا آنسة؛ بل في غرفة كبير الخدَم.»

أومأت فالنسيا وانصرفت، فيما عاد براكسفيلد إلى الزائر.

أجابه قائلًا: «سيأتيان في غضون دقيقة أو اثنتَين يا سيدي. كلاهما!»

قال جاي بلا مُبالاة: «أظنهما قد تغيَّرا.»

فقال براكسفيلد: «أوه، جدًّا يا سيدي. فسبع سنوات مدة طويلة يا سيدي في عُمريهما.»

تابع جاي: «دعْنا نرَ. سيكون عمر هاري — كم يا تُرى؟ — ثلاثة وعشرين، وسيكون عمر فالنسيا حوالي عشرين ... عشرين تقريبًا. إممم! هل لأختي أي علاقات غرامية؟»

ردَّ براكسفيلد قائلًا: «لا، على حدِّ عِلمي يا سيدي. يبدو يا سيدي أنَّ الآنسة فالنسيا شابة لا تُفضِّل مُجتمع الرجال، حتى الآن. أظن أنَّ الخروج والأنشطة غير المنزلية هي ما يستهويها يا سيد جاي، كالبستنة والألعاب الرياضية والمشي والقليل من صيد الأرانب، وما إلى ذلك. إنها شابة تتمتَّع بصحة جيدة جدًّا يا سيدي. ها أنا ذا أسمعهما قادمَين يا سيدي، من الأفضل أن أترككم وحدَكم.»

فقال جاي بهدوء: «قف مكانك يا براكسفيلد. فأنا أريدُك أن تكون حاضرًا.»

نهض من كرسيِّهِ حين دخل أخوه وأخته الغرفة، وظلَّ واقفًا على سجادة المدفأة ثم أومأ لهما بلا مبالاة، كما لو كان لم يَغِب عنهما سوى يومٍ واحد. ولكن حين تقدَّما نحوَهُ وصافحاه، تغيَّرت إيماءة التحية على وجهه إلى إيماءة استحسان، وابتسم لأخته.

قال: «كيف حالكَ يا هاري، كيف حالكِ يا فالنسيا؟» وأضاف: «لقد تغيَّرتما كثيرًا! وأنتِ يا فال، أصبحتِ آية في الجمال بكل تأكيد! هذا ما يحدُث لجميعكنَّ أيتها الفتيات الصغيرات الدميمات! حسنًا، هذا صحيح. أظن أنني، بصفتي الأخ المُتشدِّد الصارم، يجب أن أُعرِب عن خالص أملي في أن تكون خصالك حسنة كمظهرك!»

ردَّت فالنسيا قائلة: «وفِّر على نفسك هذا العناء يا جاي!» ثم رمقَتْهُ بنظرةٍ حادة وهي تأخذ الكرسي الذي قام من عليه. ثم قالت: «آمُلُ أن تكون خصالك أنت كذلك. وإن كنتُ أشكُّ في هذا!»

نظر جاي إلى أخيه، وفي الأثناء رمق فالنسيا بنظرةٍ جانبية من طرف عينه.

ثم قال بضحكةٍ تمزج بين التندُّر والسخرية: «إذن فأختنا صار لديها لسان يا سيد هاري، هاه؟» وأضاف قائلًا: «لا بأس! فدائمًا ما كان هذا دأب نساء العائلة، حسبما أظن. حسنًا، ألستُما سعيدَين برؤيتي؟»

فسألته فالنسيا: «ولِمَ عسانا نَسعَد؟» وأردفت: «لم تكن قريبًا منَّا قَط، ولم تبعث برسالةٍ إلى أيٍّ منَّا ولو مرة واحدة طوال سبع سنوات، صحيح أنَّك أخونا — أو أخونا غير الشقيق بالأحرى — لكنك غريب عنا.»

وهنا تراجَع براكسفيلد، الذي كان واقفًا بشيءٍ من الخجل بين المنضدة والباب، إلى ركنٍ منزوٍ في الغرفة، فيما نَهَر هاري ماركنمور أُخته.

إذ همس قائلًا: «لا تقولي ذلك يا فال. فالأمر ليس هكذا تمامًا، كما تعلمين.» ثم نظر إلى أخيه الأكبر، الذي كان ينظر إلى فالنسيا من مكانه على سجادة المدفأة بعينَين مُتأمِّلتَين مُبتسمتَين. وقال باستنكار: «إن لسان فالنسيا مُتفلِّت قليلًا. نحن بالطبع سعيدان برؤيتك يا جاي.»

ردَّ جاي: «حسنًا يا هاري، يا فَتَاي.» وأضاف قائلًا: «سأعتبركما كذلك بالطبع.»

أصرَّت فالنسيا على كلامها قائلة: «لا أعرف لِمَ عسانا نَسعَد برؤيتك. فكما قلت، نحن غرباء. من المؤكَّد أنك لم تنتظِر منِّي أن أعرفك.»

فأجاب جاي قائلًا: «لعلَّكِ ستعرفيني معرفةً أفضل يا فتاتي، بطريقةٍ مختلفة تمامًا، قريبًا. هيا تعالَيا! سنخوض ما يكفي من هذه المحادثات الأُسرية المُبهجة.» وتابع وهو يهمُّ بالجلوس: «لقد أتيتُ خصِّيصى لأقابلكما. وأفضِّل التطرُّق إلى صُلب الموضوع مباشرة. أَصغيا إليَّ أنتما الاثنان، إذا أخذ الوضع الراهن مجراه العادي، فلن يظلَّ أبي على قيد الحياة طويلًا وسوف أرثُ اللقب والأملاك. أليس كذلك؟»

قال هاري: «بلى.»

واصل جاي حديثه: «لا أستطيع تجنُّب وراثة اللقب. أمَّا الأملاك، فلا أريدها. لقد صار لديَّ ما يكفي، وسأملك المزيد. لا أعرف الطريقة القانونية لتنفيذ ذلك، لكني على أي حال أعتزم التنازل، بطريقةٍ أو بأخرى، عن الأملاك لكُما حالما تئول إليَّ، وسنُكلِّف المُحامين بالعمل على ذلك. يُمكن أن تعتبراها مِلككما، من الآن فصاعدًا. مفهوم؟»

دُهِش هاري ونظر إلى أُخته. لكنَّ فالنسيا كانت تنظُر إلى جاي.

قالت فجأة: «يا له من كرَم بالِغ منك!» وأضافت قائلة: «ولكن لماذا تأتي لتُخبرنا بهذا الآن؟»

أجاب جاي قائلًا: «لأنني ذاهب إلى أمريكا، بخصوص بعض الأعمال، سأسافر إلى نيويورك ومكانين آخرين أو ثلاثة، في غضون يومٍ أو اثنين، ولن أعود قبل عام كامل، وربما أكثر من ذلك. وأردتكما أن تعرفا، تحسُّبًا لوقوع أي شيء. إذا مات والدي ... حسنًا، سيواصل هاري تسيير الأمور فحسب، وحين أعود، سنوثِّق كل شيءٍ قانونيًّا. ستئول عزبة ماركنمور إليكما؛ فأنا لا أريدها. أتسمعانني؟ وهل تسمعني أنت أيضًا يا براكسفيلد؟»

أجاب كبير الخدم قائلًا: «أسمعك يا سيدي.»

ثم واصل جاي كلامه قائلًا: «لا أريد من ماركنمور سوى شيءٍ واحد فقط، وأريده الآن.» وأضاف قائلًا وهو يُخرِج مفتاحًا صغيرًا: «هاري، تعرف غرفتي القديمة؟ اصعد راكضًا إلى هناك، وافتح الدُّرج الأيمن للمكتب الموجود في رُكنها، واجلُب لي حافظةَ جيبٍ جِلدية خضراء ستجدها هناك، هذا ما أريده. فتًى مطيع!» نظر إلى فالنسيا حين أخذ هاري المفتاح وذهب، فرآها تُحدِّق بشدَّة إلى يدِه اليُمنى. فسألها بضحكةٍ خفيفة: «حسنًا!» وأردف قائلًا: «إلامَ تنظرين؟»

ظلَّت فالنسيا صامتة للحظة. ثم تكلمت فجأة.

أجابت قائلة: «أنظر إلى هذا الخاتم الغريب الذي ترتديه حول إصبعك الوسطى.»

الفصل الثالث

فجْر رمادي

كان براكسفيلد في هذه الأثناء يُراقب جاي ماركنمور بنظراتٍ فضولية من مكانه المُنزوي في الخلفية، ورآه ينتفض انتفاضةً طفيفة حين لَمَّحَت فالنسيا هذا التلميح المباشر. وتَلَت هذه الانتفاضة ضحكةٌ لم تكن عفوية إطلاقًا.

قال جاي: «حسنًا.» وأضاف: «ما خطْب الخاتم؟ إنه مجرد خاتم.»

قالت فالنسيا: «بالضبط، إنه خاتم. لكنه خاتم غريب. وأنا أعرف شخصًا ما لديه نُسخة طبق الأصل منه.»

سألها جاي: «مَن؟»

أجابت فالنسيا قائلة: «السيدة تريزيرو. إنها ترتديه دائمًا. كنتُ أظنها اشترته من الهند. لكن خاتمك مُماثل له بالضبط. يا للعجَب! من الغريب أن يكون لديكما خاتمان مُتماثلان بالضبط هكذا.»

فقال جاي: «إذن، فالسيدة تريزيرو تأتي إلى هنا!»

أجابت فالنسيا: «بالتأكيد! لقد كنَّا جميعًا نعرفها قبل زَواجها. وبقدْر ما أتذكَّر، عادةً ما كنتما تقضيان معًا أوقاتًا طويلة.»

تثاءب جاي، لكن أُخته رأت أنَّ هذا التثاؤب كان مُصطنعًا.

ثم قال محاولًا أن يُبدي لا مُبالاته: «لقد نسيتُ كل شيءٍ تقريبًا عن هذه الأيام.» وأردف قائلًا: «لقد مضى وقتٌ طويل، وصرتُ مُنشغلًا بأشياءَ أخرى منذ أن رحلتُ عن هنا.»

استدارت فالنسيا ونظرَت إلى براكسفيلد.

ثم قالت له بنظرةٍ ذات مغزًى: «انظر ما إذا كانوا يُريدون شيئًا في الطابق العلوي يا براكسفيلد. يُمكنك أن تجلس مع السير أنطوني قليلًا، وتختلق عُذرًا ما يُبرِّر غيابنا إذا أراد أيًّا منَّا.»

فَهِم براكسفيلد التلميح وغادر، ثم استدارت فالنسيا إلى أخيها.

قالت وهي تُناديه باسمه للمرة الأولى: «جاي، أعتذرُ منك إذا كنتُ قد بدوتُ فظةً قبل قليل. لكن ... لكنك لم تُعامِلنا معاملةً حسنة، أو لطيفة. وأريد أن أعرف لماذا لم تأتِ إلى هنا من قبل، كل هذا الوقت، ولماذا غادرتَ أصلًا. ألا تستطيع إخباري؟»

كان جاي يَميل في البداية إلى التململُ وعدم التجاوب تحت وطأة أسئلة الفتاة، لكنَّ نبرتها كانت تحمِل قدرًا من الجدية الصادقة المُلِحَّة التي جعلته يُغيِّر رأيه ويُفكر في الأمر. فرمى سيجارَه وقام من كرسيه وحشر يديه في جيبيه، ثم بدأ يسير جَيئةً وذهابًا في الغرفة وقد بدا مُنهمكًا في تفكيرٍ عميق بوضوح.

ثم قال أخيرًا: «قد أُخبِرك يومًا ما. ربما سأفعل لاحقًا، بعد التفكير مَليًّا في الأمر.»

فصاحت فالنسيا مُتعجبة: «هذه المرة الثانية التي أسمع فيها هذه الإجابة على ذاك السؤال نفسه الليلة!» وأردفت قائلة: «وبالكلمات نفسها تقريبًا!»

توقَّف جاي فجأةً عن جولاته عبر الغرفة وحدَّق إليها.

وسألها فجأة: «مِمَّن كانت الإجابة الأولى؟»

أجابت فالنسيا: «هاربورو. فقد عاد أيضًا. وكان هنا هذا المساء. لقد عرفتُ أنكما كنتما صديقَين في الماضي. وسألته عمَّا إذا كان يعرف سبب رحيلك. فأجاب نفس الإجابة التي ذكرتُها بالضبط.»

سألها جاي بصوتٍ أشبهَ تمامًا بالزمجرة، قائلًا: «حسنًا! حسنًا وماذا إذن؟»

قالت فالنسيا: «أظنه يعرف.»

بدأ جاي يجول عبر الغرفة مرة أخرى. وقطع عدة أشواطٍ قبل أن يتكلَّم.

وأخيرًا قال: «سأُسدي إليكِ نصيحةً بشأن جون هاربورو. إنه يُصبحُ ذا مزاجٍ شرس مُفعم بالغضب والكراهية في ظروف مُعينة. لذا خُذي حذرك. وإلا ...»

سألته فالنسيا: «وإلا ماذا؟»

فاختتم جاي عبارته قائلًا: «وإلَّا فليس لديَّ ما أقوله في حقِّه. والآن، يكفي هذا! لم آتِ إلى هنا لأُستجوَب. لقد أخبرتكِ أنتِ وهاري بسبب مجيئي، وأنوي أن أُعاملكما بإحسانٍ

وإنصاف حسبما قلت. لذا لا تكترثي أبدًا بسبب رحيلي عن ماركنمور، ولا سبب بقائي بعيدًا.»

فألَحَّت عليه فالنسيا قائلة: «ولكن ليتك تُخبرني بشيءٍ واحد فقط. هل لذلك أي علاقة بفيرونيكا لايتون، كما كانت تُدعى آنذاك؟ أقصد السيدة تريزيرو؟»

ردَّ جاي بإجابة قاطعة قائلًا: «لن أُخبرك بأي شيء. فهذا ليس من شأنك ولا من شأن أي أحد الآن. لقد بدأتُ طريقي الخاص حين رحلتُ عن هنا، وانتهى الأمر بالنسبة إليَّ. لن أقرب هذا المكان مرةً أخرى أبدًا بعدما أُغادره الليلة، ومن الآن فصاعدًا، فهو مِلكُكِ ومِلك هاري. وحين أعود من أمريكا، يُمكنكما المجيء وزيارتي في لندن، متى شئتما وكلَّما شئتما. لكنَّ عزبة ماركنمور لن تراني مرة أُخرى؛ فأنا أكرهها!»

سألَتْه فالنسيا: «وماذا عن أبيك؟»

هزَّ جاي رأسه وهو ما زال يسير جَيئةً وذهابًا في الغرفة.

ثم أجاب قائلًا: «كنتِ أصغرَ من أن تُدركي حقائقَ الأمور. لكنِّي أنا وأبي لم نكن على وفاقٍ قط … لم نكن على وفاقٍ قطُّ منذ البداية. لم يكن يُعاملني جيدًا قط، وساءت معاملته بعدما تزوَّج أمَّك. ولولاها، لهربتُ من ذلك وأنا ما زلتُ صبيًّا. لكن أمَّك كانت امرأةً طيبة؛ إذ أحسنت مُعاملتي حتى وقت وفاتها، حين كنتِ أنتِ وهاري طفلَين. وسببُ تنازُلي لكما عن ماركنمور الآن هو أنِّي ما زلتُ أتذكَّرها وأتذكر طِيبتها.»

قالت فالنسيا: «شكرًا لك.» وأضافت: «سنظلُّ نتذكَّر ذلك. ولكن يا جاي … أبوك على مشارف الموت. ألن تراه؟»

أجاب جاي بحِدَّة قائلًا: «كلَّا!» وأردف قائلًا: «كلَّا! فأنا في عِداد الموتى في نظرِه، وما جدوى إزعاجِ رجُلٍ يحتضر؟ دَعِي الأمور على حالها يا فالنسيا؛ فكما قلتُ لكِ الآن، لعلَّك ستعرفين وتفهمين مزيدًا من الأشياء لاحقًا. أمَّا في الوقت الحالي …»

فُتِح الباب في هذه اللحظة بالضبط، وعاد هاري إلى الغرفة. كان حاملًا في يُمناه شمعة مُشتعلة، وفي يُسراه حافظة الجيب التي أرسله أخوه لإحضارها، وكانت قديمة الطراز ومصنوعةً من جِلدٍ أخضرَ باهت. فتمتم جاي بكلمة شُكر، وأخذ الحافظة والشمعة منه، ثم سار عبر الغرفة إلى أقصى جوانبها، ووضع الشمعة على خِزانةٍ كبيرة من خشب البلُّوط، وعلى ضوئها، بدأ يفحص حافظة الجيب بينما كان هاري وفالنسيا يُراقبانه. لم يستغرق الفحص كثيرًا؛ فبعدما ألقى جاي نظرةً خاطفة على بعض الأوراق التي أخرجها من الحافظة القديمة، نقل بعضًا منها إلى محفظة نقودٍ أخرَجها من جيب بِنطاله الخلفي،

ثم ضمَّ المحفظة وحافظة الجيب معًا، ووضعهما في الجيب الذي كان قد أخرج منه المحفظة. وبعدئذٍ أطفأ الشمعة والتفت إلى أخيه وأُخته.

قال بلا مُبالاة: «ما كنتُ أريده هو بعض الأوراق القديمة. ليس فيها شيء مُهم، لكنِّي أردت الاحتفاظ بها.» ثم جلس مرةً أخرى وأشعل سيجارًا آخر. وتابع قائلًا: «والآن، لأنني لا أملك الكثير من الوقت، فلنتحدَّث عن العمل والأمور المالية فحسْب. أخبِرني يا هاري عن كيفية سير الأمور بالضبط فيما يتعلق بالأملاك؛ أي كيف تُديرها وما إلى ذلك.»

ظلَّت فالنسيا طوال نصف الساعة التالية تُنصت إلى الرجلين وهما يناقشان مسائل الإيجار والإصلاحات والدخل والنفقات، وأدركَتْ أنَّ جاي، بغض النظر عما قد يكون به من صفاتٍ أُخرى، رجل أعمال فطِن، وأدركت أيضًا أنَّه كان حريصًا بكل صدقٍ على إسداء النصح السديد إلى هاري بشأن إدارته لأملاك ماركنمور في المُستقبل. وأخيرًا، أخرج بطاقة وسلَّمَها إلى أخيه الأصغر.

وقال: «هنا عنوان مَقر عملي في لندن، ويُوجَد على ظهرها عنوان في نيويورك تستطيع أن تبعث بالرسائل إليه في أي وقتٍ طوال الأشهر الاثني عشر القادمة. سأنتظر منك أن تُطلعني على كيفية سَير الأمور ... كل الأمور. والآن، يجب أن أرحل.»

هبَّ واقفًا على قدَمَيه واتَّجه إلى قُبعته ومعطفه. وألقت فالنسيا نظرةً خاطفة على الساعة.

وسألته: «ولكن لماذا يجب أن ترحل الآن؟» واستطردَتْ قائلة: «لقد قلتَ إنك تعتزم ركوب قطار الصباح الباكر من ميتبورن، أليس كذلك؟ وهذا القطار لا ينطلق إلَّا بعد الساعة الرابعة صباحًا. والساعة الآن ما زالت العاشرة والنصف فقط.»

كان جاي قد ارتدى مِعطفه بالفعل. فابتسمَ لنظرة فالنسيا المُتسائلة.

أجاب قائلًا: «بالضبط!» وتابع: «ولكن يجب أن أُقابل شخصًا آخر في الجوار هنا، بشأن بعض الأعمال. إنه مَوعد، أتفهمين؟ أي مُتفق عليه سلَفًا. لذا يجب أن أرحل وإلَّا سأتأخَّر عليه.»

فاعترضَتْ فالنسيا قائلة: «ولكن ... كان يجب أن تتناول عشاءً أو أي شيء.»

ردَّ جاي: «سيكون العشاء جاهزًا في المكان الذي سأذهب إليه. ارتاحا ولا تشغلا نفسيكما! استدعِيا براكسفيلد إلى الأسفل؛ فهو رجل عجوز طيب، ويجب أن أُودِّعه.»

وبعد ذلك بخمس دقائق، كان قد ودَّع الثلاثة، وأخرجه براكسفيلد من الباب الذي دخل منه. عاد كبير الخدَم العجوز إلى حجرته ليجد سيِّدتَه الشابة واقفة بجوار النيران، ومنهمكة في تفكيرٍ عميق كما بدا واضحًا عليها. رفعت ناظرَيها نحوه حين دخل.

وسألته: «براكسفيلد، في أي طريق ذهب السيد جاي؟»

فأجاب براكسفيلد: «نحو القرية يا آنسة. انعطف عبر الشجيرات.»

كان براكسفيلد من صنف الرجال الذي يَعتبِرُ كل الناس مَحلَّ ثقة. ولم تجد فالنسيا سببًا يجعلها تُخفي عنه ما يجول في خاطرها.

فأضافت قائلة: «لقد قال إنه مُرتبط بمَوعد عمل مع شخصٍ ما في الجوار. فمن عساه يكون هذا الشخص يا براكسفيلد؟»

أجاب كبير الخدم قائلًا: «لا أستطيع القول يا آنسة. لكنَّ السيد جاي كان يعرف أناسًا كثيرين في هذه المنطقة في الأيام الخوالي.»

قالت فالنسيا: «ولكن في هذا الوقت المتأخِّر من الليل!» وأردفت قائلة: «وفوق ذلك، فمَن قد يكون موجودًا أصلًا في أيِّ مكان قريب من هنا؟ أعني مِن الأشخاص الذين قد يريد لقاءهم؟ فلا يُوجَد سوى مزارعَين أو ثلاثة وقس الأبرشية.»

فقال براكسفيلد: «لقد ذكَر في كلامه معي نزل سيبتر إن يا آنسة، وذكره بطريقةٍ جعلتني أتساءل عمَّا إذا كان يعتزم زيارته. ولكن ...»

وهنا قُوطِع براكسفيلد وهو يشرع في قولِ ما كان سيقوله برنينٍ خفيض من جرسٍ جُذِبَ بمنتهى الرفق. ففغرت عينه هو وفالنسيا عند سماعه ونظر كلٌّ منهما إلى الآخر.

صاحت فالنسيا قائلة: «لا بد أنه قد عاد مرةً أخرى!»

قال براكسفيلد: «لا يا آنسة. فالسيد جاي كان سيأتي إلى مدخل الحديقة؛ فهذا دأبه دائمًا. هذا جرس بابنا الأمامي.»

أخذ مِشكاةً قديمة الطراز وهو يتكلَّم، ثم أشعل شمعتها وخرج. وتبعته فالنسيا. كان الظلام يسود الرواق والصالة الكبيرة، وأحدث دوران المفتاح وسحب المتاريس صوتًا حادًّا مُزعجًا في السكون الذي كان قد خيَّم على المنزل القديم منذ وقتٍ طويل. وحين فتح براكسفيلد الباب، بدا الليل في الخارج حالكَ السواد، ورأَيا في ضوء المشكاة امرأةً مُتشحة بعباءةٍ ومُلفَّعة بحجاب على الدرجات الواقعة أسفلَ الرواق. ولكن بالرغم من هذه الدُّثُر، عرفت فالنسيا هوية الزائرة.

صاحت مُتعجبة: «السيدة تريزيرو!»

ردَّت السيدة تريزيرو بضحكةٍ خفيضة تحمِل انفعالًا ممزوجًا بالتوتُّر. ثم دخلت المنزل وتجاوزت براكسفيلد ووضعت يدًا على ذراع فالنسيا ودفعتْها برفقٍ إلى نهاية الصالة، التي كان بصيصٌ خافت من الضوء يتسلَّل إليها من باب حجرة براكسفيلد المفتوح.

وقالت لها هامسة: «صه!» وأضافت قائلة: «أريد أن أُحادِثك على انفرادٍ يا فالنسيا. أخبري كبير الخدَم بأن ينتظِر هناك؛ فأنا سأعود مُجددًا في غضون دقيقة.»

فقالت فالنسيا: «ابقَ هناك يا براكسفيلد. فالسيدة تريزيرو ستحتاج إلى الخروج بعد قليل.» ثم أضافت وهي تتَّجِه إلى الحجرة المُضاءة: «تعالَي معي. ما الخطْب؟»

سارت السيدة تريزيرو وراء الفتاة إلى داخل حجرة كبير الخدم، وواربت الباب، وألقت حجابها وعباءتها الثقيلة إلى الوراء. وبالرغم من دهشة فالنسيا، لم تستطِع منع نفسها من التحديق إليها بإعجاب. فقد كانت السيدة تريزيرو ترتدي أرقى ثيابها ومُتعلقاتها، فكان جسدها مكسوًّا بفستان سهرةٍ لم ترَ فالنسيا مثيلًا له من قبل، وكان الألماس يُزيِّن شعرها الكستنائي ومُقدمة رقبتها البيضاء، فيما كانت عيناها البنفسجيتان مُفعمتَين بالإثارة، وكانت شفتاها القرمزيتان مُفترقتَين قليلًا، وأدركت فالنسيا أنَّ هذه المرأة أجمل بكثيرٍ ممَّا كانت تظنُّها. وبدأت للمرة الأولى تدرك أيضًا أنها كانت امرأةً خطرة.

نظرت العينان البنفسجيتان بحدَّة إلى أرجاء الغرفة ثم استقرَّتا على وجه الفتاة. وبدا فيهما سؤال كرَّرَته شفتاها.

«أخوكِ جاي؟ أهو هنا؟»

أجابت فالنسيا: «لا.» وأردفت قائلة: «ليس هنا.»

فقطَّبت السيدة تريزيرو حاجبَيها الجميلَين في عبوسٍ مُتحيِّر.

وقالت بشيءٍ من الانفعال الغاضب: «لكنَّ بيرتون، الحُوذي الذي يعمل لديَّ قال لي إنه رآه آتيًا إلى هنا مساء اليوم!» وأضافت: «من المؤكَّد أنه هنا!»

ردَّت فالنسيا بحدَّة، قائلة: «ليس هنا. كان هنا ورحَل.»

«رحل؟ إلى أين؟»

قالت فالنسيا: «لا أعرف. ماذا تُريدين؟»

ضحكت السيدة تريزيرو، ولفَّت عباءتها وحجابها حولَها وهي تضحك.

ثم أجابت بنبرةٍ مُتحدِّية: «أردتُ رؤيته مُجددًا بالطبع. لمَ لا؟ ومع ذلك، أظنه سيأتي لزيارتي غدًا.»

فقالت فالنسيا: «لا!» وأضافت: «لقد رحل. عاد إلى لندن.»

قالت السيدة تريزيرو: «لا يُغادر أيُّ قطار إلى لندن في هذا الوقت من الليل يا طفلتي.» وضحكت بقليلٍ من الخبث. ثم تحوَّلت نبرة صوتها إلى نبرةٍ تنمُّ عن أنها أدركت شيئًا ما فجأة. فصاحت قائلة: «آه!» وأردفت: «فهمت! من المؤكد أنَّه ذهب ليزورَني الآن! لقد اشتقتُ إليه. وداعًا يا فالنسيا، وآسفة لإزعاجك.»

خرجَت من الغرفة وركضت عبر الرواق والصالة قبل أن تستطيع فالنسيا الرد، وبعد ذلك بلحظةٍ أُغلِق الباب الأمامي خلفها. وعاد براكسفيلد.

سأل قائلًا: «هل تُريدين منِّي أن أفعل أيَّ شيءٍ في الطابق العلوي يا آنسة؟» وأضاف: «وماذا عن المُمرِّضة؟ هل ستكون بحاجة إلى شيء طوال الليل؟»

قالت فالنسيا: «لا شيء على ما أعتقد يا براكسفيلد، شكرًا لك.» كانت تُغادر الغرفة حينئذٍ، لكنها توقَّفَت فجأة، وتردَّدَت وعادت إلى كبير الخدم. ثم أردفت بنظرةٍ ثقة: «براكسفيلد، أنت رفيق لأُسرتنا منذ فترةٍ طويلة، أليس كذلك؟»

أجاب براكسفيلد: «مُعظم حياتي يا آنسة. عملت خادم استقبال عشر سنوات، ثم كبيرًا للخدم طوال ثلاثين عامًا.»

قالت فالنسيا: «وتعرف الكثير من شئوننا. ومن المؤكَّد أنك تعرف أكثر ممَّا أعرف. لذا أودُّ أن تُخبرني بشيءٍ ما. هل نشأت أي علاقة غرامية بين أخي جاي والسيدة تريزيرو، حين كانت الآنسة لايتون؟ أريد أن أعرف يا براكسفيلد.»

تردَّد براكسفيلد هو الآخر. وضحك ضحكةً ممزوجة بقليل من التوتُّر؛ ضحكةَ رجلٍ توَّاق إلى الانغماس في ذكريات الأيام الخوالي.

ثم قال أخيرًا: «حسنًا، كما تعلمين يا آنسة، فأيُّ رجل في مثل مَوقعي يسمع ويرى الكثير بالطبع. كانت الآنسة لايتون — كما كانت تُدعى آنذاك أو السيدة تريزيرو، كما تُدعى الآن — حسناء للغاية، وبالطبع كان الكثيرون يتودَّدون إليها ويسعَون وراءها. كان الناس يتناقلون أحاديثَ عنها هي والسيد جاي؛ إذ كانا يقضِيان أوقاتًا طويلة معًا يصطادان ويتسابقان بالخيل وما إلى ذلك. ولكن حينئذٍ، كان ثمَّة آخرون يتودَّدون إليها.»

سألته فالنسيا: «ومَن هؤلاء الآخرون؟»

تابع براكسفيلد: «حسنًا يا آنسة، كان من بينهم السيد هاربورو، الذي جاء إلى هنا الليلة. كان يبدو شديد الهيام بها في وقتٍ من الأوقات، كُنتِ بعيدة في مدرستك آنذاك يا آنسة، وإلَّا كنتِ ستتذكَّرين ذلك. نعم، كان السيد هاربورو من بينهم، وفي الحقيقة،

عادةً ما كان الناس يتساءلون عمَّن سيظفر بها: السيد جاي أم السيد هاربورو. صحيح أنَّ آخرين كانوا يتودَّدون إليها — وكثير ما هم — لكنَّ هذين الاثنين كانا ما يُمكن أن تُسميهما المُرشَّحَيْن الأول والثاني الأوفر حظًّا، حسبما بدا.»

سألته فالنسيا: «ولماذا لم تتزوَّج أحدهما إذن؟» وأردفت قائلة: «هل تعرف يا براكسفيلد؟»

«كلَّا يا آنسة، لا، لا أعرف شيئًا عن هذه المسألة. كل ما أعرفه أنَّ كِلا الشابَّين ترك هذه المنطقة فجأةً ودون سابق إنذار. فرحل السيد جاي — بغتةً في الواقع — ولم نسمع عنه شيئًا قبل الآن. ثم رحل السيد جون هاربورو أيضًا؛ إذ سافر مُتنقلًا بين بلدانٍ أجنبية. ولم يمُر وقت طويل — لم يبلغ أسبوعين حسب ما أظن — حتى أُعلِنَ عن زواجٍ الآنسة لايتون من الكولونيل تريزيرو. كان قائد كتيبته العسكرية في ثكنات سيلكاستر باراكس، يا آنسة. ما زلتُ أتذكره جيدًا جدًّا؛ كان رجلًا أحمر الوجه.»

تساءلت فالنسيا: «أكان أكبر منها سِنًّا؟»

«كان كبيرًا بما يكفي ليكون أباها يا آنسة. لكنه كان فاحِش الثراء. وسرعان ما تزوَّجا هنا في كنيستنا، وبعد ذلك بوقتٍ قصير، صدرت أوامر بإرسال الكتيبة إلى الهند، وبالطبع ذهبت مع زوجها.» ثم أضاف براكسفيلد ناظرًا إلى سيدته الشابة على استحياء: «أليس غريبًا يا آنسة أنَّ هؤلاء الأشخاص الذين كانوا يعرفون بعضهم جيدًا في الأيام الخوالي — أقصد السيدة تريزيرو والسيدان جاي وهاربورو — كلهم قد عاودوا الظهور هنا في الوقت نفسه تقريبًا؟ هذا ما يُسمُّونه مصادفة، وإن كانت السيدة تريزيرو قد عادت منذ حوالي شهر بالطبع. لكن مَجيء هذين الاثنين الآخرين إلى هنا الليلة، هذا يُدهشني نوعًا ما.»

قالت فالنسيا: «أظنها كانت مجرَّد مُصادفة.»

ثم تمنَّت للعجوز ليلةً طيبة وتركته وصعدت إلى الطابق العلوي. وهناك التقت هاري عند باب غرفة أبيها. فقال لها إنَّ السير أنطوني قد نام نومًا خفيفًا، وإنَّ المُمرِّضة معه، ولا شيء ليفعلانه. فاتجها إلى غرفتَيهما.

قال لها هاري هامسًا وهما يمشيان في الرواق: «مَن جاء إلى الباب الأمامي؟»

أجابت فالنسيا: «السيدة تريزيرو.»

«السيدة تريزيرو! في هذا الوقت؟ ماذا كانت تريد؟»

«جاي!»

«جاي؟ ومَن أخبرها بأنه كان هنا؟»

«رآه الحُوذي الذي يعمل لديها آتيًا إلى هنا.»

فسألها هاري بعد سكوتٍ لحظي: «حسنًا.» وأضاف: «وماذا بعد؟»

«أخبرتُها بأنه رحل. فذهبَت. بل ذهبَت على عجلٍ أيضًا. هاري!»

«ماذا؟»

«يُخبرني حدسي بأنَّ ثمة شيئًا مُستترًا وراء ظهور هؤلاء الأشخاص مرةً أخرى فجأة. لا أعرف ماهيته، ولكن يُوجَد شيءٌ ما. لقد كانت السيدة تريزيرو في أشدِّ اللهفة لرؤية جاي! وأنا لا أثق بها. فهي ... أوه، لا أعرف ما هي! لا تهتم، لنخلد إلى فراشَينا.»

ذهبت فالنسيا إلى فراشها، لكنها ظلَّت مُستيقظة وقتًا طويلًا حتى استطاعت النوم، وحين نامت أخيرًا، كان نومُها خفيفًا ومُضطربًا. واستيقظت فجأةً في النهاية، كان الفجر الرمادي يشق ظلام السماء، وسمعت عبر نوافذها المفتوحة نعيق البوم — الذي كان مُخيفًا وباعثًا على التشاؤم — في الغابة الواقعة وراء المُتنزَّه. دفعها شيءٌ ما إلى النهوض من فراشها ورفع ستارتها والنظر من خلال النافذة. كانت غرفتها تواجِه الشرق، وبعيدًا عبر المُتنزَّه وسلسلة التلال المُنخفضة الواقعة خلف حافة الغابة الشجرية القديمة التي كانت تُحيط بها، لاح في الأفق حزام عريض من الاحمرار كان يتَّسِع رويدًا. وكانت العصافير المُغردة وطيور الشحرور تُغرِّد بالفعل وسط الشجيرات، وكان أحد طيور القُبَّرة يحلِّق إلى السماء من مرج المنزل.

وفي مكانٍ ما في المزارع المُجاورة، دوَّت طلقة نارية فجأة، وتردَّدت أصداؤها عاليًا من الغابة الكثيفة. وبينما كانت فالنسيا تتساءل عن السبب الذي جعل حارس الطيور والحيوانات البرية الوحيد لديهم يخرُج في هذا الوقت الباكر للغاية من الصباح، سمعت طرقةً على بابها، ثم فُتِح الباب ودخل هاري. وبنظرةٍ واحدة إلى وجهه، علِمَت فالنسيا ماهية الخبر الذي أتى به. فهُرعت نحوَه بسؤال في عينَيها. فحنى هاري رأسه مُجيبًا على سؤالها.

وهمس قائلًا: «في أثناء نومِه.»

الفصل الرابع

ماركنمور هولو

على بُعد حوالي نصف ميل جهة الشمال الشرقي من ماركنمور كورت، الذي كان مُحاطًا من أحد جانبيه بممرٍّ ضيق عميق يمتدُّ من طريق القرية الرئيسي إلى الروابي المُتموجة التي كانت بعض أجزائها بارزةً فوقه، ومُحاطًا من خلفه بالأشجار والشجيرات التي كانت تقع بين سفح تلك الروابي والسهول المُستوية الواقعة تحتها، كان يُوجَد بيت قديم صغير مريح خلَّاب يُدعى «ذا وارن». كان البارونيت الخامس، السير جيفري ماركنمور، هو مَن شيَّد هذا البيت في منتصف القرن الثامن عشر مَسكنًا لمُديره المالي آنذاك، ثم تعاقب على سُكناه مديرون ماليُّون آخرون حتى السنوات الأخيرة، حين نُقِلوا إلى بيتٍ أقلَّ شأنًا وأنسب لهم في وسط القرية. ومنذ ذلك الحين، صار ذا وارن يؤجَّر لسكانٍ مُستأجِرين؛ فمَوقعه وإطلالته الرائعة على الحديقة والمروج والبحر جعلاه مرغوبًا لدى أيٍّ من ذوي الذوق الرفيع. كان ساكنه آنذاك هو السيد صمويل فرانسيمري، الذي كان رجلًا أعزب في مُنتصف عمره وكان يعمل مُحاميًا مُختصًّا في النقض والقضاء العالي، والذي، حالَما وجد ذا وارن معروضًا للإيجار حين كان يقضي إجازةً في هذه المنطقة، سارع فورًا إلى استئجاره بعقدٍ مُدته واحد وعشرون عامًا. فقد كان بالضبط هو المكان الذي كان السيد فرانسيمري يتمنَّاه منذ فترة، ومع أنَّه كان مُحاميًا (من جمعية «ميدل تمبل»)، لم يترافع تقريبًا عن أي شخصٍ أمام القضاء طوال حياته، ولم تكن المُحاماة تستهويه كثيرًا. بل لم يكن مُعتمِدًا عليها بأيِّ حال من الأحوال؛ إذ كان لديه الكثير من الموارد المالية الخاصة التي كانت تمكِّنه من إشباع ميوله الشخصية تمامًا. وقد كانت هذه الميول بسيطة. فكان السيد فرانسيمري يقضي أيامه في جمْع الكتب والتُّحَف العتيقة، وزراعة القليل من الزهور في حدائقه الخلَّابة، والتمشية لمسافات طويلة في الريف. وكان يملك بعض الدراية بعِلم

النبات، وبعض الدراية بعِلم الجيولوجيا، وفي ظلِّ انشغاله بكل هذه الأنشطة الكثيرة، كان يقضي وقته باستمتاع وهدوء.

كان السيد فرانسيمري يبدو من مظهره الخارجي رجلًا قصيرًا مرحًا. فقد كانت قامته أقصر قليلًا من المتوسط وكان جسده مائلًا إلى البدانة، وكالعديد من قصار القامة، كان يمشي مُنتصبًا بشدة، وكان فخورًا بأنَّه كان مُستقيم الظَّهر ومنتصب الكتفَين وهو في الخمسين من عمره كما لو كان في الخامسة والعشرين. كان وجهه الحليق دائريًّا وورديًّا، وكانت عيناه تلمعان خلف نظارته الكبيرة المُرصَّعة بالذهب، وكانت له أسنان جميلة وشعر كثيف بُني فاتح، وكان مُفرِطًا في الاهتمام بتفاصيل مظهره الشخصي؛ لذا كان أهل القرية يقولون عنه إنَّه دائمًا ما كان يبدو كما لو أنه قد خرج للتوِّ من صندوق القُبعات، قاصدين بذلك أنه كان نظيفًا وأنيقًا للغاية. بل كان لدى السيد فرانسيمري طابع من الشباب الأبدي وريعان النضارة السرمدي؛ إذ بدا أنَّ كل ربيع يمرُّ عليه كان يجده أصغر سِنًّا من الربيع السابق. وكان الناس يُمازحونه حول سبب شبابه الظاهري الدائم، وإذا كلَّف نفسه عناء تفسيره، كان يفعل ذلك بتكرار جدِّي رصين للمقولة المأثورة: «النوم مُبكرًا والاستيقاظ مبكرًا يجعل الرجل مُعافًى وثريًّا وحكيمًا.» فالسيد فرانسيمري، منذ وصوله إلى «ذا وارن» وبدئه حياةً ريفية حقيقية، دائمًا ما كان ينام في التاسعة والنصف ليلًا ويستيقظ مع طائر الفجر المُغرد.

وقد استيقظ مع طائر الفجر المُغرِّد في صباح هذا اليوم بالتحديد، وفي الواقع، كان يستيقظ في اللحظة نفسها التي كان فيها هاري ماركنمور، على بُعد نصف ميلٍ في ماركنمور كورت، يخبر أخته فالنسيا في هدوء بأن أباهما قد مات في أثناء نومه. بالطبع لم يكن السيد فرانسيمري يعرف شيئًا عن ذلك؛ إذ لم يكن فِكره مُنشغلًا بالموت بل بالحياة. رفع هو الآخر ستارة نافذته ورأى الفجر الأحمر وسَمِع العصافير المُغردة وطيور الشحرور في المزارع المجاورة، واشتمَّ رائحة تيارات المدِّ الأعلى، وشعر برغبةٍ شديدة في الخروج والتمشية في الهواء الطلق. كان من دأبه أن يخرج في نزهةٍ طويلة سيرًا كل صباحٍ قبل تناول فطوره في الساعة التاسعة، وكان ينوي المواظبة على هذه العادة في صباح هذا اليوم. ولكن كان عليه إنجاز بعض الأشياء أولًا. فلم يكن خَدَمه يستيقظون قَطُّ قبل الساعة السادسة؛ لذا كان السيد فرانسيمري يلبي بعض احتياجاته بنفسه. كان رجلًا كثير الاعتماد على الأجهزة المُوفِّرة للجهد البشري؛ إذ كان الماء الساخن متوفرًا في بيته طوال الليل والنهار في كل غرفة من غرف النوم. ومن ثَمَّ، كان السيد فرانسيمري يستطيع

الحصول على مياه الاستحمام ومياه الحلاقة بمُجرَّد أن يلف صنبورًا، وكان لديه أيضًا موقد مُسجَّل ببراءة اختراع في غرفة نومه، كان يُعِدُّ عليه الشاي أو القهوة في بضع دقائق. لذا ففي هذه الأثناء من الصباح، وقبل وقتٍ طويل من استيقاظ مُدبرة منزله وخادمة الاستقبال وخادمة النظافة والأعمال المنزلية الأخرى، كان يستحمُّ ويحلِق ذقنه ويرتدي ثيابه، ثم كان في الوقت المُحدَّد المعتاد يحتسي قهوته الفاخرة الفوَّاحة ويقضم البسكويت المصنوع من الحبوب الكاملة. وفي تمام الساعة السادسة بالضبط، بعدما ارتدى حلَّته الصوفية الرمادية الأنيقة وانتعل حذاءً متينًا من أحذية الصيد كان قويًّا بما يكفي لمواجهة ندى الصباح الثاقِب النفَّاذ، نزل إلى الطابق السُّفلي، وأخذ من صالته عصا مَشْيٍ مصنوعةً من خشب شجيرات المران، ثم اعتمر قُبعة أنيقة على رأسه، وانطلق عبر الأراضي المُرتفعة الواقعة على الجانب الآخر من «ذا وارن».

أخذته خطواته الأولى إلى خارج مُحيطه المُنمَّق وعَبَر بستانًا صغيرًا مليئًا بمُختلف أنواع أشجار الفاكهة والخضراوات — التي زرعها بنفسه — إلى المَمرِّ الضيق المُمتد من ماركنمور إلى قمة الروابي المُتموِّجة. كان هذا واحدًا من الممرَّات المميزة الخاصة بجنوب إنجلترا، ونادرًا ما كان يُوجَد مثله في أي مكان آخر. فقد كان غائرًا بعمق في الأرض، ومحصورًا بين تبَّتَين مُرتفعتَين يعلوهما سياج شجري عالٍ مثلهما من نباتات الزعرور والبهشية وشجيرات الخمان، وكان جزءٌ كبير من هذا السياج مُتشابكًا مع شجيرات العليق والجولق وزهر العسل. كان سطح الطريق الخشن المليء بالشقوق والأخاديد الضيقة يقَع على مسافةٍ عميقة أسفل هذه النباتات الغزيرة الكثيفة، وعادةً ما كان يُصبِح كتلةً من الطين في الشتاء، ويكتسي بترابٍ عميق يُغطي الكاحِلَين في الصيف. لكنَّ السيد فرانسيمري لم يكن يعتزِم اتباع الزقاق، بل نزل إليه على دَرَج مصنوع من جذوعٍ خشنة غير مُشذَّبة ومغروسة في أحد جانبَيه المُرتفعَين، ثم عَبَر الشقوق الغائرة في قعره، وصعد الجانب الآخر على دَرَج مُماثل. ثم تسلَّق مرقًى هناك، وسار عبر مَمشًى ضيق مُحاط بشجيرات الغار على كِلا جانبيه، فقاده إلى أسيجة حديقةٍ صغيرة حسنة المظهر يقع خلفها كوخ «وودلاند كوتيدج» المريح، الذي كانت تسكنه السيدة براكسفيلد. وهناك، على قطعة أرض صغيرة مكشوفة بجوار الحديقة، رأى السيد فرانسيمري السيدة براكسفيلد نفسها ترمي حُبيبات الذرة لدجاجها.

كان السيد فرانسيمري يعرف السيدة براكسفيلد منذ بضع سنوات. فقد أقام في نزل سيبتر إن مرة أو اثنتَين قبل مجيئه للعيش في «ذا وارن». وكانت السيدة براكسفيلد

آنذاك تُدعى السيدة رين؛ إذ كانت أرملةَ السيد بيتر رين الراحل. كانت امرأةً ذكية نشيطة مُدبرة، وكانت تعرف من أين تُؤكَل الكتف. كان بيتر قد ترك لها أموالًا وطفلةً واحدةً تُدعى بوبي، وكان مظهر بوبي واعدًا منذ نعومة أظفارها بأنها ستكون حسناء للغاية، وقد أوفى بوعدِه. واصلت السيدة رين جني الأموال من نزل سيبتر، وكان الناس يقولون إنها تكنز ثروةً من أجل بوبي؛ وبالطبع نشأت وترعرت بوبي كفتاةٍ راقية، وأُلحِقَت بمدارس داخلية راقية، وما إلى ذلك. وبعدئذٍ، تقاعدت السيدة رين عن العمل فجأة، وأخذت بيت وودلاند كوتيدج، وتزوَّجَت براكسفيلد. لم يعرف أحد قَطُّ سبب هذا الزواج؛ إذ واصل براكسفيلد حياته المُعتادة في ماركنمور كورت، وإذا زار زوجته أصلًا، فكان يزورها ساعةً أو اثنتين فقط بعد الظهر أو في المساء، أو كان يقضي معها عطلات نهاية الأسبوع على فتراتٍ مُتباعدة جدًّا. لكنَّ أهالي الحي كانوا يقولون إنَّ براكسفيلد أيضًا سيتقاعد يومًا ما، حين يموت السير أنطوني على الأرجح، وحينها يعود بكل تأكيد إلى وودلاند كوتيدج وإلى زوجته إلى الأبد.

نظر السيد فرانسيمري باستحسانٍ إلى السيدة براكسفيلد وهو يدنو منها ومن دجاجها. كان معجبًا بها. فنظرًا لكونه رجلًا قصيرًا، كانت عينه بارعة في ملاحظة النساء ذوات الأجسام الكبيرة بعض الشيء. وقد كانت السيدة براكسفيلد امرأةً جميلة قوية ضخمة البنيان في حوالي السابعة والأربعين من عمرها، لكنها كانت تبدو أصغر من ذلك بخمس سنوات، وكانت ذات قوامٍ رائع وشعر ناعم وأسنان جميلة ومُحيًّا زاهٍ، وعينين لَّماحتَين فطِنتَين بُندقيتَي اللَّون، وإن كان فيهما مَسْحة طفيفة من الخبث. ابتسمت إلى السيد فرانسيمري وهو يضع أصابعه على قُبعته الأنيقة المصنوعة من القماش الأسكتلندي المنقوش ذي المُربعات، فبادلها السيد فرانسيمري الابتسامة.

ثم صاح قائلًا: «طاب صباحك يا سيدتي.» وأضاف: «وصباح الكثير منهن أيضًا! آه يا سيدة براكسفيلد، أظننا الشخصَين الوحيدَين العاقلين في هذا الحي. فها نحن مُفعمان بالانتعاش والتورُّد — فضلًا عن أنَّك جميلة كهذا النهار نفسه — ونستمتِع بالهواء النقي وهذه المناظر والأصوات الريفية المُبهجة في حين أنَّ معظم جيراننا يشخرون في أَسرَّتهم، ناسين الدكتور واتس وأنشودته الصغيرة. يا لكِ من امرأةٍ حكيمة يا سيدتي!»

فضحكت السيدة براكسفيلد، كاشفةً عن أسنانها البيضاء ومُحرِّكةً ذقنها ذا النقرة.

ثم ردَّت بتغنُّج جذَّاب، قائلة: «اممم، قد يكون هذا صحيحًا يا سيد فرانسيمري. لكنِّي ربما كنتُ سأرقد شاخرةً في فراشي لو سنحت لي الفرصة، مع أنني لا أشخر أبدًا؛

على حدِّ علمي. إنك تستيقظ باكرًا لأنك تُحب ذلك، أمَّا أنا فأستيقظ باكرًا لأن لديَّ مهامَّ يجب إنجازها. ولو كان لدي ثلاث خادمات نشيطات، كما لديك، لما استيقظتُ في الخامسة صباحًا ولا السادسة حتى، ولقطعت لك وعدًا بذلك؛ لستُ أنا! فأنا في أمسِّ الحاجة إلى نيلِ قِسطٍ أكبر من النوم ممَّا أناله.»

فقال السيد فرانسيمري: «في هذه الحالة يا سيدتي، عليكِ بواحدٍ من خيارَين. إمَّا أن تستأجري خادمةً شابَّةً نشيطة في البيت، أو أن تطلُبي من الآنسة بوبي النهوض وإطعام الدجاج.»

أفرغت السيدة براكسفيلد غربال الذرة وسط الدجاج، واقتربت أكثر من السياج الشجري.

ثم قالت: «أوه حسنًا. بوبي ليست سيئة في النهوض مُبكرًا وأداء نصيبها من الأعمال المنزلية. لكنَّها ليست في المنزل الآن؛ فهي في زيارة لإحدى صديقات الدراسة القديمات؛ لذا أنا وحدي. وأمَّا بخصوص استئجار فتاة خادمة يا سيد فرانسيمري، فأُفضِّل ألَّا أُزعج نفسي بواحدةٍ منهن؛ فمشاكلهن أكثرُ من نفعهن. بالطبع لديَّ امرأة تأتي كل يوم لإنجاز العمل الشاق، أمَّا ما يتبقى، فنتدبَّر أنا وبوبي أمره جيدًا. ولكن لا أعرف كيف سيصير الوضع حين يأتي براكسفيلد للعيش هنا؛ فوجود رجل يُحدِث فارقًا، وأظنُّنا سنُضطرُّ إلى استئجار خادم أو اثنين حين يتقاعد.»

سألها السيد فرانسيمري الذي لم يكن يستطيع مقاومة إغراء الثرثرة عن شئون الآخرين من أهل القرية: «هل يعتزم التقاعُد إذن؟» وأضاف: «لقد اكتفى، أليس كذلك؟»

أجابت السيدة براكسفيلد قائلة: «لن يتقاعد ما دام السير أنطوني حيًّا.»

قال السيد فرانسيمري: «من واقع ما سمعت، فلن ينتظِر طويلًا. فحين ذهبتُ إلى ماركنمور كورت صباح أمس للاستفسار عن حالته، كما أفعل كل يومٍ يا سيدتي، فهمت من الآنسة ماركنمور أنَّ أباها ربما يرحل في أي وقت، حسب كلام الأطباء.»

قالت السيدة براكسفيلد: «إنه رجل هَرِم جدًّا يا سيد فرانسيمري. كان قد ناهز الستين تقريبًا حين تزوَّج للمرة الثانية. ومع ذلك، فسواء ظلَّ على قيد الحياة وقتًا طويلًا أو قصيرًا، سيبقى براكسفيلد معه حتى النهاية.»

فقال السيد فرانسيمري: «براكسفيلد خادم عجوز مُخلِص طيب. حسنًا، لديكِ عشٌّ مريح جدًّا في انتظاره حين يتقاعَد يا سيدتي! يا له من رجل محظوظ! منزل جميل ومُحيط مُبهِج، وأجمل امرأة في جنوب البلاد! أليس كذلك يا سيدتي؟»

قالت السيدة براكسفيلد بضحكةٍ متعمدة: «يا إلهي، يا لك من مُجامِل يا سيد فرانسيمري! عجبًا! ستجعلني أغتر.»

ضحك السيد فرانسيمري أيضًا، ثم ذهب. كان من عادته مُمازحة الآخرين، وكان يستمدُّ من ذلك متعةً جمة؛ إذ كانت ممارسة هذه العادة تجعله في حالة معنوية جيدة. وقد كانت معنوياته مرتفعة في هذه اللحظة، وبدأ يُصفِّر بعدما تخطَّى منزل وودلاند كوتيدج وسار بخطواتٍ نشطة وثَّابة على الروابي المفتوحة الواقعة خلفه. ولكن لم يكد يقطع شوطًا طويلًا عبْر العشب المرن المتراقص حتى توقَّف صفيرُه فجأة. فبعدما انعطف عند أحد أركان سطح الروابي المُتموِّج مجتازًا إيَّاه، وقعت عيناه فجأةً على شيء أوقفه. فعلى بُعد نحو مائة ياردة أمامه، وعلى اليسار قليلًا من المَمشى العريض المُغطَّى بالعُشب المؤدي من منزل ماركنمور كورت إلى قرية ميتبورن، التي كانت تقع على الجانب الآخر من الروابي، كان يُوجد مُنخفَض عميق في الأرض يعرفه أهالي المنطقة باسم ماركنمور هولو. كان هذا المُنخفَض، في الواقع، مَحجر طباشير ذا مساحة هائلة ومهجورًا منذ أمدٍ بعيد، ولكن منذ أن توقَّف استخدامه، قبل نحو مائة عام، تراكمت هناك شجيرات سفلية كثيفة من الجولق والعليق أسفل مجموعة مُتشابكة من أشجار الشوح الأسكتلندي القديم، وصار المكان حينئذٍ قَفرًا خاليًا ومُوحشًا. لكنه لم يكن خاليًا في هذه اللحظة. فقد كان يقف بجوار إحدى أشجار الشوح الأسكتلندي وبالقُرب من كتلة هائلة من نبات الجولق ثلاثة رجال، كان أحدهم شُرطي قرية ماركنمور، وقد عرفه السيد فرانسيمري فورًا من زيِّه الشرطي، فيما كان الثاني حارس الطيور والحيوانات لدى السير أنطوني ماركنمور، وقد عرفه السيد فرانسيمري من معطفه المخملي، أمَّا الثالث فكان عامل مزرعةٍ كثيرًا ما كان السيد فرانسيمري يلتقيه في الصباح حين كان هذا الرجل يعبُر الروابي مُتجهًا إلى عمله في القرية.

ولكن لم تكن رؤية هؤلاء الرجال الثلاثة هي ما جعلت السيد فرانسيمري يتوقَّف فجأة ويوقف صفيره ويلتقِط أنفاسه. فقد كان يألفهم وكانت عيناه تعرفانهم جيدًا. ولكن حين تحركوا، رأى شيئًا مجهولًا راقدًا عند أقدامهم. بدا هذا الشيء كجسد رجُلٍ مُستلقٍ بلا حراك ومُغطًّى بشيء أشبهَ بمعطف أو معطف طويل كان موضوعًا بعناية على الجسد الهامد الذي يُغطيه. وهنا نزل السيد فرانسيمري، الذي حلَّت على ملامحه الجدية وخيَّم عليه صمت تام في ذلك الوقت، إلى المُنخفَض وقد انتابه إحساس مفاجئ لم يعرف ماهيته.

أقبل نحوه شُرطي القرية الذي كان رجلًا ثاقب البصر وكان قد باح للسيد فرانسيمري ذات مرة بأنه يحمِل طموحات وينوي الترقِّي عبر المناصب الشرطية. كان وجهه يُوحي بالكثير، وهزَّ رأسه بإيماءةٍ طفيفة وهو يُحيِّيه بوضع أصابعه على قُبعته الشرطية ذات الحافة الأمامية المُدببة.

سأله السيد فرانسيمري بصوتٍ خفيض: «ما كل هذا؟» وأردف قائلًا: «أتُوجَد مشكلةٌ ما؟»

فأجاب الشرطي قائلًا: «مشكلة جسيمة جدًّا يا سيدي.» ثم دنا منه واستدار مُشيرًا إلى الجسد المُغطَّى. «يرقد هناك رجل ميت يا سيدي. أصِيبَ برصاصة في الرأس! لكني لا أستطيع الجزم بما إذا كانت جريمة قتل أم انتحار يا سيدي. أظنها جريمة قتل على أي حال؛ إذ لا يُوجَد مسدس بالقُرب منه. والرصاصة التي أصابته انطلقت من مسدس.»

صاح السيد فرانسيمري: «يا إلهي!» وأضاف: «وي، ومَن هو؟»

رمقه الشرطي بنظرة حادة.

وردَّ قائلًا: «لم أستطِع معرفة هويته يا سيدي. فأنا أعمل هنا منذ ثلاث سنوات فقط؛ لذا لا أعرفه بالطبع. لكنَّ هذين الرجُلين الآخرين يعرفانه: إنه السيد جاي ماركنمور يا سيدي.»

انتفض السيد فرانسيمري مُرتجفًا.

وصاح قائلًا: «ماذا؟» واستطرد: «الابن الأكبر للسير أنطوني؟ لا تقُل إنك تعني ذلك حقًّا.»

فأجاب الشرطي: «هذا ما يقولانه يا سيدي، وهما يعرفانه جيدًا. لقد عثر عليه ذاك الرجل، المدعو هوبز، عامل الحرث. فركض إلى كوخ الحارس وإليَّ، وأتينا فورًا. لكني قبل مَجيئي اتصلت هاتفيًّا بالسلطات في بلدة سيلكاستر، ومن المُنتظر أن يأتي قائد شرطة المنطقة بنفسه، لقد قالوا إنه خرج آنذاك مُتجهًا إلى هنا، برفقة الطبيب. تعالَ وألقِ نظرة عليه يا سيدي.»

استجمع السيد فرانسيمري شجاعته ليؤدي هذه المهمة الكئيبة، واقترب. فحيَّاه الحارس وعامل المزرعة بلمس قُبعتيهما، وأزاح الشرطي العباءة التي كان العامل قد خلعها عن كتفيه ووضعها على الجثة. وانحنى السيد فرانسيمري فوق الجثة مُتسائلًا عن تفسير كل هذا.

ارتأى أن الرجل ميت تمامًا. وكان يرقد في سلام تام. فكان وجهه هادئًا شاحبًا غير مُبتسم ولا عبوس، وكانت قسماته عادية باستثناء أنَّ حاجبيه المُحدَّدين بدقة كانا مُقطبين قليلًا في تعبيرٍ ينمُّ عن الحيرة بعض الشيء. أمَّا فيما عدا ذلك، فكان ساكنًا تمامًا ...

قال له الشرطي هامسًا: «من المؤكد أنها جريمة قتل يا سيدي، ومن مسافةٍ قريبة. انظر هناك! الجِلد فوق صدغيه مُحترقٌ قليلًا. و...»

قال الحارس فجأة: «ها هم قادمون. رجلان أو ثلاثة منهم.»

نصب السيد فرانسيمري قامته ونظر عبر الروابي. كانت آتيةً نحوهم عربةٌ صغيرة خفيفة بحصانين تسير بسرعةٍ كبيرة على الدرب العُشبي من ناحية بلدة سيلكاستر، التي كانت قمة برج كاتدرائيتها الطويلة باديةً من فوق الغابة الواقعة بين الروابي المُتموجة والمدينة القديمة. وفي وميض الشمس التي كانت تعلو في السماء بسرعة، رأى بريق زيِّ شرطة المقاطعة ذا اللونين الفضي والأزرق، وكما قال الحارس للتو، بدت العربة الخفيفة، التي كان يقودها أحد الشرطيين، مليئة بالرجال. وسرعان ما قطعت العربة الدرب العشبي إلى حافة المنخفض، وقفز منها قائد الشرطة، الذي كان رجلًا عسكريَّ المظهر في منتصف عمره، وتبعه الرجلان الآخران، وكان أحدهما طبيب الشرطة، وبدا جليًّا أنَّ الآخر كان شرطيًّا يرتدي ثيابًا مدنية، وركض الثلاثة مُسرعين إلى الأسفل نحو المجموعة الصغيرة التي كانت واقفةً أسفل أشجار الشوح الأسكتلندي. أومأ قائد الشرطة برأسه للسيد فرانسيمري، الذي كان كلُّ مَن في المنطقة يعرفه، والتفتَ بحِدة إلى شرطي القرية.

وسأله بسرعة: «مَن عثر على هذا الرجل؟»

فتقدَّم عامل الحرث باشمئزاز واضح عليه.

وأجاب قائلًا: «أنا مَن وجدَه يا سيدي.» وأضاف قائلًا: «اسمي جيمس هوبز وأعمل في مزرعة السيد مارو.»

سأله قائد الشرطة: «متى؟ وكيف؟»

فأجاب هوبز: «منذ حوالي ساعة يا سيدي، وربما أكثر قليلًا. إنني أمرُّ بهذا الطريق إلى عملي كل صباح. رأيتُه بينما كنتُ أسير في الأعلى هناك، فنزلت لإلقاء نظرةٍ عليه. ثم أدركتُ أنه ميت؛ لذا غطيته بمعطفي وركضتُ إلى القرية لإبلاغ الشرطي هناك.»

سأله قائد الشرطة: «أكان ميتًا حين وجدته؟»

«استنتجتُ أنه كان ميتًا تمامًا يا سيدي! فقد لمستُ يدَه ووجهه، وكان كلاهما باردًا جدًّا.»

التفت قائد الشرطة إلى طبيب الشرطة الذي تقدَّم وأزاح المعطف عن الجثة. ثم انحنى فوقها وفحصها سريعًا، وبعد ذلك قام وأدلى باستنتاجه.

قال: «إنه ميت منذ مدة تتراوَح بين ساعتين إلى ثلاث ساعات، على حدِّ ظني، وربما أكثر قليلًا. وقد أُردِيَ برصاصةٍ من مسدس على الأرجح.»

سأل القائد شرطي القرية قائلًا: «أوجدتَ أيَّ شيءٍ كهذا؟»

«لا شيء يا سيدي. لقد بحثتُ بعناية في كل أنحاء المكان. لم أجد شيئًا.»

فتمتم قائد الشرطة قائلًا: «إذن، فهي جريمة قتل!» ثم دنا من الرجل الميت وحدَّق إليه بإمعان. وقال ناظرًا إلى الحارس والشرطي: «أظنه السيد جاي ماركنمور، أليس كذلك؟» ثم أضاف: «لم أرَه من قبل، كما تعلمان؛ إذ رحل قبل مجيئي إلى سيلكاستر.»

فقال طبيب الشرطة: «إنه جاي ماركنمور بلا أي شك. كنتُ أعرفه جيدًا. ولم يتغير تقريبًا.» ثم أضاف ناظرًا إلى الحارس: «أنت أيضًا كنتَ تعرفه بالطبع. أظنك تستطيع التعرُّف عليه؟»

فصاح الحارس: «أوه، أعرفه بالطبع يا سيدي. إنه السيد جاي ماركنمور بالتأكيد، إنه هو! أستطيع معرفة هويته حيثما كان، يا له من مسكين!»

نظر قائد الشرطة حوله. واجتذب نظرَه بيت ماركنمور كورت، الذي كان واقعًا بين أشجار الدردار والزان على بُعد ثلاثة أرباع ميل عبر جانب التل المُنحدر. فهزَّ رأسه.

وتمتم قائلًا: «هذا أمر شنيع. مَن عساه يُريد قتله بحق السماء؟ لقد كان مهاجرًا منذ ... منذ سبع سنوات، أليس كذلك؟ حسنًا، يجب نقله، وعلينا إبلاغ الطبيب الشرعي فورًا.» ثم أضاف مُلتفتًا إلى الرجل ذي الثياب المدنية: «بليك، فلتتولَّ مسئولية ذلك. أرسِل إلى القرية طلبًا للمساعدة، وانقل الجثة إلى ماركنمور كورت؛ إذ يُمكن إجراء التحقيق هناك. اجعل هوبز الواقف هناك يُسرِع إلى القرية، وأعِد والشو في العربة الخفيفة إلى سيلكاستر ليُحضِر الشرطي الآخر، ومَشِّط هذا المكان كله بدقَّة متناهية بحثًا عن أي آثار أقدام وما إلى ذلك. وأنت أيها الطبيب، هلَّا تبقى وتنزل معهم إلى ماركنمور كورت حين يكونون مُستعدِّين لنقله؟ فمن المؤكد أنك ستحتاج إلى إجراء فحصٍ أدق. أمَّا الآن، فعلينا نقل الخبر إلى العائلة. سيد فرانسيمري، أظنك تعرفهم كلهم جيدًا، فهلا تأتي معي إلى هناك؟ إنها مهمة مؤلمة، ولكن لا مفرَّ من إنجازها.»

حنى السيد فرانسيمري رأسه، وانطلق مع قائد الشرطة بخطوةٍ سريعة عبر الروابي المُتموجة. ظلَّا لبعض الوقت سائرَين في صمت، كسره قائد الشرطة.

قال: «حسبما فهمت، فالسير أنطوني على وشك الرحيل عن الحياة. وهذا … عجبًا، ما هذا؟»

توقَّف الرجلان، وحدَّق كلاهما إلى الآخر. ثم التفتا فجأة إلى الوادي التفاتةً تنمُّ عن فهْمٍ مشترك. فقد دوَّت رنة جرس عميقة رنَّانة من برج كنيسة ماركنمور، أعقبتها رنة أُخرى بعد لحظة.

تمتم قائد الشرطة قائلًا: «ناقوس الوفاة! إذن مات السير أنطوني ماركنمور!»

الفصل الخامس

متَّهَم

بعدما استمعا رغمًا عنهما لرنين ناقوس الوفاة الرتيب الكئيب، عَبَرا الممر العميق، الذي كان السيد فرانسيمري قد وطِئه قبل ذلك بساعةٍ واحدة فقط بخطواتٍ وثَّابة مفعمًا بالمرح والابتهاج، دون أن يتوقَّع إطلاقًا ما ينتظِره من مأساةٍ وكآبة، وشقَّا طريقهما عبر المُتنزَّه المُنار بضوء الشمس نحو ماركنمور كورت. ظلَّا صامتَين بعض الوقت؛ إذ كان كلاهما منشغلًا بأفكاره الخاصة. لكن قائد الشرطة التفت فجأةً إلى رفيقه.

وقال له: «إذا صحَّ أنَّ السير أنطوني قد مات بالفعل، ولا أشكُّ في ذلك؛ لأنه لا أحد سواه في القرية قد يقرعون له ناقوس الوفاة، فمن الغريب أن يموت هو وابنه الأكبر في الصباح نفسه، يا سيد فرانسيمري! والآن، أظنُّ أنَّ اللقب سيئول إلى السيد هاري ماركنمور بالطبع.»

لكنَّ بال السيد فرانسيمري كان مُنشغلًا بالتفكير في شيءٍ آخر، وهزَّ رأسه.

أجاب كما لو كان مُتشككًا: «ربما.»

قال قائد الشرطة: «نعم.» وأضاف قائلًا: «ولكن لماذا تقول ربما؟ إنه التالي في ترتيب الورثة، أليس كذلك؟»

ردَّ السيد فرانسيمري قائلًا: «حسنًا، لقد قيل لي إن جاي ماركنمور قد غادر بيته منذ سبع سنوات، ولم يزُره قطُّ منذ ذلك الحين، أعرف هذا يقينًا. والآن، من المُرجَّح أن يكون جاي ماركنمور قد تزوَّج في هذه السنوات السبع؛ فهذا أمر وارد، على أي حال. وفي هذه الحالة، إذا كان لديه ابن، فسيئول إليه اللقب والأملاك؛ لأنني عرفتُ مُصادفة أنَّ حق وراثة أملاك ماركنمور مقصور على فرع مُعيَّن من الورثة. وهذا سيتضح عاجلًا أو آجلًا بالتأكيد.»

تمتم قائد الشرطة قائلًا: «بل لا بدَّ أن تتَّضِح أمور كثيرة. لا يراودني مثقال ذرة من الشك في أن جاي ماركنمور قد قُتِل! ولكن لماذا؟! من الواضح أنه عاد إلى بيته القديم — وأظنه قد أتى بعدما استُدعي لرؤية أبيه — وها هو وُجِد مقتولًا في أول الصباح الباكر! سيتطلَّب حل هذا اللغز بعض التفكير. من حُسن الحظ أنَّ ذاك الرجل بليك كان موجودًا في سيلكاستر حين سمعت الخبر، وقد أيقظته من فراشه في فندقه فورًا وأحضرته معي.»

سأله فرانسيمري: «مَن بليك؟»

أجاب قائد الشرطة: «فردٌ من قسم التحقيقات الجنائية. إنه واحد من أذكى الرجال الذين يحظون بهم في نيو سكوتلاند يارد الآن؛ إنه رقيب مُحقِّق بالفعل، ومن المُرجَّح أنه سيعتلي مناصبَ أعلى. لقد جاء إلى سيلكاستر منذ يوم أو اثنين بخصوص قضية احتيال أتعبتْنا بشدة، والآن سأجعله يتركها ويصبُّ اهتمامه على هذه القضية. فحسبما رأيته منه بالفعل، وما سمعته عنه سابقًا، يُمكنني القول إنه يحظى بكل صفات نِمسٍ بشري.»

قال فرانسيمري: «أظنه سيحتاج إلى هذه الصفات. فقضية هذا الصباح بها كل السمات التي تجعل منها لغزًا استثنائيًّا، ويبدو أن مسرح الجريمة خالٍ من أي خيط. لكننا قد نعرف المزيد قريبًا.»

كانا يسيران آنذاك على الطريق الفرعي الخاص المؤدي إلى مُقدمة المنزل، وحين أصبحا في نطاق مائة ياردة من رواق البيت، رأيا رجلًا طويلًا ظَهَر من بين الشجيرات ثم دنا من الباب الأمامي ودخل.

قال السيد فرانسيمري: «أظن أن هذا هو السيد جون هاربورو، الذي يسكن في بيت جرايكلويستر الكبير الواقع على الجانب الآخر من القرية. فقد سمعتُ من مُدبرة منزلي الليلة الماضية أنه قد عاد إلى الديار أخيرًا. لقد رحل لفترةٍ طويلة مثل جاي ماركنمور، بل للفترة نفسها. سبع سنوات، كان يصطاد خلالها الحيوانات البرية الكبيرة ويقنصها في كل أنحاء العالم. لم أقابله من قبل، وأظن أنك أيضًا لم تقابله.»

أجاب قائد الشرطة: «سمعتُ عنه. إنه شريك في شركة «هاربورو، تشيتل آند فيرويذر» المصرفية الكبيرة، أليس كذلك؟»

قال السيد فرانسيمري: «بلى، لكنه شريك خامل. فلم يضطلع قَط بأي دور نشط في الشركة. لقد فهمتُ أنه رجل فاحِش الثراء. حسنًا، ها قد وصلنا، ويا ليتنا جئنا بشأن أيِّ مسألة أخرى غير هذه.»

كان الباب الأمامي لمنزل ماركنمور كورت مفتوحًا، وداخل الصالة الداخلية مباشرة، وجد الوافدان الجديدان الرجل الطويل الذي كانا قد رأياه للتو، ورجلًا عجوزًا ذا مظهر مهني، وبراكسفيلد.

قال قائد الشرطة هامسًا لرفيقه وهما يتقدَّمان دون كُلفة أو رسميَّات: «ها هو تشيلفورد، محامي السير أنطوني، موجود هنا بالفعل. من الأفضل أن نُخبره قبل إبلاغ الفتى والفتاة. ومن حُسن الحظ أنني لا أرى أيًّا منهما.»

حدَّق الرجال الثلاثة الموجودون في الصالة إلى زيِّ قائد الشرطة شبه العسكري بدهشة واضحة، وسرعان ما تقدَّم نحوهما الرجل العجوز على عجل. فرمقه قائد الشرطة بنظرةٍ تحذيرية، واستهل الكلام.

سأله قائلًا: «هل الفتى والفتاة موجودان في أي مكان هنا، يا تشيلفورد؟» وأردف قائلًا: «لا؟ إذن، اجعل براكسفيلد يأخُذنا إلى إحدى الغرف دقيقةً أو اثنتين ... وحدَنا.» وانحنى هامسًا في أُذن المحامي: «لديَّ خبر سيئ.»

حدَّق تشيلفورد كما لو أنَّه عَجَز عن فهم مقصد هذه الرسالة، ثم همس بدَوره في أذن براكسفيلد، ففتح كبير الخدم العجوز بابًا، وقاد المجموعة إلى داخل غرفة خافتة الإضاءة كانت واحدة من الغرف الكثيرة التي نادرًا ما تُستخدَم في ماركنمور كورت. وبينما كان يُغلِق الباب عليهم، استدعاه قائد الشرطة طالبًا منه العودة.

قال له: «لا تذهب يا براكسفيلد. ادخل، وأغلِق الباب. هل أنا مُحق في افتراض أنَّ سيدك العجوز قد مات؟» ثم أضاف مُشيرًا لكبير الخَدَم بالانضمام إليهم: «لقد سمعتُ أنا والسيد فرانسيمري جرس ناقوس الوفاة؛ لذا ظننا ...»

فأجاب براكسفيلد بحُزن: «لقد مات السير أنطوني في أثناء نومه في وقتٍ مُبكر من صباح اليوم يا سيدي. لكنِّي لا أستطيع تحديد الوقت بالضبط.»

تابع قائد الشرطة قائلًا: «حسنًا، أريد أن أسألك سؤالًا أو اثنين يا براكسفيلد. هل كان السيد جاي ماركنمور هنا؟»

«هنا يا سيدي؟ وقت وفاة أبيه؟ كلَّا، كلَّا، لم يكن هنا.»

«هل أتى إلى هنا؟ هل كان هنا أمس؟»

«كان السيد جاي ماركنمور — أو بالأحرى السير جاي كما صار الآن — هنا الليلة الماضية يا سيدي. ظل هنا بعض الوقت، ثم رحل في حوالي العاشرة والنصف يا سيدي.»

«رحل إلى أين؟»

«لا أعرف بالضبط يا سيدي. كان يعتزم زيارةَ شخصٍ ما في الجوار، لكني لا أعرف هوية هذا الشخص. وكان ينوي — أي السير جاي — ركوب قطار الصباح الباكر المُتجه إلى لندن من محطة ميتبورن يا سيدي.»

فنظر قائد الشرطة إلى السيد فرانسيمري.

وهمس له جانبًا قائلًا: «يقع مُنخفَض ماركنمور هولو على جانب مَمشى الروابي المؤدي إلى ميتبورن.» ثم التفت مرةً أخرى إلى كبير الخدم العجوز مُضيفًا: «إذن، فأنت لم ترَه أو تسمع أي شيء عنه منذ أن غادر هذا البيت في العاشرة والنصف يا براكسفيلد؟» وكرَّر سؤاله قائلًا: «ألم تسمع أيَّ شيء؟»

«أنا يا سيدي؟ كلَّا يا سيدي. لم أرَ ولم أسمع.»

وهنا تساءل المحامي فجأة: «ما كل هذا؟» وأضاف: «هل حدث شيءٌ ما؟»

فأجاب قائد الشرطة قائلًا: «من الأفضل أن أخبركما مباشرة.» ثم ألقى نظرة خاطفة على الباب وخفض صوته. وقال: «لا أريد إزعاج الفتى والفتاة. يجب أن تُبلغهما بالخبر السيئ برفقٍ يا تشيلفورد، بصفتك محامي العائلة. الحقيقة أنَّ جثة السيد جاي ماركنمور قد وُجِدت على الروابي في المكان المُسمَّى ماركنمور هولو. إنه ...»

فأطلق براكسفيلد صرخةً حادة. واعتلى الشحوب وجهه الذي عادة ما يكون ورديًّا.

صاح قائلًا: «جثة! إذن فقد ...»

فقال له قائد الشرطة: «على رِسْلك يا صديقي! اهدأ! نعم ... لقد مات ... ويؤسفني القول إنه ... في الحقيقة ... وبكل تأكيد ... قد قُتِل!»

انخرط براكسفيلد في نوبة بكاء. فأمسكه السيد فرانسيمري من ذراعه برفق، وقاده إلى مقعدٍ في أحد التجاويف العميقة في الحائط حيث تُوجَد إحدى النوافذ، وحاول تهدئته. وفي هذه الأثناء، روى قائد الشرطة موجزًا سريعًا لأحداث صباح هذا اليوم على مسامع تشيلفورد وهاربورو. فازداد وجه المحامي المُتجهم تجهُّمًا.

وسأله أخيرًا: «إذن، فأنت على يقين — بناء على ما رأيته بالفعل — من أنها جريمة قتل.»

قال قائد الشرطة مؤكدًا: «ليس عندي أي شك. إنها جريمة قتل! يجب أن نتقصَّى تفاصيلَ ما فعله وأماكن وجوده بين الساعة العاشرة والنصف من الليلة الماضية والصباح الباكر من هذا اليوم. فطبيب الشرطة يقول إنَّه قُتل بالرصاص في حوالي الساعة الرابعة. فماذا كان يفعل؟ وأين كان؟ أعني خلال هذه الفترة؟ أنت تعيش في ماركنمور يا تشيلفورد، أليس كذلك؟»

أجاب تشيلفورد قائلًا: «في ضواحيها، لكنه لم يأتِ لزيارتي قَط، إذا كان هذا ما تُفكِّر فيه. ولم أكن أعرف أنَّه كان هنا قبل هذه اللحظة.»

فسأل قائد الشرطة السيدَ هاربورو: «وأظنه لم يأتِ لزيارتك يا سيد هاربورو؟»

فقال هاربورو: «كلَّا. كلَّا البتة.»

فقال قائد الشرطة: «أظن أنَّ كلًّا منكما كان يعرف الآخر على الأرجح قبل أن يرحل جاي عن الديار. حسنًا، لدَينا الكثير لنُنجِزه يا تشيلفورد، من الأفضل أن تذهب وتُخبر أخاه وأخته وتُهيئهما للأمر. فجثته سُتنقَل إلى هنا — بعد قليل — وسيُجرى التحقيق هنا. أبلِغهما بالخبر السيئ؛ فيجب أن يعرفا.»

أومأ تشيلفورد بالإيجاب، وغادر الغرفة في صمت. فيما عاد براكسفيلد بعدما مسح دموعه.

قال: «أرجو أن تعذروني على انفعالي العاطفي أيها السادة. فكما تعرفون، لقد قضيتُ أربعين عامًا في خدمة هذه العائلة، إنهم كعائلتي، إن جاز لي القول. فلتتفضَّلا أيها السادة بالتوجه إلى غرفة الجلوس النهارية، إذا سمحتم؛ إذ يُوجَد قدْر مناسب من نيران التدفئة الآن، في حين أنَّ هذه الغرفة مهجورة دائمًا، وأشد برودة من أن يُطيق المرء المكوث فيها.»

تَبِع الرجال الثلاثة كبير الخدم العجوز عبر الصالة إلى الغرفة التي كان هاربورو يتحدَّث فيها إلى هاري وفالنسيا في الليلة السابقة. وسرعان ما انضمَّ إليهم الأخ وأخته هناك برفقة تشيلفورد. وبعدما ألقى قائد الشرطة نظرة خاطفة واحدة عليهما، التفت إلى السيد فرانسيمري متنفسًا الصعداء.

وقال له هامسًا: «رائع!» وأردف قائلًا: «إنهما هادئان تمامًا! يعرفان كيف يُسيطران على مشاعرهما! تلك علامة أكيدة على النَّسل العريق والأخلاق الحميدة المُتوارثة! تلك هي النوعية التي تفضِّلها يا فرانسيمري ... صفوة حقيقية!»

ثم وجد نفسه في الدقيقة التالية يشرح الموقف بهدوء لهاري وفالنسيا، اللَّذين أنصتا له واستوعبا كل التفاصيل التمهيدية التي استطاع أن يخبرهما بها.

واختتم ناظرًا إليهما بالتناوب: «أهم شيء الآن أن نعرف أين كان أخوكما بين الساعة العاشرة والنصف، حين رحل عن هنا كما قال لي كبير خُدَّامكما، والصباح الباكر من اليوم. ألا تعرفان؟»

قال هاري: «إطلاقًا. لم يُخبرنا بأي شيء.»

لكنَّ فالنسيا هزَّت رأسها.

وقالت: «هذا غير صحيح. لقد أخبرنا بشيءٍ ما. ألا تتذكَّر يا هاري، قُبيل رحيله مباشرة؟»

أجاب هاري قائلًا: «لا شيء مُحدَّد. لم أستخلص أيَّ معلومة مُحدَّدة على أي حال.»

سألها قائد الشرطة: «ماذا قال لكِ يا آنسة ماركنمور؟»

أجابت فالنسيا قائلة: «أتذكَّر كل حرف. قال إنه يجب أن يرحل؛ لأنَّه كان مُرتبطًا بموعدِ عمل في الجوار. وقال إنَّ العشاء سيكون جاهزًا له في المكان الذي سيذهب إليه. ولكن ... هذا كل ما قاله.»

«ألم يذكر أيَّ تلميح عن وجهته، ولا هوية الشخص الذي كان سيلتقيه؟»

«إطلاقًا.»

وسرعان ما انقسمت جماعة الموجودين في الغرفة آنذاك إلى أقسام. فانزوى هاربورو والسيد فرانسيمري في أحد أركان الغرفة، وانزوى تشيلفورد وهاري في ركنٍ آخر، فيما ظلَّ قائد الشرطة وفالنسيا على الأرضية المُجاورة للمدفأة يتحادثان بنبراتٍ خفيضة. وفجأة فُتِح الباب بقوة، وقال براكسفيلد، الذي كان لا يزال دامعًا، بصوتٍ شِبه هامس مُعلنًا:

«جاءت السيدة تريزيرو!»

نظر كل الموجودين نحو السيدة تريزيرو — التي لم تنسَ التقاليد وأتتْ مُرتدية ثوبًا مُصممًا خصِّيصى من قماش الملابس الدينية الحالك السواد — وهي تدخل الغرفة بسرعةٍ متجهة إلى فالنسيا. لكنَّ أحد الرجال كان يوزِّع نظراته بينها وبين رفيقه المُلاصق له؛ فبينما كان السيد فرانسيمري يرمق السيدة تريزيرو وجمالها بنظرة إعجابٍ خاطفة، كان نظرُه ثاقبًا كفاية ليرى أنَّ جون هاربورو لم ينتفِض حين رآها فحسْب، بل صار شاحبًا بشدة، ثم احمرَّ وجهه ثم اعتلاه الشحوب مُجدَّدًا وهو يعتصِر شفتَيه الجامدتَين. وقد لاحظ شخصٌ آخر في الغرفة أيضًا كل ذلك، ألا وهو فالنسيا.

لكنَّ السيدة تريزيرو لم ترَ شيئًا، أو بدا أنها لم ترَ شيئًا. كان واضحًا عليها أنها مُفعمة بالحماسة؛ إذ كانت وجنتُها أشدَّ توردًا من المعتاد وكانت شفتاها مُفترَّقتَين قليلًا، وقد ظنَّ ثلاثة على الأقل من الرجال الحاضرين أنها بَدَت كما لو كانت آتية لتلقِّي التهاني وليس تقديم التعازي. ولكن حين اقتربت من فالنسيا، صبغت قسمات وجهها المُتلوِّن بتعبيرٍ من التعاطف المحتشِم اللائق.

قالت بنبرة ناعمة لطيفة: «آه يا مسكينتي فالنسيا!» واستطردت قائلة: «والدُكِ العزيز! لقد أتيتُ فورًا، حالما سمعت الخبر، لأُعرِب لكِ ولهاري عن مدى حُزني، ولأرى ما بوسعي فعله. لكنكما كنتما تتوقَّعان هذا، أليس كذلك؟ ومن المؤكَّد أنه كان طاعنًا في السن. ويُوجَد شيء آخر، لا شكَّ أنكما ستُبلغان السير جاي فورًا ... إنني ... في الحقيقة يا فالنسيا لقد رأيتُ جاي الليلة الماضية بعدما ... بعدما جئتُ إلى هنا، كما تعرفين ... و... حسنًا، لقد غيَّر خُططه، ولن يكون موجودًا في العنوان الذي أعطاكما إيَّاه في لندن إلَّا بعد بضعة أيام. لكنِّي أعرف مكانه ... وأليس من الأفضل أن تبعثا إليه ببرقيةٍ فورًا؟ فكما ترين ...»

كانت تتحدَّث بسرعة شديدة أعجزت فالنسيا وكل الحاضِرين عن إيجاد فرصة للنطق ولو بكلمة. ولكن في هذه اللحظة، بينما كانت تُخرِج قصاصةً ورقية من المِعصم ذي الفرو الكثيف المُحيط بيدها، قاطعها هاري ماركنمور بحدة.

قال بشيء من الغضب: «فليُوقفها أحد.» وأردف قائلًا: «أخبروها.»

فسار تشيلفورد عبر أرضية المدفأة رافعًا إحدى يديه.

وقال بهدوء: «سيدة تريزيرو.» وأضاف: «إنني ... الحقيقة أنك لا تعلمين ما حدث صباح اليوم! من الأفضل أن تعرفي. السير أنطوني ليس فقَط مَن مات ... بل مات ابنه أيضًا. لقد ...»

فصاح السيد فرانسيمري الذي كان مُتيقظًا بشدة، قائلًا: «حذارِ! سيُغشى عليها!»

مدَّ قائد الشرطة إحدى يدَيه. لكن السيدة تريزيرو دفعتها جانبًا. كان الشحوب قد اعتلى وجهها حتى شفتَيها، واتَّقدَت عيناها وهما تُحدِّقان إلى تشيلفورد.

ثم قالت بحدة: «مات؟» وأضافت: «جاي ماركنمور! مات! هذا كذب!»

ردَّ تشيلفورد كما لو كان يشعُر بقليلٍ من الانزعاج وكثير من الازدراء: «مع الأسف الشديد يا سيدتي، هذه الحقيقة المُطلقة. لقد عُثِر على السيد جاي ماركنمور ميتًا صباح اليوم، على الطريق بين هنا وميتبورن، ومن المؤكَّد أنه قُتِل.»

شهقت السيدة تريزيرو وانتفضت إلى الوراء حتى ارتطمت بالطاولة الكبيرة التي كانت تملأ وسط الغرفة. ثم اتَّكأت عليها مُتثاقلة، ورفعت يدَها نحو حلقومها، كأنها بدأت تختنق بشيءٍ ما. وظلَّت عيناها، اللَّتان كانتا تزدادان اهتياجًا ويأسًا، تُحدِّقان إلى وجوه الحاضرين واحدًا تلوَ الآخر حتى استقرَّتا أخيرًا على هاربورو، الذي كان يُراقبها باهتمامٍ شديد. ثم رفعت يدَها عاليًا مُشيرة إليه بصيحةٍ أقرب إلى الصراخ.

وقالت: «قُتِل؟» وتابعت قائلة: «جاي! قُتِل؟ إذن ... إذن ... فها هو الرجل الذي قتله! أعرف ذلك! أتجرؤ على القول إنك لستَ الفاعل يا جون هاربورو! تعرف أنك الفاعل! لقد توعَّدت — منذ سبع سنوات — بأنك ستقتله وقتما وحيثما تلتقيه مُجددًا! والآن ... الآن ... نفَّذتَ وعيدك! جاي؟ مات؟ إنني ... آه يا إلهي ... إنني ... وعدته ... الليلة الماضية ... قبل بضع ساعات فقط ... بأن ... بأن أتزوَّجه! إننا ... يا فالنسيا! كنا سنتزوَّج فورًا!»

تمتم السيد فرانسيمري قائلًا: «إنها تُصاب بالإغماء الآن!» وأضاف: «يا إلهي! يا لها من معلومات مفاجئة!»

ثم هبَّ مُسرعًا نحو السيدة تريزيرو وهي تخِرُّ متثاقلةً على الأرض بآهةٍ حادة، وأخرجها من الغرفة بمساعدة فالنسيا وتشيلفورد، وأرسل براكسفيلد إلى مُدبِّرة المنزل. وبعدما تركها هي وفالنسيا مع السيدة تريزيرو، عاد مع تشيلفورد إلى الرجال الثلاثة الآخرين. كان قائد الشرطة واضعًا يدَيه خلفه ومُتكئًا بظهره على رفِّ المدفأة الكبير، فيما كان هاربورو واقفًا قُبالته على الجانب الآخر من الطاولة وقد أصابه شحوب شديد، أمَّا هاري ماركنمور، فكان واقفًا بعيدًا قليلًا وهو يَرمقهما بنظراتٍ مرتابة بالتناوب.

كان قائد الشرطة يقول: «إنه اتهام مُحرِج، لكنه مُوجَّه بتأكيد قاطعٍ يا سيد هاربورو. لم تبدُ مُتردِّدة إطلاقًا في توجيهه!»

فقال هاربورو: «لقد رأيتَ بنفسك أنها وجَّهته في لحظةِ انفعال شديد. و... وحزن.»

فقال قائد الشرطة بجفاء: «من واقع خِبرتي، فهذه بالضبط هي اللحظات التي تتكشَّف فيها الحقيقة. ومع ذلك، بما أنها قد قالته أمامَنا جميعًا، لعلَّك ستُخبرني بشيءٍ ما من أجل مصلحتك. هل سَبَق وأن أطلقتَ هذا الوعيد الذي تحدَّثَتْ عنه؟ هل سَبَق وأن توعَّدْتَ بقتل جاي ماركنمور وقتما وحيثما تلتقيه مجددًا؟»

وهنا سعَل تشيلفورد سعلةً جافة استنكارية.

وقال: «صحيحٌ أنني لستُ محامي السيد هاربورو، لكنني لو كنتُ كذلك، لنصحتُه بكلِّ ما أُوتيت من قوة بألَّا يجيب على هذا السؤال، يا قائد الشرطة. كما تعرف.»

ردَّ قائد الشرطة قائلًا: «هذه ليست ساحة قضائية. بل مُحادثة خاصة بين رجالٍ مُهذَّبين. وكما قالت السيدة تريزيرو ما قالته أمامنا، يحق للسيد هاربورو أن يقول ما لدَيه ... أمامنا.»

صاح هاربورو فجأة: «سأقول!» واستطرد قائلًا: «لقد توعَّدتُ بذلك منذ سنوات. توعَّدتُ بذلك تحت وطأة استفزازٍ شديد ... أشد استفزازٍ على الإطلاق. لكنَّ ... كل ذلك

تلاشى تمامًا، منذ أمد بعيد — أعني الإحساس بالغضب وما إلى ذلك — تلاشى داخلي. ولو كنتُ التقيتُ جاي ماركنمور الآن — أو في أي وقتٍ خلال هذه السنوات الأربع أو الخمس الأخيرة — كنتُ سأصافِحه.»

فقال رئيس الشرطة: «رائع!» ثم أشار إلى هاري ونظر إلى هاربورو. وأضاف قائلًا: «من أجله — ومن أجل أُخته — أخبرني، متى كانت آخر مرةٍ رأيتَ فيها جاي ماركنمور؟»

نظر هاربورو أيضًا إلى هاري. وبينما كان ينظر، عادت فالنسيا إلى الغرفة. فالتفت إليها.

ثم قال بهدوء: «سأُخبرك. لم أرَ جاي ماركنمور قَطُّ منذ سبع سنوات. ولا أعرف أيَّ شيءٍ عن ملابسات مَوته ... لا شيء إطلاقًا!»

أومأ قائد الشرطة، ولم يقُلِ الرجال الآخرون أيَّ شيء. لكنَّ فالنسيا حدَّقت إلى هاربورو لحظة، ونظر هو أيضًا إليها؛ بدا لعَينَي السيد فرانسيمري المُراقِبتَين المُتيقظتين أنَّ نظرة فَهْم خاطفة قد مرَّت بينهما. ثم اتجَّهَت نحو أخيها، ونقرَتْ على ذراعه والتفتتْ إلى قائد الشرطة.

وسألته: «ألا يُوجَد أشياء يجب فِعلها؟ وتحضيرات يجب تجهيزها؟» وأضافت: «هلَّا تُخبرني بها؟»

انصرف قائد الشرطة مع الأخ وأُخته، ورحل هاربورو أيضًا دون أي كلمةٍ أخرى، فيما تُرِك تشيلفورد والسيد فرانسيمري وحدَهما. وبعد قليلٍ خرجا إلى الشرفة، وظلَّا يسيران جَيئةً وذهابًا وسط صمتٍ تام في البداية.

قال السيد فرانسيمري أخيرًا: «أتصوَّر أنَّ ما سمِعناه للتوِّ من السيدة تريزيرو نشأ أصلًا من قصة حُب قديمة؟ أظنُّ أنَّ هاربورو وجاي ماركنمور كانا غريمين، هاه؟»

أجاب تشيلفورد قائلًا: «الكل يعرف ذلك يا سيدي العزيز.» وأضاف: «فحين كانت السيدة تريزيرو لا تزال الآنسة فيرونيكا لايتون، كان أبوها قسَّ أبرشية ماركنمور، أتعرف ذلك! كانت فتاة لعوبًا بلا أي شكٍّ لا سبيل إلى تقويمها، وكان الشباب الساعون وراءها لا يُحصَون. لكنَّ هذين الاثنين كانا في مُقدمة سباق الظفر بها، ودائمًا ما خالَجَني شعور بأن رحيلهما عن الديار هكذا كان بواسطتها وبسببها. وأرى أنها تزوَّجَت الكولونيل تريزيرو إمَّا بدافعٍ من غيظها من جرح كبريائها، أو من أجل أمواله، وأُرجِّح أنه كان من أجل أمواله. ثمَّة لُغز يُحيط بما حدث آنذاك؛ لغز غريب لم يتَّضِح قط.»

فقال فرانسيمري: «وها نحن الآن أمام لُغز آخر!» وأردف: «و... ويبدو أنَّ السيدة تريزيرو ضالعة فيه.»

قال المحامي بضحكةٍ جافة: «نعم!» وأضاف: «لقد باحت ببعض الأشياء الآن. لكنَّ ماركنمور كان معها الليلة الماضية. السؤال الآن هو أين كانا؟ وكم من الوقت بقي معها؟»

لم يردَّ السيد فرانسيمري. فقد رأى شيئًا ما، ورفع يدَه مُشيرًا إليه. كان الرجال الذين يحملون جثة جاي ماركنمور قد ظهروا للتوِّ من حافة الغابة.

الفصل السادس

جلسة التحقيق في مُلابسات الوفاة

بعد ذلك بيومَين، وجد السيد فرانسيمري، الذي استُدعي للقيام بمهامِّ المُحلَّف في تلك الممارسة التقليدية القديمة التي تُعرَف بجلسة التحقيق العلَني في ملابسات الوفاة، ليجد نفسه رئيسًا لهيئة مُحلَّفين مكوَّنة من اثني عشر رجلًا من الأفاضل والشُّرفاء في قاعة الطعام القديمة في ماركنمور كورت. كانت تلك القاعة المَهيبة قد أُعِدَّت وجُهِّزت خصِّيصى لهذا الحدث، ولاحظ براكسفيد ببالغ الأسى أنَّ هذه كانت المرة الأولى على الإطلاق التي تُستخدَم فيها القاعة منذ العشاء الفخم الذي استضاف فيه السير أنطوني أصدقاءه وجيرانه بمناسبة بلوغ جاي سنِّ الرشد. كانت غرفة فسيحة جدًّا، ذات طابع باروني في شكلها وكانت في زمنِها تحتضِن الكثير من المناظر المُبهرجة واللافتة. لكنَّها، منذ أن شيَّدها أحد أفراد آل ماركنمور الذي مات منذ أمدٍ بعيد، لم تكتظ قطُّ بأناس كثيرين من مختلف الأطياف والطبقات كما كانت في صباح هذا اليوم الربيعي المُشرِق. فقد كانت تضمُّ مُحلَّفين وشرطيين وشهودًا، وكان تشيلفورد حاضرًا، بصفته مُمثلًا للعائلة، وكان يُوجَد مُحامٍ آخرُ يُمثِّل هاربورو، بالإضافة إلى محامٍ أمام القضاء العالي من لندن لتمثيل وجهة نظر السلطات في القضية، وكان ثمة مسئولون من شتَّى الأطياف، ومراسلون صحفيون من الصحافة المحلية، ومندوبان أو ثلاثة أُرسلوا خِصِّيصى من صُحُف لندن. لكنَّ كل هؤلاء كانوا لا شيء مقارنةً بحشد الحاضرين؛ ذلك الحشد الذي ضم أناسًا من القرية وأناسًا من عائلة عريقة في المقاطعة وأناسًا من قريبٍ ومن بعيد. وهنا ارتأى السيد فرانسيمري وهو يضبط نظارته ذات الإطار الذهبي وينظُر حوله، أنَّ قضية ماركنمور صارت قضيةَ رأي عام بالفعل.

كان بإمكان السيد فرانسيمري في تلك اللحظة أن يقول صدقًا إنَّه وزملاءه المُحلَّفين قد أتَوا لمُتابعة سَير هذا التحقيق المهم بأذهانٍ منفتحة غيرِ مُتحيزة ولا مُطلعة على معلومات خاصة. ففي الساعات الثماني والأربعين (أو الاثنتين والخمسين على وجه التحديد) التي انقضت منذ اكتشاف جثة جاي ماركنمور، لم يتسرَّب أيُّ شيءٍ آخر إلى عامة الناس. وكان قد وقع الكثير من الأحداث. فقد نُشِرَت أعداد هائلة من قوات الشرطة في القرية التي عادة ما كان الهدوء يعمُّها، وكانوا يمشطون الغابة والبلدات وكل المناطق المُحيطة مباشرة بمسرح الجريمة. وكان بليك عاكفًا على إجراء تحرِّيات في كل أنحاء الحيِّ مع اثنين أو ثلاثة من مرءوسين أقلَّ رُتبة منه، ولم يتركوا أيَّ إنسان تقريبًا في أي منطقة جانبية مجاورة لماركنمور دون أن يسألوه عن معلومات تخصُّ القضية.

لكنَّ أولئك الذين أجرَوا كل هذه التحريات التزموا صمتًا تامًّا غير مألوف طوال إجرائها، وباستثناء أفراد الشرطة، لم يكن أيٌّ من الحاضرين في قاعة الطعام الكبيرة، التي تحوَّلَت آنذاك إلى محكمة، لديه أدنى فكرة عما يوشِك أن يتكشَّف. ومع ذلك، كان ثمَّة شيءٌ واحد معروف. فالسيدة تريزيرو لم تكُن قد اكتفت باتهام جون هاربورو أمام الأخ وأخته والرجال الذين كانوا مُجتمِعين قبل يومَين في غرفة الجلوس النهارية. بل اتهمته مُجددًا أمام قسِّ الأبرشية وأهل القرية وأناسٍ آخرين، وصار معروفًا تمامًا لدى الكثيرين أنَّها مُتيقنة تمامًا من أنَّ هاربورو قد قتل جاي ماركنمور. لذا كانت مَحطَّ اهتمامٍ كبير بطبيعة الحال بينما كانت جالسة بالقُرب من الطاولات الكبيرة المُتراصَّة في منتصف القاعة، مُرتدية ثيابَ حِداد شديدة السواد، ذات طابعٍ دراميٍّ مُبالغٍ فيه بعض الشيء. ولم تكن وحدَها؛ فمع أنَّ حفلها المنزلي كان قد انفض في يوم المأساة، بقي اثنان من أصدقائها معها: امرأة في منتصف العمر ذات مكانةٍ اجتماعية راقية تُدعى السيدة هاميلتون، ورجل وَسِيم يبدو بصحة جيدة في الخمسين من عمره يُدعى البارون فون إيكهاردشتاين، وكان يُقال إنه من كبار رجال المال والاستثمار الأوروبيين. كان الاثنان جالسَين على جانبَي السيدة تريزيرو، وعلى مسافةٍ قصيرة منهم، كان هاربورو جالسًا في تجهُّم، رابط الجأش، بجوار مُحاميه السيد ووكينشو.

مرَّ السيد فرانسيمري ورفاقه المُحلَّفون الأحد عشر تلقائيًّا بالمُقدمات الكئيبة المعتادة، والمُهمة البشعة المُتمثلة في مشاهدة الجثة. ثم استمعوا باحترامٍ للتعليقات الاستهلالية التي ألقاها قاضي التحقيق في ملابسات الوفاة، مُدرِكين طوال الوقت أنَّ هذا ما هو إلا مجرد روتين؛ فالشيء الحقيقي الذي كان جديرًا بالاهتمام هو أقوال الشهود. وفجأة،

اختتم القاضي تعليقاته دون سابق إنذار، وبدأ المُحلَّفون والمُتفرِّجون التركيز على المرحلة الحقيقية؛ ألا وهي سماع ما يُمكن أن يُقال ويُسهِم، بطريقةٍ أو بأُخرى، في كشف غموض اللُّغز الأهم على الإطلاق: مَن قتل جاي ماركنمور؟

لم تُسفِر مراحل التحقيق الأولى إلَّا عن القليل من المعلومات الجديدة أو المُثيرة. فتعرَّف هاري ماركنمور على الجثة باعتبارها جثة أخيه الأكبر، جاي، قائلًا إن عمره كان خمسة وثلاثين عامًا. ولم يكن يعرف ما إذا كان جاي مُتزوجًا أم لا. فقد ترك جاي ماركنمور كورت قبل سبع سنوات، ولم ترَه عائلته أو تسمع عنه شيئًا قط منذ ذلك الحين، إلَّا في الليلة السابقة للجريمة، التي ظهر فيها فجأة. ثم سرد هاري تفاصيلَ الزيارة القصيرة، وقال إنَّ أخاه غادر المنزل في حوالي الساعة العاشرة والنصف. وأضاف أنَّ أخاه تحدَّث عن ارتباطه بموعدٍ ما في الجوار، وذكر أنَّ العشاء سيكون جاهزًا في انتظاره في المكان الذي كان مُتجهًا إليه. ولم يكن لدى هاري أدنى فكرة بخصوص المكان الذي ذهب إليه جاي بعدئذٍ. وذكر أنَّ أخاه لم يَعُد إلى ماركنمور كورت، ولم يرَه أي أحدٍ من أهل البيت مُجددًا حتى نُقِل جثمانه إليه في الصباح الباكر من اليوم التالي.

ثم أدلى هوبز، عامل الحرث بالمزرعة، بأقواله بشأن العثور على الجثة، التي كان قد تعرَّف هويةَ صاحبها في الحال، وسرد تفاصيل ما فعلَه للحصول على المساعدة. وقال إنه لم يرَ أحدًا في هذا الجزء من الروابي، ولم يلحظ أيَّ شيء مُريب بالقُرب من مسرح الجريمة.

ثم أدلى شرطي القرية بأقواله عن عمليات البحث التي أُجريت في الأنحاء المُحيطة بمنخفض ماركنمور هولو، وقال إنهم لم يجدوا أي علامة على نشوب أي شجار، ولا آثار أقدام، وقال إنَّ العُشب المحيط بالمكان كان أشبهَ بالأسلاك النحيلة جدًّا، وكان كثيفًا مُتلاصقًا، ومرنًا للغاية؛ فالمنطقة لم تشهد أي أمطار مؤخرًا، وفشلت حتى أدق الفحوصات التي أُجريت عن كثَب في العثور على أي شيءٍ شبيه بآثار كهذه. ولم يُعثَر على أي سلاح من أي نوع بالقُرب من مكان الجريمة، ولا في الشجيرات السفلية المجاورة له. وأدلى هذا الشاهد أيضًا بأقواله بشأن الفحص الذي أجري لثياب المُتوفى، حين نُقِلت الجثة إلى ماركنمور كورت. فقال إنهم عثروا فيها على مبلغٍ كبير من المال في صورة أوراق نقدية وعملات ذهبية وفضية. كذا كانت هناك ساعة ذهبية وسلسلة ومدلاة. وعُثِر كذلك على ثلاثة خواتم، كان منها اثنان مُرصَّعان بالألماس. كما عُثر على مُتعلقات صغيرة متنوعة: علبة سيجار فضية وعلبة ثقاب فضية وما إلى ذلك، وحافظتَي جيب. وقد صارت كل

هذه الأشياء في حيازة الشرطة. وقال إنه كان مُتيقنًا، حين أحضره الشاهد السابق إلى ماركنمور هولو، من أنَّ الجثة لم يُعبَث بها إطلاقًا، وأنَّ الملابس والمُتعلقات المختلفة التي ذكرها للتوِّ لم تُمَس. وبناء على هذه الحقائق، فضلًا عن حقيقة أنَّ القتيل كان بحوزته مبلغ كبير من المال، قال الشرطي إنه استنتج فورًا أنَّ جريمة القتل لم تُرتكَب بدافع السرقة.

حظِيَت شهادة طبيب الشرطة باهتمامٍ أكبر. فقال إنَّ الساعة كانت حوالي السابعة إلا ثلثًا صباحًا حين وصل رُفقة قائد شرطة المنطقة والمُحقق الرقيب بليك إلى ماركنمور هولو. وذكر أنَّه أدرك في الحال آنذاك أنَّ جاي ماركنمور قد مات رميًا بالرصاص، مُضيفًا أنه استنتج حينئذٍ أنَّ وقت الوفاة كان قبل ذلك الوقت بمُدة تتراوَح بين ساعتَين وثلاث، وكانت أقربَ إلى ثلاث ساعات منها إلى ساعتَين. وقد ظلَّ رأيه بعدئذٍ كما هو؛ إذ حدَّد أنَّ وقت الوفاة الفعلي كان في حوالي الرابعة صباحًا. وذكر أنَّ الوفاة وقعت في الحال. وأضاف أنَّه تيقَّن عند تشريح الجثة لاحِقًا من أنَّ الرصاصة — التي عَرَضَها أمام الحاضرين — والتي يظنُّها أُطلِقت من مسدس من مسافةٍ قريبة، اخترقت الرأس من عند الصدغ الأيمن ومرَّت عبر الدماغ في اتجاهٍ مُنحنٍ إلى الأسفل واستقرَّت في النهاية في العضلات الواقعة أسفل الأذن اليُسرى بقليل.

سأله قاضي التحقيق: «هل كان من المُمكن أن يكون هو مَن أصاب نفسه بهذا الجرح؟»

أجاب الشاهد: «بالطبع.»

«ولكن في هذه الحالة، كان من المُفترَض العثور على السلاح بالقُرب من متناول يده؟»

«في هذه الحالة، أتوقَّع أننا كنَّا سنجِده ما زال مُمسكًا بالسلاح. فالمُرجَّح في مثل هذه الحالة أنَّ الرجل الذي يُطلِق الرصاص على نفسه يكون مُمسكًا مسدسه بقبضةٍ شديدة الإحكام في أثناء ذلك، وأنَّ أصابعه تُشدِّد قبضتها حين تُؤتي الرصاصة مفعولها.»

«ونظرًا إلى عدم وجود مُسدس بالقُرب منه، استنتجتُ أن هذه جريمة قتل؟»

«أجل، جريمة قتل!»

«هل توصَّلتَ إلى أي استنتاج بشأن الكيفية التي نُفِّذَت بها؟»

«أجل. أظن أنَّ القاتل والضحية كانا يسيران جنبًا إلى جنب، مُنهمكَين في محادثة عن قُرب على الأرجح، وكان الضحية على اليسار. وأظن أنَّ القاتل رفع يدَه اليُمنى عبر

جسده فجأةً وهي مُمسكة بالمُسدس، وأطلق الرصاصة على الضحية من مسافة قريبة حرفيًّا، فيما كان الضحية غيرَ مُدرِك إطلاقًا بأنَّه على وشك التعرُّض لاعتداء. ومن المُؤكَّد أنَّ فوهة المسدس وُضِعت بالقُرب من الصدغ؛ إذ كان جِلد الصدغ والشعر الرقيق المُحيط به مُحترقَين.»

فالتفت قاضي التحقيق إلى هيئة المُحلَّفين.

وقال: «تُشرق الشمس حاليًّا في حوالي الساعة الخامسة إلا عشر دقائق. إذن، فمن المُفترض أن الضوء كان مُنتشرًا بدرجةٍ كبيرة بعض الشيء في الساعة الرابعة. وهذه نقطة مهمة أيها السادة. يجب أن تضعوها في الحسبان، في ظلِّ ما سمعتموه للتو.»

لم يكن أيٌّ من المُحامين لديه أسئلة ليطرحها على طبيب الشرطة، فعاد إلى مقعده، ودارت مداولة هامسة بين قاضي التحقيق وأحد موظفيه المُساعدين. ثم حانت اللحظة التي كانت المحكمة المكتظة تنتظِرها بلهفةٍ مكبوتة.

«السيدة فيرونيكا تريزيرو!»

قامت السيدة تريزيرو من بين صديقيها اللَّذين كانا يدعمانها، وسارت رويدًا إلى مقصورة الشهود. بدا واضحًا أنَّها كانت مُدرَّبة جيدًا على ما ستفعله؛ إذ خلعت القفاز عن يدِها اليُمنى ورفعت عنها حجابها السَّميك. وبعدما أخذت الكتاب المُقدَّس بيدِها التي خلعت عنها القفاز، ردَّدت كلمات القَسَم بصوتٍ خفيض، والتفتت بوجهٍ شديد الشحوب لكنه هادئ تمامًا إلى قاضي التحقيق، الذي انحنى نحوَها بتعبيرٍ ينمُّ عن مُراعاةٍ ممزوجة بالتعاطف. ووسط صمتٍ مطبِق، بدأ أسئلته التمهيدية.

«سيدة تريزيرو، أعتقد أنك كنتِ تعرفين السيد جاي ماركنمور الراحل؟»

«أجل.»

«كنتِ تعرفينه جيدًا، إن جاز القول؟»

«نعم، جيدًا جدًّا ... في الماضي!»

«منذ متى تعرفينه؟»

«أعرفه منذ أن جاء والدي إلى ماركنمور، قسًّا لهذه الأبرشية، حين كنتُ فتاةً في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، إلى أن رحل جاي عن هذا البيت منذ نحو سبع سنوات.»

«كم كان عمرك آنذاك يا سيدة تريزيرو؟»

«اثنين وعشرين عامًا.»

«إذن فمعرفتك به في تلك الفترة استمرَّت حوالي أربع أو خمس سنوات؟»

«تقريبًا.»

«كُنتِ الآنسة فيرونيكا لايتون حينئذٍ؟»

«نعم.»

«أظنك قد تزوَّجتِ الكولونيل الراحل تريزيرو بعد رحيل السيد جاي عن الديار مباشرة؛ منذ حوالي سبع سنوات؟»

«نعم.»

«وسافرتِ مع زوجك إلى الهند؟»

«أجل.»

«ولم تعودي من الهند، حيث مات الكولونيل تريزيرو العام الماضي، إلا منذ وقتٍ قريب، على ما أظن؟»

«وقت قريب جدًّا.»

وهنا انحنى قاضي التحقيق قليلًا إلى الأمام من مكتبه، ورأى السيد فرانسيمري أنَّ هذه علامة أكيدة على أنَّ أسئلته تقترِب من مرحلةٍ شديدة الخصوصية.

«والآن. هل رأيتِ جاي ماركنمور أيَّ مرة خلال هذه السنوات السبع يا سيدة تريزيرو؟»

«إطلاقًا!»

«هل سمعتِ منه أي شيء؟»

«إطلاقًا! ولا عنه!»

«أي أنَّك لم ترَيه ولم تسمعي شيئًا منه ولا عنه طوال سبع سنوات. متى رأيتِه مُجددًا بعد هذه الفترة؟»

«مساء يوم الإثنين الماضي؛ أي منذ يومين أو ثلاثة.»

«التقيتِه لأول مرة منذ سبع سنوات؟»

«نعم، لأول مرة منذ سبع سنوات.»

«هلَّا تُخبرينني كيف حدث هذا اللقاء؟»

عقدت السيدة تريزيرو يدَيها على حافة مقصورة الشهود، ووزَّعَت نظرات خاطفة بين قاضي التحقيق والمُحلَّفين الاثني عشر بالتناوب. كانت قد استعادت لون بشرتها الطبيعي بحلول ذلك الوقت، وكانت عيناها قد بدأتا تتألَّقان، وبَدَت تريزيرو كأنما بدأت تشعُر باهتمامٍ استثنائي بمُجريات التحقيق.

قالت بنبرة هادئة متوازنة: «على النحو التالي. في مساء يوم الإثنين، بعد العشاء، احتجت إلى توجيه بعض الأوامر إلى بيرتون، الحُوذي الذي يعمل لديَّ. وبينما كان يهمُّ بالانصراف، ذكر أنه رأى السيد جاي ماركنمور للتو، وقال إنه قد رآه مُتجهًا إلى ماركنمور كورت. ظننتُ أنَّ بيرتون كان مُخطئًا بالتأكيد، لكنه كان مُتيقنًا، وبالطبع كنتُ أعلم أنَّه يعرف السيد جاي منذ الصبا. لذا ...»

وهنا سكتت السيدة تريزيرو. وبدأت تنقُر بأصابعها على حافة المقصورة الموجودة أمامها، ونظرت إلى قاضي التحقيق وهيئة المُحلَّفين بتعبير ينمُّ عن قدْر من الحرج.

سألها القاضي بنبرةٍ صريحة جامدة: «ماذا حدث، إذا سمحتِ؟»

فتابعت السيدة تريزيرو الحديث فجأة قائلة: «حسنًا، أردتُ أن ألتقي جاي!» وأردفت قائلة: «وهكذا ارتديتُ معطفًا فوق ثوب السهرة — ليس آنذاك بالضبط ولكن بعد بعض الوقت، في حوالي الساعة العاشرة والنصف، على ما أظن — وركضتُ عبر المُتنزَّه إلى ماركنمور كورت؛ إذ يُوجَد هناك طريق مختصر. ثم أتيتُ إلى هنا، حيث رأيت براكسفيلد كبير الخَدَم، وفالنسيا ماركنمور. قُلت لفالنسيا إنني سمعتُ أنَّ جاي قد عاد إلى البيت. فقالت لي إنه قد رحل. وحينئذٍ ظننتُ أنه ربما، حين سمع أنني أسكن بيت الأرملة، قد ذهب إلى هناك ليلتقِيَني؛ لذا انصرفتُ وأنا أظن أنني قد أجده ينتظرُني هناك.»

«وهل وجدتِه؟»

«لا، لكني ... قابلتُه. كان قد ذهب إلى بيتي وهمَّ بالانصراف. وقابلته عند البوابة الخارجية.»

«وماذا حدث بعدئذٍ؟»

«عاد معي إلى بيتي.»

«أظنكِ كنتِ تُقيمين حفلًا منزليًّا يا سيدة تريزيرو؟»

«نعم.»

«أكان حفلًا كبيرًا؟»

«كانوا ثمانية أفراد، إجمالًا.»

«هل قدَّمتِ السيد جاي ماركنمور إلى ضيوفك حين اصطحبتِه إلى الداخل؟»

«كلَّا، لم أفعل. كان بعضهم يلعَب البريدج، وكان البعض الآخر يلعب البلياردو. فلم يرَ أيَّ أحدٍ منهم.»

«وإلى أين ذهبتما، داخل بيتك؟»

«صعدْنا إلى مخدعي.»

فانحنى قاضي التحقيق مقتربًا منها أكثر.

وقال: «سمعنا — من السير هاري ماركنمور — أنَّ أخاه تحدَّث عن موعدٍ ما، ورحل على عَجَل للَّحاق به؟ الآن، هل كان هذا الموعد معكِ؟»

«كلَّا ... كلَّا ألبتة!»

«هل ذكر أيَّ موعدٍ أثناء حديثه معكِ؟»

«نعم، اكتفى بالقول إنَّه مُرتبط بموعدٍ في الجوار.»

«في الجوار؟ هل قال شيئًا عن هوية مَن كان سيقابله أو أين سيقابله؟»

«كلَّا، لم يقُل. اكتفى فقط بذكرِ أمرِ الموعد ذكرًا عابرًا. ولم أسأله عنه.»

«و... كم من الوقت بقي معكِ في بيت الأرملة؟»

تردَّدتِ السيدة تريزيرو، وكان واضحًا أنَّ تردُّدها لم يكن لعدَم يقين من الإجابة.

قال لها قاضي التحقيق: «هذا السؤال في غاية الأهمية.»

فأجابت السيدة تريزيرو قائلة: «حسنًا، لقد بقي حتى الساعة الثانية عشرة إلَّا ربعًا.»

«أي إنه بقي معكِ حوالي ساعة؟»

«حوالي ساعة، نعم.»

«كنتما وحدَكما ... طوال هذا الوقت؟»

«نعم.»

«هل رآه أيٌّ من ضيوفك — أو أيٌّ من خدمك — عند مجيئه أو انصرافه؟»

«لم يرَه أحد. لقد دخلتُ معه البيت من بابٍ جانبي دائمًا ما أحمِل مفتاحه بحَوزتي. وصعدنا مباشرة إلى مخدعي. وأخرجتُه من البيت بالطريقة نفسها. كلَّا، لم يرَه أحد.»

«أي أنكِ أخرجتِ جاي ماركنمور من بيتك بنفسك في الثانية عشرة إلا ربعًا. هل لاحظتِ الاتجاه الذي سلكه حين غادر؟»

«نعم. في الواقع، لقد سِرتُ معه عبر الممرِّ الخاص للبيت حتى وصلْنا إلى بوابة الدخول. لقد سار عبر الطريق الرئيسي، صوب القرية.»

«وبعدئذٍ، لم تريه مرةً أُخرى؟»

هزَّت السيدة تريزيرو رأسها، وظَن مَن كانوا حولها للحظة أنها على وشك الانفجار في البكاء. لكنها تمالَكَت نفسَها فجأة، وتجلَّت في عينيها نظرةٌ شبه مُتحدِّية وهي تجيب عن السؤال الأخير.

«لم أرَه مرة أخرى، حتى رأيتُه البارحة ميتًا ... مقتولًا!»

رجع قاضي التحقيق إلى الوراء في كرسيه؛ إذ كان واضحًا أنَّه حصل على ما كان يريد معرفته بالأخص، وكانت النظرة الخاطفة التي رمق بها هيئة المُحلَّفين تهدف بوضوح إلى تذكيرهم بأنهم صاروا الآن يعرفون أنَّ جاي ماركنمور، من الساعة العاشرة والنصف إلى الساعة الثانية عشرة إلا ربعًا من ليلة وفاته، كان مع السيدة تريزيرو وحدَهُما في مَخدعِها، دون أن يدري أي أحد بذلك. ثم التفت من هيئة المُحلَّفين إلى المُحامين، الذين كانوا جالسين إلى طاولة أسفل مكتبه المرتفع.

فنهض المحامي الموكَّل من سلطات الشرطة على قدمَيه رويدًا، والتفت إلى الشاهدة.

قال بنبرة هادئة شِبه اعتذارية: «أعتقد أنه من المعروف جيدًا جدًّا يا سيدة تريزيرو أنَّ الكثيرين كانوا يسعون إلى خطبتك قبل أن تتزوَّجي زوجك الراحل.»

أجابت السيدة تريزيرو دون تردُّد: «نعم!» وأضافت قائلة: «وإن كنتُ لا أعرف ما تقصده بعبارة «من المعروف جيدًا.» لكن ذلك صحيح بالتأكيد.»

«هل كان السيد جاي ماركنمور واحدًا منهم؟»

«نعم.»

«وهل كان مُفضَّلًا بالذات على الآخرين؟»

«حسنًا ... نعم، على ما أظن.»

«وكان من المُحتمَل يومًا ما أن تتزوَّجا، في الواقع؟»

«كان كِلانا مُغرمًا جدًّا بالآخر بكل تأكيد.»

«سنتجاوز ذلك مؤقتًا؛ فهو لم يُسفِر عن أي شيءٍ آنذاك. تزوَّجتِ الكولونيل تريزيرو. لكنَّك، على ما أظن، ظللتِ مُحتفظةً ببعضٍ من مشاعرك القديمة تجاهَ جاي ماركنمور.»

تردَّدت السيدة تريزيرو. وحين تحدَّثت مرةً أخرى، كانت نبرة صوتها أخفض.

فقالت: «لم ... لم أكن أعرف ذلك حتى ... حتى التقيتُه مُجددًا منذ ليلتَين.»

«لكن، هل أدركتِ ذلك آنذاك؟»

«نعم، على ما أظن. فقد كنتُ سعيدة جدًّا برؤيته.»

«وأظنه كان سعيدًا جدًّا بلقائك مُجددًا؟»

«نعم، كان كذلك بالفعل.»

«والآن يا سيدة تريزيرو، من أجل صالح العدالة، نريد الوصول إلى الحقيقة. حين كنتِ أنتِ وجاي ماركنمور وحدَكما في بيتك، مساء يوم الإثنين، هل طلب منك الزواج؟»

«نعم، طلب ذلك.»

«وماذا كان ردُّك؟»

أجابت السيدة تريزيرو قائلة: «وعدتُه بأن أتزوَّجَه.»

الفصل السابع

السيدة براكسفيلد تؤيِّد

وسط الاهتمام الذي سرى في أرجاء القاعة مصحوبًا بهمهمات الحاضرين، نظر السائل نظرةً ذات مغزًى إلى المُحلَّفين الاثني عشر، وكأنَّ لسان حاله يطلُب منهم الإصغاء جيدًا، ثم التفت مُجددًا إلى شاهدته.

«إذن فقد قبلتِ عرضَه بالزواج. هل حدَّدتما موعدًا لذلك؟»

«نعم.»

«متى؟»

«فورًا تقريبًا. ولهذا السبب، أخبرَني بأنه مُضطر إلى الذهاب إلى نيويورك لأجل عملٍ شديد الأهمية في غضون الأسبوع أو الأسبوعين المُقبلَين. فقررتُ الذهاب معه. لذا رتَّبنا لحصوله على رُخصة مدنية خاصة ثم الزواج فورًا.»

«هل حدَّدتُما أي تاريخ معين؟»

«نعم. صباح الإثنين المقبل، في ساوثهامبتون.»

«إذن، يُمكننا أن نعتبِر أنكِ وجاي ماركنمور، في ظلِّ ما كان بينكما من حبٍّ قديم، ولَمَّا صرتِ متاحة للزواج، قد تجدَّد حُبكما وقررتُما الزواج فورًا بلا أي تأخير؟»

«نعم، أظن ذلك.»

«جيد جدًّا. والآن يا سيدة تريزيرو، أُريدكِ أن تعودي بذاكرتكِ إلى أيام عزوبتك. لقد اعترفتِ بأنَّ كثيرين كانوا يسعون إلى خطبتك. أليس صحيحًا أنك كنتِ تُفضِّلين، من بين هؤلاء الكثيرين، شابَّين من هذه المنطقة تفضيلًا خاصًّا، وأنَّ أحدهما كان السيد جاي ماركنمور والآخر كان السيد جون هاربورو، الذي يعيش في منزل جرايكلويستر.»

لم تُبدِ السيدة تريزيرو أيَّ تردد في الإجابة عن هذا السؤال.

إذ اعترفت قائلة: «كانا في مقدمة المفضلين عندي — آنذاك — بالتأكيد.»

«إلى حد أنَّ الناس في هذه المنطقة قد شاع بينهم أنَّك لا تستطيعين حسمَ قرارك واختيار واحدٍ منهما؟»

«أظنُّهم كانوا يقولون ذلك.»

«الآن، آلَ الوضعُ في النهاية إلى عدم زواجك بأيٍّ منهما، بل وزواجك من شخصٍ آخر.»

«كانت لديَّ أسباب.»

«ما الأسباب؟ كل هذا مهم للقضية الماثِلة أمام هيئة المُحلَّفين. فلتُخبرينا بالأسباب.»

«حسنًا، لقد صار كلاهما يُضمِر غَيرةً شنيعة من الآخر. تحوَّلا من صديقَين مقرَّبَين إلى عدوَّين لدودَين. أو بالأحرى، كان هاربورو يُكِنُّ عداءً خبيثًا فظيعًا تجاه جاي. فقد ظنَّ هاربورو أنَّ جاي قد سمَّم أفكاري تجاهه.»

«وهل سمَّم جاي أفكارك تجاهه؟»

«كلَّا، لم يفعل! لكنَّ هاربورو دائمًا ما كان غيورًا وشكَّاكًا، وصار شديد ... شديد العنف في كل شيءٍ إلى حدِّ أنني ... حسنًا، رفضته.»

«و... ماذا فعلتِ بعدئذٍ مع غريمه؟»

بدأت السيدة تريزيرو تفرُك خواتمها بأصابعها.

وأجابت بعد سكوتٍ لحظي: «حسنًا. الحقيقة أنني ... أنني سئمتُ هذا النزاع؛ لذا قلتُ لجاي إنَّ استمرار علاقتنا مُستحيل، وقبلتُ زواج الكولونيل تريزيرو.»

«فهمت. لقد تخلَّصتِ من كِلا الشابَّين الساعِيَين إلى خطبتك، وتزوجتِ رجلًا أكبرَ سنًّا وأرشد عقلًا. ممتاز. ولكن الآن يا سيدة تريزيرو، أظن أنَّ شيئًا ما قد حدث قبل ذلك. لقد قلتِ للتوِّ إنَّ هاربورو كان يُكِنُّ عداءً خبيثًا فظيعًا تجاه جاي ماركنمور. والآن، هل صحيح أنَّ هاربورو توعَّد غريمه في حضورك؟»

«نعم، صحيح.»

«متى؟ وفي أي مناسبة؟»

«كان يومًا التقانا فيه أنا وجاي ونحن عائدَين من الصيد. اندلعتْ ثورة غضبٍ صاخبة؛ فقيلت ألفاظ نابية غاضبة وفقدَ هاربورو صوابه. قال لجاي إنه سيقتله. وأعرف يقينًا أنه توعَّدَه بعدئذٍ مرةً أخرى؛ إذ قال إنه سيقتله.»

«من أين لك هذا اليقين؟»

«لأنَّ جاي أخبرَني به.»

«أكان خائفًا من هاربورو؟»

«أظنه كان كذلك. فهاربورو كان ينتابُه غضبٌ أسودُ بغيضٌ جدًّا حين يَحُول أحدٌ بينه وبين مُبتغاه.»

«وما السبب المُحدَّد الذي جعله يتوعَّد بقتل غريمه؟»

«حسنًا، كما قلتُ للتو، كان يتصوَّر أنَّ جاي قال لي أشياء مُنفِّرةً عنه، وأنَّ فُرَصَه في الزواج بي قد تحطَّمت بسبب ذلك.»

«إذن، أفهم من ذلك أنَّ هاربورو، في تلك الفترة، طلب منك الزواج؟»

حدَّبت السيدة تريزيرو حاجبيها في نظرة ذهول.

وأجابت قائلة: «مرارًا وتكرارًا!» وأضافت: «دائمًا ما كان يطلُب منِّي الزواج.»

«و... هل أعطيتِهِ أي إجابة قاطعة؟»

«لا أظنُّني قد استقررتُ على إجابة قاطعة. ففي إحدى الفترات ربما كنتُ سأقبل، ثم أرى أنني سأرفض. كلَّا، لا أظنني قلت قَط إنِّي سأقبل أو سأرفض، قطعًا.»

«وأفترضُ أنَّ فرصة جاي ماركنمور في أن يتزوَّجك كانت قائمة طوال هذا الوقت.»

«نعم.»

«هل كان يطلُب منك الزواج أيضًا؟»

«أوه نعم. دائمًا ما كانا يُضايقانني بإلحاحهما المُستمر ... كلاهما.»

«وفي النهاية تصوَّر هاربورو أنَّ غريمه يتعمَّد إضعاف فرصته؟»

«نعم، بالتأكيد. هكذا قال.»

«ولنا أن نقول إنَّكِ رفضتِ كلَيهما لاحقًا، وقبلتِ زواج الكولونيل تريزيرو؟»

«نعم.»

«هل رأيتِ أيًّا منهما مُجددًا بعد خطبتك إلى الكولونيل تريزيرو؟»

«لم أرَ جاي ماركنمور قَط. أمَّا هاربورو، فرأيتُه مرةً واحدة. التقيته في عصر أحد الأيام بالقُرب من هنا، مصادفة.»

«هل حدث بينكما أي شيء؟»

«نعم. انخرط في واحدةٍ من نوبات انفعاله. وبَّخني بحدَّة. قال إنني أوهمته طوال ثلاث سنوات بأنني أحبُّه، ثم هجرته. وأنهى كلامه بتكرار أنه يعرف أنَّ جاي ماركنمور هو السبب وراء ذلك، وأنه إذا صادفه مُجددًا، مهما طال الزمن، فسيُرديه قتيلًا بالرصاص كالكلب.»

حين خفتت الضجَّة التي أحدثها هذا الرد في القاعة، رمق السائل السيدةَ تريزيرو بنظرة متفحِّصة.

«أتُقسِمين على أنَّه قال ذلك، بموجب قَسَمك على قول الصدق؟»

«أُقسِم، بموجب قَسَمي على قول الصدق.»

«هل قال لك هاربورو إنَّه إذا التقى جاي ماركنمور مُجددًا، مهما طال الزمن، فسيُرديه قتيلًا بالرصاص كالكلب لأنَّه هو السبب في تحطيم فُرَص هاربورو في الزواج بك؟»

«نعم. هذا بالضبط ما قاله.»

«إذن، أفهم من ذلك أنَّ هاربورو كان يُحبك بشدَّة آنذاك؟»

قالت السيدة تريزيرو بنبرةٍ خفيضة: «بل بجنون، على ما أعتقد! كان يتصرَّف كالمجنون. وكنت خائفة منه.»

«وحين أطلق هذا التهديد، كان جاي ماركنمور قد رحل من هنا بالفعل؟»

«أوه نعم، قبل ذلك بوقتٍ قصير.»

«وهل رحل هاربورور بعد ذلك على الفور؟»

«رحل قبل زواجي ببضعة أيام.»

«الآن، في أثناء سنوات زواجك السبع — أو الست بالأحرى، على ما أظن — هل التقيت هاربورو أي مرة؟»

«إطلاقًا!»

«هل وصلتكِ منه أي أخبار في تلك الفترة؟»

«لا.»

«ولا عنه؟»

«سمعت — مرة واحدة فقط — من أحد أصدقائي في سيلكاستر أنه لا يزال بالخارج، وأنَّ منزل جرايكلويستر كان مُغلقًا آنذاك لبضع سنوات.»

«جيد جدًّا. ثم مات زوجك بعد ذلك بفترة، وعُدتِ إلى إنجلترا وأخذتِ بيت الأرملة الموجود هنا. وفي يوم الإثنين الماضي، عاد السيد هاربورو إلى جرايكلويستر. والآن، يا سيدة تريزيرو، أودُّ أن أسألك سؤالًا بالغ الأهمية. هل التقيتِ جون هاربورو يوم الإثنين الماضي؟»

خيَّم على القاعة صمتٌ مُطبِق. فقد تردَّدت السيدة تريزيرو في إجابتها. واشرأبَّت أعناق الحاضرين جميعًا ترقبًا لما ستقوله. ثم تحدثت أخيرًا.

«نعم!»

«أين؟ وفي أي وقت؟»

«أمام بوابات بيته، عند جرايكلويستر، في حوالي الخامسة عصرًا.»

«هل كنتِ وحدك؟»

«نعم. خرجت لأتمشَّى وحدي قليلًا، مع كلابي.»

«أكان اللقاء مصادفة؟»

«بالتأكيد. فلم أكن أعرف إطلاقًا أنه عاد إلى الديار.»

«هل شهد اللقاء أي ... حرج، إن جاز لنا أن نُسمِّيَه هكذا؟»

«حسنًا، نعم. كنت متفاجئة. أمَّا هو، فبدا مذهولًا ومضطربًا. تصافحنا بالطبع وتحادَثْنا قليلًا. مجرد حديث عادي.»

«هل تضمَّن أي إشارة إلى علاقاتكما السابقة؟»

«لا.»

«أي كان مجرد حوار مُهذَّب، دون التطرُّق إلى شيءٍ مُعين؟»

«هكذا بالضبط. لكنه سأل عمَّا إذا كان يستطيع — أو بالأحرى عن الوقت الذي يستطيع فيه — أن يأتي لزيارتي.»

«وماذا كان ردُّكِ؟»

«كان ردي ... حسنًا، أخبرته أنه يستطيع الحضور متى شاء. فماذا عساي أن يكون ردِّي سوى ذلك؟»

«هل كان يعرف أنك صِرتِ حرة؟ وأنَّ الكولونيل تريزيرو قد مات؟»

«أوه نعم، لقد ذكرت ذلك بنفسي.»

«ثم افترقتُما، حسبما أظن؟»

«نعم.»

«وأين رأيتِه بعد ذلك؟»

«في صباح اليوم التالي، في غرفة الجلوس النهارية هنا، حين جئتُ لتقديم التعازي في وفاة السير أنطوني، وسمعتُ أنَّ جاي قد مات.»

«وأعتقد أنكِ اتهمتِه في الحال بأنه القاتل؟»

«نعم.»

سكت المُحامي عن الاستجواب، وتردَّد بعض الوقت، ثم جلس في كرسيه فجأة، وبدا أنه قد اكتفى بهذا القدر، وأخرج علبة سعوط من جيبه، ثم نقَرَ عليها بروية قبل أن يأخذ

منها كمية كبيرة ويتنشقها. كانت همهمات من الإثارة قد سَرَت بين الحاضرين حين أدلت السيدة تريزيرو بإجابتها القاطعة الأخيرة، ولم تكد الهمهمات تتلاشى حتى قام السيد ووكينشو، محامي السيد هاربورو، إلى الطاولة. وحدَّق بإمعان إلى الشاهدة.

قال لها: «أريد أن أطرح عليكِ سؤالًا مُحددًا جدًّا. وأريد إجابة قاطعة تمامًا. هل تعتقدين صدقًا أنَّ السيد جون هاربورو قد قتل جاي ماركنمور؟ فكِّري!»

ردَّت السيدة تريزيرو في تحدٍّ: «فكَّرت!» ثم أضافت: «أعتقد ذلك بالفعل.»

«تعتقِدِين أنَّ السيد هاربورو ظلَّ مُضمِرًا رغبته في الثأر — إن كان قد رغب فيه أصلًا بالفعل — طوال سبع سنوات، واغتنم الفرصة الأولى لإشباعها؟»

قالت السيدة تريزيرو مُبدِية بعض التجهُّم: «أظنه أطلق النار على جاي ماركنمور.»

«هل تظُنِّين أنَّ السيد هاربورو عاد إلى الديار وهو ما زال يُحبك؟ أجيبي!»

«أظن هذا مُمكنًا. فطالما كان يقسِم على أنَّه لن يُحب امرأةً أخرى سواي أبدًا. ومن المؤكَّد أنه لم يتزوَّج.»

«سأقترح عليك هذا الافتراض. التقى السيد هاربورو بكِ عصر يوم الإثنين. لنفترِض أنَّ كلَّ حُبِّه القديم قد تجدَّد بمجرد رؤيتك، ولنفترض، فوق ذلك، أنه قرَّر السعي مرة أخرى إلى خطبتك. هل تعتقدين أنه من المُرجَّح أن يستهل مساعيه بإطلاق النار على رجل؟»

«لن أفترض أي شيء. أعتقد أنه أطلق النار على جاي. التقيا — مصادفة — وأطلق عليه هاربورو الرصاص.»

«أنتِ سريعة جدًّا في إطلاق التأكيدات يا سيدة تريزيرو! تؤكِّدين بكل هدوء أنهما التقَيا. كيف! في الرابعة صباحًا، في ماركنمور هولو؟»

نظرَت السيدة تريزيرو حولها. كانت نظراتها الخاطفة المُتقطِّعة قبل هذه اللحظة مقصورةً على قاضي التحقيق وأعضاء هيئة المُحلَّفين، لكنها في هذه المرة ألقت نظرة شاملة على القاعة المكتظة. وبينما كانت تلتفت لتواجِه السيد ووكينشو مرةً أخرى، ابتسمت ابتسامةً توحي بازدراء لتلميحه الخبيث.

ردَّت قائلة بكل جرأة: «أعرف أنَّ جون هاربورو كان هناك في ماركنمور هولو في الرابعة صباحًا من ذلك اليوم. وأعرف أيضًا أنه قد شُوهِد هناك!»

فسكت ووكينشو فجأة. والتفت ناظرًا إلى مُوكِّله، وكذلك التفت إليه كلُّ مَن كان في القاعة. وسرَت موجة من همهمات الدهشة في القاعة مرةً أخرى. عاد ووكينشو إلى هاربورو، الذي جلس صامتًا بلا حراك، وهمس له المحامي بسرعة، فاكتفى هاربورو

بإيماءةٍ شبه لا مُبالية. وبعد ذلك بلحظة، صُرفت السيدة تريزيرو من مقصورة الشهود، واستُدعيت شاهدة أخرى إليه.

«إليزابيث براكسفيلد!»

شعر السيد فرانسيمري ورفاقه الأحد عشر باهتمامٍ جديد ينشأ في نفوسهم وهم يُحدِّقون إلى مالكة نزل سيبتر السابقة. وكان أحد عشر منهم يتساءلون بالفعل عمَّا ستقوله. لكنَّ السيد فرانسيمري، في ظل درايته بعادات السيدة براكسفيلد الصباحية المُبكرة، بدأ يتوقَّع ما ستقوله.

ترك قاضي التحقيق مهمة استجواب هذه الشاهدة للمُحامي الذي كان يمثِّل سلطات الشرطة. ولم يُضِع المحامي وقتًا قبل التطرُّق إلى صلب الموضوع مباشرة.

«أعتقد يا سيدة براكسفيلد أنَّك كنتِ تُدعَين سابقًا بالسيدة رين، وكنتِ آنذاك تملكين نزل سيبتر، وأنَّك قبل ذلك كنتِ تُدعين الآنسة رولينجز، ابنة توماس رولينجز، الذي كان يملك نزل سيبتر قبل زوجك الراحل بيتر رين، أليس هذا صحيحًا؟»

أجابت السيدة براكسفيلد: «صحيح تمامًا يا سيدي.»

«أي أنَّك عشتِ طوال حياتك في ماركنمور، وتعرفين كل أهلها؟»

«نعم يا سيدي؛ بل وأعرف الموجودين في نطاق أميالٍ عديدة حولها.»

«هل تعرفين السيد جون هاربورو؟»

«نعم يا سيدي، أعرفه منذ صباه.»

«هل رأيتِه صباح الثلاثاء الماضي؟»

«أجل.»

«في أي وقت؟»

«الساعة الرابعة وعشر دقائق.»

«أين؟»

«بالقُرب من بيتي يا سيدي؟»

«وأين يقع بيتك؟»

«فوق الروابي يا سيدي؛ منزل وودلاند كوتيدج، على بُعد نحو مائتي ياردة من مُنخفَض ماركنمور هولو.»

«كيف لك رؤيته — هو أو أي شخص آخر — في تلك الساعة من الصباح الباكر؟»

«لا غرابة في ذلك يا سيدي. فأنا غالبًا ما أنهض من فراشي في الساعة الرابعة، مع سطوع ضوء الفجر. فأنا أُربِّي الكثير من الطيور الداجنة، وأنهض للاعتناء بها.»

«وهل كان الضوء ساطعًا في ذلك الصباح؛ أي صباح الثلاثاء؟»

«ساطعًا بما يكفي يا سيدي.»

«ساطع بما يكفي لأيِّ مدًى من الرؤية؟»

«حسنًا يا سيدي، حين نظرتُ من نافذتي، استطعتُ رؤيةَ الكثير. بيت ماركنمور كورت هنا، والقرية، وكل ما أمامهما، ومنارة ويذرسلاي على أحد الجانبين، وأجمة بول كلامب على الجانب الآخر. فقد كان ذلك الصباح أكثر صفاءً وإشراقًا من المُعتاد، وكان صافيًا ومشرقًا جدًّا.»

«ورأيتِ السيد هاربورو؟»

«أجل يا سيدي.»

«من نافذتك؟»

«من نافذتي.»

«أين كان حين رأيتِه؟»

«كان نازلًا على جانب التل من ناحية ماركنمور هولو يا سيدي. كان ماشيًا بمُحاذاة جانب أحد الأسيجة.»

«كم كان يبعُد عنك حينئذٍ؟»

«حوالي مائة ياردة.»

«كان السيد هاربورو، حتى اليوم الذي سبق ذلك، بعيدًا عن ماركنمور طوال سبع سنوات. ألم تندهشي كثيرًا حين رأيته هناك؟»

«كلَّا، لم أندهش يا سيدي.»

«لِمَ لمْ تندهشي؟»

«لأنني كنتُ قد سمعت أنه عاد إلى الديار مُجددًا؛ سمعت ذلك في الليلة السابقة. كنتُ قد نزلت إلى القرية، وكان الجميع يعرف أنه عاد إلى الديار.»

«وهل أنتِ مُتيقنة من أنَّ الرجل الذي رأيته كان السيد هاربورو؟»

«تمام اليقين يا سيدي. مُستحيل أن أكون قد أخطأتُ في ذلك.»

«حسنًا، إلى أين كان ذاهبًا؟»

«أسفل جانب التل المُنحدِر في اتجاه بيته يا سيدي، جرايكلويستر.»

«وكم يبعُد جرايكلويستر عن وودلاند كوتيدج؟»

«نصف ميل يا سيدي.»

«هل كان مهرولًا حين رأيتِه؟»

«لا يا سيدي؛ بل كان يمشي بوتيرةٍ عادية، ربما يمكنك القول إنه كان يمشي الهوينى.»

«وأنتِ متأكدة من الوقت الذي رأيتِه فيه، في الساعة الرابعة وعشر دقائق صباحًا؟»

«متأكدة يا سيدي. فلدي ساعة مضبوطة بالدقيقة في غرفة نومي لا تُقدِّم ولا تؤخِّر أبدًا. وكنت قد نظرتُ إليها قبل أن أرى السيد هاربورو مباشرة.»

أومأ المحامي برأسه إلى السيدة براكسفيلد وجلس، وحين لم يَقُم أي شخص آخر ليسألها أي أسئلة، غادرت مقصورة الشهود. فانحنى قاضي التحقيق إلى الأمام نحو بعض مُساعديه المسئولين، وبينما كان يحادثهم هامسًا، نهض ووكينشو واقترب من الطاولة مجددًا.

قال: «السيد هاربورو يرغب في دخول هذه المقصورة، والإدلاء بشهادته يا سيدي. أرى — بعد الأقوال التي سمعتموها للتو — أنَّ الآن هو الوقت المناسب لسماعه.»

فاتَّكأ قاضي التحقيق، الذي كان عجوزًا، في كرسيه وخلع نظارته، ونظر إلى ووكينشو ثم إلى موكله.

قال: «أظن أنَّ السيد هاربورو يعي تمامًا أنه ليس مُلزمًا بالإجابة عن أي أسئلة ربما — إذا أجاب عنها بطريقة مُعينة — قد تُدينه.» وأضاف: «بالطبع إذا كان يودُّ الإدلاء ببيان، فليفعل.»

فقاطعه ووكينشو قائلًا: «ما يُريده مُوكِّلي يا سيدي هو إخبارك وهيئة المُحلَّفين بالحقيقة الصريحة الواضحة بشأنه وشأن تحرُّكاته فيمًا يتعلق بهذا التحقيق. فليس لديه ما يُخفيه ومن المؤكَّد أن قول الحقيقة سينفعه مهما كان النفع ضئيلًا.»

فقال قاضي التحقيق: «جيد جدًّا. دعونا نستمع إلى أقواله الآن.»

فالتفت ووكينشو إلى هاربورو وأشار له بالتوجُّه إلى المقصورة.

الفصل الثامن

رسالة الإدانة

ولكن قبل أن يصِل هاربورو إلى مقصورة الشهود، طرأ تطوُّر جديد. فقد ترك قائد الشرطة، الذي كان مُنهمكًا في محادثة سرِّية مع المُحقق بليك منذ أن عادت السيدة تريزيرو إلى مقعدها، مقعده وذهب إلى المحامي الذي استجوبها، وهمس له بمعلومة. فقام المحامي في الحال والتفتَ إلى قاضي التحقيق.

قال: «إذا كان السيد هاربورو، حسبما فهمتُ يا سيدي، يريد إلقاء بيانٍ أظنه سيكون بمثابة إدلاء بشهادته عن تحركاته في صباح يوم وفاة جاي ماركنمور، فأودُّ اقتراح تأجيل سماعه إلى ما بعد سماع شهادة المُحقق الرقيب بليك، الذي يُباشر هذه القضية منذ اكتشاف الجريمة. فسوف يُقدِّم الرقيب بليك دليلًا أَوَدُّ استجواب السيد هاربورو بناءً عليه. أرى أنَّ هذا التسلسُل سيكون الأنسب للجميع، لا سيما للسيد هاربورو نفسه ومُستشاره القانوني.»

نظر قاضي التحقيق إلى ووكينشو، الذي انحنى مُعربًا عن موافقته.

ثم قال القاضي: «دعُونا إذن نستمع إلى أقوال المُحقق الرقيب بليك.»

نظر هو وبقية مَن كانوا في القاعة ببعض الفضول إلى المُحقِّق وهو يدخل مقصورة الشهود. كان معظم الحاضرين في تلك القاعة لم يرَوا مُحققًا في حياتهم قط. ورأوا أنَّ بليك كان مختلفًا بكل تأكيد عن التصوُّر الذي رسموه في أذهانهم عن ذوي مِهنته. ربما كان عمره ثلاثين عامًا، لكنه بدا أصغر سنًّا من ذلك. كان له وجه ملائكي صبياني بعض الشيء، بل وبدا أكثر طفوليةً كونه حليق الشارب واللحية، وكان يرتدي حلةً زرقاء أنيقة وعصرية جدًّا من نسيج صوفي متين تخلَّلتها خطوط رفيعة ذات درجةٍ أفتح من اللون الأزرق، ونمَّ قميصه ورابطة عنقه عن أنَّه متأنِّق بعض الشيء، أمَّا شعره الذهبي المُصفَّف بعناية، فكان مُتناغمًا تناغُمًا مُثيرًا للإعجاب مع حمرة خدَّيه الجميلة، فيما كانت عيناه

الزرقاوان اللامِعتان الثاقِبتان والمُتيقظتان لافتتَين كخَطَّي شفتَيه الجامدَين، وذقنه المربع المحدد تحتها. وإجمالًا، بدا بليك أشبهَ بضابطِ جيشٍ شابٍّ وسيمٍ من أن يكون شرطيًّا، وبدأ أولئك الذين قد استمدُّوا تصوُّراتهم عن المُحقِّقين من الروايات الخيالية العاطفية يشعرون بأنَّ شخصًا ما قد خدعَهم.

واجه بليك والمُحامي بعضهما بنظراتٍ تنمُّ عن تفاهُمٍ مُتبادل.

قال المحامي: «أعتقد أنَّك المُحقق الرقيب تشارلز بليك من إدارة التحقيقات الجنائية في نيو سكوتلاند يارد.»

أجاب بليك قائلًا: «نعم.»

«فلتُخبِر المحكمة كيف جاء ارتباطُك بهذه القضية.»

قال بليك: «أتيتُ إلى سيلكاستر منذ بضعة أيام بخصوص قضية أخرى. واضطُرِرت إلى المكوث في المدينة، في فندق مايتَر. وفي صباح يوم الثلاثاء، في وقتٍ باكر جدًّا، أرسل لي قائد الشرطة ضابطًا من قوَّته يُبلغني على لسانه بأنه تلقَّى للتو خبرًا عن جريمة قتل مُحتملة في مكان قريب، ويطلُب منِّي ارتداء ثيابي والذهاب معه. ذهبت بالعربة معه ومع طبيب الشرطة وشرطي آخر إلى ماركنمور هولو. وهناك وجدنا جثةَ رجلٍ أكَّد بعض الموجودين أنَّه السيد جاي ماركنمور. فطلب مني قائد الشرطة أن أتولَّى مسئولية الإجراءات، وأخذَ، منذ ذلك الحين، إذنًا من إدارتي لأباشر هذه القضية.»

«من أجل العثور على القاتل؟»

«من أجل هذا الغرَض بالتأكيد.»

«هل سمعتَ شهادة الشهود السابقين يا بليك؟ وأخصُّ بالذكر هنا شهادة هوبز، وشرطي ماركنمور والطبيب؟»

«نعم.»

«أكانت كلها صحيحة؟»

«صحيحة تمامًا.»

«بعدما توليتَ مسئولية الإجراءات، هل رافقتَ الجثمان إلى ماركنمور كورت هنا؟»

«نعم.»

«هل فحصتَ الثياب آنذاك؟»

«أجل؛ فحصًا دقيقًا شاملًا.»

«وماذا وجدت؟»

«محفظة نقود تحوي خمسةً وسبعين جنيهًا في صورةِ أوراقٍ نقدية وعملات ذهبية، معظمها أوراق من فئة خمسة جنيهات. وفكَّة قيمتها خمسة جنيهات واثنا عشر شلنًا وتسعة بنسات في صورةِ عملاتٍ ذهبية وفضِّية ونُحاسية في جيوب بنطاله، وعلبة سيجار فضية، وعلبة سجائر فضية، وحافظة بطاقات فضية، و…»

مال القاضي إلى الأمام.

وقال: «لحظة، إذا سمحت. لقد لفتَ انتباهي أن لا أحد حتى الآن قد قدَّم لنا أي معلومة عن المكان الذي كان السيد جاي ماركنمور يعيش فيه في لندن. ومن ثَمَّ، فهل يُوجَد أي عنوان على البطاقات التي من المفترَض أنَّها وُجِدَت في الحافظة التي يتحدَّث عنها الشاهد؟»

رفع المحامي بعض البطاقات.

وأجاب قائلًا: «معي البطاقات هنا يا سيدي. يُوجَد العديد منها في الحافظة، بعضها يحمِل عنوان محل سكن، والبعض الآخر يحمِل عنوان محلِّ عمل. عنوان محل السكن هو ٨٤٧ بي شارع داون ستريت، في بيكاديلي، أما عنوان محل العمل، فهو ٥٦ شارع فولجريف كورت، في كورنهيل. وأستطيع القول — ويُمكن تقديم ذلك ضِمن الأدلة إذا لزم الأمر — إنَّ الشرطة قد أجَرت تحرِّيات في هذين العنوانين. وقد اتَّضح أنَّ السيد جاي ماركنمور كان لديه في شارع داون ستريت شقةٌ صغيرة لفردٍ واحد استأجرها لأربع أو خمس سنوات. وكان لديه هناك خادم، يُدعى ألفريد بوتشر، كان يعمل لديه طوال ثلاث سنوات. أمَّا في فولجريف كورت، فكان لديه طاقم من ثلاثة موظفين مكتبيين …»

سأل قاضي التحقيق قائلًا: «ماذا كانت مهنة السيد جاي ماركنمور أو عمله؟»

«كان عضوًا في سوق الأوراق المالية طوال ستِّ سنوات يا سيدي. وكما قلتُ للتو، أجرت الشرطة تحقيقًا في شقته وفي مكتبه. ولم تُسفِر التحقيقات في كِلا المكانَين عن معلومة مُحددة، باستثناء أنَّ السيد جاي ماركنمور، في يوم الإثنين الماضي حين كان آنذاك بصحته وحالته المعنوية الجيدة المعتادة، قال لخادمه وكبير موظفيه إنه مسافر إلى الريف عصر ذلك اليوم، لكنه سيعود إلى الشقة لتناوُلِ الفطور في صباح اليوم التالي، وسيذهب إلى مكتبه في الموعد المعتاد، العاشرة صباحًا.»

قال قاضي التحقيق: «تُوجَد مسألة أخرى ربما تكون الشرطة قد أجرت تحرياتٍ عنها. وأذكرها الآن لأننا بطبيعة الحال نُريد معرفةَ كلِّ ما نستطيع معرفته: ألا وهي مسألة حالته المالية. هل كان يمرُّ بأي ضائقة مالية، على سبيل المثال؟»

ردَّ المحامي قائلًا: «لقد أجرت الشرطة كذلك تحقيقاتٍ بين معارف السيد جاي ماركنمور في سوق الأوراق المالية، والأوساط المالية الأخرى يا سيدي. ويبدو بكل تأكيدٍ أنَّ حالة المتوفَّى المالية كانت ميسورة إلى أقصى الحدود، وأنه كان رجلًا فاحش الثراء. يُمكن تقديم كل ذلك ضِمن الأدلة لاحقًا؛ إذ يبدو يا سيدي أنَّك لن تستطيع إنهاء هذا التحقيق اليوم على الأرجح، و...»

فقال قاضي التحقيق: «بالضبط، بالضبط. دعْني أسمع بقية شهادة المُحقِّق.»

استأنف بليك سرد قائمة المُتعلقات كما لو أنَّه لم يُقاطَع أصلًا.

فتابع قائلًا: «ساعة ذهبية وسلسلة ومِدلاة قلادة. وأشياء صغيرة مُتنوِّعة، مثل مطواة صغيرة، ومفاتيح ومقلمة ذهبية. وحافظة رسائل، جديدة نسبيًّا، وحافظة جيب تبدو قديمة بوضوح، وكلتاهما تحوي رسائل.»

«أظنُّ أنَّ كل هذه الأشياء في عُهدة الشرطة يا بليك؟»

«كلها في عهدة قائد الشرطة، ما عدا حافظة الرسائل وحافظة الجيب اللَّتَين أحمِلُهما بحوزتي هنا وسأعرضهما الآن.»

وهكذا غاصت يدُ بليك في جيب الصدر الداخلي في معطفه الأنيق، ثم أخرج حافظة رسائل سوداء من الجلد المغربي وحافظة جيب جِلدية ذات لون أخضر باهت، وعَرَضهما على الملأ.

سأله قاضي التحقيق: «هل تفحَّصت محتويات هذين الشيئين؟»

«نعم. تفحَّصتُ مع قائد الشرطة كل مُحتوياتهما بدقة شديدة حين عثرْنا عليهما.»

«وماذا تحويان؟»

«تحوي حافظة الجيب هذه سبع رسائل، موجَّهة إلى السير جاي ماركنمور، وكلها موقَّعة إما باسم فيرونيكا أو نيكي.»

«هل كلها مكتوبة بخط اليد نفسه؟»

«نعم، وكلها تحمِل العنوان نفسه: مقر قسِّ أبرشية ماركنمور.»

«وما تواريخها؟»

«واحدة فقط هي التي تحمِل تاريخًا مُحددًا: ليلة رأس سنة ١٩٠٤. أمَّا الرسائل الأخرى، فمؤرَّخة بيوم الإثنين أو الأربعاء أو الجمعة، كلٌّ حسب يومها. لكنَّ كل رسالة موضوعةٌ في مظروفها، والأختام البريدية ترجع إلى السنة التي ذكرتُها للتو، ١٩٠٤، والسنة التالية ١٩٠٥.»

«هل من شيء آخر في حافظة الجيب هذه؟»

«نعم. خصلتا شعر — من الواضح أنهما من الشعر نفسه — مَطويَّتان في منديلٍ ورقي، ومنديل قماشي مُزيَّن بشريط زينة من الدانتيل حول جوانبه.»

«هل أطلعتَ أيَّ شخص على هذه الأشياء يا بليك منذ العثور عليها؟»

«نعم. بعدما تشاورتُ مع قائد الشرطة، أطلعتُ السيدة تريزيرو عليها، في منزلها البارحة. وحين رأتها، قالت إنها مَن كتبتِ الرسائل السبع إلى السيد جاي ماركنمور قبل بضع سنوات، وإنها أعطته خصلتَي الشَّعر في الوقت نفسه تقريبًا، وإنَّ المنديل القماشي كان منديلها بالطبع، مُضيفة أنها تعتقد أنَّه سرقَهُ منها يومًا ما.»

«والآن لننتَقِل إلى حافظة الرسائل. ماذا وجدتَ فيها؟»

«رسالتَي عمل، بتاريخ حديث، تُشيران إلى بعض المُعاملات العادية على الأسهم. وفاتورة مدفوعة لوجبة غداء لشخصَين في فندق كارلتون، بتاريخ الثالث من أبريل الماضي. ورسالة ذات طابع خاص تتضمن دعوة على العشاء. وإيصالَين من تاجِرَين في شارع بوند ستريت: أحدهما صائغ والآخر بائع كتب. وفي جيب مُستقل داخلي، وجدت رسالة موضوعة في مظروفها الأصلي، وموجَّهة إلى جاي ماركنمور في ماركنمور كورت، سيلكاستر، وموقَّعة باسم جون هاربورو.»

«هل هذه الرسالة موجودة الآن في الحافظة الموضوعة هناك أمامك؟»

«نعم.»

«هل أطلعتَ أيَّ أحدٍ عليها منذ أن وجدتها؟»

«لم يرَها أي أحد سواي أنا وقائد الشرطة.»

وهنا رفع المُحامي يدَه، وأشار إلى حافة مقصورة الشهود.

وقال بنبرةٍ آمرة حازمة: «أخرِج تلك الرسالة من الحافظة. وسلِّمها إلى قاضي التحقيق.»

خيَّم على القاعة صمتٌ مَمزوج بالتوتُّر بينما كان القاضي، الذي أخذ الرسالة، يسحب ورقة خطابات مَطوية من مظروفها رويدًا ويقرأ محتواها بعدما عدل نظارته. كانت كل العيون مسلَّطة عليه آنذاك، وسارع الجميع ليَرَوا الانتفاضة التي انتفضها الرجل العجوز وهو يقرأ، وطيف الذهول المُنزعِج الذي خيَّم على وجهه. ولأنَّه بَشَر، لم يستطِع كبح صيحة تعجُّب مكتومة طفيفة. ثم طَغَت على هذه الصيحة نبرة المحامي الحادة.

إذ قال: «يجب أن أطلُب منك يا سيدي أن تقرأ هذه الرسالة على هيئة المُحلَّفين.»

التفت قاضي التحقيق إلى السيد فرانسيمري ورفاقه الأحد عشر. كان واضحًا أنَّ هذه المهمة التي فرضتها عليه واجباته لم تكن تستهويه. لكنَّه هيَّأ نفسه، مُلقيًا نظرةً أخرى شملت كل المشهد الذي كان أمامه.

ثم التفت مُجددًا إلى هيئة المُحلَّفين قائلًا: «هذه الرسالة، أيها السادة، مكتوبة على ورقة من ورق الرسائل منقوش عليها عنوان جرايكلويستر، في سيلكاستر، ومؤرخة بتاريخ الثامن من ديسمبر ١٩٠٥. كان نص الرسالة كالآتي:

إلى جاي ماركنمور

في المرة القادمة التي سألقاك فيها، حيثما كانت، ومتى كانت، سواء غدًا، أو بعد عام، أو بعد خمسة أعوام، أو بعد عشرة أعوام، سأرْدِيكَ قتيلًا بالرصاص كالكلب أيها الكلب.

جون هاربورو

وضع القاضي الرسالة على مكتبه وخلع نظاراته، ثم اتكأ على ظهر كرسيه ونظر حوله بهيئةٍ تُوحي بأنَّ شيئًا ما قد أتعبه فجأة. وفجأة كذلك، انحنى إلى الأمام مرة أخرى وأخذ الرسالة ومرَّرها إلى السيد فرانسيمري. وبينما كان أعضاء هيئة المُحلَّفين يتناقلون الرسالة بينهم، نظر محامي السلطات إلى المُحقِّق وأومأ برأسه. فغادر بليك مقصورة الشهود، وحنى قاضي التحقيق رأسه لمحامي السلطات، الذي فهم مغزى هذه الانحناءة والتفت إلى الضابط المساعد للقاضي.

قال له بصوت خفيض: «استدعِ جون هاربورو.»

اتجه هاربورو إلى مقصورة الشهود مرةً أخرى. كان قبل ذلك، في أثناء قراءة الرسالة، يجلس هادئًا مُحدِّقًا إلى القاضي بوجهٍ مُتجهِّم جامد لم يُبيِّن أيَّ شيءٍ ممَّا كان يفكِّر فيه آنذاك. وظل وجهه جامدًا كذلك بالضبط وهو يؤدي القَسَم ويُواجه قاضي التحقيق والمُحلَّفين ومحامي السلطات، الذي كان قد أخذ الرسالة بينما كان هاربورو يتقدَّم إلى مقصورة الشهود، وكان واقفًا في هذه اللحظة مُمسكًا إيَّاها في يُمناه. وبعدما انتظر ريثما أدَّى هاربورو القسم، مرَّر الرسالة عبر الطاولة إلى شرطي، وأشار له بتسليمها إلى الشاهد. ووسط صمتٍ مُطبِق، سأل سؤاله الأول، خافضًا صوته إلى همسٍ خفيضٍ لكنه واضح جدًّا، ومُحدقًا إلى هاربورو بنظرة ثابتة.

«هل كتبت هذه الرسالة؟»

«نعم.»

«هل قصدت ما ذكرته فيها؟»

«حينما كتبتُها ... نعم.»

«لو كنتَ قد التقيتَ جاي ماركنمور في اليوم التالي الذي ذكرته، هل كنتَ سترديه قتيلًا بالرصاص كالكلب؟»

«في اليوم التالي آنذاك ... نعم، كنتُ سأفعل.»

«أو ... بعد عام؟»

«لست مُتيقنًا من ذلك.»

«أو ... بعد خمسة أعوام؟»

«لا، قطعًا لا!»

«هل سمعتَ أقوال السيدة براكسفيلد؟»

«أجل.»

«هل كانت صحيحة؟ هل كنتَ تسير على جانب التل، بالقُرب من بيتها، في حوالي الساعة الرابعة من صباح الثلاثاء الماضي؟»

«كانت أقوالها صحيحة تمامًا، نعم كنتُ أسير هناك.»

«أعتقد أنك ارتحلْتَ كثيرًا في مناطقَ ريفية مهجورة يا سيد هاربورو. هل من عادتك أن تحمِل مُسدسًا؟»

«نعم، أعتاد ذلك.»

«وهل كنت تحمل مُسدسًا حين كنت في الخارج على الروابي صباح الثلاثاء؟»

«نعم، كنت أحمل!»

التفت المحامي إلى هيئة المُحلَّفين. ثم جلس فجأة، وللمرة الثانية في هذا الصباح، أخذ من السعوط كمية ملء ما بين إبهامه وسبابته وتنشَّقها. ثم التفتَ من علبة السعوط إلى قاضي التحقيق. لكنَّ القاضي كان يُومئ برأسه إلى ووكينشو، الذي نهض فورًا وواجه موكله.

قال له: «لقد اعترفتَ للتوِّ يا سيد هاربورو بأنَّك كتبتَ الرسالة التي قُرِئت. فهل كتبتَها تحت تأثير استفزاز شديد؟»

«بل تحت أشدِّ استفزاز على الإطلاق. كنتُ أعتقد يقينًا آنذاك أنَّ جاي ماركنمور قد أوغر صدر الآنسة لايتون ضدي، بخِسة شديدة.»

«وهل ما زلتَ تعتقد ذلك الآن؟»

«لستُ مُتيقنًا إطلاقًا بأي حالٍ من الأحوال. فقد بدأتُ أشك في حقيقة ذلك منذ بضع سنوات.»

«ولهذا قلتَ الآن إنك لو كنتَ قابلتَ جاي ماركنمور بعدما كتبتَ الرسالة بخمس سنوات، قطعًا ما كنتَ ستُنفِّذ تهديدك الطائش؟»

«بالضبط!»

«أي أنَّ غضبك قد هدأ؟»

«بل تلاشى تمامًا.»

«هل لي أن أعتبر أنَّك، حين كتبتَ هذه الرسالة، كنتَ مُتيَّمًا بحُب الآنسة لايتون، كما كانت السيدة المَعنية تُدعى آنذاك، وأنك كنتَ غاضبًا بشدة لأنك ظننتَ أنَّ جاي ماركنمور قد حطَّم فرصتك في الظفر بها؟»

«لك ذلك. فتلك هي الحقيقة.»

«وحين وجدتَ أن لا أملَ لك في الظفر بالسيدة، سافرت إلى الخارج؟»

«نعم، اختفيتُ تمامًا.»

«هل تجاوزتَ مِحنتك؟ تعرف قصدي.»

«لقد تعافيتُ بالتأكيد من وَلَهي بالآنسة لايتون. وأستطيع أن أقول صِدقًا إنَّ قلبي قد تحرَّر من حُبها في غضون عامين.»

«تعافيت؟»

«تمامًا.»

«إذن فقد تلاشى غضبك من جاي ماركنمور؟»

«كُليًّا! لقد بدأتُ أرى أنَّني ربما كنتُ مُخطئًا، وأنني تصرَّفتُ بحماقة شديدة.»

«لنفترِض أنك التقيتَ جاي ماركنمور مرةً أخرى، فماذا كنتَ ستفعل؟»

«كنتُ سأستميحه عذرًا وأمدُّ له يدي وأصافحه.»

«لكنك ... لم تلتقِه مرةً أخرى قَط؟»

«مُطلقًا! لم أرَ جاي ماركنمور، حيًّا أو ميتًا، منذ آخِر مرة رأيته فيها في مَقرِّ إقامة قس أبرشية ماركنمور قبل حوالي سبع سنوات وخمسة أشهر.»

نظر ووكينشو بدَوره إلى هيئة المُحلَّفين. ثم أومأ برأسه إلى شاهده.

قال له: «اسرد، بأسلوبك الخاص، سَير تحرُّكاتك في صباح يوم الثلاثاء الماضي.»

ردَّ هاربورو قائلًا: «أستطيع سرد ذلك في بضع كلمات. عُدت إلى الديار، بعد غياب سبع سنوات، عصر يوم الإثنين. كنتُ مُتحمسًا بعض الشيء لعَودتي ولقاء اثنين أو ثلاثة من أصدقائي القُدامى، وما إلى ذلك. لذا أتيت إلى هذا البيت، على سبيل المثال، ولم أنَمْ جيدًا في تلك الليلة. فضلًا عن أنني دائمًا ما أستيقِظ مُبكرًا جدًّا. ولمَّا لم أستطِع النوم، استقيظتُ في الثالثة صباحًا، وغادرتُ مَنزلي وصعدتُ الرَّوابي إلى أعلى نقطةٍ فيها. ثم رجعتُ عبرَ طريقٍ مارٍّ بمُنخفَض ماركنمور هولو وبيت وودلاند كوتيدج، وعُدت إلى المنزل. كنتُ في غرفة نومي مُجددًا في الخامسة إلا ربعًا.»

«ألم ترَ جاي ماركنمور آنذاك مُطلقًا؟»

«مطلقًا.»

«ولا رجالًا سائرين على الروابي؟»

«لم أرَ أيَّ أحدٍ منذ أن غادرتُ جرايكلويستر حتى عُدت إليه.»

«هل تعرف أيَّ شيءٍ عن مُلابسات موت جاي ماركنمور؟»

«لا شيء!»

«بمُوجَب قَسَمك على قول الصدق. هل أنت بريء من الضلوع بأي شكلٍ في موتِه؟»

«بريء تمامًا!»

جلس ووكينشو، ولمَّا لم يُبدِ أيُّ أحدٍ آخر نيةً لاستجواب هاربورو، غادر مقصورة الشهود بعد قليل. والتفت قاضي التحقيق إلى المسئولين الجالسين إلى الطاولة.

وقال: «قد تبدو هذه مرحلةً مناسبة لإرجاء استكمال التحقيق. لكني فهمتُ أنَّ لدَينا شاهدًا هنا تطوَّع بالإدلاء بمعلوماتٍ يبدو أن لا أحد يعرف طبيعتها، وأظنُّ من الأفضل أن نسمع ما لديه. استدعوا تشارلز جريمسدل.»

الفصل التاسع

لقاء منتصف الليل

التفتت جحافلُ الحاضرين، الذين كانوا يعرفون ماركنمور والمناطق المُلاصقة لها، التفاتًا جماعيًّا في آنٍ واحدٍ بينما كان قاضي التحقيق يتكلم، ونظروا إلى أحد أركان الغرفة، حيث كان يُوجَد رجلٌ مُتكئ بظهره، منذ بداية التحقيق، على ألواح كسوة الجدران المصنوعة من البلوط مُتيقظًا بإمعان لكلِّ ما قيل ومُصغيًا له بكل اهتمام. كان رجلًا عريضَ البنيان وحليق الوجه، باستثناء سالفتَين قصيرتَين كانتا تُزينان أعلى وجنتيه النضرتَين المُفعمتَين بالحيوية، وكان له مظهر كمظهر الفوارس وكان يمضغ قطعةَ قَشَّة ناتئة من زاوية شفتيه الجامدتَين منذ أن جلس القاضي على كرسيه. وقد أبرزت ثيابه هذا المظهر الفروسي؛ إذ كان يرتدي حلَّةً من القماش الصوفي المنسوج والذي كان مزيجًا من خيوطٍ بيضاء وسوداء، وكسوتَين واقيتَين أنيقتَين حول الساقَين من قماش صُوفي مُربَّع ثقيل كاللباد، ورابطة عنق بيضاء مُخصَّصة للفرسان مربوطة بدبوس كبير جميل على شكل حدوة حصان. كان يبدو كأنه مدير حظيرة خيول، لكنَّ جموع الحاضرين كانوا يعرفونه جيدًا بجريمسدِل، مالك نزل سيبتر إن.

كان قاضي التحقيق معذورًا في قوله إنه لا يعرف شيئًا عن الشهادة التي تطوَّع جريمسدِل بتقديمها. والحقيقة أن لا أحد من الحاضرين في تلك القاعة كان يعرف أي شيءٍ عنها. ومن بين جميع مَن كانوا يرمقون مالك النزل بنظرات الفضول، كان أفراد الشرطة أصحاب النصيب الأكبر من هذا الفضول لسببٍ وجيه. ففي أثناء التحرِّيات التي أجراها بليك ومرءوسوه في القرية والحي، كانوا قد زاروا نزل سيبتر وسألوا جريمسدِل عمَّا إذا كان يعرف أي شيء. فقال لهم جريمسدِل آنذاك، بأسلوبه الفطِن المُتحفظ الذي ينمُّ عن درايته، إنه يعرف شيئًا — بل ربما الكثير من الأشياء — وإنَّه سيقول كلَّ ما يعرفه ... في الوقت المناسب والمكان المُلائِم. وقد استخدم بليك كل قُدراته الإقناعية في محاولة

لاكتشاف ما يعرفه جريمسدِل، وفشل تمامًا؛ إذ أصرَّ جريمسدِل، الذي ظلَّ يُلمِّح إلى أنه يعرف الكثير، على رفض التفوُّه بكلمةٍ واحدة حتى بدء التحقيق في موت جاي ماركنمور، وعدم التحدُّث إلَّا أمام قاضي التحقيق وهيئة المُحلَّفين. وبعدما خابت مساعي بليك، أطلق قائدَ الشرطة على جريمسدِل، لكنَّ محاولات قائد الشرطة لم تُكلَّل بنجاحٍ أفضل. فقد قال جريمسدِل آنذاك إنه لن ينطق بكلمةٍ واحدة إلى أن يدخل مقصورة الشهود، ثم أضاف، بغمزةٍ تنمُّ عن دراية، إنَّهم سيُذهَلون بشدة عند سماع أقواله. وها هو ذا في هذه اللحظة صار ماثلًا أمامهم أخيرًا، وكان كلُّ مَن في القاعة من أفراد الشرطة، بدءًا من قائد الشرطة إلى أقلِّهم رُتبة، مُتلهِّفين أشدَّ اللهفة لمعرفة المعلومات التي سيُدلي بها.

ارتأى عدة أشخاص أقوياء الملاحظة من بين الحاضِرين أنَّ جريمسدِل، حين كان على المنصة، بدا كرجلٍ يعرف أهمية شهادته. فكانت عيناه وشفتاه تحمل تعبيرًا بدا كأنَّ لسان حاله يقول إنَّ كلَّ ما شهده التحقيق حتى هذه اللحظة لا شيء، وإنَّ المُهم حقًّا هو أقواله التي سيدلي بها. ورأى محامي السلطات أنَّ هذا الرجل هو أشد مَن رآهم في حياته ثقةً في نفسه وتمالكًا لأعصابه، وأنَّه من أولئك الشهود الذين لن يُزعزِعهم أي شيء، ولن يهزَّ أيُّ شيءٍ شهادتهم حالَما يُدلون بها. وقد بدا أنَّ مظهره كله وسلوكه الهادئ قد جعلا كلَّ مَن في القاعة أشدَّ انتباهًا له ممَّا كانوا لأي شاهدٍ سابق؛ إذ كان فيه طابعٌ ما جعل الجميع يشعرون بأنهم سيسمعون شيئًا بالِغ الأهمية أخيرًا.

تولَّى قاضي التحقيق مسئولية استجواب الشاهد، مُستخرجًا منه بضعَ حقائقَ رسمية. فهو تشارلز جريمسدِل، الذي كان يعمل في السابق سائسًا لدى السير جيمس مارشانت، ثم صار مالكَ نُزُل سيبتر إن في ماركنمور، وحامل رُخصته. عاش طوال حياته في حي ماركنمور، ووُلِد في القرية. كان يعرف كل أفراد آل السير أنطوني ماركنمور. وكان على معرفة جيدة بالراحل السيد جاي ماركنمور بالذات، منذ أن كان مُجرد طفل حتى رحل عن الديار قبل سبع سنوات.

سأله قاضي التحقيق قائلًا: «هل رأيت السيد جاي ماركنمور منذ رحيله عن الديار يا جريمسدِل؟» كان قاضي التحقيق مُتحيرًا بعض الشيء بشأن ماهية الأسئلة التي ينبغي طرحُها على الشاهد، وارتأى أن أفضل شيءٍ هو التطرُّق إلى حقائق نافعة. ثم استطرد: «أعني مؤخرًا؟»

«نعم يا سيدي.»

«متى إذن؟»

«ليل الإثنين الماضي.»

«أين رأيته؟»

«في نزلي، سيبتر.»

«هل أتى السيد جاي ماركنمور إلى نزلك، سيبتر إن، في ليل الإثنين الماضي؟»

«كان السيد جاي في نزلي، سيبتر إن، من الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق من ليل الإثنين إلى الساعة الثالثة والربع من صباح الثلاثاء يا سيدي.»

«أتى إلى هناك؟»

«أتى إلى هناك في الوقت الذي ذكرتُهُ يا سيدي.»

«هل أتى وحدَه؟»

«أتى وحدَه يا سيدي. لكنه لم يظلَّ وحده لبقية الوقت.»

«مَن كان معه؟»

«كان معه رجل واحد يا سيدي من الساعة الثانية عشرة حتى الثانية. ومن الساعة الثانية حتى الثالثة، كان معه رجُلان.»

«التقى رجُلَين في نزلك؟ مَن هما؟»

«لا أعرف يا سيدي.»

«لا تعرف؟ لكني ... أظنك رأيتَهما؟»

«رأيتُ أحدهما يا سيدي. لم أرَ الآخر. أو بالأحرى، لم أرَ سوى ظهره ومِن بعيدٍ بعض الشيء أيضًا.»

نظر قاضي التحقيق إلى هيئة المُحلَّفين ثم إلى المُحامين. وبعدئذٍ التفت إلى مقصورة الشهود.

«أظن يا جريمسدِل أنَّ من الأفضل أن تُخبرنا بكلِّ ما تعرفه؛ عن كلِّ ما حدث في نزلك في ليل الإثنين وصباح الثلاثاء، بأسلوبك الخاص. كلُّ ما عليك أنَّ تسرد ما حدث سردًا واضحًا مباشرًا.»

«حسنًا يا سيدي. في حوالي الساعة التاسعة من ليل الإثنين، كنتُ أقف في بهو نزلي. فدخل رجلٌ من الباب الأمامي فجأة. كان رجلًا طويل القامة وقويَّ البنيان وحسن المظهر، وأظنه كان في الخمسين من عمره تقريبًا. كان قليل من اللون الرمادي يُخالط شعره وشاربه، وكانت بشرته ذاتَ لونٍ نضِر وكان رجلًا نشطًا. كان يرتدي حلةً تويدية رمادية في غاية الأناقة، وكان يعتمِر قُبعةً رمادية كبيرة من تلك القُبعات ذات الحواف العريضة

المرِنة التي يرتديها الرجال هذه الأيام، ولم يكن يرتدي مِعطفًا، وكان يُمسك عكازًا مُزيَّنًا بحلية ذهبية. سألني عمَّا إذا كنتُ مالك النزل، فقلت إنني المالك وإنني في خدمته، وأوصلته إلى حجرة جلوس خاصة أحتفظ بها للطبقة الأرقى من الزبائن. ثم طلَب حجز غرفةٍ لقضاء الليلة؛ لأنه كان لديه عمل في القرية. فأخبرته بأنني أستطيع منحه غرفةً رائعة، وعرضتُ عليه أن أُريه إيَّاها. فأعرب عن رضاه التام بذلك؛ إذ كان مُتيقنًا من أنها ستكون مُريحة، وأضاف أنَّه أُوصِيَ بشدة بنزل سيبتر. ثم أخبرَني بأنَّه ينتظِر زيارة من أحد الرجال، في وقتٍ مُتأخِّر من ذلك المساء، بشأن مسألةٍ تخصُّ العمل، وسألني عمَّا إذا كنتُ أستطيع إعداد عشاءٍ لفردَين في غرفةٍ خاصة، قائلًا إنَّ عشاءً باردًا سيكون مناسبًا. فقلتُ له إنني أستطيع أن أُعِدَّ لهما دجاجةً باردةً ولسانًا لذيذًا وبعض الكعك وجبن ستيلتون قديمًا مُمتازًا، وإنهما يستطيعان الالتقاء في تلك الغرفة؛ إذ كان فيها آنذاك قدْر مناسب من نيران التدفئة، وكنتُ سأؤجِّجها بمزيدٍ من الحطب. ثم سألني عمَّا إذا كان يُناسِبني تقديم العشاء في الساعة الحادية عشرة؟ فقلتُ له إني مُستعِدٌّ لتقديمه وقتما يشاء. واتفقنا على الساعة الحادية عشرة. ثم طلَب منِّي أن أضع له قنِّينة من أفخر أنواع الويسكي الأسكتلندي الموجود لديَّ، وبعض زجاجات المياه الغازية على الخزانة الجانبية، وقال لي إنني أستطيع تقديمَ العشاء متى شئت؛ لأنه كان سيخرج حوالي ساعة ليلتقي شخصًا ما بعدما يحتسي شرابًا. فأحضرتُ له بعضًا من الويسكي الأسكتلندي والمياه الغازية. وبينما كان يحتسي شرابَه، أخرج من جيبه ورقةً نقدية بخمسة جنيهات وأعطاني إيَّاها، قائلًا إنه سيكون في عجلةٍ من أمره على الأرجح في صباح اليوم التالي؛ لذا طلَب منِّي أن آخُذ المبلغَ المُستحقَّ في تلك الليلة على أن أعطيه الباقي عند الفطور، الذي أراده أن يكون جاهزًا في الساعة السابعة صباحًا بالضبط. ثم خرج. أجَّجْت النيران بمزيدٍ من الحطب، وتيقَّنْت من أنَّ كل شيء كان مريحًا وجاهزًا، وفي حوالي الساعة العاشرة والنصف، بعدما أغلقت النزل مُعتزمًا إبقاءَه هكذا طوال الليل، وضعتُ العشاء بنفسي لأنَّ زَوجتي لم تكن بخَير حال وخلدَتْ إلى فراشها مُبكرًا في ذاك المساء. وفي الساعة الحادية عشرة إلا خمس دقائق، عاد الرجل.»

سأله قاضي التحقيق: «وحده؟»

«نعم يا سيدي، وحده. وظلَّ وحدَه في تلك الحجرة ساعةً أخرى. ثم، في الساعة الثانية عشرة إلا خمس دقائق، سمعتُ طرقًا على الباب. فذهبتُ وفتحته، ووجدتُ السيد جاي ماركنمور هناك.»

«كنتَ تعرفه؟ استطعتُ تمييز هويته؟»

«أوه، نعم يا سيدي؛ كنتُ أعرف السيد جاي جيدًا جدًّا في الأيام الخوالي. لم يكن قد تغيَّر كثيرًا.»

«هل تحادثتما؟»

«قليلًا فقط يا سيدي. قال لي: «مَرحبًا يا جريمسدِل، كيف حالك؟» سمعتُ أنَّك أزهرتَ وصِرتَ مالكَ نزلٍ يانعًا.» — أو شيء من هذا القبيل يا سيدي — دائمًا ما كان رجلًا مُهذبًا حتى في مزاحه.»

«هل بدا في حال معنوية طيبة؟»

«بل في أفضل حالٍ يا سيدي! إذ وقف في البهو يضحك ويتحدَّث قليلًا عن الأيام الخوالي، حين كنتُ أراه عادة في حقل الصيد. ثم قال فجأة: «أظنُّ أنَّ لديك هنا رجلًا ينتظِرُني؟» فقلتُ له إن هذا صحيح، وأخذتُه مباشرة إلى الحجرة التي كان الرجل الغريب ينتظِرُه فيها. ثم أدخلته وأغلقتُ الباب عليهما.»

«هل سمعتَ أيَّ تحيةٍ مُتبادلة بينهما يا جريمسدِل؟»

«حسنًا يا سيدي، لم أسمع إلَّا الرجل الغريب يقول: «مرحبًا يا ماركنمور!» وسمعت السير جاي يقول: «مرحبًا أيها العجوز، آسِف لأنني تأخرتُ كثيرًا عليك.» هذا كل ما سمعتُه يا سيدي.»

«ألم تسمع السيد جاي يذكر اسم الرجل الآخر؟»

«لا يا سيدي.»

«لا آنذاك ولا في أي وقتٍ آخر؟»

«لم أحظَ بأي فرصةٍ أخرى يا سيدي. فأنا لم أدخل الحجرة مُجددًا. فقد كان العشاء جاهزًا تمامًا لهما. وكنتُ قد أدخلتُ زجاجتي الويسكي والمياه الغازية اللتَين كان الرجل قد طلبهما، وأجَّجتُ نيران المدفأة. وكان ذلك الرجل قد أخبَرَني، في المرة الثانية التي أتى فيها، بأنَّه هو والصديق الذي كان ينتظِره سيسهران حتى وقتٍ مُتأخر جدًّا على الأرجح؛ لأنهما كانا سيناقشان الكثير من أمور العمل، وقال إنني أستطيع الخلود إلى فراشي إذا شئت، مُضيفًا أنه سيتكفَّل بإخراج صديقه والتيقُّن من إيصاد الباب وإطفاء أنوار الحجرة.»

«وهل خلدتَ إلى فراشك؟»

«لا سيدي، لم أفعل. فأنا نفسي عادةً ما أُطيل السهر، وظننتُ أنه ربما كان يقصد الساعة الواحدة والنصف، أو نحو ذلك، حين قال إنهما سيسهران حتى وقتٍ مُتأخِّر. كنتُ أنا أيضًا سأتناول عشائي، وبعدما تناولته، سهرتُ أدخن في الحانة.»

«هل سمعتَ أيَّ شيءٍ ممَّا دار بين الرجلَين في حجرة الجلوس؟»

«حسنًا يا سيدي، مررتُ عبر البهو مرةً أو اثنتين، وسمعتهما يتحدَّثان.»

«أظنُّها كانت مجرد أصواتٍ عادية؟ أعني أنك لم تسمع أيَّ أصواتِ مُشادَّة، أو أصواتًا مُرتفعة أو أي شيء من هذا القبيل؟»

«أوه لا يا سيدي! مجرد أصوات عادية.»

«جيد جدًّا. والآن، قلتَ للتوِّ إنَّ جاي ماركنمور كان معه رجل واحد حتى الساعة الثانية، وبعد ذلك صار معه رجُلان حتى الساعة الثالثة. فما الذي تقصده بذلك بالضبط؟»

«حسنًا يا سيدي، كنتُ أقصد الآتي. أخبرتُك بأنَّ زوجتي كانت مُتوعكة في تلك الليلة، وخلدت إلى فراشها مبكرًا. وفي حوالي الساعة الثانية صباحًا، صعدتُ إلى الطابق العلوي للاطمئنان عليها. كانت تغطُّ في نوم عميق؛ لذا نزلتُ مرةً أخرى. وبينما كنتُ أمرُّ بباب حجرة الجلوس، ظننتُ أني سمعتُ أصوات ثلاثة رجال بدلًا من رجلَين. فتوقفتُ وأنصت، وسمعتُ بوضوح أنها كانت أصوات ثلاثة رجال. لذا علمتُ آنذاك أنَّ رجلًا آخر قد انضمَّ إلى الرجل الغريب والسيد جاي.»

«لكن يبدو هذا غريبًا يا جريمسدِل! كيف استطاع الرجل الثالث أن يدخُل نزلك دون أن تعرف؟ أظنُّ أنَّ أبواب نزلك كلها كانت مُوصَدَةً في تلك الساعة من الليل، أليس كذلك؟»

«كانت كلها مُوصَدة يا سيدي، ومُغلقة بإحكام. لكنَّ هذا الرجل الثالث كان بإمكانه الدخول بسهولةٍ شديدة. أظنك تعرف نزل سيبتر يا سيدي؟ حسنًا، لعلك تعلم أنَّ لدينا حديقةَ زهور وبستانًا أمام النزل، بين الطريق والنزل. والحجرة التي كان هذان الرجلان موجودين فيها مفتوحةٌ على الحديقة والبستان عبر نافذةٍ فرنسية. أي إنهما كان يستطيعان إدخالَ أيِّ أحد من الخارج عبر هذه النافذة، وبذلك لم يكونا بحاجةٍ إلى فتح أي باب.»

التفتَ قاضي التحقيق إلى هيئة المُحلَّفين والمُحامين.

وقال: «يبدو بذلك أنَّ ثمة موعدًا كان مُتَّفقًا عليه بين هذين الاثنين — أي جاي ماركنمور والرجل الأول — ورجل ثالث.» ثم أضاف مُلتفتًا إلى الشاهد: «جريمسدِل، هل

أنت على يقينٍ من أنَّ الرجل الغريب الذي جاء إلى نزلك في التاسعة من ليل الإثنين لم يذكر أنه كان ينتظر زائرَين اثنين؟»

«تمام اليقين يا سيدي! لقد تحدَّث عن زائر واحد فقط.»

«وهل أنت على يقين كذلك من أنَّه بعد الساعة الثانية كان برفقة رجلَين؟»

«مُتيقن من ذلك يا سيدي. لقد أدركتُ بكلِّ وضوح أنَّ حجرة الجلوس كان فيها ثلاثة رجال يتحادَثون، وبعدئذٍ رأيتُهم؛ رأيتُ الثلاثة كلهم!»

«في حجرة الجلوس؟»

«لا سيدي، بل في الخارج.»

«ما الذي رأيته بالضبط؟»

«حسنًا يا سيدي، بعدما سمعتُ أصوات ثلاثة رجال، عُدتُ إلى كرسيي الوثير في الحانة. أظن أنَّ السيد جاي، بعدما عاد إلى الديار مُجددًا، قد طلَب من شخصٍ ما أن يأتي خلسةً ليرى صديقه هذا، وأنهما سمِعاه يدخُل من بوابة حديقتنا، ففتحا النافذة الفرنسية، وأدخلاه حجرة الجلوس بهذه الطريقة. بالطبع لم يكن في ذلك أيُّ بأس؛ لأنَّ الرجل الأول كان قد حجز غرفةً طوال تلك الليلة، وكان بمقدوره أن يُدخِل أيَّ شخصٍ يريدُه. ونظرًا لوجود السيد جاي، كنتُ أعرف أنَّ الأمور ستسير على ما يُرام. لذا لم أزعِج نفسي بالتفكير في هويته، ظننتُ أنه ربما يكون السيد هاري، أعني ذلك الرجل الثالث. فقُرب الساعة الثالثة، بدأتُ أغفو في كرسيي أمام النار، وأظن أنَّ النعاس قد غلبَني. ثم استيقظتُ على صوت ارتطام بوابة الحديقة عند إغلاقها. فقمتُ واثبًا ونظرتُ إلى الخارج عبر النافذة. رأيتُ ثلاثة رجال على الطريق في الخارج. كانوا ...»

قاطَعَه قاضي التحقيق قائلًا: «هلَّا تتوقَّف قليلًا إذا سمحت. فمن المُحتمَل أن تكون هذه النقطة في غاية الأهمية. الآن، هل تعرف — بالضبط — التوقيت الذي رأيتَ فيه ذلك يا جريمسدِل؟»

«نعم يا سيدي! لقد نظرتُ إلى الساعة الموضوعة على رفِّ المدفأة — وهي ساعة مضبوطة للغاية — بينما كنتُ أنهض من كرسيي لأزيح الستارة جانبًا وأنظُر إلى الخارج عبر النافذة. كانت تُشير إلى الساعة الثالثة وسبع عشرة دقيقة بالضبط.»

فقال قاضي التحقيق وهو يُلقي نظرةً خاطفة على هيئة المُحلَّفين: «هذا قبل شروق الشمس بحوالي ساعةٍ ونصف. والآن يا جريمسدِل، كيف استطعتَ أن ترى في ذلك الوقت من الصباح الباكر؟»

«حسنًا يا سيدي، كانت تلك ليلةً صافية، وكان فيها بصيص من ضوء القمر، وإجمالًا، كانت ليلة مناسبة للرؤية؛ إذ كان يُنيرها ما يُمكن أن تُسمِّيه ضوءًا رماديًّا. استطعتُ رؤية حظائرنا على الجانب الآخر من الطريق بوضوحٍ كافٍ، والأشجار القريبة من هناك، والطريق. ورأيت الرجال الثلاثة — أعني هيئاتهم الجسدية — بوضوح.»

«ماذا كانوا يفعلون؟»

«كانوا يسيرون ببطءٍ على الطريق مُبتعِدين عن سيبتر ومُتجهِين صوب جرايكلويستر وميتبورن يا سيدي.»

«هل استطعتَ تمييز كل واحدٍ منهم عن الآخر؟»

«نعم يا سيدي. عرفت أيُّهم كان السيد جاي، وأيهم كان الرجل الأول الذي أتى إلى سيبتر. كان السيد جاي يتوسَّط الرجُلَين الآخرين، وكان الرجل الذي جاء في الساعة التاسعة على يساره، فيما كان الرجل الثالث على يمينه.»

«كيف كان يبدو هذا الرجل؟»

«كان رجلًا طويل القامة يا سيدي، طوله ستة أقدام على الأقل.»

«وهل استطعتَ أن تتبيَّن ما إذا كانت هيئته الجسدية هي هيئة أيِّ شخصٍ من أهالي هذه المنطقة؟»

بدأ جريمسدِل يُبدي علامات التردُّد لأول مرة منذ دخوله إلى مقصورة الشهود. فقد سكتَ وهو يهزُّ رأسه.

ثم أجاب قائلًا: «حسنًا يا سيدي، لعلك تضع في حسبانك، إذا سمحت، أنَّ الضوء لم يكن قويًّا كما ينبغي. لقد كان هذا صعبًا في هذا الوقت من الصباح.»

فسأله قاضي التحقيق: «هل نسجتَ في ذهنك أيَّ تصوُّرٍ آنذاك عن هوية ذلك الرجل؟»

اعترف جريمسدِل قائلًا: «حسنًا، بالتأكيد راودَني تصوُّر؛ أو بالأحرى تخمين.»

«وما هو؟»

تردَّد جريمسدِل مُجددًا.

ثم قال أخيرًا: «كان مجرد تصوُّر. لم يكن سوى … سوى شيء كالخاطرة التي تتبادَر إلى ذهن المرء، أو شيء من هذا القبيل. أُفضِّل ألَّا أقول!»

«يؤسِفني القول إنَّك يجِب أن تقول يا جريمسدِل. من الواضح أنَّك قد تَبادَر إليك تصوُّرٌ ما عن هوية الرجل الثالث حين رأيتَه. والآن، ما هو ذلك التصوُّر؟»

«حسنًا يا سيدي، إذا كان يتوجَّب عليَّ القول، فلا بدَّ أن أقول! لقد تساءلت — وأؤكد أيها السادة أنه كان مجرد تساؤل — عمَّا إذا كان ذلك الرجل هو السيد هاربورو.»

«تساءلتَ عمَّا إذا كان الرجل الثالث، الذي كان يسير إلى يمين جاي ماركنمور على الطريق، هو السيد جون هاربورو؟ هل ظننتَ آنذاك أنَّك ميَّزتَ هيئته الجسدية؟»

«نعم يا سيدي. لكن السبب الوحيد الذي دفعني إلى ذلك هو أنَّ الرجل كان طويلًا جدًّا، وذا بنيانٍ شديد الشبه ببنيان السيد هاربورو، وأنَّ ثلاثتهم كانوا يسيرون صوبَ جرايكلويستر، أي بيت السيد هاربورو، فضلًا عن أنني كنتُ قد سمعتُ آنذاك، كما تعلم يا سيدي، أنَّ السيد هاربورو قد عاد إلى الديار مُجددًا، و... حسنًا، ربما كان بالي مُنشغلًا قليلًا بالتفكير فيه. لا ... لا أريد أن يُقال إنني أقول إنَّ ذلك الرجل كان السيد هاربورو، لأنني لم أقُل ذلك!»

«ألا تستطيع أن تُقسِم أنَّ الرجل الثالث كان السيد هاربورو؟»

«كلَّا يا سيدي، قطعًا لا أستطيع!»

«لكنه كان رجلًا يُشبه السيد هاربورو تمامًا في طول قامته وبنيانه ومظهره الشخصي؟»

«هكذا بالضبط يا سيدي.»

«حسنًا، بخصوص الرجل الأول؛ ذاك الرجل الذي حجز غرفةً في نزل سيبتر. متى عاد إلى هناك بعدئذٍ؟»

«لم يعُد قَطُّ يا سيدي!»

«ماذا! لم يعُد قَط؟»

«لم يَعُد قَط يا سيدي! ولم أرَه قَط منذ ذلك الحين! لديَّ باقٍ قيمته ثلاثة جنيهات وأربعة عشر شلنًا يخصُّه يا سيدي؛ إذ كانت قيمة الحساب المُستحَق جنيهًا وستة شلنات. ولكن كما قلت، لم يَعُد قَط. دخلت حجرة الجلوس بعدما رأيتُهم على الطريق، كانت النافذة الفرنسية مفتوحةً قليلًا وكانت إضاءة المِصباحين قد خُفِضَت. ارتأيتُ آنذاك ألَّا أُبالي بمسألة الخلود إلى فراشي، وبدأتُ أزيل أغراض العشاء وبقاياه وأُرتِّب حجرة الجلوس. بالطبع كنتُ أتوقَّع عودة ذلك الرجل الأول في أي لحظة؛ إذ كنتُ أتصوَّر أنَّه سيكتفي بالتمشية قليلًا على الطريق مع الاثنين الآخرين. لكنه لم يأتِ قَط، ولم أرَه أو أسمع عنه أيَّ شيء قطُّ منذ ذلك الحين يا سيدي.»

أنزل قاضي التحقيق عينَيه نحو المسئولين والمُحامين. وصارت هيئتُه هيئة رجلٍ وجد نفسه عالقًا فجأة في طريقٍ مسدود بعدما سلك عدة طرُق مُلتوية.

قال: «من الواضح تمامًا أن هذا سيكون تحقيقًا مُطولًا. على الشرطة أن تبحث عن الرجُلَين اللذين كانا مع المُتوفَّى في نزل سيبتر إن في منتصف ليل الإثنين وصباح الثلاثاء الباكر. أظنُّ أنَّ من الأفضل أن نُرجِئ استكمال التحقيق الآن.»

قاطعَه محامي السلطات قائلًا: «أودُّ أن أطرح سؤالًا أو اثنين على الشاهد. جريسمدِل، قلتَ إنَّ الرجل الذي جاءك في الساعة التاسعة من مساء الإثنين وحجز غرفةً طوال الليل أعطاك ورقةً نقدية بخمسة جنيهات، على أن تأخُذ منها قيمة حسابك المُستحَق بنفسك. فهل ما زلتَ مُحتفظًا بتلك الورقة؟»

أجاب جريمسدِل وهو يُخرِج محفظة نقودٍ قديمة الطراز: «نعم يا سيدي. ها هي سيدي.»

قال المُحامي: «يجب تسليم هذه الورقة إلى الشرطة. والآن، لديَّ سؤال آخر: أي نوع من الرجال كان ذلك الرجل الغريب؟ هل كان إنجليزيًّا؟»

أجاب جريمسدِل قائلًا: «انطباعي أنَّه كان أحد أولئك الأمريكيين يا سيدي، من لهجته يا سيدي. فحين كنتُ أعمل لدى السير جيمس مارشانت، رأيتُ رجالًا أمريكيين كثيرين؛ فارتأيتُ أنَّه أمريكي.»

«جيد جدًّا، والآن، تبقَّى سؤال واحد فقط. حين رتَّبتَ حجرة الجلوس، هل وجدتَ أيَّ شيء، أي شيء صغير ربما يكون أيٌّ من هؤلاء الرجال قد ترَكَه سهوًا؟ فأحيانًا ما يترك النزلاء بعض المُتعلقات سهوًا عند رحيلهم، كما تعرف.»

فدفع جريمسدِل يدَه في جيبٍ آخرَ وأخرج منه شيئًا.

«وجدتُ يا سيدي، وكنتُ أنوي ذكر ذلك. وجدتُ هذا موضوعًا على مائدة العشاء.»

ورفع مالك النزل غليونَ تبغ مصنوعًا من خشب أشجار الخلنج ومُزيَّنًا بحليةٍ من الفضة، كي يتسنَّى لكل الحاضِرين رؤيته، ثم وضعه على حافة مقصورة الشهود.»

الفصل العاشر

الخاتم والغليون

أخذ المُحامي غليون التبغ وفحصه، ثم مرَّرَه إلى قاضي التحقيق، الذي عاينه سريعًا هو الآخر ثم سلَّمه إلى السيد فرانسيمري وزملائه المُحلَّفين. فمُرِّر الغليون على المُحلَّفين الاثني عشر وعاد إلى المحامي، الذي رفعه إلى جريمسدِل لينظُر إليه مرةً أخرى.

وسأله قائلًا: «وجدتَ هذا — وهو غليونُ تبغٍ مصنوعٌ بجودة فائقة من خشب أشجار الخلنج ومُزيَّن بحلية فضية — على مائدة العشاء في حجرة الجلوس في نزلك بعدما رحل الرجال الثلاثة يا جريمسدِل؟ هل استنتجتَ أنَّ أحدَهم قد تركَه هناك؟»

«أنا واثق من ذلك يا سيدي.»

«ما السبب الذي يجعلك واثقًا من ذلك؟ فأنا أفترض أنَّك استقبلتَ زبائن آخرين في تلك الحجرة في اليوم السابق؟»

«هذا صحيح يا سيدي. لكني أعددتُ مائدة العشاء بنفسي. وكان ذلك الغليون يا سيدي، حين وجدته، موضوعًا على طبقٍ صغير، حيث كان أحد الرجال الثلاثة جالسًا. وكان قد استُخدِم للتوِّ يا سيدي؛ إذ كان وعاء التبغ دافئًا.»

قال المحامي مبتسمًا: «أهنئك على قوة ملاحظتك يا جريمسدِل.» ثم وضع الغليون على المنضدة التي أمامه، وسط أوراقه، والتفت إلى قاضي التحقيق. وأردف قائلًا: «أظنك يا سيدي قد تحدَّثتَ عن إرجاء استكمال التحقيق عند هذه المرحلة.» ثم استطرد قائلًا: «إذا كان لي أن أطرح اقتراحًا، فأظنُّ أنَّ من الأفضل أن تكون مدة الإرجاء كافيةً لإتاحة مُتَّسع من الوقت لإجراء مزيدٍ من التحريات الدقيقة؛ إذ يبدو لي أننا بحاجةٍ إلى تقصِّي الكثير من الحقائق، و…»

فقال قاضي التحقيق: «سنُرجئ التحقيق إلى مثل هذا اليوم بعد أسبوعين.» ثم التفت إلى هيئة المُحلَّفين وأصدر إليهم بعض التعليمات والنصائح بألَّا يتبنَّوا أيَّ حُكم نهائي إلى

أن يُعرَض أمامهم مَزيد من أقوال الشهود والأدلة. ثم قام من كرسيه وهو يُتمتِم مُعربًا عن أمله في أن تكون الشرطة قد كشفت مزيدًا من غموض تلك القضية المُفجِعة بحلول الوقت الذي سيلتقون فيه مُجددًا لاستكمال التحقيق، وكان جليًّا أنه يشعر بالارتياح لانتهاء فعاليات جلسة ذلك الصباح.

سرعان ما خَلَت قاعة الطعام القديمة. فقد بدأ الحاضرون والشهود والمسئولون يُخرِجون أنفسهم من الأركان والزوايا، ويُغادرون القاعة جماعاتٍ مُتفرقة وأخرى متكدِّسة وهُم يناقشون الأحداث والمعلومات التي شهدوها هذا الصباح. فرحلت السيدة تريزيرو مع ضيفيها، فيما غادر هاري ماركنمور وشقيقته القاعة برفقة هاربورو، وخرَج المحلَّفون مُصطفِّين مَثنى وثلاث بعضهم خلف بعض. ولكن في وسط هذه المحكمة المؤقتة، وحول المنضدة الكبيرة التي كان المُحامون والمسئولون جالسين إليها في أثناء التحقيق، وأمامهم دفاتر وأوراق، اجتمع عدة رجال وبدءوا يناقشون الأوضاع نقاشًا غير رسمي، وهُم: قائد الشرطة، وبليك، ومحامي السلطات، وتشيلفورد، ووكينشو، والسيد فرانسيمري، الذي شعر بأنَّ لديه مُسوِّغًا لمحاولة سماع كلِّ ما يُمكن سماعه، بالرغم من التحذير الذي وجَّهه قاضي التحقيق إلى المُحلَّفين.

حين انضم السيد فرانسيمري إلى هذه المجموعة، كان تشيلفورد يقول: «رأيي في ذلك هو هذا بالضبط — وأقوله بصفتي محامي آل ماركنمور — لا بدَّ من إجراء تحريات دقيقة شاملة عن أعمال جاي ماركنمور وحياته الخاصة في لندن! فهذا الأمر لم يبدأ هنا، ولم يُدبَّر له هنا! لذا إن أراد المُحقِّق الرقيب بليك الوصول إلى أصل المسألة، فعليه أن يبدأ في لندن، حيث عاش ماركنمور طوال بضع سنوات مضت.»

فقال مُحامي السلطات، الذي حين أنهى عمله أشعل سيجارة، وكان يُدخِّن بكل ارتياح وهو جالس على حافة المنضدة: «أتظنُّ أن أحدًا قد تتبَّعَه إلى هنا؟» وأردف قائلًا: «أتظن أنها جريمة دُبِّرَت في لندن؟»

فأجاب تشيلفورد قائلًا: «أظنُّ أنَّ ثمة احتمالًا كبيرًا جدًّا أنَّ يكون كلُّ ما سمِعناه صباح اليوم ليس له أي علاقة تقريبًا بالحقيقة الفعلية وراء مَقتل جاي ماركنمور!» وأضاف: «أنا مُتيقن تمامًا — في رأيي الشخصي — أنَّ جون هاربورو بريء مِثلي، ولستُ أقلَّ يقينًا من أنَّ الرجلَين اللذين كانا مع جاي في سيبتر أيضًا بريئان. أغلب الظن أنَّ أقوال هذين الرجلين ستُسمَع، سوف يتطوَّعان بتقديم معلومات. وستجدون أنَّ ذاك اللقاء الذي جرى في سيبتر — ولنقُل إنه كان غريبًا، إن كنتم تريدون ذلك! — لم يكن سوى

لقاء عمل. كلَّا، لم نتوصَّل إلى أي شيءٍ بعد! وكما قلت، إذا أراد بليك أن يُجري بعض البحث والتحري، فعليه العودة والبدء من لندن. فكيف لنا أن نعرف ماهية شئون جاي ماركنمور، أو أسراره؟ فرغم كلِّ ما نعرفه، ربما كان يُوجَد سبب قوي لدى شخصٍ أو آخر للتخلُّص منه.»

قال قائد الشرطة: «ما يُحيرني بشدة هو: كيف دخل الرجلان اللذان كانا مع جاي ماركنمور في سيبتر المنطقة وخرجا منها دون أن يراهما أحد؟ لقد أجرى رجالي بالفعل تحرياتٍ دقيقة للغاية في كل محطات القطارات في الحي، ولم نتوصَّل إلى أي شيء!»

قال ووكينشو: «غريبان أيضًا!»

تساءل تشيلفورد قائلًا: «وكيف لنا أن نعرِف ذلك؟» وأضاف: «يُوجَد رجال كثيرون في نطاق عشرين ميلًا ربما كانت لهم تعامُلات مع جاي ماركنمور في إطار العمل. ربما كانت مهمة جاي التي جاء من أجلها إلى هنا في تلك الليلة مع هذَين الرجلَين لا تختلف عن المهمة التي جاء لتسويتها مع أخيه وأخته. هذا احتمال مُرجَّح.»

فقال ووكينشو: «يؤكد جريمسدِل أنَّ الرجل الأول كان أمريكيًّا. ليس لدَينا أمريكيون كثيرون يعيشون هنا في هذه المنطقة. أستطيع أن أعُدَّهم على أصابع يدي.»

فقال قائد الشرطة: «هذا صحيح. إذا كان الرجل أمريكيًّا — وجريمسدِل يقول إنه التقى عددًا كبيرًا من الأمريكيين إبَّان عمله السابق، ومن المؤكد أنه يعرِف ذلك يقينًا — فقد جاء ذلك الرجل من خارج منطقتنا. لكن ما يُحيرني هو: كيف غادر هو والرجل الآخر المنطقة صباح الثلاثاء دون أن يراهما أحد؟»

كان السيد فرانسيمري، مثل بليك، يُصغي باهتمامٍ طَوال هذا الوقت إلى هذه الآراء والأفكار المتبادلة، ولكن في صمت، وهنا سَعَل بلُطفٍ كما لو كان يُحاول تفادي وصول أي انطباعٍ بأنه يريد التدخُّل في الحديث.

ثم قال: «بمناسبة الحديث عن … عن أمريكا. قد يكون هذا غير مُهم؛ بل وغير مُرتبط بموضوع النقاش، ولكن ربما لي أن أذكر أنَّ باخِرةً بريدية قد غادرت ساوثهامبتون مُتجهة إلى نيويورك في الساعة الواحدة بعد ظهر الثلاثاء الماضي. وماركنمور تقع في نطاق ثلاثين ميلًا من ساوثهامبتون برًّا، وإذا كان هذا الرجل — أي الرجل الأول — أمريكيًّا، فمن المُحتمَل أنه سافر إلى ساوثهامبتون، واستقلَّ تلك الباخِرة، وصار بعيدًا في عُرض البحر قبل أن يعرف ما أصاب الرجل الذي كان قد استضافه على العشاء. أعرف هذه الباخرة؛ لأنني أرسلتُ بعض الوثائق القديمة النادرة عبر البريد إلى أحد أصدقائي في الولايات المتحدة بواسطتها.»

وهنا بَرَم قائد الشرطة شاربه العسكري، ورمق السيد فرانسيمري بنظراتٍ مُتأملة.

ثم قال: «امم!» واستطرد قائلًا: «ربما يُوجَد قدْر كبير من المنطق في ذلك، ربما يكون من المؤكد أنه مكث في هذا المكان في طريقه من لندن إلى ساوثهامبتون. لكنَّ الشيء الغريب أننا لا نستطيع العثور على أيِّ أثر لمجيئه أو ذهابه!»

فتساءل ووكينشو: «لماذا لم يعُد قَط إلى نزل سيبتر، حيث كان له ثلاثة جنيهات وأربعة عشر شلنًا؟»

فقال قائد الشرطة: «لا أعرف. لكنِّي مُتيقن تمامًا من أنه، بغض النظر عن هويته، لم يستقلَّ قطار الصباح الباكر من سيلكاستر إلى لندن، لا من محطة سيلكاستر ولا من محطة ميتبورن، في صباح ذلك اليوم. فلم يستقلَّ القطار آنذاك سوى خمسة ركاب من محطة سيلكاستر، وراكبَين اثنين من محطة ميتبورن، وعمال السكة الحديدية يعرفون كلَّ رجل منهم!»

فقال ووكينشو: «ليس بالضرورة أن يستقلَّ المرء قطارًا ليدخل منطقةً ما أو يخرج منها. اعتقادي الشخصي أنَّ هذين الرجلَين أتيا إلى هنا ورحلا عن هنا بسيارة.»

فنظر قائد الشرطة إليه وأصدر صوت نخر تعبيرًا عن معارضته.

وقال له: «أتظنُّ أنني لم أفكِّر في ذلك؟» وأضاف قائلًا: «لقد جعلتُ رجالي يُجرون تحرِّيات من هذا النوع في كل أنحاء المنطقة! كل قرية مجاورة وكل مزرعة بمبانيها على جوانب التل! ولم نحصل على مثقال ذرة من المعلومات!»

رَدَّ ووكينشو قائلًا: «هذا لا يُفاجئني ولا يؤثِّر فيما قلتُه. لعلك تعرفُ مثلي أننا موجودون الآن في وسطِ ما يُمكن أن نصِفه بالمثلث. على كل ضلع من أضلاعه الثلاثة يقع طريق رئيسي كبير. وعلى كل طريق من هذه الطرق تمرُّ سياراتٌ لا حصرَ لها في الوقت الحاضر. أنا مُتيقن من ذلك؛ لأنني أسكن على طريقٍ منها. أُقدِّر أنَّ ما لا يقلُّ عن أربعين سيارة من أنواع مختلفة تمر ببيتي كل ساعة.»

قاطَعه قائد الشرطة مُشككًا: «ليس في بداية الصباح الباكر!»

فقال ووكينشو: «ما أذكرُه لك هو مُتوسط عددها. من الساعة الخامسة صباحًا فصاعدًا، بالأحرى. هل تظنُّ أنَّ أحدًا سيستطيع ملاحظة سيارة واحدة مُعينة من وسط مئات السيارات التي تأتي وتذهب؟ هذا هراء!»

سأله قائد الشرطة: «أين وضعا سيارتهما حين جاءا إلى سيبتر إذن؟»

ردَّ ووكينشو قائلًا: «لا أجد صعوبة في ذلك. أتعهَّد بإخفاء أيِّ سيارة، مهما كانت كبيرة، في أحد طرُقنا الجانبية أو إحدى مزارعنا، أو في مكانٍ مُواتٍ في منخفضات الروابي،

بضع ساعات دون أن يراها أحد. منطقة معزولة مهجورة كهذه، وفي جنح الليل أيضًا! هذا سهل جدًّا!»

وهنا قال تشيلفورد: «لو كان هذان الرجلان قد جاءا معًا في سيارة واحدة، فلِماذا ذهب أحدُهما إلى نزل جريمسدِل في التاسعة مساء، وذهب الآخر في الثانية صباحًا؟»

رَدَّ ووكينشو قائلًا: «بخصوص تلك المسألة، إذا كنتَ تودُّ الخوض في الأسباب والتفسيرات، فأين ذهب الرجل الأول حين خرج من باب سيبتر بعد أول مرةٍ ذهب فيها إلى هناك؟ لقد ظل بعيدًا حتى قرابة الساعة الحادية عشرة. فأين كان؟»

فقال قائد الشرطة بنبرة شبه مُتحدية: «حسنًا، لقد تحرَّينا عن ذلك أيضًا!» وأردف قائلًا: «لا أحدَ في القرية رأى أي شخصٍ غريب طوال تلك الليلة!»

«ولكن لا أحد كان يعرف بشأنه حتى أدلى جريمسدِل بشهادته.»

فقال تشيلفورد ساخرًا: «أو بالأحرى، مَن سيعترِف بأنه كان يعرف بشأنه؟» وأضاف: «من المؤكد أنَّ ذلك الرجل ذهب إلى مكانٍ ما والتقى شخصًا ما.» ثم أخرج ساعته من جيبه. وقال: «سأعود إلى المنزل لتناول الغداء. فهذه مَضيعة للوقت. نصيحتي لبليك أن تعود أدراجك وتبدأ العمل عند منبع القضية الأصلي؛ في لندن!»

تساءل محامي السلطات ضاحكًا: «ما قول بليك في ذلك؟» كان يُدخِّن السجائر بلا توقفٍ في أثناء حوار الآخرين وقد التزم الصمت. «هيا قُل يا بليك؟»

قال قائد الشرطة: «بليك شابٌّ حكيم. لن يقول شيئًا. ستَتَّبِع نهجك الخاص يا بليك، أليس كذلك؟»

أجاب بليك مُبتسمًا: «كما اقترِح للتو. ومع ذلك، فأنا مُستعد دائمًا لسماع أيِّ اقتراحات.»

قال تشيلفورد: «تعالَوا معي، الساعة الثانية الآن. سأسعد بتقديم بعض الغداء لأيٍّ منكم — بل كلكم — إذا أتيتُم معي. إنه طعام بارد، ولكنْ لديَّ كمٌّ وفيرٌ منه.»

خرج الرجال من القاعة زُمرةً واحدة إلى الرَّدهة. وهناك، رأَوا هاري ماركنمور وأخته آتيَين من غرفة الجلوس النهارية. فتقدَّم هاري نحوَهم وأومأ لبليك.

ثم التفت إلى قائد الشرطة قائلًا: «تريد أختي أن تسأل الرقيب بليك سؤالًا. إنه بخصوص متعلقات أخي الراحل الشخصية.»

التفت بليك إلى فالنسيا، وتوقَّف الرجال الآخرون في اهتمامٍ وانتباه. ونظرت فالنسيا إلى المُحقِّق بشيءٍ من القلق.

وسألته قائلة: «أنت مَن فحصَ ثياب أخي جاي والمُتعلقات التي كانت بحوزته، أليس كذلك؟» وأردفت: «لقد ذكرتَ أشياءَ كثيرة في مقصورة الشهود صباح اليوم. فهل ذكرتَ كلَّ الأشياء؟»

أجاب بليك: «كلها، نعم.»

«كل شيءٍ وجدته؟»

«كل شيء!»

فازدادت عينا فالنسيا قلقًا. ونظرت حولها إلى الوجوه المُنتبِهة.

ثم التفتت مجددًا إلى بليك، قائلة: «لكن ... لكنك لم تذكر شيئًا ما من المؤكد أنَّه كان بحوزة أخي حين خرج من هذا المنزل في الساعة العاشرة والنصف من ليل الإثنين. خاتم! ... خاتم مصوغ بتعقيد بالِغٍ وحرفية شديدة كان يرتديه حول الإصبع الوسطى من يدِه اليُمنى.»

قال بليك: «كان يلبس خاتمًا واحدًا حول الإصبع الوسطى من يده اليمنى. خاتمًا ألماسيًّا فاخرًا جدًّا به فصٌّ واحد.»

فأكَّدت فالنسيا قائلة: «كان يلبس خاتمَين حول الإصبع الوسطى من يده اليُمنى. الخاتم الألماسي الذي تتحدَّث عنه، وذاك الخاتم الآخر. لقد حدَّثته عن ذاك الخاتم حين كان هنا. كان خاتمًا ذا شكل غريب جدًّا، بدا لي كخاتمٍ نحاسي مُطعَّم ببعض المينا. وقد جذب انتباهي لأن ... لأنني أعرف شخصًا لديه خاتم مُشابه له تمامًا، بل نسخة طبق الأصل منه، في الحقيقة.»

فقال بليك بهدوء: «أكملي.» مُضيفًا: «مَن هذا الشخص؟»

أجابت فالنسيا: «السيدة تريزيرو.»

نظر الرجال الواقفون بعضهم إلى بعض.

سألها بليك: «هل أنتِ مُتيقنة من أنَّ أخاكِ كان يرتدي هذا الخاتم الثاني الغريب الشكل حين ترككم؟»

قالت فالنسيا مؤكِّدة: «مُتيقنة من ذلك. بكل تأكيد!»

«وتقولين إنَّ السيدة تريزيرو لديها خاتم مُماثل؟»

قالت فالنسيا: «وترتديه دائمًا.»

قال بليك: «لم يكن يُوجَد خاتم كهذا حول إصبع أخيكِ حين أجريتُ فحصي. ولكن الآن سأتحرَّى عن هذا الأمر.»

عاد هاري وفالنسيا إلى غرفة الجلوس النهارية، وذهب الآخرون إلى الباب الأمامي. ولكن قبل أن يصِلوا إليه، قُوطِع تقدُّمهم نحو مائدة تشيلفورد المِضيافة مرة أخرى. فقد جاءهم شاب تبدو عليه اليقظة والتأهُّب، حاملًا دفترًا في إحدى يديه، وقلمًا رصاصيًّا في الأخرى.

قال بثقة كبيرة: «السيد قائد الشرطة، اسمح لي بتقديم نفسي: أنا السيد سامرز، من صحيفة «ديلي سينتينل»، وقد أُرسِلتُ إلى هنا خصيصى يا سيدي.»

فسأله قائلًا: «ماذا تريد؟» كان قائد الشرطة آنذاك يُفكِّر في لحم البقر المشوي البارد الذي سيأكله لدى تشيلفورد، وكان يضمِر نفورًا غريزيًّا من المُراسِلين الصحفيين. «ليس لديَّ ما أخبرك به أكثر ممَّا سمعتَه.»

فقال السيد سامرز: «سأكون مُمتنًّا إذا أريتني الورقةَ النقدية فئة الخمسة جنيهات التي سلَّمها ذاك الرجل الذي يُفترَض أنه أمريكي إلى جريمسدِل، وغليون التبغ الذي تُرِك في سيبتر.»

فالتفت قائد الشرطة إلى بليك.

وسأله: «ألديك أيُّ اعتراض على ذلك؟»

تدخَّل السيد سامرز، الذي كان واضحًا أنه أحد أولئك الشبَّان الذين لا يألون جهدًا في سبيل إنشاء مادة خبرية جيدة، قائلًا: «أظن أنَّ السيد بليك — من واقع معرفتي بقُدراته العظيمة — ليس لديه اعتراض. فالسيد بليك يا سيدي يُدرك أهمية التغطية الإعلامية — لا سيما في صحيفة واسعة الانتشار كصحيفتنا — مثلما أُدركها.»

قال بليك ضاحكًا: «لا اعتراض إطلاقًا. ها هي الورقة، أظنك تريد رقمها المسلسل؟ بي إتش ٨٨٧٥٦٣. أمَّا الغليون، فهو على الطاولة في الداخل في حيازة الشرطة. هنا، سأريك إيَّاه.»

وعاد إلى قاعة الطعام القديمة مع سامرز، فيما انتظر الآخرون وظلُّوا يتحادَثون عن المعلومات التي ذكرَتْها فالنسيا عن الخاتم. مرَّت بضع دقائق، ثم أخرج بليك رأسه من باب الغرفة إلى الصالة وقد بدا مُتحيرًا بعض الشيء.

نادى قائلًا: «يا قائد الشرطة!» وأضاف: «ذاك الغليون! هل هو بحوزتك؟»

فالتفت قائد الشرطة إليه بتيقُّظ تولَّد فجأة.

وصاح قائلًا: «أنا؟» وأضاف: «لا، ليس بحوزتي. أليس موجودًا هناك؟»

هزَّ بليك برأسه نافيًا، وتحوَّل تعبير الحيرة على وجهه إلى تعبير من الانزعاج والتبرُّم. دخل قاعة الطعام مُجددًا، وسار قائد الشرطة وراءه بخطواتٍ مهرولة. ثم تبعهما الرجال الآخرون، وكان كلٌّ منهم مدفوعًا بفضول كان سيصعُب عليهم تفسير سببه. كان بليك يُفتِّش بعشوائية وسط الأوراق والدفاتر الموضوعة على الطاولة. وكان في القاعة شرطيَّان أو ثلاثة، كما كان فيها عدد مُماثل من مساعدِي المحامين، والضابط المساعد لقاضي التحقيق، وكان عند أحد طرفي الطاولة مُراسِلان صحفيَّان محليَّان مُنهمكان في تدوين ملاحظاتهما.

قال رقيبٌ شرطي كان بليك يُخاطبه: «لم أرَه قَط؛ على الأقل منذ أن رُفع أمام الملأ. رأيت جريمسدِل يُخرجه، ورأيت قاضي التحقيق والمُحلَّفين يتناقَلُونه بين أياديهم، ولم أرَه قَط منذ ذلك الحين.»

تساءل بليك: «مَن آخِر شخص كان الغليون بحوزته؟»

فأجاب محامي السلطات قائلًا: «أنا!» وأردف: «لقد أخذته من هيئة المُحلَّفين، ووضعته على الطاولة، هناك بالضبط.»

قال بليك: «حسنًا، لقد اختفى!» ثم التفت إلى الرقيب الشرطي. وقال له: «هل رحل من رجالك أيُّ شخص ربما يكون قد أخذه معه؟»

أجاب الرقيب: «لم يرحَل أيٌّ منا بعد. جميعنا هنا، كلُّ مَن جاء منا.»

قلَّب بليك كلَّ ما تبقَّى على الطاولة. واكتسى وجهه بفضولٍ شديد، ولم يقُل شيئًا.

قال الرقيب: «كلُّ مَن خرج مِن الغرفة قد مرَّ بهذا الجانب من الطاولة. وإذا أراد أيُّ شخصٍ أن يأخُذه ويسرقه، فما كان عليه سوى أن يمدَّ يدَه. ولم يكن أحد ليلاحِظ ذلك، وسط هذا الزحام.»

فسأل بليك بحدة: «ومَن ذا الذي قد يريد سرقته؟»

ضحك سامرز ضحكةً مكتومة فجأة بينما كان يساعدهم في البحث عن الغليون.

ثم صاح قائلًا: «يُوجَد رجل واحد في الكون ربما كان يرغب بشدة في سرقته!»

فرفع بليك ناظرَيه نحو سامرز عابسًا.

وقال بسرعةٍ وانفعال: «ماذا تقصد؟» وأضاف: «مَن؟ أيُّ رجل؟»

رَدَّ سامرز بضحكة مكتومة أخرى قائلًا: «الرجل الذي تركه سهوًا على مائدة العشاء في سيبتر بالطبع!» واستطرد قائلًا: «كيف لك أن تعرف أنه لم يكن موجودًا بين جمهور الحاضرين الذين كانوا في غاية الاهتمام والاستغراق بالقضية؟ ربما كان موجودًا!»

رمى بليك مجموعةً أخيرة من الأوراق جانبًا، واستدار نحو الباب.

وتمتم قائلًا: «حسنًا، لقد اختفى، على أي حال!»

ناجى سامرز نفسه قائلًا: «واختفى دليل مهم أيضًا. ربما كان بإمكانك أن تَستخدِمه في تقفِّي أثر مالكه الشرعي حتى الوصول إليه يا سيد بليك. لكنني أظنُّه بحوزته الآن، أليس كذلك؟ ذكي! ولكن إذا كان هو الشخص الذي اختلسَه من على هذه الطاولة، فقد صرتَ الآن تعرف شيئًا: إنه شخص موجود في مكانٍ قريب من هنا. أليس كذلك يا سيد بليك؟»

لكنَّ بليك كان قد خرج آنذاك إلى الصالة مُجدَّدًا، وتبِعَه قائد الشرطة والرجال الآخرون.

قال قائد الشرطة: «ما أغرب ذلك يا بليك!» وأضاف: «مَن الذي يُمكن أن يكون قد أخذه، ولماذا؟»

أجاب بليك بصوتٍ خفيض: «ربما يُوجَد بعض الصواب فيما يقوله ذاك المُراسِل الصحفي الشاب. ربما كان الرجل الذي تركه في سيبتر موجودًا هنا صباح اليوم، واغتنم الفرصة ليأخُذَه. ولكن ...»

فقاطعه تشيلفورد قائلًا: «تعالَوا الآن إلى منزلي عَبر المُتنزَّه أيها الرفاق، وتناولوا بعض الغداء. كل شيء جاهز، تفضلوا!»

لكنَّ بليك اعتذر عن عدم الذهاب معهم، قائلًا إن لدَيه عملًا يجب أن يؤديه. كان بليك في اليوم السابق، حين وجد أنَّ عمله في ماركنمور سيَطول عمَّا كان يتوقَّع، قد استأجر غرفًا في نزل سيبتر، وكان يتَّجِه نحوه مُسرعًا في هذه اللحظة. فقد كان لديه الكثير ليُنجِزه، والكثير ليفكِّر فيه. وكان في ذلك الصباح، قبل ذهابه إلى التحقيق، قد أرسل مرسالًا إلى سيلكاستر طالبًا منه شراء بعض الأشياء له؛ ومن ثَمَّ كان أول سؤال سأله عند وصوله إلى سيبتر: هل عاد المرسال؟

فأجابه جريمسدِل قائلًا: «لديك طرود على منضدة غرفة جلوسك يا سيد بليك. والغداء أيضًا هناك.»

جلس بليك ليتناول غداءه وحدَه، وظلَّ يأكل ويشرب بلا توقفٍ طوال نصف ساعة. ثم، حين رُفعت الأطباق من على المنضدة، أشعل غليونه وأخرج مِطواته، وقطع خيَط الطردَين المُرسلَين إليه من سيلكاستر.

الفصل الحادي عشر

الخطوات الأولى

كان المرسال الذي بعثه بليك إلى سيلكاستر في صباح ذلك اليوم، قبل أن يذهب شخصيًّا إلى ماركنمور كورت لحضور التحقيق في ملابسات الوفاة، قد حمل رسالةً إلى أبرز بائع كتبٍ وورَّاق في المدينة القديمة. فقد وجد بليك نفسه في أمسِّ الحاجة إلى أشياءَ مُعينة ليستخدمها في حل المشكلات التي كانت قد بدأت تواجهه للتو، وكان بائع الكتب هو الرجل المناسب لتلبية هذه الاحتياجات. وها هما طَرْدا بائعِ الكتبِ قد صارا لديه، كان أحدهما يحوي شيئًا طويلًا مَلفوفًا ومُغلفًا بعنايةٍ بقماشٍ كتاني، فيما كان الآخر طردًا صغيرًا مُمتلئًا مُغلفًا بورقٍ بُنِّي. فتح بليك هذا الطرد الثاني أولًا، وأخرج منه خريطةَ طُرُق قابلة للطي، وخريطةً عامة للمقاطعة، ودليلَين إرشادِيَّين مَحليين أو ثلاثة، موضَّحة بالصور، وكتيبًا آخر أكثرَ استيفاءً بعنوان «المناطق المُحيطة بسيلكاستر»، كان أيضًا مليئًا بالصور، وأحد سجلات برادشو لمواعيد القطارات، وجدولًا مَحليًّا بمواعيد القطارات والحافلات. ووضَع كل هذه الأشياء على الطاولة وتأمَّلها كلها بإمعانٍ وهو يرتِّبها أمامه؛ إذ كانت تلك هي الأشياء التي يحتاج إليها بالضبط. ولكن خالَجَه اهتمامٌ أكبر بالطرد الطويل المُغلَّف بالقماش، الذي اتضح بعد تجريده من غلافه أنه يحوي خريطة هيئة المساحة الحكومية لقرية ماركنمور والمناطق المُلاصقة لها؛ كانت خريطة مُربعة كبيرة مرسومة على ورق مُقوًى، وكان فيها كل طريق، ودرب جانبي، وممشًى، وبيت، وكوخ ريفي، ومَرج، وغابة، وحقل، وأيكة، ونهر، ونُهير، وسياج نباتي، ومِرقاة لعبور الأسيجة، مُحددًا بعلامةٍ واسمٍ وقياسات دقيقة. ابتهجت غريزة بليك البوليسية حين رأى هذا العمل المُتقَن، ودعا الربَّ أن يُبارك رجال هيئة المساحة الحكومية لعنايتهم الشديدة بأدقِّ التفاصيل في إعداد هذه الخريطة. ثم خرج من غرفته بحثًا عن جريمسدِل، واشترى منه مساميرَ قصديرية، وثبَّت

بها الخريطة على حَيِّز فارغ مناسب على حائط غرفة جلوسه، ووقف أمامها طوال نصف الساعة التالي مُدخنًا غليونه. وفي نهاية تلك الفترة، كان قد حفظ الموقع العام للمنطقة المُحيطة به عن ظَهر قلب، وحفظ أهم أسماء الأماكن الأكثر أهمية في الخلايا السرية في دماغه الألمعي.

بعد ذلك التفتَ إلى السجلات الإرشادية والخرائط وجداول مواعيد القطارات، وظلَّ يتفحصها ساعتَين بتركيزٍ واستغراق. فقد أراد أن يعرف كلَّ شيءٍ عن الطرُق، والسكك الحديدية، والمواعيد؛ صحيح أنَّ ذلك كان عملًا تمهيديًّا مُملًّا لكنه كان بالِغ الأهمية. وفي الحال رأى أنَّ قرية ماركنمور، كما قال ووكينشو في أثناء الحوار غير الرسمي الذي أعقب رفع جلسة التحقيق، تقع بالقُرب من مركزِ شكلٍ أشبه بالمُثلث، وأنَّ كل ضلعٍ من أضلاعه يمتدُّ عليه طرُق رئيسة. كان المثلث الذي شكَّلته هذه الطرق له ضلعان أطول من الثالث، لكنهما مُتساويان، فيما كان الضلع الثالث ذا امتدادٍ أطول. وكانت قرية ماركنمور تقع في الجزء الجنوبي الغربي من هذا المثلث، مائلةً نحو الزاوية التي يصنعها التقاء ضلع القاعدة بأطول الأضلاع الثلاثة، لتكون بذلك أقرب إلى ضلعَين منها إلى الضلع الثالث؛ أي أقرب إلى طريقَين رئيسيَّين منها إلى الطريق الرئيسي الثالث. ومن بين هذه الطرُق الرئيسة الثلاثة، كان اثنان منهما يمتدَّان من لندن إلى قصر ماركنمور كورت في نطاق بضعة أميال من قرية ماركنمور، فيما كان الطريق الثالث كله يمتدُّ على طول الساحل نفسه. أمَّا بخصوص الطرُق السريعة التي تربط بين المدن والبلدات الكبرى، فكانت قرية ماركنمور مُتصلة مباشرةً بلندن، التي كانت تقع عند شمالها الشرقي على بُعد خمسةٍ وستِّين ميلًا بالضبط، وكانت مُتصلة كذلك بعدة مدن ساحلية تقع على مسافاتٍ أقرب منها.

ولكن بالإضافة إلى المُثلث الذي كانت هذه الطرُق الرئيسة تُشكله، كانت القرية محاطة بمثلثٍ آخر تُشكِّله مسارات السكك الحديدية. كانت مسارات السكك الحديدية، في الواقع، موازية للطرُق السريعة وتمتدُّ بمُحاذاتها، بل وكانت تُماثلها تمامًا؛ إذ كان كل طريقٍ وكل مسار سكة حديدية يمتدَّان جنبًا إلى جنب، ولم تتجاوز المسافة الفاصلة بينهما، عند أي موضع، ميلًا واحدًا تقريبًا. وكانت ماركنمور تقع على مقربةٍ من مسارات السكك الحديدية الرئيسية هذه. لذا كان من الممكن الوصول منها إلى عدة محطات بسهولة. فكانت محطة سيلكاستر نفسها تقع عند جنوبها الشرقي على بُعد ميلَين ونصف منها، وكانت محطة ميتبورن تقع شرقها على المسافة نفسها، أمَّا عند جنوبها الشرقي على بُعد ثلاثة أميال منها، فكانت تُوجَد محطة تقاطُع مهمة بعض الشيء، فيما كانت محطةٌ

رابعة تقع شمالها بالضبط بجانب أحد الطرُق على بُعد أربعة أميال منها. وحين رجع بليك إلى جدول مواعيد القطارات، اكتشف أنَّ عددًا كبيرًا من القطارات كان يتَّجِه شمالًا أو جنوبًا، شرقًا أو غربًا، من المحطات الأربع مُجتمعة، بين الساعة الرابعة والسادسة صباحًا، وأنَّ محطتَين من الأربع، محطة التقاطُع المذكورة سلفًا والمحطة الواقعة شمالًا، كانتا تشهدان في السادسة إلا ربعًا من صباح كل يوم انطلاق قطاراتٍ مُخصَّصة للعمال، ومن المؤكَّد أن هذه القطارات كانت تنقل أعدادًا كبيرة من الحِرفيين والصنَّاع والعُمال إلى ميناء الشحن الكبير الواقع على بُعد بضعة أميال على الساحل. وإجمالًا، رأى بليك أنَّ أيَّ رجلٍ ذكي فطِن ما كان سيجد صعوبة في الخروج من منطقة ماركنمور دون أن يُلاحظه أحد باستقلال قطار في الصباح الباكر إلى أي اتجاهٍ من ستة اتجاهات على الأقل.

حين عاود بليك التفكير في مسألة دخول المنطقة والخروج منها عَبر الطُّرُق بالسيارة، تذكَّر ما قاله ووكينشو عن التسهيلات التي أتاحتها المنطقة لإخفاء أيِّ سيارة بنجاح بينما يذهب راكبها أو صاحبها لقضاء حاجةٍ ما. وهنا قدَّمت له خريطة هيئة المساحة على الحائط عونًا جمًّا. فقد كانت تُوضِّح المُخطط العام الكامل لمعالِم البلدة وبِنيتها وتضاريسها. ففي شمال قرية ماركنمور وشمالها الشرقي، خلف بيت جرايكلويستر الكبير الذي يسكنه السيد جون هاربورو، كان منزل ذا وارن الذي يُقيم فيه السيد فرانسيمري، ووودلاند كوتيدج، الذي تملكه السيدة براكسفيلد وتعيش فيه، يقعان فوق الروابي التي، وإن كانت قاحِلة وجرداء عمومًا، كانت تتخلَّلها ممرَّات منخفضة عميقة، وكانت مُمتلئة بمحاجر طباشير مهجورة مُغطاة بطبقةٍ كثيفة من النباتات والشجيرات، وكان يُوجَد كذلك مَزارعُ وأيكات من أشجار تُقطع بصفة دورية، وغابات كثيفة عميقة في أماكنَ مُتفرقة. لذا فقد كان سهلًا على أي شخصٍ أن ينحرف عن الطريق الرئيسي إلى هذه المناطق المهجورة، ويترك سيارةً في ظلال أحد المحاجر المهجورة القديمة، أو وسط أشجار الدردار والزان في إحدى الغابات في الوقت الذي ينزل فيه إلى القرية. وفوق ذلك، لاحظ بليك أنَّ خريطة هيئة المساحة كانت تحمِل علاماتٍ تُميِّز عدة مسارات عُشبية عَبر الروابي، وعند هذه المرحلة كان قد رأى بالفعل ما يكفي من الروابي المُحيطة بمنخفض ماركنمور هولو على طبيعتها ليعرف أنَّ العشب الموجود في الأعلى هناك كان شديد الشبَهِ بالأسلاك النحيلة ومرِنًا وثابتًا جدًّا إلى حدِّ أنَّ المرء يستطيع أن يقود سيارةً عَبره، في أي جزءٍ منه تقريبًا، بسهولةٍ كبيرة كما لو كان يسير على طريقٍ مرصوف بالحصباء ودون تركِ أيِّ أثر.

ومن ثَم، ربما يكون رجلٌ ما قد انحرف عن الطرُق الرئيسة وعَبَر الروابي إلى موضعٍ ما في نطاق بضعة أميال من القرية، وترك سيارته في محجر طباشير قديم مناسب، وكان واثقًا أن لا أحد سيعرف كيف جاء ولا كيف رحل. فهناك في الأعلى، في تلك المناطق المُقفِرة المهجورة، لم يكن ظاهرًا على الخريطة أيُّ بيت أو كوخ أو حتى مزرعة نائية.

وبعدما انتهى بليك من دراسة هاتَين المسألتين من كل الجوانب المُمكنة، انتقل إلى مسألة ثالثة. كان جريمسدِل قد قال إنه، حين رحل الرجال الثلاثة عن نزله في الثالثة والربع من صباح الثلاثاء، رآهم يسيرون على الطريق ناحية جرايكلويستر وميتبورن؛ فوجَّه بليك انتباهه إلى هذا الطريق. كان طريق القرية الرئيسي، في الحقيقة، يقع مباشرةً أمام نزل سيبتر مجاورًا لحديقته الأمامية، وكان مُتفرعًا عند زاوية الحديقة إلى فرعَين: فرع، على اليمين، ينعطِف مباشرة إلى سيلكاستر، والآخر، على اليسار، مُتَّجِه إلى ميتبورن ويمرُّ ببوابات مدخل جرايكلويستر على بُعد حوالي ثلاثمائة ميل من سيبتر. والآن، وفق ما قاله جريمسدِل، سلك الرجال الثلاثة هذا الطريق وظلُّوا سائرين عبره حتى غابوا عن ناظرَيه. لكنَّ جاي ماركنمور، إذا صحَّت شهادة الطبيب، قد أُردِي قتيلًا بالرصاص في حوالي الساعة الرابعة عند مُنخفض ماركنمور هولو على بُعد حوالي ميل شمال هذا الطريق. فكيف وصل إلى هناك؟ أظهرت خريطة هيئة المساحة وعلاماتها الدقيقة المُحدَّدة بعناية شديدة إجابةَ هذا السؤال. فعلى بُعد مائتي ياردة من نُزل سيبتر إن، كان طريق ميتبورن مُحاطًا بممشًى على يمينه وآخر على يساره. كان المَمشى الأيمن، الواقع جنوبًا، يمتدُّ عبر المروج ناحية سيلكاستر، فيما كان المَمشى الأيسر، الواقع شمالًا، يتَّجِه إلى الأعلى نحو الروابي بين جرايكلويستر وودلاند كوتيدج. وبالقُرب من ماركنمور هولو، بل في البقعة نفسها التي عثر فيها هوبز، عامل الحرث، على جثة جاي ماركنمور، كان هذا الممشى يلتقي بممشًى آخر يؤدي مباشرة إلى محطة ميتبورن. وحين رأى بليك ذلك، توصَّل إلى استنتاجٍ مَفاده أنه عندما وصل الرجال الثلاثة إلى هذين المَمشيَين، افترقوا. أحدهم إمَّا عاد إلى القرية (وقد رأى بليك ذلك مُستبعدًا)، أو سَلَك المَمشى الأيمن إلى سيلكاستر (وهو ما اعتبره بليك احتمالًا مُرجَّحًا جدًّا)، فيما سَلَك الرجلان الآخران، اللذان كان جاي ماركنمور واحدًا منهما بالتأكيد، المَمشى الأيسر، وصعدا جانب التلِّ إلى ماركنمور هولو. وهناك، قُتِل جاي ماركنمور بغتةً، وبغضِّ النظر عن هوية الرجل الذي كان معه، سواء ذلك الأمريكي المُفترَض الذي جاء إلى نزل سيبتر في التاسعة من مساء الإثنين، أو الرجل الذي أُدخِلَ إلى النزل في الثانية من صباح الثلاثاء، فقد كان هو القاتل.

حين توصَّل بليك إلى هذا الاستنتاج، شعر بشيءٍ من البهجة. أعاد ملء غليونه وأشعله، ثم وضع يدَيه في جيبيه وخرج مُتسكعًا من غرفة جلوسه وسار عبر الصالة ودخل حجرة الحانة. كان هذا قبل سنواتٍ من فرض قيود الترخيص الصارمة التي صارت الآن تمنع الرجل الحُر الإنجليزي المَولد من التصرُّف بأريحية في نزله وقتما يشاء، ومع أنَّ الساعة كانت الخامسة عصرًا فقط، كان في حجرة الحانة المُريحة عدة زبائن، كانوا عاطِلين قرويين يتحدَّثون عن التحقيق والمأساة التي أدَّت إليه. كان الجميع بالفعل وبلا استثناء قد عرفوا بليك بأنَّه المُحقِّق اللندني الشهير الذي أتى إلى البلدة ليعرف هوية قاتل السيد جاي الشاب المِسكين، ويشنق ذاك الحقير نفسه عند العثور عليه، وكانوا يُحدِّقون إلى شَعر بليك ذي اللون الفاتح وعينيه الزرقاوين ووجهه المستدير المُمتلئ وثيابه الأنيقة ذات الطراز المُتمدِّن كأنَّهم يتساءلون كيف يُمكن لهذا الطفل الملائكي ذي المظهر الشبابي أنَّ يتَّسِم بقدرات النمس ومثابرة كلب صيد الثعالب. لكنَّ بليك تجاهل هؤلاء العواجيز ومُدَّعِي الحِكمة والمعرفة مُكتفيًا بمنحهم إيماءةً ودِّية؛ صحيح أنَّه كان ينوي حقًّا أن يحاول بناء أواصر التعارُف معهم لاحقًا، لكنه في تلك اللحظة كان يريد أن يُحادِث جريمسدِل محادثةً قصيرة على انفراد.

كان جريمسدِل يُلمِّع الكئوس في الطرف الأقصى من نَضد الحانة مُرتديًا قميصًا بلا سترة، فمشى بليك نحوَه مُتسكعًا وانحنى فوق النضد مُقتربًا منه.

قال له هامسًا: «أصغِ إلي!» وأضاف قائلًا: «أريد أن أتحدَّث معك قليلًا على انفراد يا جريمسدِل. بخصوص ذاك الغليون الذي وجدته ...»

فرَدَّ جريمسدِل وهو يميل عبر النضد: «نعم يا سيدي.»

تابع بليك قائلًا: «أظنُّك قد تفحَّصتَهُ جيدًا!»

«هذا صحيح يا سيدي.»

«هل لاحظتَ اسم الشركة المُصنعة أو الأحرف الأولى من اسمها؟»

«نعم يا سيدي. كان أحد غلايين شركة «إل آند كو». أعرف هذه الغلايين جيدًا جدًّا يا سيد بليك؛ فرَبُّ عملي القديم، السير جيمس مارشانت، كان مُعتادًا تدخينها. وكان عادةً ما يُعطيني واحدًا من غلايينه القديمة بين الحين والآخر.»

كان بليك قد تيقَّن بنفسه سلفًا من هذه الحقيقة لكنه أراد فقط أن يعرف ما إذا كان صاحب النزل يعرفها، فقال له: «أحد غلايين شركة «لويفي آند كومباني»، أليس كذلك؟»

«بل «إل آند كو» يا سيدي؛ فهكذا أُسمِّيها وهكذا كانت مدموغة، على الخشب، وعلى الحلية الفضية، وبالطبع كان الغليون يحمِل وسومًا على الحلية الفضية: وسوم أسدٍ وتاج وما إلى ذلك، مثل كل الأشياء الفضية.»

«هل لاحظتَ أيَّ شيء آخر في الغليون؟»

«لاحظتُ شيئَين يا سيد بليك؛ فأنا واحد من النزَّاعين إلى الملاحظة. لقد كان غليونًا جديدًا بعض الشيء، والملاحظة الأخرى أنَّه كان مخدوشًا خدشًا طفيفًا، بل طفيفًا جدًّا، عند حافة وعاء التبغ، كما لو أنَّ صاحبه قد ضربَ به شيئًا حادًّا عند نفض الرماد منه، ربما حافة سياج المدفأة أو كعب حذائه، فاصطدم بمسمارٍ هناك؛ لقد رأيتُ كثيرًا من الغلايين الجيدة مخدوشة هكذا، مهما كان الخشب مَتينًا.»

فقال بليك: «رائع!» وأضاف قائلًا: «لا شكَّ أنَّ لديك موهبةً في الملاحظة.»

ابتسم جريمسدِل.

وقال خافضًا صوته إلى نبرةٍ أخفض: «نعم، حسنًا!» واستطرد قائلًا: «لم أذكُر شيئًا عن ذلك في مقصورة الشهود، ولكن — بيني وبينك — حين عرفتُ كلَّ ما عرفته عن هذه الجريمة، وضعتُ علامةً خاصة بي على ذاك الغليون!»

صاح بليك مُتعجبًا: «أفعلتَ ذلك حقًّا؟» وأردف: «وما هذه العلامة؟»

قال جريمسدِل: «صليب صغير على الشريط الفضي المُحيط بالغليون.» وغَمَز إلى المُحقِّق غمزةً تنمُّ عن دراية. وأضاف: «سأعرف علامتي ... حيثما أراها!»

فأومأ بليك. ثم ألقى نظرةً خاطفة حوله على الرجال الذين كانوا في الركن البعيد من الغرفة.

وسأل قائلًا: «أظنُّهم يثرثرون عن كل ذلك؟»

فأكد جريمسدِل ذلك قائلًا: «نعم.» وأضاف: «ليُباركك الرب! لن يتحدَّثوا عن أيِّ شيءٍ سواه لعدة أيام مقبلة، إلَّا إذا ظهرت دجاجة بأربع أرجل أو عِجلٌ بثلاثة رءوس! فكل ذلك بمنزلة وليمةٍ شهية لهم يا سيد بليك. فأنت كلندني، لا تعرف مدى حُب أهل القرية للثرثرة والقيل والقال!»

سأله بليك: «ومَن الثرثار الأكبر في المنطقة؟»

أجاب جريمسدِل فورًا: «بيني كريبس، خادم الكنيسة. إذا حادثته، سيُخبرك بكل تاريخ ماركنمور وكل رجلٍ وامرأة وطفل فيها، نبيلًا ووضيعًا، غنيًّا وفقيرًا، منذ صدور

سجل دومسداي، بغضِّ النظر عن وقت صدوره، الذي من المؤكد أنه كان قبل زمنٍ طويل. فعلى سبيل المثال، يُقال إنه أدرى من آل ماركنمور أنفسهم بشجرة نسَبِهم!»

قال بليك: «شخص مُثير للاهتمام. أين يعيش؟»

أجاب جريمسدِل: «في الكوخ المجاور لفناء الكنيسة. كوخ قديم مَسقوف بالقش.»

قال بليك وهو يرفع مرفقيه عن نضد الحانة: «حسنًا. سأذهب لأتمشَّى؛ كي أُلقي نظرةً تَفَقدية. هل بوسعك أن تُجهز عشاءً لي في حوالي الساعة الثامنة؟»

أجاب جريمسدِل: «حسنًا يا سيدي، سأُعِدُّ لك دجاجًا مشويًّا شهيًّا. في غاية اللذة!»

ضحك بليك وأومأ برأسه، ثم رحل وسار في شارع القرية. كان مُلاحِق المُجرمين هذا ذا قدرةٍ فِطرية على ملاحظة المناظر الخلَّابة، وقد استحسن تلك المُستوطنة الجنوبية الريفية الصغيرة، التي كان عمرها الكبير يُضاهي نصف عمر جوانب التلال التي تعلوها. كانت ماركنمور مليئةً بأكواخٍ صغيرة مسقوفة بالقش مُشيَّدة في حدائقَ وبساتينَ، وكان يُوجَد هنا وهناك مباني مزارع كبيرة، بعيدًا عن الطريق، في حقول رعي الخيول أو الأفنية المفتوحة، فيما كان مَعلَم القرية الرئيسي يقع وسطها، وهو كنيسة قديمة رمادية كان بُرجها وقِمته المُدببة مُرتفعين عاليًا فوق أشجار الدردار والحُور التي كانت تُشكِّل سياجًا حول فناء الكنيسة. وفي هذه الأيام التي تزامنت مع بداية الربيع، كان يُخيم على تلك المناطق الريفية المُحيطة شعور كبير بالسلام، واستغرب بليك أن يكون موجودًا هناك، وسط هذا السكون الطبيعي الجَم، في ظروفه الحالية. فقد كان كل شيء آنذاك، من الزهور والنباتات اليانِعة في حدائق الأكواخ إلى الأعشاش الجديدة المُرتفعة في غصون الأشجار النضرة الأوراق، ينضَح بالحياة، فيما كانت مُهمته هي معرفة مُرتكِب جريمة، معرفة سبب موتٍ عنيف.

وسرعان ما ذُكِّر بتلك الميتة وعواقبها حين رأى رجلًا عجوزًا كان يُشرف على حفْر قبرَين في أحد أركان فناء الكنيسة المُحاط بالأشجار. فقد تذكَّر بليك حينئذٍ أنَّ السير أنطوني ماركنمور وابنه الأكبر سيُدفنان مُتجاورين في اليوم بعد التالي؛ ومن ثَمَّ، كان من المؤكد أنَّ ذلك الرجل العجوز هو خادم الكنيسة، بيني كريبس، الذي كان جريمسدِل قد تحدَّث عنه للتو. دخل بليك فناء الكنيسة وسار نحوه، فأشاح خادم الكنيسة، الذي كان رجلًا عجوزًا كثيرَ التجاعيد يبدو في السبعين من عمره، بوجهه عن الحفارَيْن اللذين كانا يعملان تحت إمرته، والتفت إلى المُحقِّق بإيماءةٍ تنمُّ عن معرفته به. ثم جلس على قبرٍ صندوقيٍّ حجري مُجاور، وأخرج من حوزته غليونًا فخَّاريًّا قصيرًا وشَرع في إشعاله.

ثم قال وهو يرمُق بليك بنظراتٍ مُتفحِّصة: «أنت الشاب اللندني الذي سمعتُ أنه أتى إلى هنا لمعرفة قاتل السيد جاي الشاب.» وأضاف: «وأفهم أيضًا أنَّك رجل فطِن وذكي في أداء عملك. حسنًا، وأعتقد أنَّ مُهمتك شديدة الصعوبة أيها الشاب الرائع، أعتقد ذلك حقًّا! فهوية القاتل لن تُعرَف في يوم، بل ولا أسبوع حتى. وبالطبع لم تتوصَّل إلى الكثير في جلسة التحقيق الذي أُجري في ملابسات الوفاة!»

سأله بليك: «كنتَ حاضرًا هناك، أليس كذلك؟»

«بلى يا سيدي، وسمعتُ كل شيء كما قيل. وقد غادرتُ حكيمًا عارفًا مثلما ذهبت. ليُباركك الرب، إن هذه القضية لم تبدأ هنا! إنك كواحدٍ من أولئك الرجال المُستكشِفين الذين يسبرون أغوارَ مناطقَ أجنبية عنهم؛ أي إنَّك تسلك دربًا لا تعرف نهايته، إن جاز القول!»

فاعترف بليك قائلًا: «أظنُّك مُحقًّا بعض الشيء. المسألة مُعقدة قليلًا، أليس كذلك؟»

«أتفق معك يا بُني! وحسبما أرى، لا أجد أيَّ خيطٍ يُمكنك أن تُمسك لتسترشد به؛ إن جاز القول. ومع ذلك، لديَّ آرائي الشخصية بالطبع! ولن أُغيِّرها من أجل أحد، ولا حتى من أجل الملك نفسه، مع احترامي له.»

جلس بليك بجوار الرجل العجوز، وأشعل غليونه.

وسأله قائلًا: «أنت السيد كريبس، أليس كذلك؟» وأردف قائلًا: «أنت خادم الكنيسة، على ما أظن؟»

«اسمي بنجامين كريبس أيها السيد الشاب، وأنا خادم الكنيسة ومأمور الأبرشية، وأشغل مجموعةً من المناصب الأخرى، والرجل الوحيد هنا الذي لا تستطيع هذه القرية الاستغناء عنه بأيِّ حالٍ من الأحوال. لقد مرَّ عليَّ خمسةٌ من قساوسة الأبرشية طوال حياتي، وها أنا ذا ما زلت حيًّا بعدما دفنتُ أربعةً منهم! يأتون ويرحلون، لكني أظلُّ كما أنا. إنني أعمل مأمورًا للأبرشية هنا منذ خمسة وأربعين عامًا، وكان والدي مِثلي وعمل لمدةٍ مُقاربة، وكذلك والده من قبله، ولكنه عمل لأكثر من خمسين عامًا؛ فنحن آل كريبس قد عشنا في هذه القرية زمنًا طويلًا قدْرَ ما عاش فيها آل ماركنمور أنفسهم، ودفنتُ الكثيرين منهم، وها أنا ذا الآن سأدفن اثنين آخرَين منهم. وربما يُمكنك القول إنَّ هذه الكنيسة مِلكنا، نحن آل كريبس؛ فنحن نعرِف كل شيءٍ عنها، نعرِف كل شيء بالفعل، وعن مُعظم الأشياء في هذه القرية. نحن نملِكها، إن جاز القول.»

سأله بليك بدماثةٍ ولُطف: «وما رأيك في هذه القضية يا سيد كريبس؟» وأضاف: «مِن المؤكَّد أن رجلًا بخبرتك الحياتية سيكون له رأي. هل تراها جريمة قتل؟»

«أراها جريمة قتل أيها اللندني الشاب العزيز، بل جريمةً بشِعة ووحشية! لن أقول إنَّ السيد جاي الشاب كان نموذجًا للصلاح؛ لأنه لم يكن كذلك، ولم يكن يتظاهَر بأنه أحد أولئك القديسين الذين نقرأ عنهم في كتاب الصلوات. لكنه قُتل، وبطريقةٍ وحشية مُخزية، وأظنك لم تعرف الحقيقة الفعلية وراء هذه المسألة، ولن تعرفها قريبًا. لكنِّي آمُل أن تعرفها، وسأخبط الأرض بقدميَّ فرحًا حين أسمع أنَّ أيًّا مَن فعل ذلك قد حُكِم عليه بالإعدام، سأفعل ذلك حقًّا!»

قال بليك: «أظنُّك لا تتبنَّى أيَّ فكرة خاصة بك بشأن هوية الفاعل؟»

قال كريبس: «ليس لديَّ بعدُ ما يُمكنك أن تُسمِّيه أفكارًا مُحددة دقيقة. ولكن ليُباركك الرب، من المؤكد أنَّ ذلك له علاقةٌ ما بشيء نابع أصلًا من تلك الشابة إيزابيل التي تسكن بيت الأرملة! ولا يُهمني إذا سَمِعَتني أقول ذلك عنها. يا لها من حقيرةٍ آثمة وفاسِقة! أتذكَّرها جيدًا جدًّا حين كان والدها قسًّا هنا، وحين كانت فتاةً صغيرة كان ينبغي لها أن تنشغِل بكشكشة الثياب ودَرزها وما شابه ذلك من أنشطة الإناث. لكنها لم تَعتَد مُمارسة هذه الأنشطة السلمية قَط؛ بل دائمًا ما كانت تتمشَّى مُتسكعة أمام قطيع من شبَّانٍ يُلاحِقونها، وكانت تُثير شجارات ومشاحنات بينهم. لقد سبَّبت مُشكلاتٍ كثيرة حين كانت فتاة، والآن حالما عادت إلى المنطقة، أعادت الكرة مُجددًا.»

سأله بليك: «إذن، أنت تظنُّ أنَّ السيدة تريزيرو لها صِلة بما حدث؟»

أجاب خادم الكنيسة العجوز قائلًا: «لا أقول إن لها أيَّ صِلة به، بمعنى الضلوع المباشر فيه. لكني أقول إنها، في رأيي، سببه الحقيقي، بطريقةٍ أو بأخرى. ليُباركك الرب، لقد كان بعضهم — أي أولئك السادة الشبان — يتعاركون عليها قبل أن تبلُغ الثامنة عشرة من عمرها! ولو كانت المُبارزة موجودة في الأيام الخوالي، لتبارَز الكثيرون على الظفَر بها. كانت من ذلك النوع؛ تُفضِّل واحدًا في البداية، ثم الثاني إلى أن تجعلهم كلهم مُتيَّمين بها، إن جاز القول!»

قال بليك: «أظن أنَّ السيد جاي ماركنمور كان مُتيمًا جدًّا بها آنذاك، أليس كذلك؟»

قال كريبس: «أوف!» واستطرد قائلًا: «لا شكَّ أنه قد سعى وراءها كثيرًا للظفر بقلبها. لكنه كان مُدمنًا السعي وراء كل صنوف النساء، النبيلات منهنَّ والوضيعات؛ لقد فَتَن نصِف فتيات هذه القرية، فعل ذلك حقًّا! ليُباركك الرب، دائمًا ما كان يُضاجع نساء،

في كل أنحاء القرية، وبدا أنه لم يكن يستطيع الإقلاع عن ذلك. لقد ترك السيد جاي وراءه قلوبًا مُلتاعة حين غادر إلى مدينة لندن.»

سأله بليك: «تقصِد بين فتيات القرية؟»

قال خادم الكنيسة مُزمجرًا: «نعم، وبين رجال القرية أيضًا!» وأضاف: «كان يُوجَد أكثر من شاب لديه دافع إلى كراهيته، أؤكد لك ذلك! إنه ميت، ويجب ألا نذكُره بسوء الآن، لكنه كان رجلًا سيئًا، بكل تأكيد!»

أوحت هذه الإجابة المُتناقِضة إلى بليك بتسلسُل أفكارٍ جديد، وسرعان ما رحل ليُفكِّر فيه. ولكن قبل أن يذهب بعيدًا، تذكَّر أنَّ لدَيه سؤالًا كان يريد طرحه على السيدة تريزيرو؛ لذا مرَّ عبر القرية واتَّجَه إلى باب بيت الأرملة الأمامي.

الفصل الثاني عشر

بيت الأرملة

كان بيت الأرملة مكانًا كبيرًا مُترامي الأطراف وقديم الطراز، وكان يقع داخل أراضٍ وحدائق كبيرة مُسيَّجة خاصة به في الركن الجنوبي الشرقي من مُتنزَّه ماركنمور بارك، خارج القرية بمسافة قصيرة، وعلى بُعد حوالي مائتي ياردة من نزل سيبتر إن. كان فسيحًا كقصر ماركنمور كورت نفسه تقريبًا، وكان مُلحقًا به مجموعةٌ كبيرة من حظائر الخيول والأبنية الخارجية، وكان مَسكنًا شاسع المساحة والسَّعة بكل معنى الكلمة. ألقى بليك نظرةً تقديرية سريعة على المكان ومُحيطه بينما كان يسير نحوَه على الطريق الخاص المؤدي إليه من الطريق الرئيسي، كان كل شيء هناك قد جُدِّد ورُتِّب مؤخرًا، ورأى بليك أنَّ مظهر بيت الأرملة الخارجي كان أشدَّ إبهارًا وفخامة بكثيرٍ من ماركنمور كورت. فقد كان مسكن عائلة ماركنمور القديم رثًّا ومُهملًا من الخارج وفي أمسِّ الحاجة إلى طلاءٍ جديد؛ أمَّا بيت الأرملة، فكان نظيفًا ومُنمقًا للغاية، وكان مرجه وحدائقه مُقلمة ومُصانة بعناية. طَرَق بليك الباب وقرع الجرس، ولم يكن مُتفاجئًا إطلاقًا حين فتح له الباب خادم استقبال طويل جدًّا ومتغطرِس، يرتدي زيَّ خدَم رائعًا. وبدا هذا الشخص يجد بعض المشقة في خفض عينَيه إلى مستوى وجه الطارق.

سأله بليك: «هل السيدة تريزيرو في المنزل؟»

أجابه خادم الاستقبال قائلًا: «السيدة تريزيرو مُتوعِّكة. لا تستطيع استقبال أحد اليوم.»

فأخرج بليك حافظة بطاقاته.

وقال: «يؤسِفني سماع أنَّ السيدة تريزيرو ليست بخير. لكني رأيتُها منذ ساعة أو اثنتَين، وأظنها ستسمح لي بأن أحادثها بضع دقائق بشأن مسألةٍ عاجلة للغاية. كل ما عليك أن تُعطيها بطاقتي، إذا سمحت.»

أخذ الخادم البطاقة بحذَر شديد، ورمقها بنظرة خاطفة، ثم حدَّق إلى مظهر بليك الشبابي بشيءٍ من التعجُّب، وبعدئذٍ تراجع مُبتعدًا عن الباب، وبدا أنه يدعو الطارق إلى الدخول. فدلف بليك إلى صالةٍ خارجية.

قال له الخادم على مضض: «كانت الأوامر التي كُلِّفتُ بها دقيقةً ومُحددة جدًّا. ولكن إذا كانت مسألة مهمة للغاية ...»

قاطعه بليك قائلًا: «إنها كذلك!» وأضاف: «مهمة جدًّا.»

فقال الخادم: «سأذهب لأرى وصيفة السيدة تريزيرو. انتظِر هنا من فضلك.»

توارى الخادم في عَتمة صالةٍ داخلية، خلف ستائر ثقيلة معلقة على مدخلها، وبعدما تُرِك بليك وحدَه، نظر حوله. كان المكان الذي كان مُنتظرًا فيه وحدَه صغيرًا، وكان في أحد جانبيه خزانة قديمة من خشب البلوط، فيما كان يُوجَد في الجانب الآخر شمَّاعة عريضة يتدلَّى منها مجموعة مُتنوعة من معاطف وعباءات وشالات خارجية مُخصَّصة للارتداء خارج المنزل. وكان الثوب الأبرز بينها مِعطفًا طويلًا من طراز «راجلان» ذا لونٍ أزرقَ زاهيًا بعض الشيء، تعرَّف عليه بليك فورًا. فقد رآه في التحقيق الذي أجري صباحَ ذلك اليوم؛ إذ كان يرتديه الرجل الضخم ذو الشارب الأشقر الذي كان جالسًا إلى يمين السيدة تريزيرو طوال فعاليات التحقيق.

وبواحدةٍ من ومضات الحدس البديهي النادرة تلك التي تُجسِّد منبع إلهام العبقرية لدى رجل يمتهِن مهنته، ذهب بليك كالبرق إلى هذا المعطف، ودسَّ يدَه اليُمنى في أقرب جيب. فشعرتْ لمساتُ يده بزَوج من القفازات، ومن تحت القفازين غليون. فأرهف سمعه أشدَّ إرهاف، وأبقى نظرَه مُسلطًا بكل انتباهٍ على الستائر القابلة للطي وهو يُخرِج هذا الغليون ويرمُقه بنظرةٍ خاطفة. كان سيضحك ضحكةً مكتومة في ابتهاج لو كانت لديه الجرأة الكافية؛ فقد كان هذا هو ذاك الغليون الذي وجده جريمسدِل على مائدة العشاء في سيبتر! لم يكن ثمة شكٌّ في ذلك؛ إذ كان الجزء الخشبي المصنوع من أشجار الخلنج يحمِل خدشًا طفيفًا ...

وهنا سُمِع صوتُ امرأة تسأل في مكانٍ ما خلف الستائر: «أين السيد بليك؟» وأضافت: «في الصالة الأمامية؟»

فأعاد بليك الغليون إلى الجيب، وتحرَّك ستَّ بوصات، وكان يُحدِّق باهتمامٍ كبير إلى وجه ثعلب مُثبت بالحائط، حين افترقت الستارتان وخرجت من بينهما امرأة. نظر إليها لحظةً باهتمامٍ تيقَّظ لديه فجأة، وارتأى أنها لم تكن امرأةً عادية. كانت ترتدي ثوبًا

أسودَ أنيقًا بشيءٍ من الغَنج الجذاب، مع قبعة أنيقة ومِئزر أكثر أناقة مصنوع من قماش موسلين ناصع، وبدَت أشبه بامرأةٍ فرنسية من أن تكون امرأةً إنجليزية، وكانت حسناء بلا أي جدال، بقدْر ما كانت مفعمة بالحيوية. لكن حُسنها كان باهتًا بعض الشيء، وخمَّن بليك أنَّها في حوالي الخامسة والثلاثين من عمرها، وأنها خاضت علاقاتٍ غرامية سرية في أيام صباها؛ إذ كانت عيناها اللامعتان، وكذلك شفتاها، تنضح بأماراتٍ تدلُّ على وجود عُشَّاق سابقين في حياتها، وبدا لبليك أنَّها من صنف النساء اللواتي يكتُمن الأسرار كبئرٍ بلا قاع. وكانت أيضًا من صنف النساء اللواتي لا يستطعن النظر إلى رجلٍ دون الابتسام في وجهه؛ مثلما ابتسمت في هذه اللحظة وهي تنظُر إليه.

قالت بصوتٍ ناعم رزين: «السيد بليك؟» وأضافت: «أتُريد لقاء السيدة تريزيرو؟ إنها مُتوعِّكة قليلًا، فكما تعلم، ما حدث صباح اليوم، وما أعقبه، إنها مُصابة بصداع من فرط التوتُّر العصبي. ولكن إذا كانت مسألة ...»

فأجاب بليك: «إنها كذلك، ولكن ليس فيها ما يُزعِج السيدة تريزيرو. مجرد سؤال أو اثنين.»

فأزاحت المرأة إحدى الستارتَين جانبًا، وكشفت عن صالةٍ داخلية فسيحة كان يُوجَد في أحد جوانبها دَرَج ينتهي برواق.

قالت له: «فلتتبعني من هنا، إذا سمحت.»

صعد بليك الدَّرَج وراءها. ورأى في نهاية رواق البسطة بابًا مفتوحًا أظهر له غرفة جلوس كبيرةً تحوي بيانو كبيرًا، وكان جالسًا إلى البيانو ذاك الرجل ذو الشارب الأشقر. كان يُغني، ليُمتِّع نفسه حسبما كان واضحًا، وكان يُصحِب صوته الباريتوني العذب بنغماتٍ متجانسة خفيضة. نظرت مُرشدة بليك إليه، وابتسمت مُجددًا.

وهمست قائلة له: «البارون يُغني أغنيات غرامية إيطالية!» وأردفت: «إنه يُفضِّل ذلك على الرماية أو الصيد أو الجولف! الأذواق تختلف، أليس كذلك؟»

قال بليك: «باختلاف الجنسيات.» كان قد توصَّل في قرارة نفسه بالفعل إلى أنَّ وصيفة السيدة تريزيرو ليست امرأةً عادية، وأنها جديرة بأن يحاول كسب ودِّها، وبادلَها الابتسام. ثم أضاف: «أظنه ليس إنجليزيًّا، هاه؟»

فأجابت الوصيفة بطريقةٍ تنمُّ عن درايتها بخبايا الأمور: «ألماني!» واستطردت قائلة: «إنه سمين جدًّا!» وضحكت ثم توقَّفت أمام أحد الأبواب، وطرقته برفق، ثم فتحته وأشارت لبليك بالدخول. «السيد بليك يا سيدتي.»

دَعَت السيدة تريزيرو السيد بليك إلى الدخول بنبرةٍ واهنة بعض الشيء، فدخل بليك الغرفة التي افترض فورًا أنها المخدَع الذي شهد محادثة ثنائية خاصة بين ساكنته وجاي ماركنمور بعد لقائهما في ليل الإثنين. ومع أنَّ الأجواء في الخارج كانت لا تزال مضيئة تمامًا، كان مصباحٌ وردي مُتقدًا في هذه الغرفة المنعزلة الفخمة، وعلى وميض نوره الخافت، رأى بليك السيدة تريزيرو مُسترخيةً على أريكة ومُرتدية ثيابها بشيء من الإهمال، لكنها كانت ثيابًا أنيقة ولائقة، وارتأى بليك أنها ربما كانت في غاية الجاذبية والسحر رغم شحوب بشرتها. وسواءٌ أكانت مُصابة بصداع من التوتر العصبي أم لا، فقد كانت تُدخن، كانت الغرفة مليئةً برائحة التبغ التركي الفاخر المُميزة، وكان يُوجَد بالقُرب من أريكة صاحبتها علبة مفتوحة من السجائر.

قالت السيدة تريزيرو وهي تنظُر باستحسانٍ إلى مظهر بليك الوسيم وثيابه الأنيقة: «تفضَّل بالجلوس.» وأشارت إلى كرسي وثير بالقُرب منها قائلة: «هذا.» ثم أضافت: «هلا تأخُذ سيجارة؟ إنني أدخِّن لأُسكِّن ألم الصداع. لقد انزعجتُ بشدة من كلِّ ما حدث صباح اليوم. كمٌّ رهيب من الثرثرة عن سفاسف تافهة، ألا تظن ذلك؟»

أخذ بليك سيجارةً بدافعٍ من التأدُّب فقط لا غير، مع أنَّه كان يكرَه التبغ التركي كالسُّم، وارتمى على كرسي وثير.

ثم أجاب باقتضابٍ قائلًا: «ربما. أحيانًا ما يُضطرُّ المرء إلى خوض كمٍّ هائل من الثرثرة عن مثل هذه السفاسف، وطرح أسئلة لا حصر لها، كما تعلمين، قبل أن يصِل إلى جزءٍ صغير جدًّا من الحقيقة. لكنِّي لا أريد إزعاجك بكثيرٍ من الأسئلة يا سيدة تريزيرو.»

ردَّت السيدة تريزيرو بدماثة ورضًا: «أوه، لا بأس!» وأضافت: «إنها قضية مُثيرة للاهتمام نوعًا ما، رغم كل شيء، وأظنك شديد الاهتمام بعملك، أليس كذلك؟» ثم أضافت وهي ترمق زائرها بنظرةٍ مباشرة من عينَيها نصف المُغمضتَين: «من المُرجَّح أنك كذلك. أنت صغير للغاية، أظنك مجرد صبي!»

ردَّ بليك ضاحكًا: «لستُ صبيًّا غِرًّا كما أبدو!» وأردف قائلًا: «فأنا أعمل في هذه المهنة منذ اثني عشر عامًا. ولكن الآن لنتطرَّق إلى المسألة التي أتيتُ من أجلها! أنا واثق من أنَّكِ لن تُمانعي في أن أسألكِ سؤالًا أو اثنين يا سيدة تريزيرو؟ حسنًا، أولًا، أرى أنك ترتدين خاتمًا غريبًا بعضَ الشيء حول الإصبع الوسطى من يدكِ اليُمنى.»

أجابت السيدة تريزيرو: «هذا؟» وأضافت: «بإمكانك أن تُلقي نظرةً عليه.» ومدَّت يدَها التي كانت ممشوقة ومُتناسقة جدًّا ووضعتْها في كفِّ بليك. ثم أضافت وهي تسحب

يدَها بعد دقيقةٍ قلبتْها فيها على الوجه الآخر: «غريب، أليس كذلك؟» وأردفت: «غير مألوف!»

فأجاب بليك قائلًا: «أرى أنه شيء غريب جدًّا. والآن، هل تعرفين ما إذا كان لدى السيد الراحل جاي ماركنمور خاتم كهذا؟»

فأجابت: «كان لديه بالتأكيد.» واستطردت: «فهو الذي اشترى كِلا الخاتمَين منذ سنوات. كنتُ معه في بورتسموث، وفي أحد متاجر الأشياء النادرة والغريبة التي عادةً ما يجدها المرء في مثل هذه الأماكن، رأينا خاتمَين. فاشتراهما، مُقابل جنيه أو اثنين، وتعاهَدْنا على ارتدائهما إلى الأبد. آه يا جاي المسكين!»

سألها بليك: «هل كان يرتدي ذلك الخاتم حين رأيتِهِ في تلك الليلة قبل يومَين؟»

«نعم! لقد أخبرَني أنه لن يتوقَّف عن ارتدائه أبدًا، وأكدتُ له أنِّي سأظلُّ أرتدي خاتمي دائمًا.»

«وهل كان موجودًا حول إصبعه حين تركك؟»

«نعم بكل تأكيد!»

فقال بليك: «حسنًا، لم يكن موجودًا حول إصبعه حين عُثِر عليه في صباح اليوم التالي. هذه حقيقة مؤكدة!»

فانتفضت السيدة تريزيرو.

وصاحت مُتعجبة: «ذلك لم يُذكَر في التحقيق!»

قال بليك: «لا. لم أكن أعرف بوجود الخاتم حتى أخبرَتْني الآنسة فالنسيا ماركنمور بعد رفع جلسة التحقيق. كانت قد لاحظتْ أن أخاها كان يرتديه حين جاء إلى ماركنمور كورت قبل لقائِك.»

«و... ولم يُعثَر عليه بحوزته؟»

«لم يُعثَر عليه بحوزته قطعًا.»

رمت السيدة تريزيرو سيجارتها. وعبست، وتجهَّمت عيناها.

وصاحت قائلة: «إذن فهذا دليل آخَر على أنَّ هاربورو قد قتله!»

فسألها بليك: «كيف؟»

«الغيرة! قتله بدافع الغيرة، وأخذ الخاتم منه حين مات، لقد جنَّ جنونه من شدة الغيرة لأنَّ جاي كان يحمِل شيئًا مُرتبطًا بي!»

«هل تعتقدين حقًّا يا سيدة تريزيرو أنَّ هاربورو قتل جاي ماركنمور لغيرته منه عليكِ؟»

«نعم، أعتقد ذلك؛ بل ومُتيقنة منه!»

فقال بليك: «لكنَّ هاربورو قال — في شهادته إذا كنتِ تتذكرينها — إنَّه قد شُفِي من ... من ولهه بكِ قبل بضع سنوات.»

ردَّت السيدة تريزيرو قائلة: «لا تُصدِّق ذلك.» وأضافت: «حتى لو كان قد شُفِيَ منه، فقد عاد كله إليه حين التقاني عصرًا قبل يومَين! لقد رأيتُ بوضوح شديد أنَّ هاربورو مُتيمٌ بي مثلما كان دائمًا! ثم ... ظهر جاي، و... و... حسنًا، كما قلت، عادت أواصر الودِّ بيننا سريعًا. والتقى بهاربورو في الأعلى هناك على جانب التل، ومن المُؤكَّد أنهما تشاجرا، وقتله هاربورو! لا أكترث بما تقولونه أيها الشرطيُّون، ولا بما يقوله قاضي التحقيق وهيئة مُحلَّفيه ولا القضاة؛ فأنا مُتيقنة من ذلك!»

«إذن، فأنتِ لا تهتمِّين إطلاقًا بالشهادة التي أُدلِيَ بها عن الرجلَين اللذين كانا مع السيد جاي ماركنمور في نزل سيبتر في تلك الليلة يا سيدة تريزيرو؟»

«إطلاقًا! لقد كان مجرد لقاء عمل!»

«ألم يُخبركِ بهوية مَن كان سيلتقيه؟»

«كلا ألبتة، لم ينطق بكلمة عن ذلك! كان مجرد لقاء عمل. ولم أكن مُهتمة.»

قال بليك بعد سكوتٍ لحظي: «حسنًا. لديَّ سؤال آخر أريد أن أطرحه عليكِ. أعتقد أنكِ كنت تستضيفين ثلاثة أو أربعة ضيوف آخرين في بيتك آنذاك، ألا تَظنِّين أنَّ أحدهم ربما يكون هو الرجل الثاني الذي ذهب إلى نزل سيبتر؟»

صاحت السيدة تريزيرو: «قطعًا لا!» وأردفت قائلة: «فأنا أعرف كل واحدٍ منهم جيدًا بالطبع. ولا أحد منهم كان يعرف جاي مثلما كنتُ أعرفه! لقد كانوا كلهم رجالًا عسكريين عرفتهم في الهند. وكان كلٌّ منهم بصحبة زوجته هنا، ما عدا البارون فون إيكهاردشتاين بالطبع؛ فهو ليس عسكريًّا ولا مُتزوِّجًا. ولكن حتى الوقت الذي أتى فيه إلى هنا، إلى حفلي المنزلي، لم يكن قد سمع أبدًا عن آل ماركنمور. لماذا؟ هل يقترح أحدٌ ذلك؟»

فأجاب بليك على عجل: «إطلاقًا.» وأضاف: «ولكن في مثل هذه القضايا، عند وجود أشخاصٍ غرباء في مكان قريب من مسرح الحادث ... حسنًا، يجب معرفة هويتهم، كما تعلمين.»

فقالت السيدة تريزيرو: «لقد أخبرتك بهوية ضيوفي. ومن المؤكد أنَّ مجرد التفكير في أنَّ أيًّا منهم قد ذهب إلى نزل سيبتر في ذلك الوقت من الليل شيء غير معقول! كلَّا؛ اللقاء

الذي جرى في سيبتر غير مُهم. سَلِّط تركيزك على هاربورو؛ فهو الفاعل! طالما كان رجلًا ذا طابع جنوني جامح يتجاوز كل الحدود، وإلَّا لربما تزوَّجتُه في الماضي.»

لم يردَّ بليك على ذلك. ثم نهض ليرحَل، ومدَّت السيدة تريزيزرو يدها إليه بنظرة استحسانٍ أخرى.

وقالت: «تعالَ وزُرْني مرة أخرى لتُخبرني كيف تسير الأمور معك. فأنا مُهتمة للغاية بكل تأكيد!»

نزل بليك على الدرَج مُتجهًا إلى الطابق السفلي. كان باب غرفة الجلوس لا يزال مفتوحًا، وكان البارون إيكهاردشتاين ما زال يُغني أغاني عاطفية بصوتٍ رقيق. وعند أسفل الدرَج، ظهرت الوصيفة فجأة وابتسمت. فبادلَها بليك الابتسامة.

وقال: «لم أُفاقِم صداع سيدتك إطلاقًا.»

فهمستْ له قائلة، وهي تنظُر حولها: «الصداع الحقيقي هو الإفراط في تدخين السجائر. بالمناسبة!»

فسألها بليك بنبرةٍ هامسة كذلك: «ماذا؟»

فسألته: «هل اكتُشِف أيُّ شيء؟»

فأجابها بليك: «ماذا، حتى الآن؟» وأضاف: «لا! ما زال الوقت مُبكرًا جدًّا لذلك. لماذا؟ هل تعرفين أي شيء؟»

«أنا؟ يا إلهي، كلَّا! بل مجرد فضول! لأنني امرأة.»

سألها بليك مُبتسمًا: «ما اسمُك؟»

فأجابت بسرعة: «هاليويل. لماذا؟»

سألها بليك: «آنسة أم سيدة؟»

«آنسة! لماذا تسأل؟»

فقال بليك: «أردتُ أن أعرف فحسب. أغلب الظن أنني سأمكُث هنا لبعض الوقت، وأنا واثق من أنني سألقاكِ مرةً أخرى.»

ثم رحل بابتسامةٍ أخرى، وحالما ابتعَدَ عن المنزل، توقَّف عن التفكير في كل شيءٍ عدا فكرة واحدة. كانت فكرة مُهمة. فقد استنتج أنَّ فون إيكهاردشتاين، عند مغادرته قاعة المحكمة في صباح ذلك اليوم بعدما رفع قاضي التحقيق الجلسة، استولى على غليون التبغ الذي تُرِك في نزل سيبتر، عند مروره بجوار الطاولة التي كان موضوعًا عليها. وكان السؤال الآن: هل كان فون إيكهاردستاين هو الرجل الذي ترك الغليون في النزل؟

كان بليك معتادًا تخيُّل الأسباب المُحتملة لأي شيء، وقد بدأ ذهنه في هذه اللحظة يتفتَّق عن بعض تلك الأسباب. فقد ارتأى أنَّ فون إيكهاردشتاين ربما كان أحد هؤلاء المهووسين بجمْع الأشياء المرتبطة بالجرائم، وكان بليك نفسه قد صادف أكثر من مهووس من هذا النوع، وكان يعرف أنَّ أمثال هؤلاء مُستعدُّون لفعل أي شيء، حتى السرقة، من أجل إشباع رغباتهم. أو ربما كان يعرف الرجل الذي ترك الغليون، وسرقه بهدوء وسط الزحام والفوضى، بِنيَّة إتلاف دليلٍ ضدَّ صديقه. ولكن على أي حال، كان الغليون موجودًا في جيب إيكهاردشتاين، حيث دسَّه حين أخذَه من على الطاولة، وقد رآه بليك في جيبه وتعرَّف عليه.

كان بليك يقول لنفسه وهو مُستغرق في التفكير: «وإذا كان هذا غليونه، فذلك يعني أنه هو الرجل الذي ذهب إلى سيبتر في الساعة الثانية من صباح الثلاثاء الماضي، وغادر في الساعة الثالثة والربع مع جاي ماركنمور والرجل الآخر! هذه حقيقة مؤكدة لا ريب فيها!»

عاد إلى النزل بخطواتٍ مُتمهلة، وفي الوقت المُحدد سلفًا، جلس ليتناول العشاء. وحالما أنهى عشاءه، قرع جريمسدِل بابه ودخل.

قال بابتسامة ماكرة: «بعض القرويين يتحدَّثون في المطبخ عن هذه الجريمة. أترغب في سماع ما يقولونه؟»

قال بليك: «لن يتحدَّثوا أمامي.»

فقال جريمسدِل: «سأضعك في مكانٍ لن تُرى فيه. تعالَ معي.»

ثم قاد المُحقِّقَ عبر صالة المدخَل، مرورًا بحجرة الحانة، وأدخله مخزن مؤن غذائية كان يقع بين غرفة جلوس خاصة ومطبخ النُّزل. كان المخزن غير مضاء، عدا نافذة شبكية كانت مُثبتة في حائط المطبخ، وأشار جريمسدِل لبليك بأن يقترِب وينظُر من خلالها.

قال له هامسًا: «لا يستطيعون رؤيتك من مكانهم. لكنك تستطيع أن ترى كل شيء وتسمعه من هنا. أصغِ!»

وضع بليك وجهه بالقُرب من شبكة النافذة ونظر من خلالها. فوجد نصف دزينة من عُمال، معظمهم في منتصف أعمارهم أو مُسنُّون، كانوا جالسين بالقُرب من نيران مُبهجة في المطبخ القديم الطراز. وكانت أقداح من شراب المزر موضوعة على الطاولات أمامهم، وغلايين التبغ بين شفاههم. كانوا جميعًا من القرويين النمطيِّين، وذوي بشرةٍ

مُجعدة ووجوه مسفوعة، وكان بعضهم ذا تعابير بلهاء على وجهه، فيما كان البعض الآخر ذا نظراتٍ فطنة ثاقبة، كان أحدهم في تلك اللحظة يُبدي رأيه بكل ثقة وصرامة.

إذ كان يقول: «لا شك إطلاقًا في أنَّ السيد جاي قد مات مِيتة إجرامية!» مُضيفًا: «إنها جريمة قتل، ولا أحد يستطيع أن يقول غير ذلك، بكل تأكيد! ولكن لن تكون معرفة الفاعل سهلة كما قد يظن بعضكم. لقد ارتُكِبَت سرًّا ولا أحد يعرف عنها شيئًا، إن جاز القول.»

فقال شخص آخر: «في كل الأحوال، لقد قتله شخصٌ ما. أعتقد أن هذه هي الطريقة الوحيدة للتفكير في تلك المسألة. لكنني لا أعرف هوية الفاعل، وأنا مُتيقن تمامًا من أن لا أحد آخر يعرفها، بكل تأكيد!»

وهنا قال رجل ثالث: «حسنًا، لا يسمح لي ضميري بالقول إنني أصدق أنَّ السيد جون هاربورو، الذي يعيش في جرايكلويستر، هو مَن فعلها. لا أستطيع أن أحمِل نفسي على الاقتناع بأنَّ رجلًا وُلِد نبيلًا قد ينهض من فراشه في الثالثة صباحًا ليُطلِق الرصاص على رجلٍ نبيلٍ آخر! يبدو لي ذلك نوعًا غريبًا ولعينًا من امتياز المسيحية، يبدو كذلك حقًّا! كلَّا؛ لن أظن ذلك بأي حالٍ من الأحوال!»

تساءل شخصٌ ما: «فمَن الفاعل إذن؟»

لزم الجميع الصمتَ لبرهة، ثم مال رجلٌ داكن الوجه إلى الأمام، بعدما كان جالسًا يُدخِّن في صمتٍ طوال هذا الوقت في ركنٍ منزوٍ.

وقال بنبرة حاسمة: «لا أعترف إطلاقًا بهذه الجلسات التي تُعقَد للتحقيق في ملابسات الوفاة وتلك المجموعة من المُحامين ورجال الشرطة!» وأردف قائلًا: «فَهُم دائمًا ما يصطادون الأرنب الخطأ، هذا دأبهم حقًّا! ألسنا، نحن مَن عشنا طوال حيواتنا هنا في هذه المنطقة، نعرف جيدًا جدًّا أنَّ هذا الشاب ترك وراءه مجموعةً من الأعداء اللدودِين حين رحل قبل سبع سنوات؟ ألا يُوجَد في هذه المنطقة رجالٌ كان لديهم حبيبات وفتيات فَتَنهنَّ هذا الشاب بأساليبه المُعتادة؟ ألم يكن يُضاجِع كل الشابات الحسناوات دائمًا؟ لا تُخبروني بالإجابة فأنا أعرفها! يُوجَد على هذا الجانب من الروابي أكثرُ من رجل كان سيسعد بنَيل فرصة ليغرز سكينه في جسد السيد جاي ماركنمور، أو يخرقه برصاصة مسدس كذلك! هكذا لقي حتفه، حسبما أظن!»

سرَت همهمة إجماع على هذا الرأي بين الجمع. وخرج من وسط همهماتهم صوتُ رجلٍ عجوز.

قال بصوتٍ عالٍ حادِّ النغمة: «يا لغرابة سُبُل التدابير الإلهية!» وأضاف: «أظن أن مِن المُرجَّح أن يكون ما يقوله بِن الجالس هناك حقيقيًّا. فالانتقام سلاح قوي جدًّا في يد الرجل اليُمنى، ويزداد قوة كلما طال وقت الاحتفاظ به، كشراب المزر الجيد. نعم بالتأكيد، ربما تكون مسألة انتقام ...»

سرعان ما غادر بليك مكانه ليفكِّر في هذا الاقتراح. ثم أتى إليه جريمسدِل مرةً أخرى، وقد بدا عليه الغموض.

وقال: «يُوجَد في الحديقة بالخارج شاب يريد لقاءك؛ وحدك، وخلسة.»

سأله بليك: «مَن هو؟»

فرمقه جريمسدِل بنظرةٍ تنمُّ عن درايته به.

وأجاب قائلًا: «إنه أحد ساسة خيول السيدة تريزيرو.»

الفصل الثالث عشر

ويليام بيجي

استيقظت غريزة بليك البوليسية، التي كانت مُتأصلة في طبيعته، بقوة وتلهُّف، حين سمع هذه الجملة. ونظر بدوره إلى جريمسدِل نظرةً تنمُّ عن دراية.

سأله قائلًا: «ألديه شيء يريد قوله؟»

أجاب صاحب النزل: «لم يقُل لي هذا، لكني أظن ذلك. لقد جاء وظلَّ يتسكَّع حول مُحيط بابنا الجانبي حتى رآني، ثم سألني عمَّا إذا كنتَ موجودًا في النزل، وإذا كان يستطيع لقاءك، وحدَك تمامًا، وأراد ألَّا يعرف أيُّ شخص آخر بذلك.»

فأمره بليك قائلًا: «أدخِله، وأخبره بأن لا أحد سيعرف أيَّ شيءٍ عن ذلك. فهذا أمر شديد الخصوصية، هاه!»

نظر جريمسدِل إلى النافذة نظرةً سريعة، وعَبَر الغرفة إليها وأسدل عليها أستارها. ثم غادر الغرفة، ليعود بعد دقيقة مع شابٍّ يرتدي ثيابًا من القماش الصوفي المنسوج، وواقِيَين أنيقَين حول الساقين من صنع شركة «نيوماركت»؛ كان شابًّا ذا عينَين ثاقبتَين ووجهٍ فطِن، كان ينظر إلى المحقِّق كما لو أنَّه ينظُر إلى ثعلبٍ ماكر مراوغ خرج من مَخبئِه للتو.

قال جريمسدِل: «ويليام بيجي يا سيد بليك.»

أومأ بليك إيماءةً رقيقة ودودة لزائره الخجول المُتيقِّظ، وأشار إلى كرسي قريب من كرسيه بجوار النيران المُبهجة.

وقال له: «طاب مساؤك يا بيجي. تفضَّل بالجلوس، هل تريد تناول شراب؟»

غاص بيجي مُنزلقًا في الكرسي الوثير، ووضع قُبعته على الأرض وابتسم بخجل.

وأجاب قائلًا: «حسنًا، شكرًا لك يا سيدي. لا أمانع احتساء قليل من شراب المزر.»

نظر بليك إلى جريمسدِل، الذي خرج وعاد حاملًا إبريقًا مُزبدًا من المزر، ووضعه بجوار السائس.

قال بليك: «احرص على ألَّا يُزعِجنا أحد يا جريمسدِل. وإذا أرادني أي شخص — كائنًا ما كان — فقُل له إنني مشغول.»

خرج صاحب النزل وأغلق الباب، ودفع بليك كيس تبغِه إلى زائره، الذي كان يعبث بغليونه بأصابعه.

قال له بأسلوبٍ مِضياف: «جرِّب القليل من هذا، وأشعِل غليونك. حسنًا؛ لقد أردتَ الحديث معي يا بيجي. ما الأمر؟»

وقبل أن يردَّ بيجي على هذه الدعوة المباشرة، ملأ غليونه وأشعلَه، ونفخ فيه إلى أن بلغ ذروة اشتعاله، ثم رفع إبريق المزر إلى شفتيه، وتمتم مُعربًا عن بالِغ احترامه لمُضيِّفه. ثم تلفَّت حوله التفاتةً تنمُّ عن رغبة في الخصوصية الشديدة، ورمق بليك بنظرةٍ مُتبصِّرة.

قال له: «لا أريد الوقوع في مشكلة.»

وافقه بليك قائلًا: «مفهوم!» وأضاف: «لن تقع في مشكلة بسبب أيِّ شيء ستقوله لي.»

تابع بيجي قائلًا: «ولا أن أوقِع أيَّ شخصٍ آخر في أيِّ مشكلة. أعني ... ما لم يكن يستحق ذلك!»

وافقه بليك قائلًا: «بالضبط! ما لم يكن يستحق ذلك. في هذه الحالة، لن تُمانع؟»

فأجاب بيجي: «لا أمانع الإدلاء بما أعرف أنَّه حقيقي.» ثم تفرَّس في المُحقِّق مرة أخرى. وأضاف قائلًا: «أظن، أظن أنني إذا قلتُ لك ... شيئًا ما، فسيتوجَّب عليَّ قوله مرةً أخرى، بصفتي شاهدًا، إن جاز القول؟»

فأجابه بليك: «كل هذا مرهون بماهيةِ ما ستقوله يا بيجي. ربما سيتوجَّب عليك ذلك، إذا كان ما ستقوله مُهمًّا جدًّا. أو ربما لا، إذا كان مجرد شيءٍ تريد أن تُخبرني به سرًّا فيما بيننا. على أي حال، مهما كان ما ستقوله، فلن تُضار، ما دُمتَ ستقول الحقيقة الصريحة الواضحة.»

فسأله بيجي: «هؤلاء الشهود.» واستطرد قائلًا: «الذين يقِفون أمام قضاة التحقيق وقضاة الصلح والقضاة الرئيسيين في المَحاكم، هل هم مَحميُّون؟ لا أحد يستطيع إلحاقَ أيِّ أذًى بهم عقابًا لهم على قولِ ما يعرفونه، هاه؟»

فقال بليك بتوكيدٍ قاطع: «حماية مُشدَّدة، من كل النواحي. بئس مصير مَن يمنع شاهدًا من الإدلاء بشهادته يا بيجي! اطمئن بشأن هذه المسألة، يا عزيزي الشاب.»

أومأ بيجي برأسه، وملأ فمه بجرعةٍ أخرى من المزر، وبدا أنه قد حسم قراره.

قال فجأة: «حسنًا، أعرف شيئًا ما!» وأضاف: «كنتُ أفكِّر في الإدلاء به صباح اليوم، هناك في الأعلى أثناء التحقيق ...»

فسأله بليك: «أكنت هناك؟»

ردَّ بليك بالإيجاب قائلًا: «مُعظم الوقت. لكنِّي سمعتُ كلَّ ما قاله جريمسدِل. وبسببِ ما قاله، فكَّرت في التطوُّع والإدلاء بشهادتي، أتفهمني؟ لكني لم أكن أعرف بالضبط ماذا يجب أن أفعل؛ لذلك، حين سمعتهم يتحدَّثون عن رفع الجلسة، ارتأيتُ أن أؤجل ذلك، وأفكِّر في الأمر مَليًّا قبل حسم قراري. ولكن عندما سمعتُ أنك تمكث هنا لتباشِر شئون القضية، ارتأيتُ أن أخبرك به، إن جاز القول.»

قال بليك: «عين الصواب يا بيجي، أنا في غاية الامتنان لك. خذ راحتك. والآن، ما الأمر؟»

أخرج بيجي غليونه من بين شفتَيه، ومال قليلًا ليقترِب من بليك الذي كان مُنصِتًا إليه.

ثم قال: «حسنًا، الأمر كالآتي. هل سمعتَ ما قاله جريمسدِل عن مجيء السيد جاي ماركنمور إلى هذا النُّزل في تلك الليلة التي سبقت مَقتله، وعن أنه كان بصحبة رجُلَين آخرين؟»

أجاب بليك: «بالطبع. سمعت ذلك.»

تابع بيجي قائلًا: «كان أحدهما رجلًا طويلَ القامة، في طول السيد هاربورو؟ هذا ما قاله جريمسدِل؛ بناءً على ما رآه منه حين كانوا يغادرون؟»

قال بليك: «نعم، أتذكَّر.»

واصل بيجي حديثه، مُبديًا علاماتٍ على اهتمامٍ مُتزايد بروايته: «حسنًا، سأُخبرك بشيءٍ ما. لعل جريمسدِل قد أخبرك بأني سائس لدى السيدة تريزيرو، إنَّ لدَينا هناك حوذيًّا وسائسَين، وأنا كبير الساسة. تملك سيدتنا خمسة خيول حاليًّا: حصانَين صيادَين وحصانَين لجرِّ العربة وفرس قزم أصيل. الآن، بعد ظهر يوم الإثنين، توعَّك هذا الفرس القزم — وهو ليس حيوانًا عاديًّا؛ لأن السيدة تريزيرو اشترته مُقابل مائة وأربعين جنيهًا قبل ذلك بشهرٍ واحد فقط؛ إذ أُصيب بمغَص، أو ما شابه — واضطُررتُ إلى إحضار الطبيب البيطري ليُعالجه. ظلَّ الطبيب البيطري عندنا ساعةً أو اثنتَين في ذلك المساء يُداويه، وجعله يتحسَّن بعض الشيء، لكنه قال للحُوذي وبقيَّتنا: «سيتوجَّب على أحدكم، أيها الشبان، أن يسهر مع هذا الفرس القزم طوال الليل، ويعتني به جيدًا.» لذا عرضتُ

أداء هذه المهمة؛ فالرجلان الآخران متزوِّجان ويعيشان في القرية هنا، أمَّا أنا، لأنني أعزب، فأعيش فوق حظائر الخيل، أتفهمني؟»

فقال بليك: «أفهم. كنتَ تُلازِم المكان.»

فوافقه بيجي قائلًا: «كنتُ أُلازِمه، إن جاز القول. حسنًا، ترك لنا الطبيب البيطري بعض الأدوية، وأخبرَني بما ينبغي فعله، طوال الليل، مع هذا الفرس القزم؛ ومن ثَم، فحين تأخَّر الوقت وغادر البقية جميعًا، تناولتُ عشائي في صالة الخدَم وأخذتُ قليلًا من الطعام لآكُله في أثناء الليل، واستقررتُ بأكبر قدرٍ ممكن من الراحة في غرفة السروج، بجوار كشك الخيول غير المربوطة الذي وضَعْنا فيه هذا الفرس القزم المُتوعِّك. استعاد هذا الفرس القزم عافيته، ولم يَعُد يُعاني أيَّ توعُّك على الإطلاق، وصار الآن على ما يُرام، واستعاد عافيته تمامًا مرة أخرى. ومع ذلك، فهذا غير مُهم وليس مُرتبطًا بموضوعنا على الإطلاق، إنما ذكرتُ قصة هذا الفرس فقط لأريك أنني بقيتُ ساهرًا طوال ليل ذاك الإثنين، أتفهمني؟»

فقال بليك: «أفهمك. هذا واضح تمامًا يا بيجي. أكمِل كلامك!»

واصل بيجي حديثه قائلًا: «حسنًا، لم يحدُث شيء حتى الساعة الثانية إلَّا ربعًا صباحًا تقريبًا. أعرف ذلك لأنني كنتُ أُضطر إلى تفقُّد الفرس القزم مرارًا منذ أن تركه الطبيب البيطري، وكانت هذه إحدى المرات. كنتُ قد دخلت كشك الخيول الطليقة للتو، وخرجت حين تذكرت أنَّ التبغ قد نفد من جعبتي. ولكن كان لديَّ الكثير منه في علبة صفيحية في غرفة نومي، لذا ذهبت إلى هناك لأُحضره. الآن، عليك أن تفهم أنَّ حظائرنا في بيت الأرملة مفصولةٌ عن الطريق الخاص المؤدي إلى البيت من الطريق الرئيسي بسياجٍ نباتي شاهق من أشجار سروٍ كبيرة الثمار؛ جانب كثيف الشجيرات، أتفهمني؟ وبينما كنتُ أسير بمُحاذاة هذا السياج النباتي، بينه وبين حائط مخزن العربات، في طريقي إلى الدَّرَج المؤدي إلى غرفتي في الأعلى، سمعتُ شخصًا ما قادمًا على الطريق الخاص على الجانب الآخر من السياج بخطواتٍ هادئة. لذا توقَّفت، فورًا ...»

فقاطعه بليك: «تمَهَّل لحظة. علامَ كنتَ تسير يا بيجي؟ أيُّ نوع من الأرصفة أو المماشي؟»

فأجاب بيجي فورًا: «كان طريقًا أسفلتيًّا، فُرِش عليه الأسفلت مُؤخرًا. ويمتدُّ بطول الجانب الأمامي لحظائرنا. وقد فُرِش عليه حين جاءت السيدة تريزيرو وأمَرت بإجراء تحسيناتٍ على مظهر البيت ومُحيطه.»

«وماذا كنتَ تنتعِل في قدميك، أي نوع من الأحذية؟»

فأجاب بيجي: «حذاءً قديمًا مُخصَّصًا للتنس أعطتني إيَّاه مدبرة المنزل. كان أحد السادة قد تركه هنا حين رحل.»

قال بليك: «جيد جدًّا. أكمِل. تقول إنك توقَّفت فورًا ...»

«توقَّفتُ في مكاني بالضبط، وتسللتُ بين الشجيرات، ونظرتُ إلى الممشى الخاص المؤدي إلى البيت. وحينئذٍ رأيتُ رجلًا قادمًا عبره من جهة البيت، حيث يُوجَد باب يمكنك الخروج منه إلى الحدائق الخلفية. مرَّ أمامي مباشرةً بينما كان يسير على الممشى العُشبي على جانب الطريق المفروش بالحصباء.»

«هل رأيتَهُ بوضوح؟»

«بالنظر إلى أنَّ الوقت كان ليلًا آنذاك — وإن كانت ليلة صافية — فقد رأيته بوضوح كما أراك الآن! أو بالأحرى مع قليلٍ من الاختلاف، إن جاز القول.»

«هل رأيته بوضوحٍ كافٍ لتتبيَّن هويته؟»

«نعم!»

سأل بليك مُخبرَه وهو يُحدِّق إليه بإمعان: «حسنًا.» وأضاف: «مَن كان إذن؟»

حدَّق بيجي إلى سائله بإمعانٍ مُماثِل.

وأجاب قائلًا: «ذاك الرجل الألماني الذي يمكُث مع سيدتنا!»

«البارون فون إيكهاردشتاين؟»

«إنه هو! نُناديه بالبارون.»

«أأنت مُتيقِّن تمامًا من هذا يا بيجي؟»

فأكَّد بيجي قائلًا: «ومُستعدٌّ لأقسِم على ذلك حتى وأنا على فراش الموت!»

أعاد بليك ملء غليونه وأشعله، وظلَّ يُدخِّن في صمتٍ دقيقة أو اثنتَين.

ثم سأل أخيرًا: «حسنًا، إلى أين ذهب؟»

فأجاب بيجي: «سار بضع ياردات على الطريق الخاص للبيت، ثم انعطف إلى مسارٍ يمتدُّ عبرَ الشجيرات ناحية الطريق الرئيسي. ويخرج هذا المسار في نهايته إلى الطريق الرئيسي على مقربة شديدة من الجانب المُقابل للأكواخ، خلف هذا المكان بالضبط؛ أي نزل «سيبتر». توجد بوابة مفصلية حديدية صغيرة في السياج الشجري المُكوَّن من أشجار البهشية، لعلَّك قد لاحظتها؟ لقد خرج إلى الطريق عبر تلك البوابة، على بُعد حوالي مائتي ياردة من هنا.»

«وتقول إنَّ ذلك كان في حوالي الساعة الثانية إلا ربعًا من صباح الثلاثاء؟»

أكَّد بيجي قائلًا: «في حوالي ذلك الوقت بالتأكيد. ربما كانت الساعة الثانية إلَّا ستَّ دقائقَ أو ثماني دقائق حين رأيته. على أي حال، كانت الثانية إلا ربعًا حين تفقَّدتُ الفرس القزم، ولم أبقَ في كشكه سوى عدة دقائق. ثم ذهبتُ مباشرة لإحضار علبة تبغي الصفيحية، وسمعتُ تلك الخطوات.»

«أظنُّ أنَّك قد استغربتَ ذلك؛ أي خروج ضيف من البيت في ذلك الوقت من الليل، أليس كذلك؟»

وافقه بيجي الرأي قائلًا: «أظنه شيئًا غريبًا جدًّا!» وأردف قائلًا: «ولكن مع ذلك، لم يكن الأمر يعنيني ولم أكترِث به إطلاقًا. وما كان سيلفتُ انتباهي بشدَّة لو لم أرَ هذا الرجل مرةً أخرى.»

فقال بليك: «أوه!» وأضاف: «آه! إذن فقد رأيتَهُ مرة أخرى؟»

«نعم، وكان ذلك حين بدأ ضوء الشمس يبزغ، فرأيتُه بوضوح شديد تلك المرة!»

«وكم كانت الساعة آنذاك؟»

قال بيجي: «لدَينا ساعة فوق حظائرنا. كانت قد دقَّت للتوِّ مُعلنة الرابعة.»

فكرَّر بليك الجملة مُتأمِّلًا: «الساعة الرابعة!» واستطرد قائلًا: «إممم! وأين رأيتَهُ عند الساعة الرابعة؟ في المكان نفسه؟»

أجاب بيجي قائلًا: «لا. قُبيل الساعة الرابعة مباشرة، بدأتُ أشعر بأنني في أمسِّ الحاجة إلى كوبٍ من الشاي. وكان لديَّ برَّاد يحوي بعض الشاي، لكنِّي بالطبع كنتُ بحاجة إلى ماء مغلي. لدَينا موقد غازي في حجرة صغيرة عند طرف الحظائر يستخدمها الحُوذي الذي يعمل لدَينا كغرفة جلوس له، أتفهمني؟ فذهبت إلى هناك لأضيئها وأغلي بعض الماء في غلَّاية. دقَّت الساعة الرابعة عندما كنتُ هناك. فقد كنتُ قد وضعت الغلاية على نيران الموقد للتو، حين سمعتُ دقات الساعة الرابعة. تحوي هذه الحجرة الصغيرة نافذة تُطِلُّ على الحدائق الخلفية؛ التي تمتدُّ من مؤخرة بيت الأرملة إلى سفح الُمتنزَّه، حيث يبدأ في الارتفاع نحو الروابي. وتُوجَد مزروعات كثيفة من أشجار الصنوبر والأرزية بين الحدائق والُمتنزَّه، وفجأة، رأيت هذا البارون يخرج من هذه المزروعات، كأنه كان نازلًا من الأرض الُمرتفعة الواقعة أعلاها.»

سأله بليك: «أكان وحدَه؟»

أجاب بيجي: «أوه، كان وحدَه قطعًا، تمامًا كما كان حين رأيتُه من قبل.»

«وكم كانت المسافة بينكما؟»

«خمسًا وعشرين أو ثلاثين ياردة.»

«أين ذهب آنذاك؟»

«سار على جانب سياج نباتي شاهق من أشجار البهشية ناحية الباب نفسه الذي أظنه قد خرج منه.»

«هل كان بالإمكان رؤيته من البيت؟»

قال بيجي: «لا، لا أظن ذلك. فيُوجَد بين البيت وتلك الحدائق حزامٌ كثيف من الأشجار؛ أشجار زان نبتت أوراقها للتو.»

«رأيتُه يمرُّ بجوار ذاك الحزام؟»

قال بيجي: «بل رأيتُهُ يدخُله. وحالما دخله، صار قريبًا من ذاك الباب الجانبي الذي ذكرتُه.»

سأله بليك قائلًا: «أفترضُ أنَّك تعرف بيت الأرملة جيدًا يا بيجي؟»

أكَّد بيجي ذلك قائلًا: «نعم. كنتُ هناك أصلًا من قبل أن تأتي السيدة تريزيرو وتأخذه. فأنا أعمل هناك، على فتراتٍ متقطعة، منذ صباي. وكانت أول مرة ذهبتُ فيها إليه حين كنتُ في الرابعة عشرة من عمري.»

«حسنًا، بخصوص ذاك الباب الجانبي، ما ماهيته؟ إلى أين يؤدي حين تدخُل البيت منه؟»

«إلى بهوٍ يَمتدُّ بطول مؤخِّرة البيت. ويُوجَد فيه دَرَج — دَرَج عريض — يؤدي منه إلى الدَّرَج الكبير في الصالة، عبر بابٍ ذي مصراعَين في الأعلى.»

«إذن فأيُّ شخصٍ آتٍ من غرف النوم يستطيع الوصول إليه بسهولة؟»

قال بيجي مؤيدًا: «بكل سهولة!»

سأله بليك بعد لحظة من التفكير: «أظنُّ أن لا أحد من الخَدَم كان خارج فراشه في الرابعة صباحًا؟»

فتح بيجي فمه بابتسامةٍ عريضة.

وقال: «هذا مُستبعد!» وأردف قائلًا: «فجرس إيقاظ الخدَم يُقرَع في السادسة صباحًا. لن تجد أيًّا منهم مُستيقظًا قبل هذا الوقت!»

قال بليك: «بمناسبة الحديث عن الخَدَم، هل تعرف وصيفة السيدة تريزيرو؟»

ابتسم بيجي.

وقال: «دافي هاليويل؟» وأضاف قائلًا: «أعرفها بالطبع!»

«حسنًا، مَن هي دافي هاليويل إذن؟ وما اسمها الأول؟»

فأجاب بليك فورًا: «دافي. مَن هي؟ حسنًا، كان أبوها مزارعًا أو ما شابه على الجانب الآخر من الروابي، خلف مُنخفض ماركنمور هولو. وقد مات. كان لديه فتاتان: دافي ومايرا. سافرت دافي إلى الهند مع السيدة تريزيرو وعادت معها. أمَّا مايرا، فلا أعرف مصيرها. لقد اختفت، إن جاز القول، في الوقت نفسه تقريبًا؛ مع أنني أتذكَّر الآن أنها كانت ستتزوَّج شابًّا كان يعيش بالقرب منهم، جيم روبر، الذي كان يعمل حطَّابًا، لدى السير أنطوني.»

لم يهتمَّ بليك بهذه التفاصيل كثيرًا؛ إذ كان يُفكِّر في النقاط الأساسية في المعلومات التي ذكرها السائس.

ثم قال بعد لحظة: «الآن يا بيجي، لديَّ سؤال مُهم؛ هل أنا أول مَن تُخبره بهذه الرواية؟»

أجاب بيجي فورًا: «أنت الأول قطعًا!» وأردف قائلًا: «لم أخبِر بها أيَّ إنسانٍ غيرك!»

سأله: «ألم تذكُر قط لأيٍّ من زملائك من الخَدَم أنَّك رأيتَ البارون فون إيكهاردشتاين خارج البيت في ذاك الوقت من الصباح؟»

فقال بيجي بنبرةٍ تأكيدية: «كلَّا، لم أفعل! لن أُنكر أنني ربما كنتُ سأذكر ذلك، مجرد ذِكر عفوي عابر، لو لم أكن قد سمعتُ بمقتل جاي ماركنمور في ذاك الصباح. لكني سمعتُ به، في وقتٍ مبكر جدًّا — قبل أن يسمع به مُعظم الناس — وقبل أن يصِل الحُوذي أو السائس الثاني إلى الحظائر؛ لذا لم أقُل شيئًا.»

سأله بليك: «ومَن أخبرك بالجريمة، في ذلك الوقت المُبكر جدًّا؟»

أجاب بيجي قائلًا: «شرطي قريتنا. كنتُ واقفًا عند طرف مَرعى خيولنا الشرقي حين صعد هو وهوبز جانب التل إلى الروابي، بعدما ذهب هوبز ليُحضِره. وكنتُ سأصعد معهما إلى ماركنمور هولو لو كان بإمكاني ترك الفرس القزم. لكني فقط تمشيتُ إلى حافة أراضينا، لأستنشِق قليلًا من الهواء النقي بعدما قضيتُ الليل كله في مخزن السروج، حين مرَّ بي الشرطي وهوبز وهما يُهرعان. وبعدما جمعتُ التفاصيل معًا، ارتأيتُ أن ألزم الصمت. وقد لزمته ... إلى الآن.»

قال بليك: «وأخيرًا ارتأيتَ أن تُخبرني.» وأضاف: «حسنًا، لقد فعلتَ الصواب. لن يمسَّك أيُّ أذًى يا بيجي؛ أنت آمِن تمامًا.»

فقال بيجي بنظرةٍ ماكرة مفاجئة: «حسنًا، لديَّ سبب وجيه جعلني آتي إليك الليلة. ارتأيتُ أنَّ ذلك هو الأفضل.»

فسأله بليك: «حسنًا، ما هذا السبب يا تُرى؟»

أجاب بيجي: «إنَّ هذا البارون سيرحل عن المنزل صباح غد. سيُغادر!»

فصاح بليك: «أوه!» وأضاف: «في أي وقت؟»

قال بيجي: «لديَّ أوامر بأن أوصِله إلى محطة سيلكاستر ليستقلَّ القطار السريع الذي سينطلِق في العاشرة وثماني دقائق إلى فيكتوريا. سنُغادر من هنا في التاسعة والنصف.»

سأله بليك: «تُوجَد في بيت الأرملة امرأة تُدعى السيدة هاميلتون، أليس كذلك؟» واستطرد قائلًا: «صديقة السيدة تريزيرو؟ أهي أيضًا راحلة؟»

أجاب بيجي قائلًا: «لا. هو فقط. سأوصله في العربة الخفيفة الصغيرة. وحدَه.»

نهض بليك من كرسيه في إشارةٍ إلى انتهاء المقابلة.

وقال: «حسنًا يا بيجي. والآن، تذكَّر هذا، لا تنبس ببنت شفة عن ذلك لأيِّ إنسان! كلُّ ما عليك أن تواصِل حياتك كما لو كان كل شيء عاديًّا. لقد فعلتَ الصواب بمجيئك، وتذكَّر ما قلتُه لك: احتفظ بكل هذه المعلومات لنفسك!»

حين رحل السائس، بعدما اتَّخذ احتياطاتٍ مُضحكة ليضمَن أن لا أحد من زبائن النزل قد رآه وهو يغادر غرفة جلوس المُحقق، فكَّر بليك فيما سمِعَه للتو. لم يَعُد يُساوره أيُّ شكٍّ آنذاك في أنَّ البارون فون إيكهاردشتاين كان الرجل الثاني في لقاء منتصف الليل الذي جرى في نُزُل سيبتر؛ فرواية بيجي، ومعرفة بليك نفسه بأنَّ فون إيكهاردشتاين قد اختلس الغليون من على طاولة المُحامين أثناء جلسة التحقيق، أكَّدتا له ذلك يقينًا. ولكن أكان هذا كافيًا ليجعل المرء يشتبِهُ في أنه ارتكب جريمةَ قتل؟ رأى بليك أنَّ هذا غير كافٍ؛ بل غير كافٍ إطلاقًا! لم يكن بوسعه تصديق أنَّ رجلًا ما من الممكن أن يقتل رجلًا آخر، ويبقى قريبًا من مسرح الجريمة، ويتصرَّف بطريقةٍ عادية كالطريقة التي بدا فون إيكهاردشتاين يتصرَّف بها. ومع ذلك، فهذا الرجل ربما يعرف شيئًا، بل من المُرجَّح أنه يعرف، وسواءٌ أكانت تُوجَد أسباب كافية، أم لا، لاتهامه بارتكاب الجريمة أو التواطؤ فيها، فبالتأكيد كانت تُوجَد أسباب كثيرة لمُطالبته بالإدلاء ببعض الأقوال عن نفسه. وإذا بُوغِت بمِثل هذا الطلب، فربما تَحمِل أقوالُه معلوماتٍ جديدة.

تمتم بليك قائلًا: «سأعرف منه شيئًا!» وأردف قائلًا: «من المؤكد أنه يعرف شيئًا ما، وسيكون مُضطرًّا للتحدُّث!»

وبهذا العزم الصلب في قرارة نفسه، خرج ليبحث عن جريمسدِل، وطلب منه أن يكون فطوره جاهزًا في تمام الساعة السابعة والنصف من صباح اليوم التالي، وأمر صاحب النزل بتجهيز عربة أجرة تُقِلَّه إلى سيلكاستر في الساعة الثامنة.

الفصل الرابع عشر

اختفاء

بعد تسوية أمر هاتَين المسألتَين ولم يَعُد يشغل باله بهما، اكتفى بليك بهذا القدْر من العمل في تلك الليلة، ودخل حجرة حانة سيبتر، راغبًا في قليل من الاسترخاء قبل الخلود إلى فراشه. كان قد دخل هناك مرةً أو اثنتين منذ أن أقام في النُّزُل، وعادةً ما كان يجد رجُلَين أو ثلاثة من قرية ماركنمور — مزارعًا أو اثنين، والطحان والنجار والحداد — عند المدفأة مُنهمكِين في مناقشة آخرِ أخبار القرية، وكان بليك يُحب سماع حديثهم. لكنَّ الحجرة كانت شبه فارغة هذه المرة؛ في الواقع، لم يكن فيها سوى رجل ضئيل الجسد ذي مظهرٍ وديع هادئ وحُلَّةٍ تويدية ذات سروال فضفاض قصير ملمومٍ عند أسفل الركبتَين، كان يجلس مُستغرقًا في التفكير ومنعزلًا بالقرب من المدفأة، والتفت إلى المُحقق بنظرةٍ اعتذارية من تحت نظارة كبيرة للغاية. ثم أعاد كرسيه إلى الوراء قليلًا كأنه يدعو بليك إلى الجلوس بجواره عند النيران المُبهجة.

قال بليك: «شكرًا لك.» وارتمى على كرسيٍّ مواجه لهذا الغريب وأخرج غليونه والتبغ. ثم استهل الحديث معه قائلًا: «حبَّذا القليل من النار، وإن كنَّا قد قاربنا شهر مايو.»

ردَّ الآخر قائلًا: «حبَّذا ذلك جدًّا يا سيدي. لا سيما حين يكون المرء قد قضى يومَه كله في العراء!»

سأله بليك مُلقيًا نظرةً خاطفة على سرواله القصير الفضفاض: «أكنت تتمشَّى؟»

ردَّ الغريب قائلًا: «نعم يا سيدي!» واستطرد قائلًا: «مشيتُ ثلاثين ميلًا اليوم قبل المجيء إلى هذا المكان. عبر الروابي مباشرة. دائمًا ما آخُذُ إجازتَين في السنة، واحدة في أوائل الربيع والثانية في أواخر الخريف، وأقضيهما في ممارسة المشي. لقد جُبتُ كل هذا الجزء من الجنوب هرولةً في أيام صباي. لكنِّي لم آتِ قط إلى هذه القرية بالذات قبل اليوم. وأعترفُ بأنَّ ما قادني إلى هنا — لأنني في الظروف العادية كان من المفترض أن

أمكث في سيلكاستر — هو الفضول! لقد قرأت في الصحف عن لغز مقتل ماركنمور هذا؛ لذلك، ولَمَّا كنتُ قريبًا من المكان، ارتأيتُ أنني أود رؤيته.»

قال بليك: «قضية غريبة، أليس كذلك؟»

وافقه الغريب قائلًا: «غريبة بكل تأكيد يا سيدي!» وسأله: «أأنت مُهتم بها يا سيدي؟»

أجاب بليك باقتضاب: «مُضطر. إنه اهتمام مِهني.»

فسلَّط الغريب نظارته الكبيرة على بليك ونظر إليه باهتمام جذل. ثم مال إلى الأمام وتحدَّث بصوت خفيض.

وسأله بنبرةٍ تكاد تكون إجلالية: «أيُعقل يا سيدي أنني أحظى الآن ببهجة لقاء المُحقِّق الرقيب الشهير بليك، الذي سمعتُ اسمه فيما يتعلق بهذه القضية؟» وأضاف: «هل أرى السيد بليك بشحمه ولحمه؟»

أجاب بليك: «أجل!» وأردف: «بكل كينونته!»

فصاح الغريب: «يا إلهي!» واستطرد قائلًا: «أنا فخور جدًّا بلقائك يا سيدي، بكل تأكيد. اسمي كرولي، من حيِّ توتينج. أعمل مُحصِّل ضرائب، صحيح أنها مهنة شاقة ومُملة يا سيدي، لكنها تُبقيني لائقًا بدنيًّا للمشي، الذي أعشق ممارسته. عجبًا! قد يبدو ذلك شيئًا غير عادي، ولكن أتعرف يا سيدي أنني، طوال خمسةٍ وأربعين عامًا هي كل سنوات عمري، لم ألتقِ قَطُّ برجلٍ يمتهن مهنتك! أظنها يا سيدي مهنة مثيرة للغاية وتستحوذ على كل اهتمام المرء، ومليئة بالمغامرات؟»

قال بليك: «ربما. فهي أحيانًا ما تكون مُملة ورتيبة جدًّا. صحيح أنَّك قد تحظى بالإثارة والمغامرة عند حلِّ مسألةٍ في الرياضيات، لكنك لا تنال الكثير من أيهما عند حل مسألة جمع مُركَّب طويلة، أليس كذلك؟»

نَظَر السيد كرولي نظرةً تنمُّ عن إعجابه وعجزه عن الفهْم.

فأضاف بليك: «أقصد أنَّ مِهنتنا كثيرًا جدًّا ما تتضمَّن الجمع بين هذا وذاك، وبين ذاك وهذا إلى أن تتوصَّل إلى مجموعٍ نهائي.»

قال السيد كرولي وهو يفرك يديه: «جيد جدًّا يا سيدي، جيد جدًّا، فهمت قصدك!» وأضاف: «أوه، جيد جدًّا يا سيدي بكل تأكيد، توضيح مُمتاز! أظنه لن يكون تصرُّفًا لائقًا منِّي أن أسألك عما إذا كنتَ قد توصلتَ إلى مجموع نهائي في مسألة ماركنمور هذه يا سيد بليك؟»

فقال بليك: «يُمكنني الإجابة على ذلك فورًا من أجلك. لم أتوصَّل إليه.»

قال السيد كرولي: «أظنها مسألة شديدة الصعوبة يا سيدي. لقد قرأتُ كل أقوال الشهود في الصحيفة — «ديلي سينتينل» يا سيد بليك — بينما كنتُ جالسًا على جانب أحد التلال أتناول غدائي المتواضع، إنها مُثيرة جدًّا للاهتمام بالطبع، بل أكثر إثارة من أيٍّ من تلك الروايات المُثيرة التي يستعيرها الناس من المكتبات يا سيدي؛ أوه، أكثر بكثير! إنها الحياة الواقعية يا سيدي!»

سأله بليك: «هل توصَّلت إلى أيِّ استنتاجٍ بشأنها؟» وأردف: «أو تبنَّيت أيَّ رأي؟»

ألقى السيد كرولي نظرةً خاطفة على الباب وخفض صوته.

ثم أجاب قائلًا: «لدي آراءٌ يا سيد بليك. أجل يا سيدي، لدي آراء. صحيح أنني لستُ من مُعتادي المراهنة يا سيدي، لكنني مُستعد للمراهنة بالمال على أنني أعرف السبب الحقيقي وراء هذه القضية!»

سأله بليك: «أجل؟» وأضاف: «ما هو يا تُرى؟ دائمًا ما أسعد بأيِّ فكرة.»

قال السيد كرولي بجدية: «المال!» وأردف قائلًا: «المال يا سيدي، المال!»

فسأله بليك: «ولكن كيف؟»

خلع السيد كرولي نظارته، كاشفًا عن عينَين ضعيفتَين شاردتَين، وهزَّ رأسه.

ثم أجاب قائلًا: «أظنُّ أنَّ الشاب البائس السيد جاي ماركنمور — يا له من اسمٍ غريب يا سيدي! — كان مُلاحَقًا. كان أحدهم في أثره!» واستطرد قائلًا: «كان أحدُهم في أثره، يا سيدي! والمال هو السبب الرئيس وراء ذلك، أجل!»

سأله بليك: «أتقصد أنه سُرِق وقُتِل؟»

قال كرولي بتأكيد قاطع: «كلَّا يا سيدي، لا أقصد ذلك إطلاقًا!» وأوضح قائلًا: «لقد لاحظتُ أنَّ مقتنيات السيد جاي ماركنمور وأمواله تُركت كما هي دون مساس! لا، بل أقصد أنَّ المال هو السبب الرئيس وراء لُغز مقتله؛ أعني أنه قُتل بيدَي شخصٍ شرير سيستفيد من موته استفادةً مالية يا سيد بليك، استفادة مالية.» واختتم السيد كرولي كلامه قائلًا: «ربما أكون مُخطئًا، ربما أكون مُخطئًا تمامًا وكليًّا، لكنَّ هذا رأيي يا سيدي، بناءً على أقوال الشهود. وقد كنتُ ضمن هيئة مُحلَّفين من قبل، أكثر من مرة.»

اعترف بليك قائلًا: «من الممكن أن يكون في كلامك قدْر من المنطق. فعادة ما يكون ثمَّة قدْر من الاحتمال أن يكون المال هو السبب الرئيس وراء كل هذه الأشياء.» وأضاف وهو يُخرِج ساعته متثائبًا: «ولكنني حتى الآن لم أفهم سوى أقل القليل من طلاسم هذه المسألة، ربما سأفهم المزيد غدًا.»

ثم قال ضاحكًا إنَّه حتى المُحققين يجب أن يناموا من حينٍ إلى آخر، وتمنَّى للسيد كرولي ليلةً طيبة، وقام ليُغادر الغرفة ذاهبًا إلى فراشه.

وبينما كان يغادر، ألقى إليه السيد كرولي تعليقًا أخيرًا، مصحوبًا بهزِّ سبابته.

«لا تنسَ يا سيد بليك — وإن كان رجلٌ فاضل بقدراتك وخبرتك لا يحتاج إلى تذكير بذلك بالتأكيد — لا تنسَ أنَّ اللامتوقَّع هو ما يحدُث دائمًا! اللامتوقَّع يا سيدي! ثمَّة قدْر كبير من الأهمية في اللامتوقَّع! فلا أحد يعرف يا سيدي ما قد يأتي به الغد!»

فقال بليك بنبرةٍ تأكيدية: «أظنك مُحقًّا بعض الشيء يا سيد كرولي. لقد أصبتَ عين الصواب هذه المرة!»

لم يكن بليك يعرف أيَّ شيءٍ عمَّا سيأتي به الغد، لا آنذاك، ولا حين غطَّ في نومٍ عميق بعد ذلك بوقتٍ قصير، ولا حين استيقظ في الصباح، ولا حين صعد في الساعة الثامنة إلى العربة الصغيرة التي كان جريمسدِل سيوصِله بها إلى سيلكاستر. كان السيد كرولي، الذي تناول فطوره مُبكرًا أيضًا، واقفًا عند باب النزل حين خرج منه بليك؛ إذ كان مُجهَّزًا بالعُدة اللازمة لممارسة المشي، وكان يحزم حقيبةً صغيرة على كتفيه.

سأله بليك: «مُغادِر؟»

ردَّ السيد كرولي قائلًا: «طوال النهار فقط يا سيدي. سأقضي نهارًا كاملًا ورائعًا على الروابي، انظر إلى وعاء غدائي! وأنا راضٍ جدًّا عن نزل سيبتر يا سيد بليك إلى حدِّ أنني أعتزم أن أُقيم فيه بقية إجازتي؛ لذا ربما أسعَد بلقائك الليلة يا سيدي عندما ...» وأضاف هامسًا: «ينقضي النهار، وعساه أن يكون حينئذٍ قد أسفر عن شيء! شيء مُثمر، هاه؟»

ردَّ بليك قائلًا: «لا يعرف المرء أبدًا ما يُخبئه له القدَر!»

لم يتحدَّث كثيرًا إلى صاحب النزل بينما كانا مُتَّجِهَين إلى سيلكاستر بالعربة، ولكن عندما بلغا ميدان ماركت كروس العتيق في وسط المدينة القديمة، وضع يدًا على ذراعه.

وقال له: «جريمسدِل، أوقف العربة وأنزلني هنا. أنا ذاهب لمُلاقاة قائد الشرطة، سأقطع الشارع سيرًا. وأصغِ إليَّ، أريدُك أن تبقى في سيلكاستر قليلًا. وكُن عند المحطة في تمام الساعة العاشرة. سألقاك هناك.»

ترجَّل من العربة وانصرف متجهًا صوب مكتب قائد الشرطة، فيما انعطف جريمسدِل ودخل ساحة فندق مايتَر الفسيحة، لينتظِر هناك حتى الموعد المُحدَّد. وفي الساعة العاشرة إلَّا خمس دقائق، ذهب إلى المحطة، ثم سلَّم حصانه وعربته إلى عُهدة فتى المحطة، ومشى على رصيف القطارات الذاهبة إلى لندن. كان موعد وصول القطار السريع المُتجه إلى لندن

قد حان تقريبًا، وكان ثمَّة ركَّاب كثيرون ينتظرون وصوله، كالعادة، وكان الرصيف مُكتظًّا. لكن سرعان ما لاحظ جريمسدِل أنَّ بليك كان موجودًا هناك، وأن شُرطيَّين أو ثلاثة من أفراد الشرطة المحلية، مندسون وسط الحشود في ثيابٍ مدنية واقفون على مقربة منه، وبدا واضحًا أنَّ بليك كان ينتظِر شخصًا ما. فوقف جريمسدِل يُراقبه بانتباهٍ وتيقظ، ماضغًا قطعةً صغيرة من القَشِّ برزت من بين شفتيه.

دقَّت الساعة العاشرة من الأبراج الكثيرة في المدينة، ولم يحدُث شيء. كان القطار السريع الكبير سيدخل المحطة بصوتٍ مُدوٍّ في غضون الدقائق الخمس التالية، وفي غضون الدقائق الثماني التالية، كان سيغادر المحطة مُجددًا بانطلاقةٍ انسيابية على مساره البالِغ ستين ميلًا إلى لندن. غادر السيد بليك، الذي كان يُراقِب مكتب حجز التذاكر بكل انتباه، الرصيفَ وخرج من المحطة في الساعة العاشرة ودقيقة واحدة. وبينما كان يخرج من المحطة إلى الساحة المفتوحة الواقعة أمامها، جاء ويليام بيجي مُسرعًا وهو يقود عربة السيدة تريزيرو الصغيرة الأنيقة، وكان وحده.

استطاع بيجي أن يُلاحظ بليك وسط حشود المُتسكِّعين عند أبواب المحطة، وتوقَّف بالعربة أمامه مباشرة. وفي لمح البصر، كان المُحقِّق بجوار العربة الصغيرة الخفيفة. وذهبت عيناه إلى الكرسي الشاغر بجوار السائس.

سأله بصوتٍ هامس حاد: «أين هو؟»

فانحنى بيجي أسفل نحوه.

وأجاب قائلًا: «اختفى!» وأضاف: «هرب في جنح الليل! لم يكن في غرفته أحد صباح اليوم؛ اختفى بلا أي أثر! أرسلتْني السيدة تريزيرو لإبلاغ الشرطة؛ إذ تقول إنَّ مكروهًا قد أصابه.»

قال بليك بنبرةٍ غاضبة: «مكروهًا أصابه؟ ماذا تقصد بذلك؟»

انحنى بيجي أكثر. وبينما كان يتحدَّث، سمِعا القطار السريع قادمًا؛ إذ دخل المحطة من خلفهما بصخَبٍ وضجيج تلاشَيَا وسط هسهسة البخار المُتسرِّب في أثناء توقفِ المحرك وخلوده إلى استراحته الوجيزة.

أجاب قائلًا: «سمعت السيدة تريزيرو تقول لمُدبرة المنزل إنَّ البارون كثيرًا ما يخرج للتمشية في وقتٍ مُتأخِّر جدًّا من الليل. قالت إنه مُصاب بأرق شديد، وإنه يخرج ليتمشَّى كي يُنوِّم نفسه. وفهمتُ أنها تظن أنَّه خرج هكذا في جنح الليل، وتعتقد أنه تعرَّض لحادث، أو شيءٍ من هذا القبيل. لذا أرسَلَت الخدم للبحث عنه، وأرسلتني إلى هنا لإبلاغ الشرطة.»

قال بليك: «انتظر لحظة.» كان الناس الذين ترجَّلوا من القطار السريع يتوافدون من مخارج المحطة؛ لذا ابتعد بليك ليُفسِح لهم طريقًا. ثم سأل وهو ينظر إلى بيجي: «ألا تعرف الوقت الذي خرج فيه؟»

أجاب بيجي: «لا أعرف. سمعتُ أنَّه خلد إلى فراشه في موعده المعتاد، لكن …» وسكت فجأة. فقد جاء جريمسدِل في هذه اللحظة مُهرولًا وكان ينقر على مِرفق بليك. التفت بليك إليه بسرعة. فأشار جريمسدِل إلى رجلٍ طويل القامة كان قد خَرج للتوِّ من المحطة، ووقف عند مدخلها الرئيسي يتلفَّت حوله.

قال جريسمدِل: «انظر هناك!» وأضاف: «هذا الرجل! هذا هو … هذا هو الرجل الذي أتى إلى سيبتر في ليل الإثنين؛ الأمريكي!»

وفي تلك اللحظة لمح الرجل الطويل جريمسدِل، فانتفض وابتسم وأومأ برأسه، وأقبل نحوَه على عجل.

ثم قال: «مرحبًا يا صاحب النزل!» واستطرد قائلًا: «أنت بالذات مَن كنتُ أنتظر رؤيته! قُل لي! ما آخِر أخبار قضية جاي ماركنمور هذه؟ لقد قضيتُ الليل كله مسافرًا لأصِلَ إلى هذه المدينة كي أُدلي ببعض المعلومات؛ فلم أسمع بالقضية قَطُّ حتى مساء أمس، حين كنتُ في مدينة فالموث جنوبًا! هل قبضوا على أيِّ شخص؟»

كان جريمسدِل ينقل ناظرَيه من هذا الرجل الغريب إلى بليك، وبادر بليك بالتحدُّث.

سأله فجأة: «هل أنت الرجل الذي تناول معه جاي ماركنمور العشاء في نزل سيبتر في منتصف ليل الإثنين الماضي؟» وأردف قائلًا: «الرجل الذي حجز غرفة هناك ولم يمكُث فيها قَط؟»

فأجاب الغريب بابتسامةٍ جاهزة وإيماءةٍ حاضرة: «أنا ذلك الرجل. بذاته!»

سأله بليك: «هل تُمانع في أن تُخبرني مَن أنت؟» وأضاف: «وماذا تعمل؟»

«كلَّا! اسمي إدوارد لانسبري، وأعمل مُمولًا، ولديَّ شركات في نيويورك ولندن. مَن أنت وماذا تعمل؟»

«أنا المُحقِّق الرقيب تشارلز بليك من إدارة التحقيقات الجنائية في نيو سكوتلانديارد! وأنا أُباشر هذه القضية يا سيد لانسبري، وسأكون مُمتنًّا إذا أخبرتَني بما تعرفه عنها.»

«بالتأكيد! كل شيء! فلهذا جئتُ مُسرعًا من فالموث. أين سنتحدَّث؟»

فقال له بليك: «تعالَ معي من هذه الناحية.» كان الرجال ذوو الثياب المدنية قد لحِقوا ببليك من خلفه، فاستدار وهمس إليهم بشيء، وانصرفوا مُتَّجِهين نحو مركز

الشرطة. تابع بليك الحديث قائلًا: «لا تنتظِرني يا جريمسدِل. سأبقى هنا بعض الوقت؛ لذا بإمكانك العودة حالًا.»

لكنَّ جريمسدِل أخرج يدَه من جيبه، وقدَّم بها شيئًا إلى لانسبري.

وقال: «باقي نقودك يا سيدي. ثلاثة جنيهات وأربعة عشر شلنًا. فقد كان المبلغ المُستحق ستة وعشرين شلنًا يا سيدي.»

فانتفض لانسبري، وضحك وأخذ النقود، وأعاد منها بعض العملات الفضية إلى جريمسدِل.

قال له: «تخيَّل أنني نسيتُ ذلك تمامًا!» وأضاف: «خُذ! اشترِ لنفسك شرابًا.»

قال جريمسدِل برباطة جأشه المُعتادة: «توقَّعتُ أنك نسيته يا سيدي. شكرًا لك يا سيدي.»

ثم رحل إلى عربته وانطلق بها بعيدًا، وأشار بليك لرفيقه بأن يتبعه نحو مكتب قائد الشرطة.

قال له وهما يمشيان في الشارع: «أنا مُمتنٌّ حقًّا لمجيئك يا سيد لانسبري. فكل ملابسات هذه القضية مُحاطة بشيءٍ من الغموض!»

قال لانسبري: «حسنًا، باستثناء ما أعرفه بنفسي — وهو ليس كثيرًا — فكل معلوماتي عن هذه القضية مأخوذة من صحيفة لندنية حصلتُ عليها في فندقي بمدينة فالموث مساء أمس. فانطلقتُ مُسرعًا إلى هنا في الحال، وظللتُ في القطار الليل كلَّه تقريبًا. ما آخِر المُستجدات؟»

أجاب بليك: «آخر المُستجدات خبرٌ لم أعرفه إلَّا منذ بضع دقائق. هل تعرف البارون فون إيكهاردشتاين؟»

«بالتأكيد! أعرفه جيدًا. كان معي أنا وماركنمور في النزل الصغير في تلك الليلة، وتركته بصحبة ماركنمور في حوالي الساعة الثالثة أو نحو ذلك من صباح الثلاثاء. بالطبع كان فون إيكهاردشتاين هو الرجل الطويل القامة الذي رآنا صاحِب النزل نسير معه على الطريق، كما قال صاحب النزل في شهادته، حسبما قرأت.»

«حسنًا، لقد اختفى فون إيكهاردشتاين! في أثناء هذه الليلة الماضية. اختفى تمامًا بلا أيِّ أثر! أظنُّك لا تعرف أيَّ شيءٍ عن ذلك؟»

«إطلاقًا! ولكن لِمَ كل هذا؟ يبدو لي ...»

قاطَعَه بليك قائلًا: «انتظِر قليلًا. سنلتقي قائد الشرطة على انفرادٍ في غضون دقيقة. حينئذٍ أخبِرْني بكلِّ ما تعرفه. فنحن بحاجة إليه.»

كان قائد الشرطة، الذي أرسل إليه بليك رسالةً على لسان الرجال ذوي الثياب المدنية، ينتظِره هو والوافد الجديد في مكتبه الخاص. نظر إلى لانسبري باهتمامٍ شديد، وطرح سؤالًا مباشرًا فجأة.

فسأله قائلًا: «هل أنت السيد إدوارد لانسبري الذي كان على علاقة وطيدة بشركة «فيلونا كومباني» للتنمية العقارية قبل بضع سنوات؟» وأردف: «أنت، هاه؟ إمبم! أملكُ فيها حصة كبيرة نوعًا ما من الأسهم، وهي مُربحة جدًّا أيضًا. وبِمَ تستطيع أن تُخبرنا عن قضية ماركنمور هذه يا سيد لانسبري؟ سنكون مُمتنِّين جدًّا إذا عرفنا.»

ارتمى لانسبري على كرسيٍّ وثير بجوار مكتب قائد الشرطة، ولامس أطراف أصابع إحدى يديه بأطراف أصابع يده الأخرى.

ثم قال: «حسنًا، سأُخبركما بكلِّ ما أستطيع قوله، أو بالأحرى، كل ما أعرفه بالفعل. بخصوص جريمة قتل جاي ماركنمور نفسها، يبدو أن ما أعرفه لن يُحدِث فارقًا كبيرًا، أمَّا بخصوص ما حدث قبلها مباشرة، حسنًا، فيجب أن تستنتِجا ممَّا سأقوله ما تستطيعان استنتاجه! فكلُّ ما أستطيع إخباركما به مُتعلِّق بما حدث في نزل سيبتر إن.

فقال بليك بهدوء: «وبسبب لقائكم، أنت وماركنمور وفون إيكهاردشتاين، هناك.»

تابع لانسبري قائلًا: «بالتأكيد!» وأردف قائلًا: «ومُتعلِّق بسبب لقائنا هناك. كما أخبرتك عند محطة القطار للتو، فأنا أعمل مُمولًا. ولديَّ مصالحُ عمل في هذا البلد وبلدي أيضًا. فأنا أملك مكتبًا في لندن، كما أملك مكتبًا في نيويورك. وبطبيعة الحال، أعرف العديد من أصحاب شركات التمويل والاستثمار في كِلا البلدين. كنتُ أعرف جاي ماركنمور جيدًا، كان رجلًا ذكيًّا ناجحًا في عمله. وأعرف فون إيكهاردشتاين، معرفةً غيرَ قوية للغاية لكنها كافية. إنه بالطبع أشهر منِّي، أو من ماركنمور؛ فهو معروف في لندن وباريس وفيينا.»

قال قائد الشرطة: «أظنُّه ألمانيًّا!»

فقال لانسبري: «لا، فون إيكهاردشتاين نمساوي. حسنًا، لقد تعاملتُ مع هذَين الاثنين — كُلًّا على حِدة وليس معًا قَط، كما تفهم، في مناسبات مختلفة — ودائمًا ما كنتُ أراهما رَجُلي أعمال مُستقيمَين وبارعَين جدًّا. بَعَث ماركنمور إليَّ برسالة، منذ وقتٍ قريب جدًّا، ذكر فيها أنه كان يعتزم إبرام صفقة عمل، مُقترِحًا عليَّ أن أشاركه فيها من أجل تنمية عائداتها في الولايات المتحدة، وقائلًا إنني سأجد هذه الشراكة مُربحةً على الأرجح. وقد أخبَرَني في رسالة بماهية هذه الصفقة، لكني لا أرغب، حاليًّا، في إخباركما بها؛ لأنه سرٌّ في غاية الأهمية. سأفصح عنها بالطبع إذا تحتَّم ذلك من أجل مصلحة العدالة؛ أي إذا كان

إفصاحي عن التفاصيل الدقيقة سيُسهِم في القبض على قاتل ماركنمور. ولكن في الوقت الراهن، أُحبِّذ ألَّا أقول، وهي ليست مرتبطة بالمسألة التي نناقِشها. يكفي أن أخبركما بأنَّ ماركنمور كان لديه فرصة — أو خَيار، في الواقع — ليشتري شيئًا مُعينًا من شخصٍ مُعين، ودعاني إلى مشاركته، وكان اقتراحه أن أشتري الثلث، ويشتري هو الثلث الثاني، وكنا سنبحث عن رجلٍ ثالث ليشتري الثلث المُتبقي. تبادلنا القليل من الرسائل بشأن الشيء الذي كنا سنشتريه، وأستطيع إخباركما أنَّ هذا الشيء كان سرًّا تجاريًّا. وبينما كنا نتبادَلُ هذه الرسائل، كان ماركنمور في لندن، وكنتُ أنا أقضي وقتي بين ساوثهامبتون وفالموث؛ إذ لديَّ أعمالٌ في كلتا المدينتَين حاليًّا. في حوالي منتصف الأسبوع الماضي، أرسل ماركنمور إليَّ رسالة اقترح فيها أن نغتنِم فرصة وجودي في ساوثهامبتون وأن ألتقيه في نزل سيبتر إن في قرية ماركنمور بمدينة سيلكاستر في ليل الإثنين التالي؛ إذ قال إنَّه سيذهب إلى بيت ماركنمور كورت في مساء ذلك اليوم بشأن مسألة عائلية، وسيلحق بي في نزل سيبتر عندما ينتهي منها، في حوالي العاشرة والنصف. واتفقنا على ذلك. جئتُ من ساوثهامبتون بقطار مسائي، ثم ترجَّلتُ منه ومشيتُ إلى ماركنمور، وحجزت غرفة في نزل سيبتر، وطلبتُ عشاء لفردَين. وفي أثناء تحضير العشاء، تمشَّيت بالخارج؛ إذ بقيتُ حبيسًا في أماكنَ مغلقةٍ وقتًا طويلًا طوال عدة أيام سابقة؛ لذا خرجتُ لأستمتع بالهواء النقي. تمشيتُ خارج قرية ماركنمور هذه، والتقيتُ فون إيكهاردشتاين.»

قاطعه بليك قائلًا: «انتظر لحظة. كم كان الوقت حينئذٍ؟»

أجاب لانسبري: «كان بين التاسعة والنصف والعاشرة، على حدِّ ما أتذكَّر.»

«أي كانت الأجواء مُظلمة آنذاك؟»

«أوه، حالكة الظلام! وما كنتُ سأرى فون إيكهاردشتاين لولا أنني أشعلتُ عود ثقاب لأشعل سيجاري. رآني آنذاك؛ إذ كان متكئًا على بوابةٍ بالقُرب منِّي. فناداني، وبعدما أعربتُ عن مفاجئتي بلقائنا، أخبرني بأنَّه يحِلُّ ضيفًا على سيدة راقية في القرية. بعد ذلك أراد معرفة سبب وجودي هناك. فخطر ببالي في الحال أنَّه الرجل المناسب لشراء حصة الثلث المُتبقي، الذي ذكرته لكما؛ لذا أخبرتُه بسبب مجيئي. كذلك شرحتُ له المُقترَح، وأخبرتُه بما كنَّا نعتزم أنا وماركنمور فعله.»

قال بليك: «لدي سؤالٌ آخر. هل كان فون إيكهاردشتاين يعرف ماركنمور؟ هل كان بينهما أيُّ تعاملات من قبل؟»

«لا أظنُّ أنهما تعامَلا معًا من قبل، لا. أمَّا بخصوص ما إذا كانا يعرفان بعضهما من قبل، فأظن أنَّ كلَيهما ربما، وعلى الأرجح، كان يعرف اسم الآخر، بصفتهما مُموِّلَين. لكني واثقٌ من أنَّ كليهما لم يكن يعرف الآخر شخصيًّا قَط قبل تلك الليلة.»

فقال بليك: «هذا بالتحديد ما كنتُ أريد معرفته. فلتمضِ قُدُمًا في روايتك!»

الفصل الخامس عشر

أكان سطوًا؟

ابتسم لانسبري عندما لاحظ اللهفة في صوت المُحقِّق. ومال إلى الأمام في كرسيه وهو ينظر بالتناوب إلى المُنصِتين إليه، كأنَّما يُشير إلى أنه سيسرد الآن الجزء المُهم بالفعل من روايته.

قال ضاحكًا: «بل تقصد أن أرجع قليلًا، إلى لقائي بفون إيكهاردشتاين. حسنًا، كما قلت، شرحت له الاقتراح. ومشَينا عبر الطريق، المؤدي من ماركنمور إلى خارجها، لبعض الوقت ونحن نناقش بعض الأمور. مشينا ...»

فقاطعه بليك قائلًا: «هل التقيتُما أيَّ أحد، أو رأيتما أيَّ أحد؟»

أجاب لانسبري: «لا أتذكَّر أننا صادفْنا أيَّ إنسان!» وأردف: «فتلك منطقة مهجورة جدًّا. مشَينا على ذلك الطريق، ربما ميلًا، ثم استدرْنا وعُدنا إلى حيث التقينا تقريبًا. وبحلول ذلك الوقت، كنا قد تطرَّقْنا إلى موضوعاتٍ أخرى غير ذلك الذي ذكرته في البداية. لم ينجذِب فون إيكهاردشتاين كثيرًا إلى المسألة التي طرحتُها عليه. صحيح أنَّه أدرك قيمتها كعرضٍ تجاري، ولكن برغم شعوره بأنَّ تنفيذها سيكون مُربحًا في هذا البلد وفي بلدي، لم يكن واثقًا للدرجة مما إن كان سيستطيع إنجاحها في بلدان وسط أوروبا؛ بسبب ما سيلقاه من جهةِ مُعارَضةٍ ألمانية بعينها. ومع ذلك، لم يُبدِ ردًّا قاطعًا بالقبول أو بالرفض، وبينما كنَّا على وشْك الافتراق، سألني أين أُقيم، ومتى قد أخلد إلى النوم. فأخبرته بأنني أمكث في نزل سيبتر إن، القريب من هنا، وأنني أنتظر مجيء ماركنمور إلى هناك بين العاشرة والنصف والحادية عشرة، لنتناول العشاء معًا، وأننَّا سنسهر حتى وقتٍ متأخِّر بالتأكيد؛ لأننا سنناقِش أمورًا كثيرة. وحينئذٍ أخبرني فون إيكهاردشتاين بشيءٍ ربما يكون مُهمًّا بعض الشيء لكم أيها الشرطيُّون، لا سيما وقد آلت الأمور إلى ما آلت إليه الآن. قال إنه يُعاني معاناةً شديدة من الأرق؛ أي لا يستطيع النوم ليلًا — كما ينبغي بأيِّ حال من الأحوال — وإنه منذ قدومه إلى المكان الذي كان يزوره آنذاك، كثيرًا

ما يخرج ويتمشَّى مسافاتٍ طويلة في جنح الليل ليحاول استجلاب النوم. وقال إنه إذا خَرَج هكذا في تلك الليلة، وإذا غيَّر رأيه، في تلك الأثناء، بشأن الاقتراح الذي عرضتُه عليه، فمن المُحتمَل أن يزورنا، أنا وماركنمور، إذا رأى ضوءًا في نافذة غرفة جلوسي. لذا ...»

قاطعه بليك مُستفسرًا: «استنتجتَ من قوله الأخير أنَّه كان يعرف نزل سيبتر؟» وأردف قائلًا: «كان يعرفه بما يكفي ليعرف مكان غرفة جلوسك، هاه؟»

أجاب لانسبري: «حسنًا، هذا ما قاله على أيِّ حال. وبخصوص غرفة جلوسي، فقد كانت غرفةً أدخلَني صاحب النزل إيَّاها حين دخلتُ نزله، كانت غرفةً كبيرة على يسار الصالة، وفيها نافذة فرنسية تُفتَح على الحديقة الأمامية.»

قال بليك: «بالضبط. إنني أُقيم في هذه الغرفة حاليًّا. وماذا بعد؟»

واصل لانسبري قائلًا: «حسنًا، افترقْنا ونحن مُتفقان على ذلك. ثم اتَّجه فون إيكهاردشتاين إلى بوابةٍ صغيرة أظنها كانت تؤدي إلى البيت الذي كان يُقيم فيه، وعُدت إلى سيبتر سيرًا. جلستُ هناك وانتظرتُ ماركنمور. كان قد تأخَّر جدًّا في قدومه، وفي الحقيقة، لم يأتِ إلَّا في حوالي الساعة الثانية عشرة. كان في حالةٍ معنوية طيبة جدًّا، وأخبرَني، بينما كنَّا جالسَين على العشاء، بأنه التقى محبوبته القديمة (التي وصفَها بأنها أجمل امرأةٍ في إنجلترا!) وأنهما كانا في غاية السعادة بالتقائهما مُجددًا إلى حدٍّ أنهما رتَّبا للزواج فورًا، وأنني يجب أن أكون وصيفَه في العُرس. ثم تطرَّقنا إلى العمل، وحدثتُه عن فون إيكهاردشتاين. بالطبع كان يعرف اسم فون إيكهاردشتاين تمام المعرفة، وقال إن فون إيكهاردشتاين يُقيم مع هذه السيدة، التي كان ماركنمور سيتزوَّجها، مع أنه لم يلتقِه آنذاك؛ لأنه كان مُنشغلًا بشيءٍ أكثر إبهاجًا. واصلنا مناقشات عملِنا حتى الساعة الثانية صباحًا تقريبًا. وفي ذلك التوقيت بالضبط، سمعتُ صوت طقَّة مزلاج بوابة الحديقة، وخمَّنت أنَّ ذلك هو فون إيكهاردشتاين خارجًا في إحدى جولات سيره الليلية، ففتحتُ النافذة الفرنسية وخرجت إلى الحديقة. وقد كان هناك بالفعل، يعبر المرج العُشبي الصغير، فأدخلته وعرَّفته إلى ماركنمور، وبدأنا نعيد مناقشة اقتراح العمل. وذلك ...»

قاطعه بليك قائلًا: «انتظِر لحظة إذا سمحت!» وأضاف: «قبل أن تُخبرنا عن ذلك، هلَّا تجيب على سؤالٍ خطر ببالي للتو؟ بينما كان ثلاثتُكم معًا، هل ذكر ماركنمور أيَّ شيءٍ عن مسألة زواجه الوشيك لفون إيكهاردشتاين؟ أريد أن أعرف ذلك بالأخص.»

فأجاب لانسبري فورًا: «لا، أنا متأكد من أنه لم يذكُر شيئًا عن ذلك. فحين كنا نحن الثلاثة معًا، لم يتحدَّث أيٌّ منَّا عن شيء سوى مقترح الصفقة العاجل. أمَّا بخصوص ما

ربما يكون ماركنمور قد قاله بشأن هذا الموضوع — إن كان قد قال أيَّ شيء أصلًا — لفون إيكهاردشتاين لاحقًا، حين غادرتُهما وتركتُهما معًا، فلا أجرؤ على تخمين ماهيته، ولكن طوال الساعة التي قضيناها معًا، لم نتحدَّث عن أيِّ شيء سوى العمل. والآن، من دون الخوض في تفاصيل السر الدقيقة، سأخبركما بماهية هذه الصفقة. يُوجَد شاب يعيش في بلدةٍ ريفية صغيرة بين هذه المدينة ولندن، تواصَل مع ماركنمور بصفته ممولًا، وقد عرض عليه هذا الشاب سرًّا تجاريًّا كان يرغب بشدة في بيعه فورًا نظير مبلغٍ مُعين من النقود على أن يكون الدفع فوريًّا؛ إذ كان بحاجةٍ إلى هذا المال ليبدأ عمله الخاص. كان المبلغ المطلوب ثلاثة آلاف جنيه. وقد كانت هذه صفقة رابحة؛ بل رابحة جدًّا. كان المُشتري هو الطرف الرابح فيها، لكنَّ الشاب كان قد حدَّد السعر الذي يُريده وبدا من الواضح أنَّه سيكون قانعًا جدًّا إذا حصل عليه. بعدما جاء فون إيكهاردشتاين إلى نزل سيبتر، ناقشنا كلنا المسألة نقاشًا شاملًا مُستفيضًا — إذ كانت الأوراق بحوزة ماركنمور وعرضها علينا — وقرَّرْنا الشراء؛ أي أنَّ فون إيكهاردشتاين قرَّر مشاركتنا؛ لأننا، أنا وماركنمور، كنَّا قد حسمنا قرارنا سلفًا. ثم سوَّينا المسائل المالية؛ إذ أعطى كُلٌّ مِنَّا، أنا وفون إيكهاردشتاين، ماركنمور ألف جنيه في هيئة أوراق نقدية لتكونا حصَّتَينا في الصفقة ...»

فسأله بليك فجأة: «أفهم من ذلك أنَّ كلًّا منكما أعطى ماركنمور ألف جنيه، أوراقًا نقدية، هناك وفورًا؟» وأردف قائلًا: «أوراقًا نقدية؟»

فأجاب لانسبري: «بكل تأكيد!» وأضاف: «هذا بالضبط ما قلتُه! أوراق نقدية من إصدار بنك أوف إنجلاند. وبالطبع أضاف إليها مبلغًا مُماثلًا من ماله الخاص ليجمع مبلغ الثلاثة آلاف. لِمَ العَجَب؟»

سأله بليك: «هل تقصد القول إن ثلاثتكم كنتم تحملون مَبالغَ مالية طائلة بحوزتكم كهذه؟» وأردف قائلًا: «تسيرون حامِلِين بحوزتكم مبالغَ مالية تصِل إلى ألف جنيه؟»

ردَّ لانسبري قائلًا: «هذا ليس مبلغًا كبيرًا على أن تحمله بحوزتك. فمَن يعملون في مهنتنا يجب أن يحملوا بحوزتهم قدْرًا كبيرًا من النقود الفورية. والألف جنيه لا تشغل حيزًا كبيرًا في المحفظة.»

قال قائد الشرطة: «أفترضُ أنَّ النقود كانت تتضمَّن أوراقًا من فئات نقدية كبيرة!»

فأكد لانسبري ذلك قائلًا: «بالضبط!» واستطرد قائلًا: «هذا هو المعتاد في أغلب الأحيان، على أيِّ حال. أوراق نقدية تبلغ قيمة كلٍّ منها خمسمائة جنيه أو مائتي جنيه.

أتذكَّر أنَّ فون إيكهاردشتاين أعطاه ورقتَين من فئة الخمسمائة جنيه. أمَّا أوراقي فكانت من فئات أقل — أربع أوراق من فئة المائتي جنيه، وورقة من فئة المائة جنيه، وورقتين من فئة الخمسين جنيهًا — ولا أعرف أيَّ شيء عن فئات المبلغ الذي أسهم به ماركنمور؛ إذ اكتفى بإضافة مالنا إلى ماله في مظروف مع بقية الأوراق.»

سأله بليك، الذي كان يختمر في ذهنه آنذاك تسلسُل جديد تمامًا من الأفكار: «لماذا استخدمتُم الأوراق النقدية أصلًا؟» وأضاف: «لماذا لم يكن مُمكنًا إتمام هذه الصفقة بشيك؟»

أجاب لانسبري: «لأن الشاب الذي كلمتُك عنه — البائع — كان يريد أمواله أوراقًا نقدية بالأخص. لقد ذكرتُ أنه يعيش في بلدة صغيرة بين مدينتكم هذه ولندن. حسنًا، كان ماركنمور سيمر به في طريق عودته، ويسلِّمه النقود، ويُسوَّى الأمر. هل تفهم ذلك؟»

بدأ بليك يُبدي بعضًا من التململُ. فقام من كرسيه، ووضع يديه في جيبيه، وبدأ يمشي في الغرفة جَيئةً وذهابًا، حانيًا رأسه. وفجأة التفت إلى لانسبري.

وقال: «إذن، فحين خرج ماركنمور من ذلك النزل المدعو سيبتر في الثالثة من صباح الثلاثاء، كان بحوزته ثلاثة آلاف جنيه أوراقًا نقدية من إصدار بنك أوف إنجلاند؟» وأردف: «أهذه حقيقة؟»

أجاب لانسبري: «بالتأكيد!» وأضاف: «كان ذلك المبلغ بحوزته!»

وهنا نظر بليك إلى قائد الشرطة نظرةً ذاتَ مغزًى، وقال كلمةً ذاتَ مغزًى بسرعة وانفعال.

«سطو!»

أومأ قائد الشرطة برأسه إيماءةَ موافقة. كان هو الآخر قد بدأ يرى أفكارًا جديدة.

وقال: «يبدو ذلك. قُتِل من أجل ما كان بحوزته. ومع ذلك ...» ثم سكتَ وهو ينظُر إلى المُحقِّق بمناشدةٍ مهنية. وتابع قائلًا: «من الغريب أنَّ كل شيءٍ آخر قد تُرِك كما هو.»

قال بليك: «هذا يجعل الأمور أكثر دلالةً من ذي قبل.» ثم التفت إلى لانسبري. وسأله قائلًا: «هل رأيتَ أين وضع ماركنمور المال — الأوراق النقدية — والأوراق التي ذكرتها للتو؟»

«أجل! في جيب الصدر الداخلي بمعطفه.»

«وضعها فيه هكذا فقط، مثلما يضع المرء الرسائل، أو أي شيء من هذا القبيل، في جيبه؟»

«بالتأكيد!»

«هل غادر تلك الغرفة، التي كان ثلاثتكم جالسين فيها، على الإطلاق قبل أن ترحلوا عنها كلكم نهائيًّا؟»

«لم يُغادرها! ولا أيٌّ واحدٍ منَّا.»

فقال بليك بعد سكوت لحظي بدا مُستغرقًا خلاله في تفكيرٍ عميق: «حسنًا. ماذا فعلتم بعدما أنهيتم هذه الصفقة؟»

«مجرد أشياء عادية. تحدَّثنا قليلًا، واحتسَينا بعض الويسكي والمياه الغازية، وربما أشعلنا سيجارًا جديدًا ...»

فقال بليك: «أجل!» وواصل قائلًا: «هذا يُذكِّرني بسؤال آخر. هل كنتم جميعًا تدخنون السيجار؟»

أجاب لانسبري: «لا. كان فون إيكهاردشتاين يُدخِّن غليونًا. قال إنَّ السيجار يفاقِم أرَقَه.»

قال بليك: «حسنًا، لقد غادرتم في حوالي الساعة الثالثة، حسبما أظن؟»

«في ذلك الوقت تقريبًا. كان ماركنمور ذاهبًا عبر الريف إلى محطةٍ تُدعى ميتبورن، وقرَّرنا أن نمشي معه مسافةً قصيرة. غادرْنا الغرفة من النافذة الفرنسية، كانت السماء آنذاك قد بدأت تكتسي باللون الرمادي، وصار بإمكان المرء رؤيةُ الأشياء من حوله. مشَيْنا على الطريق، إلى ما بعد صليب القرية والكنيسة القديمة. وبعد ذلك بمسافةٍ قصيرة، تذكَّرت أنني كنتُ قد اشتريتُ جدولًا محليًّا بمواعيد القطارات في سيلكاستر حين وصلتُ إلى هناك في الليلة السابقة. فأخرجته، وبعدما رجعتُ إليه، وجدتُ أنني أستطيع استقلال قطار من سيلكاستر كان سينطلق بعد الساعة الرابعة بوقتٍ قصير وكان سيوصلني إلى ساوثهامبتون وسالزبري، ومن ثَم إلى فالموث. فقررتُ أن أستقله، وارتأيتُ ألَّا أكلف نفسي عناء العودة إلى النزل. ثم أشار ماركنمور إلى ممشًى قال إنه يؤدي عبر المروج إلى سيلكاستر، ونصحَني بأن أسلكه، أمَّا هو فقال إنه سيسلك ممشًى آخرَ يقع مُقابل ذلك الممشى بالضبط على الجانب الآخر من الطريق، ويُشكِّل طريقًا مختصرًا فوق الروابي إلى محطة ميتبورن. ثم ودَّع كِلانا الآخر، وافترقْنا. سلكتُ الممشى المؤدي إلى سيلكاستر، وسلك ماركنمور المَمشى الآخر، المؤدي إلى أعلى جانب التل، وقد ذهب فون إيكهاردشتاين معه، قائلًا إنَّه سيتمشَّى قليلًا قبل أن يخلد إلى فراشه. وآخر ما رأيتُه منهما أنهما كانا ينعطِفان معًا عند ناصية سياجٍ شجري شاهق وهما يتحادثان عن قُرب.»

سأله بليك: «وهذا كل ما تعرفه؟»

أجاب لانسبري: «هذا كل ما أعرفه. كله!»

أعقب ذلك سكوت تام؛ إذ بدأ بليك يجوب الغرفة جَيئةً وذهابًا مرة أخرى، منهمكًا في التفكير. أمَّا قائد الشرطة، الذي كان طوال رواية لانسبري مُنشغلًا برسم خطوطٍ بدت بلا هدف على لَوح من الورق النشَّاف، فترك قلمَه، واتَّكأ على ظهر كرسيه، وحدَّق إلى السقف، وكان يبدو هو الآخر مُنهمكًا في تفكيرٍ عميق. لكنه كان أول مَن كسر هذا الصمت.

إذ قال مُلتفتًا إلى لانسبري: «أظنُّ أنَّ فون إيكهاردشتاين رجل ثري؟»

أجاب لانسبري: «إنه مشهور بذلك في أوساط المستثمرين ورجال المال. تستطيع القول بكل ثقة إنه كذلك!»

«من المُستبعَد أن يقتل رجلًا آخرَ من أجل ألفي جنيه؟»

«أظن ذلك مُستبعدًا!»

فقال قائد الشرطة وهو ينظر نظرةً خاطفة إلى بليك: «حسنًا، يبدو الآن وكأنَّ جاي ماركنمور قد قُتِل من أجل ... ليس ألفين، بل ثلاثة آلاف جنيه! فعلى أي حال، ووفقًا لكلامك يا سيد لانسبري، كان لديه هذا المبلغ بحوزته حين تركته، لنقل في الساعة الثالثة والنصف، ولم يكن بحوزته حين تفحَّص بليك ثيابه هناك، بعد ذلك ببضع ساعاتٍ قليلة جدًّا! فمَن أخذَه؟ أين هذا المبلغ؟»

انعطف بليك في مشيه وعاد إلى المِدفأة التي كانوا يتحدَّثون بجوارها.

وسأل قائلًا: «هل تعرف أرقام الأوراق النقدية التي سلَّمْتها إلى ماركنمور؟» وأضاف: «أظنك تعرفها بالطبع!»

أجاب لانسبري: «لا أعرفها. ربما يكون ذلك إهمالًا منِّي، لكن هذه هي الحقيقة؛ لا أعرفها. لكني أعتقد أنَّها ربما تكون لدى الشركة المصرفية التي أتعامَل معها؛ فَهُم يدوِّنون أرقام النقود عند صرفها، أليس كذلك؟»

فسأله بليك: «وما هي الشركة المصرفية التي تتعامَل معها؟»

فأجاب لانسبري فورًا: «شركة «إنترناشيونال بانكينج كوربوريشن» — مكتب فرعها في لندن، الواقع في شارع بيشوبسجيت. لكني لستُ مُتيقنًا من أنني أخذتُ تلك الأوراق النقدية بالذات من هناك. ربما أكون أخذتها من هناك، وعندئذٍ ستكون الأرقام لديهم. ولكن ربما لا؛ وعندئذٍ لن تكون الأرقام لديهم. ربما تكون تلك الأوراق النقدية — أو بعضها — قد دفعها لي أشخاص آخرون. وقد صَرفتُ شيكات — مرة أو اثنتَين مؤخرًا — مقابل مبالغ طائلة في أماكنَ أخرى غير لندن. فمُعاملاتي المالية كبيرة، وأتعامَل بقدرٍ هائل من الأوراق النقدية.»

قال بليك: «على كل حال، سوف يتعيَّن علينا أن نبذل كلَّ ما بوسعِنا في سبيل تعقُّب تلك الأوراق النقدية. لكننا نواجِه مشكلةً أخرى الآن. فون إيكهاردشتاين مفقود. تظنُّ مُضيِّفته أنه تعرَّض لحادث حين كان بالخارج في إحدى تمشياته الليلية. أمَّا أنا فلا أظنُّ ذلك! أظن أنه هرب.»

سأله قائد الشرطة: «لماذا يا بليك؟»

أجاب بليك قائلًا: «لماذا لم يعرض الإدلاء بما لدَيه من معلومات في التحقيق ولم يُخبرنا بما قاله السيد لانسبري للتو؟» وأردف قائلًا: «لقد كانت لديه الفرصة لذلك! لكنه ظلَّ جالسًا هناك ولم يقُل شيئًا. يعرف فون إيكهاردشتاين شيئًا ما، ويجب العثور عليه. ليتني قبضتُ عليه الليلة الماضية. الآن، يجب أن نبدأ العمل على تعقُّبه حتى نجده. من الأفضل أن تأتي معي إلى ماركنمور، ودعنا نُجرِ بعض التحرِّيات.»

قال لانسبري: «أرجو أنَّك لم تعُد تريد شيئًا من وجودي هنا؟» واستطرد قائلًا: «فأنا مُتلهِّف بشدة للعودة إلى فالموث. لكنني سأعود من فالموث في غضون يومَين، وحينئذٍ سأبقى عدة أيام في ساوثهامبتون، بالقُرب منكم.»

فقال له بليك: «اترك لنا عنوانًا — أو أكثر — نستطيع الوصول إليك فيه فورًا حين نريدك. لا داعي إلى إبعادك عن عملك يا سيد لانسبري. ومن الأفضل أن نبدأ عملنا بأنفسنا!»

وسرعان ما اصطحب قائد الشرطة في عجالةٍ إلى ماركنمور والسيدة تريزيرو. كانت الأحداث والمعلومات الجديدة التي تكشَّفت في صباح هذا اليوم قد منحته تصوُّرًا جديدًا تمامًا عن القضية التي يباشرها، وكان يؤنِّب نفسه آنذاك بشدة على أنه لم يطلُب من فون إيكهاردشتاين تفسيرًا لوجود الغليون بحوزته حالما عَثَر عليه في جيب معطف المُمول.

قال مُتذمرًا بينما كان يستقل العربة بصحبة قائد الشرطة إلى ماركنمور: «لكنني كنتُ أؤجل هذا إلى صباح اليوم. كنتُ أنوي أن أوقفه وهو يدخل المحطة ليستقلَّ ذاك القطار السريع الذي انطلق في العاشرة وثماني دقائق، وأُخبِره بأننا، أنا وأنت، نريد معرفة بعض المعلومات منه، وأقتاده إلى مكتبك، وأنتزع المعلومات منه. أمَّا الآن، فقد فات الأوان!»

فقال قائد الشرطة: «ما زلتَ لم تتيقَّن من ذلك يا بليك. إذا كان هذا الرجل معتاد التمشية في الخارج ليلًا، فربما يكون قد تعرَّض لحادثٍ بكل سهولة، وربما يكون مُستلقيًا في مكانٍ مهجور من تلك الروابي أو الغابات في انتظار المساعدة. على أي حال، لا أرى حتى الآن أيَّ شيءٍ يُدينه في رأيي.»

فقال بليك: «إنه آخرُ مَن كان معلومًا أنَّه كان بصحبة جاي ماركنمور.»

ردَّ قائد الشرطة قائلًا: «ربما! لكن من المُستبعَد أن يكون قد قتله من أجل تلك الأوراق النقدية!» واستطرد قائلًا: «إن اسم فون إيكهاردشتاين معروف لي، كان يتعامَل بالملايين في أيام شبابه، وكان مُشاركًا في بعض أكبر عمليات طرح الأسهم في السنوات الأخيرة. رأيي أنَّه سار مسافةً ما على هذا المَمشى مع جاي ماركنمور، ثم تركه وعاد إلى بيت الأرملة، ولم يعرف شيئًا عن مقتل ماركنمور حتى سمع به لاحقًا. التقى ماركنمور القاتل الفعلي بعدما افترق عن فون إيكهاردشتاين، وأظنُّ أنَّ القاتل رجلٌ كان على درايةٍ تامة بتحركات ماركنمور وأفعاله، وكان يعرف أنه سيسلك هذا الممشى إلى محطة ميتبورن، وتربَّص به في منخفض ماركنمور هولو. هذا تصوُّري لما حدث.»

لم يردَّ بليك على ذلك وظلَّ صامتًا بضع دقائق. وكانت عربة قائد الشرطة الصغيرة قد قطعت نصف ميل آخر من الطريق قبل أن يتكلَّم بليك.

فقال أخيرًا: «لا شكَّ في أنَّ ذاك الغليون المصنوع من خشب أشجار الخلنج، الذي سمِعنا عنه الكثير، كان غليون فون إيكهاردشتاين. ولا في أنه تركه في نزل سيبتر، ولا في أنَّ جريمسدِل عَرَضه في التحقيق، ولا في أنَّ فون إيكهاردشتاين أخذَه من على طاولة المُحامين في أثناء خروجه. الآن، لو كان بريئًا تمامًا، فلماذا لم يقُم من كرسيه في ذلك التحقيق، ويشرح سبب وجوده في نزل سيبتر، ويعترف بأنه ترك غليونه هناك، ويتصرَّف بكل صراحة وشفافية، بدلًا من إخفاء كل شيءٍ طيَّ الكتمان، واختلاس ذاك الغليون بخفَّةِ يدِ نشَّال؟ قُل لي بربك!»

ردَّ قائد الشرطة قائلًا: «لا أعرف إجابة. أتصوَّر أنَّه كان يُضمِر أسبابًا خاصة جعلته يلتزم الصمت، لا سيما بعد أن سمع جريمسدِل يقول إنه لم يستطِع معرفة هوية الرجل الثالث في تلك الرفقة.»

قال بليك: «حسنًا، يُوجَد شيء غريب آخر. من المؤكد أنَّ فون إيكهاردشتاين كان يعرف أنَّ ذلك الرجل لانسبري، عاجلًا أو آجلًا، سيتطوَّع ويُدلي بما لديه من معلومات! كان يعرف أنَّ لانسبري سيبوح بالحقيقة مثلما فعل. لقد توصَّلنا إلى ذلك في النهاية، على أي حال!»

فسأله قائد الشرطة بقليلٍ من السخرية: «هل توصَّلنا إلى حقيقةِ أيِّ شيء؟» واستطرد قائلًا: «إذا كنَّا سنُقرِّر الاكتفاء بالتنظير، فيُمكنني اقتراح دزينة من النظريات. هاك نظرية جديرة بالتفكير فيها مليًّا يا بليك؛ ماذا لو افترضنا أنَّ السبب الرئيسي وراء كل هذا عملية

تمويل كبيرة، وأنَّ المسئولين الرئيسيين عنها كانوا يرَون التخلُّص من جاي ماركنمور ضرورةً حتمية؟ أعرفُ رجالًا أُصيبوا برصاصةٍ في رءوسهم لمجرد أنهم كانوا عقبةً في الطريق! وبخصوص الحقيقة ... حسنًا، فلتُعطِني دليلًا!» ثم أضاف بنبرةٍ ذاتِ مغزًى بينما كانا مُتجهَين بالعربة نحو بيت الأرملة: «ليس من السهل الوصول إلى الحقيقة في هذه المسائل، ولا أظنُّ أننا سنحصُل هنا على أيِّ إسهامٍ حقيقي في كشفها.»

ردَّ بليك بسخريةٍ مُماثلة: «ليست لديَّ أيُّ فكرة عمَّا سنحصل عليه! لكننا قد نجد شيئًا ما.»

وجدا السيدة تريزيرو في حالةٍ من الاهتياج الشديد. كانت مُقتنعة بأنَّ ضيفها، حين عجز عن النوم، خرج ليتمشَّى في منتصف الليل كعادته، وسقط في حفرةٍ قديمة أو محجرٍ مهجور. كان خَدَمُها من الرجال، والعديد من القرويين، والشرطي المحلي عاكفين على البحث عنه منذ وقتِ الفطور، بلا جدوى. واستنكرت فكرة أنه ربما يكون قد قرَّر الهروب فجأة، ثم أعطت بليك عنوان سكنه الخاص وعنوان مَقرِّ عمله في لندن بازدراءٍ واستياء. لم يكترِث بليك إطلاقًا بالاستياء أو الازدراء، وذهب إلى مكتب تلغراف القرية، وأرسل برقيةً طالبًا فيها موافاته بآخِر الأخبار، وكذلك أرسل رسائلَ خاصة مُوجَّهة منه إلى مقر القيادة الرئيسي في لندن تعزيزًا لمساعي بلوغ غايته؛ إذ كان يهدف، بطريقةٍ أو بأخرى، إلى معرفة أخبار عن فون إيكهاردشتاين.

قال لقائد الشرطة وهما يتناولان الغداء معًا في نزل سيبتر: «في كل الأحوال، لا مفرَّ من حقيقة أنَّ فون إيكهاردشتاين، وفق معلوماتنا، كان آخِرَ مَن رأى جاي ماركنمور على قيد الحياة!»

رد قائد الشرطة قائلًا: «لا!» وأردف قائلًا: «أنت مُخطئ يا بليك. آخر مَن رأى ماركنمور على قيد الحياة هو الرجل الذي قتله.»

اعتبر بليك هذا تلاعُبًا بالألفاظ وغيَّر الموضوع. وفي وقتٍ مُتأخِّر من عصر هذا اليوم، تلقَّى ردودًا على برقياته العديدة. لم يُرَ فون إيكهاردشتاين ولم يُسمَع عنه أيُّ شيءٍ في الأماكن المُعتادة التي يتردَّد عليها في لندن. ولم يرِد أيُّ خبرٍ عنه في ماركنمور حتى حلَّ الليل مُجددًا.

الفصل السادس عشر

أمورٌ عائلية

كان السيد فرانسيمري، كبقية أهالي ماركنمور، قد سمع في وقتٍ مُبكر من صباح ذلك اليوم بخبر الاختفاء الغريب للبارون فون إيكهاردشتاين، وكالكثيرين منهم، شارك في عملية بحث عن الرجل المفقود. فمنذ قدوم السيد فرانسيمري إلى بيت ذا وارن، أصبح على دراية تامة بمُحيطه المجاور، وصار مُلِمًّا بالعديد من الأركان والخبايا في الغابات والروابي، التي ربما يكون شخصٌ غريب قد تعرَّض فيها لحادثٍ ما بكل سهولة. كان في هذه المنطقة أماكنُ غريبة؛ فمنذ ألفي عام، عكَف الناس الذين كانوا هنا قبل الرومان على اقتلاع الحجارة من جوانب التل وجوَّفوه ليصنعوا فيه مغاراتٍ وحُفرًا سكنية، وأنشئوا خطوطًا مُمتدة طويلة من التحصينات والخنادق. وكانت هذه الأشغال البدائية، التي نمَتْ فوقها الأعشابُ وغطَّتها بمرور الزمن، فخاخًا خطرة لأيِّ غافلٍ يتجوَّل عبر الغابات النائية أو يعبُر الأجزاء الوعرة المهجورة من المرتفعات، وقد نما إلى علم السيد فرانسيمري أكثرَ من مرة إبَّان تجربته الحياتية القصيرة في ماركنمور، أنَّ رجلًا أو حصانًا قد سقط في حفرةٍ غيرِ مُتوقعة. لذا فحين سمع باختفاء فون إيكهاردشتاين، تصوَّر أنَّه ربما تعرَّض لحادثٍ كهذا، وأخذ أقوى عصا سَير لديه، وبعض الغداء في جعبته، وقارورة صغيرة من البراندي والماء، وبدأ عملية البحث. والتقى في أثناء النهار بأناسٍ كثيرين كانوا مُنشغلين بأداء المهمة نفسها. كانت السيدة تريزيرو شديدة القلق إزاء مصير ضيفها، ومُقتنعة تمامًا بأنه قد أُصيب بمكروه، إلى حدٍّ أنها كلَّفت كل قروي أمَكن إعفاؤه مؤقتًا من مهامه الأصلية والمُعتادة بالمشاركة في البحث عنه، وعرضت مكافأةً سخيَّةً لمن ينجح في العثور عليه. ولكن حين حلَّ المساء، وعاد السيد فرانسيمري إلى جوار مِدفأته مُنهكًا من كثرة السير على قدمَيه صاعدًا التل ونازلًا الوادي، لم تكن هذه الجهود قد كُلِّلت بأيِّ نجاح، وبدا لأهالي ماركنمور أنَّ البارون فون إيكهاردشتاين قد تلاشى تمامًا.

جلس السيد فرانسيمري يتناول عشاءه وحدَه، مُتحيرًا ومتسائلًا. كانت معضلة ماركنمور قد شغلت جُلَّ تفكيره منذ أول مرة عَرف فيها بشأنها، وكلما ازداد تفكيره فيها، ازدادت حيرته. كان قد أصغى بإمعانٍ وصبر، وتفهُّمٍ، مثلما كان يأمُل، إلى الشهادات والأقوال التي عُرضت عليه وعلى زملائه المُحلَّفين، ولم يجد مفرًّا من الاعتراف بأنه لم يستنتج منها سوى القليل. بدا له أنَّ أهم حقيقة في هذه الأقوال كانت مسألة الغليون المصنوع من خشب أشجار الخلنج. فلم يكن ثمَّة شك في أنَّ أحد الرجُلين اللذين كانا مع جاي ماركنمور في نزل سيبتر هو مَن ترك ذلك الغليون على مائدة العشاء هناك. ولم يكن ثمَّة شك في أنَّ جريمسدِل قد أبرزَهُ على الملأ في التحقيق، ومرَّره إلى المُحامي ثم القاضي وهيئة المُحلَّفين، وتركه على الطاولة، لم يكن ثمَّة شك — على الإطلاق — في أنَّه اختُلِسَ من على تلك الطاولة بين لحظة رفع جلسة التحقيق واللحظة التي طلب فيها مُراسل الصحيفة الفضولي رؤيته. فما الذي كان يُمكن استنتاجه من ذلك؟ رأى السيد فرانسيمري استنتاجًا أكيدًا واحدًا: أنَّ صاحب هذا الغليون؛ أي الرجل الذي تركه في نزل سيبتر، كان حاضرًا التحقيق، وظلَّ صامتًا. فمن كان ذاك الرجل؟ سأل السيد فرانسيمري نفسه هذا السؤال مائة مرة، دون الوصول إلى إجابة. لم يكن يدري آنذاك بما فعله بليك وما اكتشفه، ولم يكن لديه شيء يبني عليه استنتاجاته سوى ما يعرفه بنفسه. لكنه شعر باليقين من شيءٍ واحد: أنَّ صاحب الغليون قد اختلسه من على طاولة المُحامين في المحكمة المؤقتة في قاعة الطعام القديمة، كي لا يُستخدَم دليلًا ضدَّه. فسأل نفسه مرةً أخرى، مَن كان ذاك الرجل يا تُرى؟

كان السيد فرانسيمري لا يزال مُتحيرًا بشأن هذا السؤال والعديد من الأسئلة الثانوية الأخرى حين انتهى عشاؤه المنفرد. فقام من كرسيه وأخذ يفكِّر قليلًا، ثم تذكَّر أنه مرَّ بيومٍ صعب وشاقٍّ جدًّا؛ فذهب إلى القبو المُتواضع في منزله، ووجد زجاجةً من أفضل أنواع نبيذ بورت المُعتَّق الفاخر لديه، وأفرغها بحرصٍ في دورق، ثم حمل الدورق وكأسًا لامعة مُتلألئة أو اثنتَين إلى غرفة مكتبه. وهناك، جلس أمام نيرانٍ مُبهجة مُتقدة بحطبٍ من جذوع الزان، متكئًا بخُفَّيه إلى حاجز المِدفأة القصير المُكوَّن من عوارض أفقية مُبطنة، وواضعًا دورق النبيذ بجواره، وبدأ يفكِّر مليًّا. ولكن قبل أن يقطع شوطًا طويلًا من التفكير، دخلت عليه خادمة الاستقبال المَشوقة القوام، وأبلغته بأنَّ السيد هاربورو موجود في الصالة، وبأنه سيكون مُمتنًّا إذا وافق السيد فرانسيمري على مُقابلته بضع دقائق.

قام السيد فرانسيمري من كرسيه بخفةٍ وحماسة. صحيح أنَّه لم يكن قد تحدَّث مع هاربورو قَط قبل المناسبة التي جمعتهُما في بيت ماركنمور كورت في صباح يوم الجريمة، لكنه كان يعرف كل شيء عنه بوصفه أنَّه مالِك منزل جرايكلويستر الثري، كان يراه رجلًا مُفترًى عليه، وشعر بالأسى لأنَّ عودته إلى الديار قُدِّر لها أن تكون مَشوبةً بهذا الغم الشديد. وفضلًا عن ذلك، كان السيد فرانسيمري رجلًا يَسعَد دائمًا بالتسامُر مع أيِّ شخص، وكان يشعر في هذه اللحظة بالتحديد بأنَّ لديه أمورًا كثيرة يريد التحدُّث عنها، بالرغم من التحذير الذي وجَّهه قاضي التحقيق له ولرفاقه من أعضاء هيئة المُحلَّفين. ومن ثَمَّ، أسرع إلى الصالة بيدٍ مفتوحة وابتسامةٍ مُرحِّبة.

قال هاربورو بينما كان مُضيِّفه يقوده إلى غرفة مكتبه المُريحة الدافئة: «أرجو ألَّا أكون قد أزعجتك!» وأردف قائلًا: «أعرف أنَّ الوقت ليس مُناسبًا للزيارة، لكني أتيتُ لسببٍ وجيه.»

فصاح السيد فرانسيمري بأسلوبٍ مِضيافٍ ترحيبي: «سيدي العزيز، أنا في غاية السعادة بقدومك!» وأضاف: «جرِّب هذا الكرسي، وكأسًا من نبيذي البرتغالي. يُمكنني أن أُزكي لك كليهما.»

ردَّ هاربورو قائلًا: «أنت طيب جدًّا.» وأضاف وهو يأخذ الكأس التي قدَّمها مُضيِّفه إليه بدماثةٍ قديمة الطراز: «لستُ خبيرًا بارعًا في الحُكم على النبيذ، وأمَّا بخصوص الكراسي الوثيرة، فلم أُجرِّبها كثيرًا في السنوات الأخيرة؛ فأنا أكثر اعتيادًا على كراسي التخييم التي لا مسندَ لها يا سيد فرانسيمري!» ثم واصل بينما استأنف السيد فرانسيمري جلسته: «حسنًا، جئتُ لأطلب نصيحتك بشأنِ شيءٍ ما؛ فلقد وصلني انطباعٌ ما، حين التقيتُك منذ يومَين، بأنك أكثرُ رجلٍ هنا يُرجِّح أن يتبنى آراءً منطقيةً رشيدة.»

قال السيد فرانسيمري: «أشعر بالإطراء، بالتأكيد!» وأضاف قائلًا: «أرجو أن أكون شخصًا رشيدًا بالفعل.»

قال هاربورو: «حسنًا، تعرف قصدي. أقصد أنك من المُستبعَد أن تترك الشائعات والتحيُّزات المحلية المُسبقة تؤثِّر فيك. الآن، أريد أن أطلب نصيحتك كما قلت للتو. من المُقرَّر أن يُدفَن السير أنطوني وابنه الأكبر غدًا في فناء كنيسة ماركنمور. وأنا بالطبع أعرف آل ماركنمور منذ أن وعيت الدنيا. وكنتُ أنا وجاي ماركنمور صديقَين مُقربَين في صبانا وشبابنا، حتى حدثت القطيعة، التي سمعتَ بها منذ يومَين. الآن، هل تظنُّ أنه سيكون من المُلائِم أن أحضر الجنازة، بالنظر إلى الظروف الحالية؟»

هنا تقمَّص السيد فرانسيمري شخصيةَ القاضي بكل تلقائية. فبَدَت على قسمات وجهه علاماتُ التفكير العميق، واكتست بقليل من الشك، في البداية. لكنها صارت صافية فجأة.

قال: «سيدي العزيز!» واستطرد قائلًا: «أعتقد أني أتذكَّر أنك حين كنتَ تُدلي بشهادتك أمامي وأمام زملائي المُحلَّفين صباح أمس، قلتَ بوضوح وصراحة تامة، ومن دون أن يبدوَ عليك أيُّ مراوغة مُضمَرة، إنَّ مشاعر الغضب والضغينة التي كُنتَ تحملها سابقًا تجاه الراحل جاي ماركنمور قد تلاشت تمامًا منذ سنوات، وإنك لو كنتَ قابلته مُجددًا، لمددتَ إليه يدك لتصافحه. هل أنا مُحق؟»

أجاب هاربورو قائلًا: «مُحق تمامًا!» وأردف: «مُحق في كلِّ ما قُلتَه.»

قال السيد فرانسيمري: «إذن، فلا أرى سببًا يمنعك من حضور مراسِم الجنازة. إطلاقًا!»

قال هاربورو: «حسنًا، على المرء أن يتذكَّر أنَّ بعض الأشخاص — هنا وفي الجوار — يعتقدون أنني قتلتُ جاي ماركنمور.»

قال السيد فرانسيمري بواقعيةٍ جامدة: «إممم!» وسأله: «ولكن هل يُوجَد أشخاص يعتقدون ذلك؟ أعني يعتقدونه بجدية؟»

قال هاربورو: «السيدة تريزيرو، ومَن يوافقونها.»

فسأله السيد فرانسيمري بنبرةٍ أشد جمودًا: «هل يوافقها أيُّ شخص؟» وأضاف: «وأمَّا بالنسبة إليها، فهذا تأثير الغضب، يا سيدي العزيز، الغضب! لا أعتقد أنك ستجد هذه المرأة مؤمنةً بأيِّ شيء منذ ذلك حقًّا في قرارة عقلها، إن كان لديها عقل.»

قال هاربورو بعد لحظةٍ من التفكير: «أظن أنَّ البعض كان يوافقها الرأي، في البداية. ربما كان هذا طبيعيًّا.»

قال السيد فرانسيمري: «ربما كان طبيعيًّا إذا كان المرء أحمقَ كفايةً ليعتقد أنَّ الناس يُضمِرون الضغينة في نفوسهم إلى الأبد. يجب أن تعرف هذه المرأة أنَّ اتهامها كان سخيفًا! لا أظن أنني ينبغي أن أُعطيَ رأي السيدة تريزيرو مِثقالَ ذرة من الأهمية.» ثم أضاف بطريقةٍ توحي بأنَّ فكرةً سعيدة قد خطرت بباله فجأة: «لكني أعرف ما ينبغي لي فعله! عليَّ فقط أن أسأل الشاب والفتاة في ماركنمور كورت عن رغبتِهما. أظنهما سيكونان سعيدَين بحضورك.»

قال هاربورو: «لم يخطُر ذلك ببالي. أظنني بطيء البديهة بعض الشيء. يعلم الربُّ كم أنني حزين لمُصابهما! وأظنهما يعرفان أنَّه مهما كانت مشاعري السابقة تجاه أخيهما، فلقد ... حسنًا، لقد تجاوزتها منذ فترة طويلة.»

رمق السيد فرانسيمري زائره بنظرةٍ ثاقبة من طرف عينه. وقال: «أظنُّ أنَّ جاي ماركنمور كان يُعاملك معاملةً سيئة حقًّا؟»

فأجاب هاربورو بصراحة واضحة بسيطة: «أجل!» واستطرد قائلًا: «لكني نسيتُ ذلك. وأيضًا لم يكن الذنب ذنبه وحدَه. وكما أقول، لقد نسيتُ ذلك.»

قال السيد فرانسيمري: «ما أغرب هذه الجريمة!» وتابع قائلًا: «وها نحن الآن أمام لغزٍ ثانٍ. أظنك قد سمعت بالطبع عمَّا حدث لهذا البارون المدعو فون إيكهاردشتاين؟»

فأجاب هاربورو قائلًا: «لا. لم أسمع شيئًا. لقد كنتُ بعيدًا عن جرايكلويستر منذ الصباح الباكر حتى الآن، وأتيتُ مباشرة للقائك فور عودتي. ماذا حدث لفون إيكهاردشتاين؟»

صاح السيد فرانسيمري قائلًا: «اختفى!» واستطرد: «الليلة الماضية. تلاشى تمامًا بلا أيِّ أثر، ولا أحد يعرف مكانه.» وبدأ يسرد لضيفه وصفًا مفصلًا عن الجهود التي بُذِلَت طوال النهار، ومشاركته فيها. ثم اختتم كلامه متسائلًا: «ما رأيك في هذا؟» وأردف: «غريب، أليس كذلك؟»

فأكَّد هاربورو ذلك قائلًا: «المسألة برمَّتها غريبة. يبدو لي وكأنَّ ... لكني حقًّا أظن ذلك مُستحيلًا!»

سأله السيد فرانسيمري: «ما المُستحيل؟»

أجاب هاربورو على استحياءٍ قائلًا: «حسنًا، كنتُ أفكِّر ... كنتُ سأقول ... إنَّ الشواهد تكاد توحي بأنَّ هذه ربما تكون جريمة قتلٍ ثانية! كنتُ أتساءل — لكن تفكيري، كما قلت، أحيانًا ما يكون بطيئًا قليلًا — عمَّا إذا كان فون إيكهاردشتاين هو الرجل الذي ذهب إلى نزل سيبتر في الثانية صباحًا؟ في هذه الحالة ...»

اندهش السيد فرانسيمري.

وقال: «آه!» وأضاف: «في لحظة قدومك بالضبط، كنتُ أنا أيضًا على أعتاب التوصُّل إلى هذا الاستنتاج! إذا كان هو ذاك الرجل، فهذا يُفسِّر شيئًا آخرَ. ولكن — بافتراض أنه هو — أخبرني بما كنتَ ستقول آنذاك.»

أجاب هاربورو: «كنتُ سأقول إنَّ الشواهد الظاهرية، في هذه الحالة، توحي بأنه وجاي ماركنمور كانا مُنخرطَين معًا في أعمالٍ تجارية. وإن صحَّ ذلك، فربما تكون بعض

الأعمال التجارية — صفقة ما بمبلغ مالي طائل — هي السبب الحقيقي وراء كل ذلك. فمثلًا، ربما أراد شخصٌ ما التخلصَ من كليهما؟ لقد سمعتُ عن حالاتٍ من هذا القبيل، لكن ليس في هذا البلد.»

وافقه السيد فرانسيمري قائلًا: «ربما، ربما!» وأضاف: «المسألة برمَّتها لغزٌ يبدو صعب الحل، و…»

لم يُقَل قَط ما كان السيد فرانسيمري سيُضيفه هنا. ففي تلك اللحظة، فُتِح الباب وتمتمت خادمة الاستقبال المَمشوقة القوام بشيءٍ غير واضح، ثم تنحَّت جانبًا وتوارَت، وأفسحت الطريق لفالنسيا ماركنمور، التي دخلت الغرفة بسرعة شديدة إلى حدِّ أنها لم ترَ هاربورو، الذي كانت قامته الطويلة محجوبة عنها بحاجز.

صاحت قائلة وهي تدخُل: «أوه يا سيد فرانسيمري!» وأضافت: «سامحني على دخولي عليكَ مندفعةً هكذا دون تأدُّب، لكني في مأزق رهيب، وأحتاج إلى مساعدتك، و… أوه!»

كانت بحلول هذا الوقت قد اجتازت حدَّ الحاجز ورأت هاربورو. فنهض هاربورو على قدَمَيه وقد بدا مُتقلقلًا ومرتبكًا.

وقال: «سأنصرف!»

فاعترضت فالنسيا قائلة: «لا، بالتأكيد! الأمر ليس كما تظن إطلاقًا، كنتُ سأخبرك فورًا مِثلك مثل السيد فرانسيمري تمامًا، سوف أخبركما معًا. فأنتما رجلان؛ لذا ستعرفان ما ينبغي فعله.»

أشار السيد فرانسيمري لهاربورو بأن يبقى مكانه، وسحب كرسيًّا نحو المدفأة.

ثم سأل فالنسيا بينما كانت تهم بالجلوس عليه: «ما الخطْب يا عزيزتي؟» وأردف قائلًا: «أيُّ شيء نستطيع فعله، سنفعله بكل تأكيد، إذا كان في استطاعتنا.»

أجابت فالنسيا: «لا أظنه شيئًا في استطاعةِ أيِّ شخص أن يفعله. إطلاقًا، على حدِّ اعتقادي! لقد قُضي الأمر، ولا رجعةَ فيه!»

سألها السيد فرانسيمري بنبرةٍ خفيضة: «وما الذي قُضِي؟»

ظلَّت فالنسيا تنظُر إلى الرجُلين بالتناوب. كان كلاهما يُحدِّق إليها باهتمام؛ ورأى كلاهما أنها منفعلة ومنزعجة، وغاضبة على الأرجح.

قالت فجأة: «لا خيار لديَّ سوى الإفصاح عن الأمر مباشرة!» وأضافت: «أخي هاري مُتزوج من بوبي رين.»

نَظَرت إلى الرجُلَين مجددًا، وإن كان بشيءٍ من التساؤل هذه المرة. تجمَّدت قسمات هاربورو كأبي الهول، فيما خَلَع السيد فرانسيمري نظارته وبدأ يُلمِّعها.

وقال بنبرةٍ أخفض من ذي قبل: «إممم!» وسألها قائلًا: «زواج سري؟»

صاحت فالنسيا: «بالطبع!» وأضافت: «منذ ثلاثة أشهر، في لندن.»

سألها السيد فرانسيمري: «ولا أحد يعرف به حتى الآن؟»

قالت فالنسيا: «بل كان معروفًا!» وأردفت: «كان معروفًا للسيدة براكسفيلد!»

فقال السيد فرانسيمري ببطء: «أم العروس!» واستطرد قائلًا: «يا إلهي! حقًّا! وهكذا فالآنسة بوبي رين قد صارت بالفعل الليدي ماركنمور؟»

قالت فالنسيا باقتضابٍ وحدَّة: «بالطبع!»

سألها السيد فرانسيمري: «ولا شكوك تُحيط بصحة هذا الزواج؟ أعني فيما يتعلق بشرعيته القانونية؟»

قالت فالنسيا بالاقتضاب نفسه: «كلَّا ألبتة!» وأردفت: «إطلاقًا!»

ظل السيد فرانسيمري صامتًا لحظةً. ثم نظر وراء فالنسيا، نحو هاربورو. كان هاربورو آنذاك يُحدِّق إلى نيران المدفأة وهو يفرك ذقنه. فالتفت السيد فرانسيمري إلى فالنسيا.

وسألها: «وما المشكلة؟» وأضاف: «فكما تقولين يا عزيزتي، بما أن الأمر قد قُضي، فقد قُضِيَ بالفعل!»

أجابت فالنسيا: «المشكلة كالآتي يا سيد فرانسيمري. لقد جاء هاري وأخبرني بذلك منذ ساعة. قال إنه وبوبي رين وقعا في حُب بعضهما منذ أن تَرَكت المدرسة الداخلية التي أرسلتْها أمُّها إليها، وإن السيدة براكسفيلد علِمَت بعلاقتهما السرية مؤخَّرًا، وإنها وافقت، ليس على خطبتهما فحسب، بل على زواجهما الذي تمَّ في لندن، حين كانت بوبي تُقيم هناك منذ ثلاثة أشهر. كان ذلك عندما ذهب هاري إلى المدينة ليقضي عطلة، وظل غائبًا آنذاك حوالي شهر كامل. حسنًا، الآن — الآن بعدما صار الوضع إلى ما صار إليه — تعرفان قصدي، تُصر السيدة براكسفيلد على أنَّ الوقت قد حان لإشهار هذا الزواج، تُصِرُّ على أن تأخُذ ابنتها مكانتها الشرعية في ... في الجنازة غدًا، بصفتها الليدي ماركنمور، وهدَّدت هاري بأنها، إذا لم يحدُث ذلك، سوف ... حسنًا، أظنها ستُحدِث جَلَبة!»

سألها السيد فرانسيمري: «و... أخوكِ؟» مُضيفًا: «ما رأيه في ذلك؟»

أجابت فالنسيا: «كان يُفضِّل تأجيل ذلك حتى انتهاء الجنازة. ثم كان سيُشهِره، بالصورة المناسبة. لكن السيدة براكسفيلد مُصرة، لقد التقاها مرَّتَين اليوم، ولن تتزحزح

عن موقفها قيد أنملة! إنها تُصِر على أنَّ الليدي ماركنمور ينبغي أن تأخُذ مكانتها الشرعية غدًا؛ أن يراها الجميع بصِفتها الليدي ماركنمور ويعرفوا ذلك.»

لفت السيد فرانسيمري انتباه ضيفه الآخر بالنظر إلى عينيه.

وسأله: «ما قولك في ذلك يا هاربورو؟»

تورَّد هاربورو من تحت بشرته البُنية حين أدرك تحديق فالنسيا المُفاجئ نحوه.

قال باستحياء: «أنا ... نعم ... أوه، حسنًا، أنا ... لا أظن أنني أجيد النصح في مثل هذه المسائل. فأنا ... أجل ... لا أعرف الكثير عنها، كما تعلم. ولكن ... نعم ... يبدو لي أنَّ الأمر ربما ... ربما لي أن أسأل، هاه؟ ما رأي الزوجة الشابة — الليدي ماركنمور — في ذلك؟»

تمتم السيد فرانسيمري قائلًا: «جيد!» وأردف قائلًا: «ممتاز! والآن، ما رأي الليدي ماركنمور في ذلك يا عزيزتي؟»

أجابت فالنسيا قائلة: «كتبت الليدي ماركنمور، التي ليست في بيتها حاليًّا لكنها ستصِل إلى هناك الليلة في وقتٍ مُتأخِّر، رسالةً تقول فيها إنها تُحبِّذ بشدةٍ الالتزام التام بما يُحبِّذه زوجها ويقترحه. إنها مُتفِقة تمامًا مع هاري، لكن على حدِّ استنتاجي، فالسيدة براكسفيلد من نوعية الأشخاص الذين إمَّا ينالون ما يبتغونه أو يُحيلون الدنيا جحيمًا بشعًا إذا لم ينالوه! هذا هو الوضع، ألا تظن يا سيد فرانسيمري أنك، بما أنك تعرفنا جميعًا، من الأفضل أن تلتقي السيدة براكسفيلد الليلة، وتُقنعها بالإنصات إلى صوت العقل؟ فأنا لا أريد أيَّ جَلَبة أو بَلبلة غدًا.»

قال السيد فرانسيمري: «سأذهب!» وأضاف: «سأتحدَّث إلى السيدة براكسفيلد. ولكن هل أفهم من كلامِكِ أنَّ أخاكِ ينوي ...»

قالت فالنسيا: «ينوي هاري إشهار الزواج فور انتهاء الجنازة. لن أذهب إلى الكنيسة؛ فالحضور سيقتصِر على الرجال فقط. وحين يعودون إلى البيت، ستُتَّخذ بعض الإجراءات التقليدية الشكلية، بخصوص وصية أبي، وما إلى ذلك. سيكون السيد تشيلفورد هناك، وآخرون، بعض الأقرباء، كما تعرف. حينئذٍ سيُشهِر هاري الزواج.»

قال السيد فرانسيمري: «سأذهب وألتقي السيدة براكسفيلد حالًا. لا أعرف يا عزيزتي ما إذا كانت لديَّ قدرة كافية على التأثير في السيدة الفاضلة لإقناعها بالخضوع وقَبول اقتراحك، لكنني سأبذل أقصى ما بوسعي.» ثم أضاف بينما كان ثلاثتهم خارجين في اتجاه الصالة، حيث أنزل قبعته ومعطفه الطويل من على المشجب: «لكنكِ، لكنكِ يا عزيزتي لا يُمكن أن تعودي عبر المُتنزَّه وحدكِ، هاربورو!»

قال هاربورو بهدوء: «حسنًا يا سيدي. أنا ذاهب معها.»

تمتمت فالنسيا قائلة: «شكرًا لكليكما. وإن كان هذا لا يعني أني خائفة من عبور المُتنزَّه وحدي.»

فتح السيد فرانسيمري باب منزله الأمامي، وسار عبر ممشًى في حديقته، وأطلق صفيرًا.

فسمع هاربورو وفالنسيا اللذان كانا خلفه خشخشةً، ثم صلصلة سلسلة.

قال السيد فرانسيمري: «كلبي!» وأضاف: «لا أخرج ليلًا من دونه أبدًا.» ثم استطرد قائلًا: «ارقد يا تينكر! أسمِّيه تينكر، واشتريته حين كان جروًا، من رجلٍ سيئ السُّمعة جاء إلى هنا وكان يُصلح القدور والمقالي.»

فسألته فالنسيا: «وما ماهيته؟» مُضيفةً: «أهو هجين؟ من أنواع مختلفة؟»

أجاب السيد فرانسيمري: «لا. بل كلب أصيل من سلالة إيرديل، يُمكننا القول إنها أفضل سلالة في العالم للأغراض البوليسية، أليس كذلك؟ ومن أجل هذا اشتريته. فهذه منطقة مهجورة منعزلة، وأحيانًا ما يُوجَد أناس مُريبون بالقُرب من هنا.»

افترق الثلاثة عند بوابة حديقة السيد فرانسيمري؛ إذ ذهب الشاب والفتاة بعيدًا عبر جانب التل والمُتنزَّه ناحية ماركنمور كورت، فيما سَلَك السيد فرانسيمري أقرب مسار إلى وودلاند كوتيدج، وكان كلبه يهرول أمامه. كان الغسق قد حلَّ منذ وقتٍ طويل؛ إذ كانت السماء مُظلمة، ورأى السيد فرانسيمري، الذي كان قد اكتسب دراية كبيرة بالطقس منذ أن سَكن في الريف، أنَّ السماء ستُمطر قبل الصباح. وكان الظلام مُخيمًا على سطح الأرض، وكان الجو في ممر ديب لين العميق، الذي سرعان ما نزل إليه، حالك السواد كمُنتصف ليلة شتوية. وهناك بالأسفل، في الياردات القليلة التي اضطُرَّ إلى قطْعها قبل أن يتسلَّق الجانب الآخر، تركه كلبه الذي كان كلب صيد من سلالة إيرديل، وسرعان ما سمع صوت أنينه المُتذمِّر بين الشجيرات الكثيفة.

فقال السيد فرانسيمري: «الأرانب!» وأضاف: «تعالَ واتركها هذه المرة يا تينكر!»

عاد إليه الكلب وهو ما زال يئنُّ مُتذمرًا، وبدا واضحًا أنه كان هائجًا وراغبًا عن إطاعة أمر صاحبه. تصرَّف كأنه يتمنى العودة إلى المكان الذي تركه للتو، لكن سيدَه أمره بأن يتبعه ملاصقًا له، ومضى قُدمًا. فلم يكن بالُ السيد فرانسيمري آنذاك منشغلًا بجحور الأرانب، والكلاب المُتحمِّسة للصيد، بل بالمعلومة غير المُتوقَّعة التي كشفتها له فالنسيا ماركنمور، وبلقائه الوشيك بتلك المرأة القديرة المُتسلطة، السيدة براكسفيلد.

الفصل السابع عشر

فات الأوان

فتحت السيدة براكسفيلد باب وودلاند كوتيدج للسيد فرانسيمري بنفسها، وبعدما تبيَّنت هويته بضوء مصباح صالة بيتها، دَعته إلى الدخول بنبرة ترحيب حار.

صاحت وهي توجِّه زائرها نحو غرفة جلوس بيتها: «الزوَّار لا يأتون فرادى!» وأردفت: «لدي زائر بالفعل، وها هو زائر آخر الآن، أنا سعيدة برؤيتك يا سيد فرانسيمري!»

دلف السيد فرانسيمري إلى غرفة جلوسٍ جيدة الإضاءة ودافئة، ووجد نفسه يُحدِّق إلى بليك. فابتسم بليك وأومأ له؛ فقد تعرَّف على الوافد الجديد بأنه ذلك الرجل المُهذَّب اللطيف ذو النظارة الذي أدَّى دورَ رئيس هيئة المُحلَّفين في التحقيق الأخير. وكان السيد فرانسيمري يعرف هوية بليك بالطبع. وقف في تردُّد عند عتبة الغرفة.

وقال: «إذا كُنتما تناقشان مسائل مهمة ...»

فصاحت السيدة براكسفيلد قائلة: «إطلاقًا!» واستطردت قائلة: «كلُّ ما في الأمر أنَّ هذا السيد الصغير — بل الصغير جدًّا على أن يشغل وظيفةً كتلك التي يشغلها، كما أقول له! — جاء ليسألني ما وصَفه بأنه سؤال وثيق الصلة بشهادتي التي أدليتُ بها صباحًا قبل بضعة أيام. ولولا أنني امرأة دمثة هادئة الطبع، كما تعرف جيدًا يا سيد فرانسيمري، لوصفتُ سؤاله وصفًا آخر، ونعتُّه بأنه وقِح! تُرى ما الذي يريد معرفته يا سيد فرانسيمري؟ ما إذا كنتُ مُتيقنة من أنَّ الرجل الذي رأيته على جانب التل صباح يوم القتل كان جون هاربورو؟ سحقًا!»

رمق بليك، الذي بدا كأنه في بيته تمامًا، السيدة براكسفيلد بنظرةٍ طريفة مُداعِبة.

وقال: «حسنًا، لم تُخبريني بعد بما إذا كنتِ مُتيقنة أم لا!»

فأبدت السيدة براكسفيلد غضبها.

وصاحت قائلة: «لستُ عجوزًا إلى حدِّ فقدان بصري يا فتى!» وأضافت: «أستطيع أن أرى جيدًا بقدْر ما تستطيع أنت! بل وأفضل، على حدِّ علمي.»

فقال بليك: «كان هذا في وقتٍ مُبكر جدًّا من الصباح. كان الضوء خافتًا مُتذبذبًا، وقد علمتُ أنَّ ضبابًا كثيفًا كان يُخيِّم على جوانب التل؛ إذ قال هوبز، الرجل الذي وجد جثةَ جاي ماركنمور، إنَّ الجو كان ضبابيًّا جدًّا بالفعل في صباح ذاك الثلاثاء ...»

فسألته السيدة براكسفيلد بحدَّة: «وكيف عرف ذلك؟» وأردفت: «هل كان بالقُرب من هنا آنذاك، في الرابعة صباحًا؟»

ردَّ بليك قائلًا: «كان بالقُرب من هنا بعد ذلك بحوالي ساعة ونصف، وإذا كان الجو ضبابيًّا في الخامسة والنصف، فمن المؤكد أنه كان أشدَّ ضبابية بكثير في الرابعة والربع. لأنه إذا كان الجو ضبابيًّا — مثلما كان! — فربما كان من السهل أن يختلِط عليكِ الأمر يا سيدة براكسفيلد وتتوهَّمي أنَّ شخصًا ما هو شخصٌ آخر. وفي الوقت الذي ذكرتِه في شهادتك، كان يُوجَد رجل شديد الشبه بالسيد هاربورو في قامته وبُنيانه ومظهره العام — لا أتحدث هنا عن تشابهٍ في ملامح الوجه — في مكانٍ ما على مقربة شديدة من هنا.»

سألته السيدة براكسفيلد بارتياب: «أيُّ رجل؟»

قال بليك: «البارون فون إيكهاردشتاين. هذه حقيقة مؤكدة!»

التفتت السيدة براكسفيلد إلى السيد فرانسيمري، الذي كان واقفًا أثناء هذه المحادثة، ووجَّهته بإشارةٍ منها إلي كرسي وثير مُقابل الكرسي الذي كان بليك جالسًا عليه. وجلست هي على كرسي بينهما.

وقالت: «أوه!» واستطردت قائلة: «أي إنه كان في الأعلى هنا، أليس كذلك؟ ذاك الرجل الأجنبي الذي يُقيم في بيت السيدة تريزيرو؟ أوه! حقًّا! حسنًا، لم أرَه قَط! الرجل الذي رأيته هو السيد هاربورو. من المؤكد أنَّ ذاك الأجنبي يُشبه السيد هاربورو في قامته وبُنيانه، لقد أدركتُ ذلك الآن حين فكَّرت فيه بمناسبة كلامك.»

فسألها بليك: «والآن بعدما فكَّرتِ في ذلك مرةً أخرى، ألا تظنين أنكِ ربما تكونين مُخطئة؟» وأردف: «ألا تظنين أنَّ الرجل الذي رأيتِه ربما كان فون إيكهاردشتاين، وليس هاربورو؟ كوني منطقية بربك!»

فقالت السيدة براكسفيلد: «كلَّا!» وتابعت قائلة: «لن تنطلي عليَّ محاولاتك لتغيير قناعتي أيها الشاب! لقد كنتُ في محكمةٍ قبل اليوم، وأنت بذلك تقترح إجاباتٍ مُعينة على شاهدتك. لقد كان الرجل الذي رأيتُه، والذي تحدثتُ عنه في مقصورة الشهود، هو

جون هاربورو! هل تظن أنني قد لا أعرف رجلًا أعرفه جيدًا منذ أن كان صغيرًا للغاية؟ هذا سُخف!»

فقال بليك: «أنت لم ترَي هاربورو منذ سبع سنوات.»

ردَّت السيدة براكسفيلد بازدراء: «وما السنوات السبع من أصل خمسةٍ وثلاثين؟» وأضافت: «ما زلتُ أتذكَّر جون هاربورو حين وُلد، هناك في جرايكلويستر. وأقول لك إنه كان الرجل الذي رأيتُه صباح الثلاثاء، كان هو بكل تأكيد! هذا شيء سخيف يا سيد فرانسيمري، أليس كذلك؟»

نظر السيد فرانسيمري إلى المُحقِّق، وكان في أشدِّ الحيرة بسبب عجزه عن فهْم سبب كل هذا.

ثم قال له: «أظن ... حسنًا ... أظن أنَّ السيد هاربورو أقرَّ بكل صراحة ووضوح بأنه كان سائرًا على هذا الطريق بالأعلى في حوالي الرابعة من صباح يوم الثلاثاء.»

وافقه بليك قائلًا: «هذا صحيح، كان السيد هاربورو بالأعلى هنا. لا شك في ذلك. ولكن كان يُوجَد رجلٌ آخرُ بالأعلى هنا كذلك: فون إيكهاردشتاين. أهم شيء — لي — هو معرفة الأوقات والأماكن بكل دقة. ظننتُ أنَّ السيدة براكسفيلد قد تكون مُخطئة، ولكن بما أنها لم تكن كذلك، فلا يسعني سوى أن أُهنئها على بصرِها الثاقب المُمتاز!» ثم أضاف بابتسامة: «أوه، بالمناسبة يا سيدة براكسفيلد. يُوجَد شيء آخر — شيءٌ سارٌّ — أريد أن أُهنئك عليه! سمعتُ في القرية، قبل أن أصعد إلى هنا للتو، عن الحدث الذي أعلنتِه. أتمنَّى لابنتك كل السعادة في مكانتها الجديدة، ومن واقع ما قيل لي، أظنها ستملؤُه على نحوٍ مُثير للإعجاب.»

ردَّت السيدة براكسفيلد قائلة: «يا إلهي، شكرًا لك، أظنها ستكون كذلك، وأنا مُمتنة جدًّا لك. لكن ذلك سيكون كطلاسم مُبهمة للسيد فرانسيمري؛ لا تعرف ما الذي نتحدَّث عنه يا سيد فرانسيمري، أليس كذلك؟»

أجاب السيد فرانسيمري قائلًا: «أظن ... أظن أنني أعرف يا سيدة براكسفيلد. فأنا ... الحقيقة أنني، قُبيل مجيئي إلى هنا مباشرة، تلقيتُ زيارةً من الآنسة فالنسيا ماركنمور. أخبرتني بأن أخاها، الذي صار الآن السير هنري ماركنمور، مُتزوج من ابنتك، وأنه ينوي إشهار هذه الحقيقة لأقربائه ومُحاميه غدًا، بعد انتهاء المراسِم الحزينة التي نعرفها جميعًا. لكني ... حسنًا ... فهمتُ أنَّ الخبر كان لا يزال طيَّ الكتمان.»

فصاحت السيدة براكسفيلد بقليلٍ من الازدراء: «فهمتَ ذلك حقًّا؟» واستطردت قائلة: «لا شك أنَّ هذا ما كنتَ ستفهمه من كلام فالنسيا ماركنمور! ولكن عليهم أن

يحسبوا لي حسابًا يا سيد فرانسيمري، وأنا أنوي أن تأخُذ ابنتي، الليدي ماركنمور، مكانتها القانونية الصحيحة غدًا! ستعود إلى المنزل الليلة من لندن، حيث كانت تُقيم مع بعض صديقاتها، أترقَّب قدومها من محطة سيلكاستر في حوالي الساعة الحادية عشرة. إنها قادمة على متنِ آخرِ قطار، وفي صباح غد، ستتقلَّد مكانتها الشرعية في ماركنمور كورت. أمَّا بخصوص حضورها مراسمَ جنازة السير أنطوني والسيد جاي، فذاك القرار بيدِها هي وزوجها، السير هاري؛ فهذا ليس من شأني ولا يحقُّ لي التدخُّل فيه يا سيد فرانسيمري. أمَّا ما يحقُّ لي التدخُّل فيه، فهو أن أضمن وجود ابنتي، الآن وقد صارت الليدي ماركنمور، في مكانتها المُستحَقة بصفتها سيدة ماركنمور كورت حين يُنقَل سيده الراحل ليُدفن!»

لم يردَّ السيد فرانسيمري ردًّا فوريًّا. كان يدرك آنذاك أنه بُوغِت بمفاجأةٍ أضعفت موقفه، ولم تكن لديه فرصة للوفاء بالوعد الذي قطعه لفالنسيا. فقد كان واضحًا أنَّ أم الليدي ماركنمور الجديدة قد تولَّت المسئولية واستكبرت وحقَّقت مُرادها.

قال بنبرة فاترة: «أتمنَّى السعادة من كل قلبي للشاب والفتاة. أنا … حسنًا … مُتيقن من ذلك!»

قالت السيدة براكسفيلد بحدة: «سيكون الذنب ذنبهما وحدهما إذا لم ينعما بالسعادة!» وأضافت: «فما الذي قد يمنع ذلك؟ لن أمنعه! أؤكد لك يا سيد فرانسيمري أنني تحليتُ بطيبة استثنائية في التعامُل معهما، وبالأخص معه، كانت طيبتي تفوق تلك التي كانت معظم الأمهات سيُظهرنها في ظروفٍ مُماثلة. أنت لا تعرف كلَّ شيء!»

اعترض السيد فرانسيمري قائلًا: «بل لا أعرف أيَّ شيءٍ تقريبًا يا سيدتي. لا أعلم سوى حقيقة الزواج فقط.»

قالت السيدة براكسفيلد: «حسنًا، سأُخبرك. لا أمانع أن تعرف، ولا أمانع أن يعرف هذا الشاب، مع أنه غريب …»

قال بليك ببشاشة ومرح: «كنتُ أحاول طوال الدقائق العشر الماضية أن أستأذن في الانصراف. لكنكِ يا سيدة براكسفيلد كنتِ مُنهمكة جدًّا في شئونك العائلية إلى حدٍّ أنك لم تُلاحظي أني قد نهضتُ. لم أكن أتلكَّأ للإنصات بدافع الفضول.»

ردَّت السيدة براكسفيلد قائلة: «لم أقُل قَط إنك كنتَ تفعل ذلك!» وأضافت: «اجلس مُجدَّدًا؛ فما دُمت مُهتمًّا بشئون جاي ماركنمور، ستكون مُهتمًّا بشئون أخيه، زوج ابنتي. قلتُ إنني لا أمانع أن تعرف حقائقَ هذا الزواج؛ بل لا أمانع أن يعرفها أيُّ أحد؛ فليس

خطئي أن الزواج غيرُ مُشهر. التفاصيل كالآتي يا سيد فرانسيمري. تعرفُ أنَّ ابنتي فائقة الحُسن، ورشيقة القوام، وعلى قدْر كبير من الخصال الراقية والتربية الحميدة. لقد ورِثَت جمال الشكل من عائلتي؛ كل نسائنا مُميزات بجمالهن، ولا أقول ذلك مدحًا في ذاتي.»

فهمس السيد فرانسيمري قائلًا: «لكِ أن تقولي ذلك عن نفسكِ بكل ثقة واستحقاق يا سيدتي!» وأردف: «كما قلتُ لكِ مرارًا.»

وأضاف بليك بانحناءة: «أشاطر السيد فرانسيمري الرأي يا سيدة براكسفيلد. هذا بالضبط ما كنتُ أفكِّر فيه!»

قالت السيدة براكسفيلد باعتزاز ورضًا: «حسنًا، لقد ذبلتُ تمامًا بعدما أكلَ الدهر عليَّ وشرب. هذا يُصيبنا جميعًا، وكما قلت، وَرِثت ابنتي جمال العائلة. وأما بخصوص مُنجزاتها ... حسنًا، إذا لم تكن شابة على قدْرٍ جيد من التعليم، فهذا خطؤها وحدَها. لقد التحقَت بالمدرسة الثانوية للبنات في سيلكاستر من سنِّ العاشرة حتى سنِّ الخامسة عشرة، ثم قضت عامين في أفضل مدرسة داخلية سمعتُ بها في لندن، وأتمَّت تعليمها بقضاء اثني عشر شهرًا في باريس. وأؤكد لك أن تعليمها كلَّفني أموالًا لا حصر لها! وبعدما ربَّيتها هكذا، حسنًا، بعتُ مشروع نزل سيبتر التجاري الذي كنتُ أملكه، وتقاعدتُ عن العمل ومكثتُ هنا، كي تكون الفتاة وسط بيئة مناسبة. ولم يكد يمضي وقتٌ طويل على مجيئي إلى هنا حتى اكتشفت أنها والشاب هاري ماركنمور كانا يتبادلان الغرام، ويلتقِيان في هذه الغابات وما إلى ذلك. وما كنتُ لأسمح باستمرار ذلك إلَّا إذا عرفت مقصده الحقيقي ومآله النهائي؛ لذا تناقشتُ معه بصراحة وسوَّيْنا المسألة. ثم جعلني أوافق على الخِطبة، لكنه أقنعني بأن أسمح له بإبقائها سرًّا عن أبيه وأخته بعض الوقت. وظلَّ يُقنعني بكلامٍ معسول بهذه الزيجة، ووعدَني بأنني إذا وافقتُ عليه، فسوف يُخبر السير أنطوني به بعد ذلك بوقتٍ قصير جدًّا. لذا رضخت، وشهدت زواجهما، في كنيسةٍ بلندن، وبعد ذلك مباشرة، مَرِض السير أنطوني، وتعلَّل هاري بذلك لتأجيل إشهار الزواج، وبالرغم ممَّا واتاه من أوقات — أوقات كثيرة يا سيد فرانسيمري! — كان بإمكانه فيها أن يُخبر أباه — فضلًا عن أنه كان يستطيع إخبار أخته في أيِّ وقتٍ بالطبع — كان يختلق الأعذار دائمًا. لذا حين تُوفي السير أنطوني قبل بضعة أيام، وحدثت واقعة جاي هذه، وورث هاري اللقب والأملاك، قررتُ أن أُشهِرَ الأمر، وأُصحِّح الوضع فورًا، وأخبرته بذلك. لقد التقيتُه اليوم مرَّتين، وكان ككل مَن عرفتهم من أفراد آل ماركنمور تمامًا: عنيدًا ومُتشبثًا برأيه! فقد أراد تأجيل المسألة مُجددًا، إلى أن يُدفَن أبوه وأخوه. فرفضت! ستأخُذ ابنتي مكانتها الصحيحة بصفتها سيدة ماركنمور كورت صباح غد. وهكذا ستصير!»

قال السيد فرانسيمري بهدوء: «أظنكِ قد قلتِ للتوِّ يا سيدتي إنك أشهرتِ هذا الزواج بالفعل؟»

فأجابت السيدة براكسفيلد: «أجل، أشهرتُه!»

فسألها الزائر العجوز: «هل لي أن أسألك لِمَن أشهرتِه؟» وأضاف: «أظنُّ أنَّ السيد بليك قد سمع به من شخصٍ ما في القرية!»

فأجابت السيدة براكسفيلد بحماسة: «أشهرتُه للأشخاص المُناسبين. فلستُ من النوع الذي قد يفعل غير ذلك. أشهرته لقسِّ الأبرشية، والسيد تشيلفورد، مُحامي عائلة ماركنمور، والسيدة بيرين، زوجة كبير المُزارعين المُستأجرين.»

قال السيد فرانسيمري: «وأظنكِ قد أذنتِ لهم بالإفصاح عن الخبر لأي شخص؟»

فصاحت السيدة براكسفيلد قائلة: «بالتأكيد!» وأردفت: «ولِمَ لا يا سيد فرانسيمري؟ فابنتي هي الليدي ماركنمور!»

سعل السيد فرانسيمري — وكان سُعالًا قصيرًا جافًّا ينمُّ عن حرَج — ونظرت إليه السيدة براكسفيلد نظرةً مفاجئة حادة. فقد تبيَّنَت، أو تخيَّلت أنها تبيَّنَت، مَغزًى ما في هذا السعال.

فسألته بنبرةٍ تنمُّ عن نفاد صبرها: «ما المشكلة الآن؟» وأضافت: «ما معنى ذلك يا سيد فرانسيمري؟ أعرف أنك مُحامٍ، وإن كنتَ لا تمارس المهنة، هل تلمِّح ضمنيًّا إلى أنَّ ابنتي ليست الليدي ماركنمور؟»

فأجاب فرانسيمري بهدوء: «لو كان زوجها قد ورث اللقب وصار السير هاري ماركنمور يا سيدتي، فمن المؤكد أنَّ ابنتك هي السيدة ماركنمور. ولكن هل ورث اللقب؟»

اعتلى الشحوب وجنتَي السيدة براكسفيلد الورديَّتَين. ورأى بليك، الذي كان يراقبها عن كثب، أنَّ شفتَيها قد اعتُصِرتا فجأة، ورأى أيضًا يدَها وقد ارتفعت إلى الأعلى بحركةٍ تلقائية لا إرادية. لكنها استعادت لون بشرتها حين انقلبت فجأة بنبرةٍ غاضبة على السيد فرانسيمري.

إذ سألَتْه وهي تبذل محاولةً خرقاء لإطلاق ضحكة مُشكِّكة: «ما الذي تعنيه بحق السماء؟ لقد ورِث هاري اللقب! بالطبع ورِث اللقب! لقد مات أبوه، ومات أخوه ...»

فقال السيد فرانسيمري بنبرةٍ هادئة رزينة: «وإذا افترضنا أنَّ أخاه قد خلَّف وراءه ابنًا؟» وأضاف: «فكيف سيكون الوضع حينئذٍ؟»

صارت السيدة براكسفيلد أشدَّ شحوبًا من ذي قبل. وحينئذٍ رأى بليك، الذي كان واعيًا تمامًا بتأثير الوضع الجديد والاحتمالات الجديدة، أنها انزعجتْ بشدَّة. فحدَّقت

بصمتٍ إلى السيد فرانسيمري، وظلَّتْ تُحدِّق وتحدِّق، لكنها بقيت صامتة. فتكلم بليك، ناظرًا إلى الرجل العجوز.

قال: «ما كنتَ ستقول ذلك إلَّا إذا كانت لديك مُبررات لقوله. هل لديك؟ لأنني، إذا كان الأمر كذلك، أودُّ أن أعرف. فواجبي يُحتِّم عليَّ الحصول على كل المعلومات المُمكنة عن جاي ماركنمور.»

أجاب السيد فرانسيمري بأشدِّ نبراته جدية: «سيد بليك، نظرًا إلى ماهية مِهنتك، أستطيع أن أتحدَّث إليك بكل صراحة. وسأتحدَّث بصراحةٍ إلى السيدة براكسفيلد، نظرًا إلى ما آلت إليه الأمور. ما سأقوله الآن لم أعرفه إلا منذ ساعاتٍ قليلة، وأظنُّ أنه ربما صار معلومًا لمُحامي آل ماركنمور الآن — ربما — وربما لهاري ماركنمور أيضًا. لكنني سأُخبرك أنت والسيدة براكسفيلد به الآن؛ فربما يُجنِّبنا ذلك بعض العناء. ولكن ضعا في حُسبانكما أنه شيء لا أستطيع تأكيد صحَّتِهِ بنفسي! بل هو مجرد شيء سمعته. وها هو ذا: يُمكنني إخباركما بأنني قضيتُ النهار كله في البحث عن البارون فون إيكهاردشتاين، ظللتُ طَوال الوقت أصعد وأنزل في أكثر مناطق الغابة قفرًا وفي بعض الوديان السفلية. وعند الظهيرة تقريبًا، كنتُ في ذلك الوادي النائي على الجانب الآخر من التل، الذي يُدعى جرايلينج بوتوم، وهو مكان مهجور مُنعزل يا سيد بليك. ليس فيه سوى مسكنٍ آدمي واحد، تستأجِره امرأة لا شك أنَّ السيدة براكسفيلد تعرفها؛ مارجريت هيلسون. كان الجو قارس البرودة في ذلك الوادي — الذي دائمًا ما يكون باردًا ولا تصِل إليه الشمس — وطلبتُ من مارجريت هيلسون أن تسمح لي بالجلوس جوار نيران كوخها بينما أتناول غدائي، الذي كنتُ أحمله معي. كانت هذا المرأة كتومة ومُتحفظة — وأظنها تستطيع كتمان الأسرار إلى الأبد، إن شاءت — لكنها تحدثت إليَّ بشيءٍ من الصراحة عن الأحداث الحالية والموقف الراهن. ولمَّا عَرَفَتْ أنني مُحامٍ، تحدثت بحرية أكبر، وفي النهاية، ولأنها كانت تعرف أنَّ الحقائقَ ستتكشف عاجلًا أم آجلًا، كما ذكرَت، قالت إنها ستُخبرني بسرٍّ ظلَّت مُحتفظةً به لنفسها طَوال أربع سنوات. وهذا هو السر باختصار: تقول مارجريت هيلسون إنه في حوالي نفس الوقت الذي اختفى فيه جاي ماركنمور من هذه الأنحاء، اختفت كذلك فتاةٌ اسمُها مايرا هاليويل، وهي فتاة حسناء جدًّا وواحدة من ابنتَين لمُزارع صغير في هذا الحي، وذكرتْ مارجريت أن أخت هذه الفتاة، التي تُدعى دافني هاليويل، سافرت إلى الهند وصيفةً للسيدة تريزيرو، وعادت معها، وتعمل في خدمتها الآن في بيت الأرملة. وتقول مارجريت هيلسون إنَّ مايرا هذه كانت تُعتبر مخطوبةً لرجلٍ اسمه روبر

— جيمس روبر — كان يعمل حطَّابًا في عِزبة ماركنمور، وأظنه ما زال كذلك. لكنها، كما قُلت، اختفت تمامًا في الوقت نفسه الذي رحل فيه جاي ماركنمور عن ماركنمور كورت، حسبما ذكرت مارجريت هيلسون.» وهنا توقَّف السيد فرانسيمري لحظةً عن سرد روايته وقال، رامِقًا المُحقق بنظرةٍ خاطفة ذات مغزًى: «هذه تفصيلة مُهمة جديرة بأن تُؤخَذ في الحُسبان، بالنظر إلى ما سيليها.»

فأومأ بليك. لكنَّه لم يكن يُسلِّط انتباهه على السيد فرانسيمري، بقدْر ما كان يُسلِّطه على السيدة براكسفيلد. فقد كان واضحًا أنها مُهتمة أشد الاهتمام بالقصة التي تكشَّفت لها بغتة، ومنذ ذِكر اسم مايرا هاليويل، تعمَّق اهتمامها حتى كاد يصير اضطرابًا عصبيًّا. كان لون بشرتها يزول ثم يعود، وكانت تعتصِر شفتيها وتُرخيهما بالتناوب، ورأى بليك أنَّ هذه المرأة كانت قلقةً بكل وضوح، إن لم تكن مذعورة. وحين سكت السيد فرانسيمري، ظلَّت مُحدقة إليه بنظرة أظهرت أنها تنتظِر معرفةَ ما حدث بعد ذلك، بلهفة مشوبة بالرعب.

تابع السيد فرانسيمري قائلًا: «حسنًا، هذا ماحدَث بعد ذلك: بعد اختفاء مايرا هاليويل من هذه المنطقة بحوالي أربع سنوات، سافرت مارجريت هيلسون إلى لندن لتزور إحدى شقيقاتها التي كانت تعيش بالقُرب من حديقة واندسوورث العامة. وكانت مارجريت عادةً ما تخرج صباحًا إلى الحديقة العامة لتستنشِق الهواء النقي، فيما كانت أختها، المتزوِّجة بعامل، تنشغِل بأداء أعمالها المنزلية. وفي صباح أحد الأيام، بينما كانت تتمشَّى، رأت شابةً أنيقة الثياب بدا مظهرها مألوفًا لها، وكان معها مُربية تتولَّى مسئولية عربة أطفال كان فيها طفل. ثم اقتربتا، وتبيَّنت مارجريت هيلسون أنَّ هذه الشابة الأنيقة كانت مايرا هاليويل. وكذلك أدركَتْ مايرا هوية مارجريت، فتوقفَّتا وتحدَّثتا. وكانت النتيجة أنَّ مايرا هاليويل، بعدما جعلت مارجريت تتعهَّد لها بكتمان السر، أسرَّت إليها بأنها تزوَّجَت السيد جاي ماركنمور، وأن ذاك الطفل الذي كان في عربة الأطفال، والذي كان عمره آنذاك ثلاث سنوات، هو ابنهما ...»

ضربت السيدة براكسفيلد الطاولة فجأة بقبضة يدِها بكل عُنف.

وصاحت قائلة بصوتٍ أجشَّ مبحوح: «كذب!» وأردفت: «كذب جملةً وتفصيلًا! عجبًا! لقد طلب من السيدة تريزيرو الزواج، في الليلة التي كان فيها هنا! سمِعتماها كلاكما تُقسِم على ذلك في مقصورة الشهود، تعرفان أنكما سمِعتُماها!»

لم يقُل بليك شيئًا. كان يُسلِّط انتباهه آنذاك على السيد فرانسيمري، مُقتنعًا بأن هذه القصة تُخفي بين طيَّاتها ووراءها أكثرَ مما تَخيَّل في البداية. فقد كانت أطوارها المُختلفة تكشف له أفكارًا جديدة ورؤًى جديدة، وكان يزداد تحمُّسًا لها مِهنيًّا.

قال السيد فرانسيمري بهدوء: «لم أُكمل القصةَ بعدُ يا سيدة براكسفيلد. دعيني أكمل إذا سمحتِ؛ قَطَعت مارجريت هيلسون، التي أرى أنَّها أقدرُ امرأةٍ على الكتمان، وعدًا للسيدة جاي الشابة بأنها ستكتُم السر، وقد كتمته. ولكن، منذ عام، سافرت مارجريت هيلسون لزيارة أختها مُجددًا في المكان نفسه. ومُجددًا، كانت تتمشَّى في حديقة واندسوورث العامة. وفي صباح أحد الأيام، التقت، ليس السيدة جاي ماركنمور، بل المُربية نفسها، برفقةِ الطفل نفسه، الذي كان عوده قد اشتدَّ آنذاك وصار فتًى قويًّا في الخامسة من عمره. فتحدَّثَت إلى المُربية، التي أخبرتها بأن الأم ماتت؛ ماتت قبل ذلك بعام، بسبب التهابٍ رئوي، وقالت إن الطفل كان يُربَّى في كنف سيدةٍ أؤتمِنَت على رعايته عند وفاة أمِّه، وإنها، أي المربية، بقيت معه. وأضافت المربية، التي ربما لم تجِد سببًا يمنعها من التحدُّث بحريةٍ إلى امرأةٍ كانت قد رأت سيدتها الراحلة مُنهمكة في محادثة حميمية معها، وأضافت بعض التفاصيل. فقالت إنَّ والد الطفل كان يأتي لزيارته مرَّتَين في الأسبوع، ودائمًا ما يقضي معه عصر أيام الأحد، وذكرت المُربية أنه رجل وسيم وموسِر. وأضافت فوق ذلك أنَّ الطفل سُمِّي على اسمه، جاي. وأخيرًا، أخبرَت مارجريت هيلسون بمكان مَدفن سيدتها الراحلة، فذهبت مارجريت هيلسون لتزور القبر. عثرت عليه بسهولةٍ كبيرة بناءً على التفاصيل التي ذُكِرَت لها، ورأت الكلمات المنقوشة على شاهد القبر: مايرا، زوجة جاي ماركنمور. وقد أسرَّت مارجريت هيلسون هذا أيضًا في نفسها، لكنها يا سيدة براكسفيلد لن تواصِل كتمانه بعد الليلة! فحين مررتُ عليها في كوخها، كانت تعتزِم إخبار السيد تشيلفورد بكلِّ ما تعرفه مساء اليوم، وعندما مررتُ عليها، أخبرتْني. فنصحتُها بأن تُخبر تشيلفورد فورًا، وأظن أنها ربما تكون قد أخبرته الآن. وأظنُّ أنه لا سبب يستدعي الشك في صِدق روايتها؛ فلماذا قد يُوجَد أيُّ سببٍ كهذا؟ ومن المؤكد تمامًا بالطبع أنَّه إذا كان الابن الصغير للراحل جاي ماركنمور حيًّا، فإنه بذلك يكون وريث اللقب والأملاك!»

الفصل الثامن عشر

الممَر العميق

أنهى السيد فرانسيمري قصَّته بقوةٍ وتشديد لائقين بفصاحةٍ قضائية، وأومأ بليك، الذي صار مُنشغلًا آنذاك بطروحاتٍ مفاجئة تبادرَت إلى ذهنه، بالموافقة على كلماته الختامية. لكن السيدة براكسفيلد، بالرغم من انفعالها الواضح، أبدت عزوفًا عنيدًا عن قَبول فرضية السيد فرانسيمري.

إذ قالت بعد سكوتٍ لحظي: «قد يبدو هذا صحيحًا يا سيد فرانسيمري. فأنتَ مُحامٍ، ومن المؤكد أنك تعرف! لكنَّ كل هذه مَحض احتمالات! لو كان جاي ماركنمور، كما تقول، قد تزوَّج مايرا هاليويل، ولو كانا قد أنجبا طفلًا، ابنًا، ولو كان هذا الابن حيًّا؛ حسنًا، حينئذٍ، يحقُّ له بالطبع أن يَخلُف أباه أو جدَّه — فعلى حدِّ علمي، لا أحد يعرف أيهما مات أولًا، السير أنطوني أم ابنه الأكبر — في وراثة اللقب والأملاك. لكن كل هذه احتمالات مَسبوقة بلو! لو! لو! لو! لا أُصدق أنَّ جاي ماركنمور تزوَّج تلك الفتاة قَط … لا أصدق إطلاقًا! ربما يكون قد أخذها معه حين سافر، وربما عاشا معًا في لندن، وربما يُوجَد طفل، لكن كل ذلك لا يُثبت أيَّ زواج يا سيد فرانسيمري!»

فقال السيد فرانسيمري: «وماذا عن النقش المكتوب على شاهد القبر يا سيدة براكسفيلد؟» وأضاف: «لقد رأَتْهُ مَن أعطتني المعلومات! وأحسب أن مارجريت هيلسون امرأة صادقة.»

ردَّت السيدة براكسفيلد: «لا أقصد أيَّ ذَمٍّ في مارجريت هيلسون. فهي امرأة فاضلة جدًّا! ولا أنكِر أنها ربما رأت نقشًا كهذا. لكن هذا لا يثبت شيئًا. أي شخص بمقدوره أن يصِف شخصًا آخرَ بهذه الكلمات، لا سيما في مقبرةٍ بلندن، ومَن سيدري! سيكون لزامًا أن تظهر أدلةٌ أكثرُ من تلك المُتاحة يا سيد فرانسيمري قبل أن تَثبُت صحةُ كلِّ ما قلته؛ قسيمة زواج وشهادة ميلاد وما إلى ذلك.»

ردَّ السيد فرانسيمري قائلًا: «كل هذا سيُقدَّم بلا شك يا سيدتي. أنا مُتأكد من أننا سنعرف حقائقَ أكثر، أكثر بكثير! فمن المؤكد أنَّ ثمَّة شخصًا ما يعرف.»

سألته السيدة براكسفيلد: «وتقولُ إنك نصحتَ مارجريت هيلسون بالذهاب إلى المُحامي تشيلفورد وإخباره بهذه الحكاية؟» وأضافت: «فورًا؟»

أجاب السيد فرانسيمري: «فورًا!» واستطرد قائلًا: «فمِثل هذه المسائل لا تحتمِل التأخير. أظنُّ أنَّ مارجريت هيلسون ستكون قد قابلت السيد تشيلفورد بالفعل؛ إذ قالت إنها ستنزل إلى بيته في وقتٍ مُبكِّر من مساء اليوم.»

قالت السيدة براكسفيلد في عبوس: «إذن، سيعرفون في ماركنمور كورت. من المؤكد أنَّ تشيلفورد سيذهب إلى هناك ويُخبرهم حالَما يعرف.»

فأكد السيد فرانسيمري ذلك قائلًا: «ربما صاروا يعرفون الآن. ولكن سواء عرفوا الليلة أم غدًا يا سيدة براكسفيلد، فالمؤكد أنَّ هذه المسألة سيتوجَّب أن تخضع لتحرِّيات شاملة. وإذا كان لي أن أُسدي إليكِ نصيحةً صغيرة يا سيدتي، بصِفتي جارًا يتمنَّى لكِ الخير، فينبغي أن أنصحك بالتريُّث قليلًا قبل إرسال ابنتك إلى ماركنمور كورت بصفتِها الليدي ماركنمور. فكما تعرفين، ربما تكون مجرد السيدة هاري ماركنمور ليس إلَّا. على رِسْلك ولا تتسرَّعي يا سيدتي!»

ثم قام السيد فرانسيمري استعدادًا للرحيل وهو يُومئ للسيدة براكسفيلد بنظرةٍ تحذيرية من ناصح حكيم، وكذلك قام كلبه الإيرديل، والذي كان حتى ذلك الوقت نائمًا أسفل الطاولة بعينٍ مفتوحة، وانطلقا برفقة بليك إلى الخارج في جنح الليل، الذي كان مُظلمًا باستثناء ضوء النجوم؛ لأن القمر لم يكن قد طَلَع بعد. شقوا طريقهم في صمتٍ عبر مماشي حديقة وودلاند كوتيدج وخرجوا منها على جانب التل المفتوح.

تمتم بليك أخيرًا بينما كانوا يمشون ببطء عبر العُشب المجزوز القصير: «معلومات غريبة!» وأردف: «لقد فهمتُ أنك تُصدِّق هذه القصة المُتعلقة بزواج جاي ماركنمور؟»

أجاب السيد فرانسيمري بحزم: «أجل، أُصدِّقها!» واستطرد قائلًا: «عند جمْع كلِّ التفاصيل الجزئية معًا، أصدِّقها! فالمرأة التي أخذتُ منها معلوماتي اليوم، مارجريت هيلسون، تليق بأن تكون شاهدةً مثالية؛ أظنك تعرفُ قصدي. فهي من النوع الذي لا يقول إلَّا ما يعرفه، بلا إضافة أو انتقاص أو تجميل أو تشويه، وتُعطي إمَّا إثباتًا صريحًا أو نفيًا صريحًا كذلك؛ النوع الذي، في الواقع، ليس لديه المُخيلة اللازمة لتحريف الحقيقة. لا شكَّ عندي في أنها سردتْ لي روايةً واضحة صريحة تمامًا عمَّا حدث في أثناء

زيارتَيها إلى لندن، ولا في أنها رأت القبر والكلمات المنقوشة عليه التي تحدَّثَتْ عنها. وأما بخصوص احتمالية الزواج ... حسنًا، ربما أكون، يا سيد بليك، عجوزًا مُحِبًّا قليلًا للثرثرة! فأنا، على أي حال، أُحب التحدُّث إلى أهالي الريف عن شئونهم، وإن كنتُ أرجو ألَّا أكون شخصًا فضوليًّا مُتطفلًا. أحبُّ الاستماع إلى حوادثهم المُضحكة ومآسيهم المُحزنة، وأهتمُّ بها اهتمامًا مُتعاطفًا. قبل أن أسمع هذه القصة من السيدة هيلسون بفترةٍ طويلة، كنتُ قد سمعتُ عن مايرا هاليويل واختفائها، ولمَّح لي شخص أو اثنان في القرية بأنَّ هذا الاختفاء ربما يكون مُرتبطًا بجاي ماركنمور. لذا لم أتفاجأ كثيرًا ممَّا أخبرَتْني به السيدة هيلسون.»

فقال بليك: «أتساءل عمَّا إذا كانت أخت مايرا — تلك المرأة التي تعمل في بيت الأرملة — تعرف أيَّ شيءٍ عن ذلك؟»

أجاب السيد فرانسيمري قائلًا: «دافي، كما يدعونها؛ أتساءل عن ذلك أنا أيضًا. وإن كنتُ لا أظن ذلك. إذ إنَّ دافي — واسمها الحقيقي دافني — كانت في الهند طوال ثلاث سنوات مع السيدة تريزيرو، ولم تَعُد إلا مؤخرًا. ربما تعرف بالطبع. ولكن لو كانت تعرف، فكُن متأكدًا من أنها ستُفصِح عن ذلك!»

فقال بليك وقد بدا مُنهمكًا في تفكيرٍ عميق: «تبدو امرأةً تُكِن قدرًا هائلًا من الأسرار. إنها كتومة! كتومة للغاية. حسنًا، هذه مسألة غريبة يا سيدي! وبينما كنتَ تكشف قصتك للسيدة براكسفيلد، بدأتُ أتأمَّل العلاقةَ المُحتمَلة بين هذه القصة وعملي بطبيعة الحال!»

سأله السيد فرانسيمري: «كيف؟»

أجاب بليك: «حسنًا، بادئ ذي بدء. يُوجَد سؤال بديهي: هل لهذا أيُّ صِلة بمقتل جاي ماركنمور؟»

صاح السيد فرانسيمري: «آه!» وأضاف: «هل له صِلة، بالفعل؟ سؤال في غاية الأهمية يا سيدي العزيز، ومن الصعب جدًّا معرفة إجابته.»

واصل بليك قائلًا: «سؤال آخر. لقد أخبرَتْنا السيدة تريزيرو في التحقيق بأنها وجاي ماركنمور جدَّدا غرامهما القديم حين التقَيَا مساء الإثنين الماضي، واتفقا على الزواج فورًا. الآن، أودُّ معرفة هذا: هل أخبرَها جاي ماركنمور بأنه كان مُتزوجًا من قبل، وفقد زوجتَه، ولديه ابن على قيد الحياة؟»

قال السيد فرانسيمري: «هل أخبرَها، يا تُرى؟» وأردف: «تُرى فَعَل ذلك؟ ولكن مَن يدري؟»

تابع بليك: «لو كان قد أخبرَها، فلماذا لم تفصِح عن تلك الحقيقة في التحقيق؟ لو كانت تعرف ذلك، فلماذا أخفته؟»

تمتم السيد فرانسيمري قائلًا: «نعم، لماذا؟» وكرَّر: «لماذا؟»

قال بليك: «ولو لم يكن جاي ماركنمور قد أخبرها — وهي المرأة التي كان سيتزوَّجها! — فلماذا لم يُخبرها؟» وأضاف: «هل أخبرَها أم لم يُخبرها؟ أرى يا سيدي أنَّ هذا السؤال ينطوي على أمورٍ كثيرة على قدْرٍ بالِغٍ من الأهمية!»

فوافقه السيد فرانسيمري قائلًا: «هذا مُرجَّح. ولكن على أي حال، بيني وبينك، تراوِدُني تساؤلات كثيرة أخرى منذ أن سمعتُ شهادة السيدة تريزيرو!»

سأله بليك: «عن ماذا، مثلًا؟»

أجاب السيد فرانسيمري: «لا شيء، على وجه الخصوص. كنتُ أتساءل، عمومًا، عمَّا إذا كانت السيدة تريزيرو قد قالت كلَّ ما كان يُمكن أن تقوله؛ عمَّا إذا كانت صريحةً وواضحة وبريئة وصادقة. بيني وبينك، أظنها امرأةً مُتغطرسة وأنانية وسخيفة، وغبية بقدْر ما يكون هذا الصِّنف من النساء دائمًا!»

فقال بليك: «لكن هذا النوع من الغباء غالبًا ما يكون مصحوبًا بقدْرٍ كبير من المكر، أليس كذلك؟ لقد وصلَني عنها انطباع — مع أني لم أرَها إلا قليلًا — بأنها من نوعية النساء اللواتي يستطِعْن نسج حِيَل خادعة.»

وافقه السيد فرانسيمري قائلًا: «هذا مُرجَّح!»

فقال بليك: «إذن، فالسؤال الذي يُراوِدني هو: هل تنسج أيَّ خدعة الآن، وإذا كانت كذلك، فما هي؟» وأضاف: «وهل لفون إيكهاردشتاين أيُّ علاقة بها؟»

صاح السيد فرانسيمري: «آه!» وأردف: «هذا سؤال آخر!»

تمتم بليك قائلًا: «لغز لطيف جدًّا!»

فقال السيد فرانسيمري بينما كانوا ينزلون إلى الممر العميق الضيق، الذي كان مُتعرجًا وذا جانبين عاليين وكان يشقُّ طريقه إلى الأعلى نحو قمة الروابي ما بين بيت ذا وارن ووودلاند كوتيدج: «بل قاتم كهذا المَمر يا صديقي. وستحتاج إلى ما هو أكثر من ضوء النجوم لتستنير به وتُبصِر دربك فيه! لكني أعتقد أنك، حتى الآن، لا تملك سوى مثقال ذرة من طرف دليل تهتدي به.»

فقال بليك وهو يُفكِّر في المعلومات التي كان لانسبري قد ذكرها له: «لا أملك سوى خيطٍ رفيع جدًّا، ربما لا يكون خيطًا أصلًا. لا! حتى الآن يا سيد فرانسيمري، لا أملك

في الواقع سوى أقل القليل ممَّا يمكن أن أبني تحرياتي عليه. إنني ... ما الذي يفعله كلبك؟»

كان كلبه الإيرديل، الذي سبق الرَّجُلَين إلى جنح ظلام الممر، قد واصل الركض أمامهما إلى البقعة التي كان قد أظهر عندها علاماتٍ جامحةً على الاهتياج والفضول حين كان السيد فرانسيمري في طريقه إلى السيدة براكسفيلد. كان يئنُّ متذمرًا مرةً أخرى آنذاك، وعندما اقتربا من الشجيرات، سمعاه يخدش التربة ويحفر فيها بعُنف، وسرعان ما تحوَّل أنينه المتذمِّر إلى زمجرة هادرة.

قال السيد فرانسيمري: «مِن المُحتمَل أنَّه يبحث عن غرير! فأنا أظن أنَّ هذا الممر كان فيه بعض حيوانات الغرير، أو أحدها، لبعض الوقت، لقد تخيَّلتُ أني وجدتُ بعضًا من آثار أقدامه في التربة الرملية الرخوة. لو كان بِحوزتي مِشكاة، لأستطعتُ أن أحدِّد فورًا؛ لأن جُحر الغرير يُمكن تمييزه عن جُحر الثعلب بسهولة.»

وضع بليك يدَه في جيب معطفه وأخرج شيئًا ضَغَط عليه بأصابعه، فأحدث طقطقة رنانة حادَّة تلاها وهَج ثابت من الضوء.

وقال: «ها هو ما أردته!» وأضاف: «المصابيح الكهربائية أفضل من المشكاوات. أين هو؟»

أزاح السيد فرانسيمري الشجيرات التي كان كلبه مُنشغلًا وراءها، وكشفه وهو يحفر بشراسة في تجويف في الحد الجانبي المُرتفع للممر. فالتفت الكلب، ورمش بعينَيه في مواجهة الضوء، وواصل مهمته بلهفة أشد. حاول السيد فرانسيمري أن يتشمَّم.

ثم صاح قائلًا: «أف!» وأردف قائلًا: «غرير، بالتأكيد! مُستحيل أن أخطئ هذه الرائحة الكريهة، التي تختلف تمامًا عن رائحة الثعلب. لكنه لن يكون موجودًا هناك الآن يا فَتاي! فالغرير يترك جُحره ويخرج بعد حلول الظلام بقليل، بحثًا عن الجذور والحشرات والضفادع ويرَقات النحل والزنابير. تعالَ واتركه يا تينكر!»

لكن الكلب واصل الحفر، فيما راقبَهُ بليك باهتمام، مُسلِّطًا وهَج مصباحه الكهربائي على فوهة الجحر.

وقال: «إنه يجيد التنقيب!» وأردف قائلًا: «لقد فرَّغ الحفرة من بعض محتواها بالفعل. وإذا واصل الحفر بهذا المعدل، سيصِل قريبًا إلى عمق الحد الجانبي، مرحى!»

انحنى بليك إلى الأمام فجأة، وأزاح الكلب جانبًا، ثم أخرج من وسط التراب المليء بالحصى والرمل الرخو الذي أخرجه الكلب من الحفرة شيئًا لَمَع في وهج المصباح الكهربائي. ورفعه إلى السيد فرانسيمري مُتفوهًا بصيحة تعجُّب حادة.

قال بليك: «انظر إلى هذا!»

فنظر السيد فرانسيمري وتراجع إلى الوراء مُجفلًا.

ثم صاح قائلًا: «يا إلهي!» وأضاف: «مسدس!»

نصب بليك قامته، وسلط كل ضوء مصباحه الكهربائي على ما وجدَه، مُمسكًا إيَّاه في يُسراه.

وقال: «مسدس آلي من طراز «ويبلي-فوسبيري».» مُضيفًا: «و... جديد! وأُلقِيَ هناك منذ وقتٍ ليس ببعيد! سيد فرانسيمري! ماذا لو أنَّنا قد وجدنا الشيء الذي تسبَّب في موت جاي ماركنمور؟ لن أتفاجأ!»

تراجع السيد فرانسيمري إلى وسط الممر.

وسأل بتوتر: «هل، هل هو مُذخَّر؟» وأضاف قائلًا: «أتوسَّل إليك أن تتوخَّى الحذَر يا سيدي العزيز! فأنا أرتعب بشدة ...»

فقاطعه بليك قائلًا: «فلتحمِل أنت المصباح. سأتوخَّى الحذَر؛ فأنا على دراية تامة بالتعامُل مع الأسلحة النارية.» وناول المصباح الكهربائي إلى رفيقه، وبدأ بيدَيه الطليقتَين يتفحَّص آلية المسدس الآلي من الداخل. وسرعان ما قال: «لا شيء فيه. ولا خرطوشة واحدة! ولكن انظر هنا يا سيدي، لم يمرَّ وقت طويل على وضع هذا المسدس هناك! فليس به بُقعة واحدة من الصدأ؛ بل كله لامع ونظيف وجديد تمامًا ...»

فقال السيد فرانسيمري وهو ينظُر إلى فوهة الجُحر: «الرمال جافة جدًّا. والحصى أيضًا. ربما ...»

فقال بليك: «لا!» واستطرد قائلًا: «لو أنَّه كان موضوعًا هناك منذ وقتٍ طويل، لظَهَر بعض الصدأ بأي حالٍ من الأحوال، ولو بقعة أو اثنتان على الجزء المعدني على الأقل. يا لَحُسن الحظ! أشعُر برغبة في إهداء كلبك طَوقًا فِضيًّا!»

سأله السيد فرانسيمري: «هل تظنُّ هذا ذا أهمية كبيرة؟»

فصاح بليك: «بل أكبر أهمية على الإطلاق!» وأضاف: «لا ينبغي أن أظن سوى ذلك! عجبًا! إننا في نطاق نصف مِيل من المكان الذي أردِيَ فيه جاي ماركنمور قتيلًا برصاص مُسدسٍ ما، وها هو مسدس، مسدس آلي، من الواضح أنَّه رُمِيَ — منذ وقتٍ قريب جدًّا — في حفرة في الحد الجانبي المُرتفع، خلف الشجيرات، في ممر مُنعزل! مُهم؟ سيدي العزيز! إنه دليل!»

فقال السيد فرانسيمري: «نحن قريبان من بيتي. لنذهب إلى هناك ونُفكِّر في المسألة بإمعانٍ أكبر. يا إلهي! يا له من اكتشاف استثنائي للغاية! من المؤكد أنه يحتاج إلى اهتمامٍ عميق ودقيق.»

فقال بليك بجدية وتجهُّم: «سيحصل على ذلك!» وأضاف: «فهذا أول دليلٍ مادي أصادِفُه.»

قاده السيد فرانسيمري إلى بيته. وعند الباب، استقبلتهُما خادمة الاستقبال المَشوقة.

قالت: «السيد تشيلفورد ينتظِرُك في غرفة المكتب يا سيدي. أخبرتُه بأني لا أعرف إلى متى ستبقى بالخارج، لكنه قال إنه مُضطر إلى الانتظار.»

جذَب بليك السيد فرانسيمري من كمِّه بينما كانا يدخُلان الصالة.

وهمس له قائلًا: «لا تذكُر ولو كلمة واحدة عن المُسدس الآلي!» وأضاف: «لا أريد أن يُعرَف ذلك على الإطلاق الآن! أصغِ إليَّ، قد لا يريد تشيلفورد حضوري معكما، فهل لي أن أُغادر؟»

قال السيد فرانسيمري: «لا، ادخُل معي. فأنا أريدك أن تدخُل معي. سأخبره بأنك على دراية تامَّة بهذه المسألة التي ذكرتها هيلسون.» ثم أضاف بينما كانا يدخلان غرفة المكتب، حيث كان المحامي جالسًا يُحدِّق إلى نيران المِدفأة وقد بدا مُنهمكًا في تفكيرٍ عميق: «آه، تشيلفورد!» وأردف قائلًا: «أعرفُ ما الذي أتى بك إلى هنا؛ كنتُ أتوقَّع ذلك! لقد جاءت مارجريت هيلسون لمُقابلتك، وقالت لك إنها قد قابلتْني سلفًا. حسنًا، السيد بليك على دراية كاملة بقصَّتِها؛ لذا ...»

نظر تشيلفورد إلى كليهما بالتناوب.

وأجاب قائلًا: «بل أتى بي إلى هنا شيء أهمُّ من قصة مارجريت هيلسون يا فرانسيمري. لقد قابلتُها بالطبع؛ إذ زارتْني في وقتٍ مُتأخر من عصر اليوم. لم أستطِع تبنِّي رأي مُحدَّد عن قصتها، ما دامت مجرد قصة سُرِدَت على لسانها وحدَها، بلا أي أسانيد. ولكن منذ الساعة السابعة، من مساء اليوم، صرتُ أعرف أنها صحيحة، بكل تفاصيلها!»

صاح السيد فرانسيمري قائلًا: «حقًّا؟» وأردف: «كيف؟»

لوَّح تشيلفورد بيدِه نحو النافذة التي، لولا أنَّ الليل قد حلَّ وأنَّ أستارها كانت مُسدَلة، كانوا سيرون منها بيت ماركنمور كورت عبر المُتنزَّه.

وقال: «وريث اللقب والأملاك موجود هناك!» وأضاف: «صبي في السادسة! غير واعٍ إطلاقًا بما ورِثه!»

نظر السيد فرانسيمري إلى بليك نظرةً خاطفة، ورأى أنَّ ما كان هو نفسه يُفكر فيه كان يشغل تفكير المُحقِّق أيضًا؛ ألا وهو السؤال الذي طرحته السيدة براكسفيلد عمَّا إذا كان هذا الطفل ثمرة زواجٍ بينهما أم إنه أتى بلا زواج.

ثم التفت إلى تشيلفورد قائلًا: «إذن، فأنت مُتيقن من أن له حقًّا؟» وأضاف: «ولكن كيف ظهر؟ شيءٌ غير مُتوقَّع، أليس كذلك؟»

أجاب تشيلفورد قائلًا: «لم يخطر ببالي أنَّ تطوُّرًا كهذا سيطرأ. فلم يُلمِّح لي أيُّ أحد من قبل بأن جاي ماركنمور قد تزوَّج، دائمًا ما كنتُ أفهم أنه لم يتزوَّج قَط! وحين أتت إليَّ تلك المرأة، المدعوة مارجريت هيلسون، مساء اليوم، بعدما عُدتُ من مكتبي للتو، وسَرَدَتْ لي تلك القصة التي قصَّتها عليك سلفًا، كنتُ مذهولًا. لكنني أعرفها بأنها امرأة فاضلة ومُحترمة، ومن المُستبعَد تمامًا أن تختلق حكايات خرافية، وأن تقول أشياءَ لا تعتقد أنها صحيحة، وحين سمعتُها، بدأتُ أظن أنَّ كلامها، حسنًا، ربما يحمِل قدرًا من الصواب. أتعلَمُ يا فرانسيمري، لم يكد يمضي نصف ساعة على رحيلها عن بيتي حتى جاءني بعربةٍ من محطة قطار سيلكاستر مُحامٍ لندني شهير، يُدعى كويلامين، من شارع بيدفورد رو، أحضر معه سيدةً وصبيًّا صغيرًا، وقصةً مُتطابقة تمامًا مع تلك التي كنتُ قد استمعتُ إليها للتو.» واختتم تشيلفورد كلامه بضحكةٍ جامدة وغمزة للسيد فرانسيمري، قائلًا: «والأدهى من ذلك أنَّه أحضر معه أدلةً وثائقية كاملة على كلِّ ما قاله. أف! المسألة واضحة تمامًا. يُوجَد شخص يُدعى السير جاي ماركنمور في ماركنمور كورت الليلة! وهو في السادسة من عمره!»

قال السيد فرانسيمري: «أي أنَّ جاي ماركنمور تزوَّج مايرا هاليويل؟»

أجاب تشيلفورد: «أجل! حين رحلا عن هنا معًا. وعاشا في البداية معًا في سِرِّية شديدة، في حي كلافام أو توتينج أو واندسوورث. ثم عاشت هناك وحدَها — إذ كان يظل بعيدًا عنها فترات طويلة، وكان لديه شقة في حي وست إند. ثم ماتت، لكن الصبي موجود. يعرف كويلامين المسألة كلها؛ فلدَيه كل الأوراق، وقسائم الزواج وشهادات الميلاد، وكل شيء؛ إذ كان جاي يأتمِنُه على أسراره دومًا. حين ماتت أم الطفل، عهد برعايته إلى أُختِ كويلامين، الموجودة معه الآن في ماركنمور كورت، كلهم هناك، أوصلتُهم إلى هناك بنفسي.»

سأله السيد فرانسيمري: «وهاري ماركنمور وأُخته، كيف استقبلا ذلك؟»

فأجاب تشيلفورد: «أصدُقك القول، استقبلاه كأنهما حَجَرَين!» وأردف قائلًا: «لم تهتزَّ شعرةٌ واحدة، لدى أيٍّ منهما، ولكي أكون مُنصفًا، شرعَا فورًا في تدليله والاعتناء به. ولكن يا إلهي! أعتقد أني أعرف مَن سيكون غاضبًا من ذلك! لقد سمعتُ أنَّ هاري ماركنمور تزوَّج بوبي رين سرًّا، بعِلْم أُمِّها!»

قال السيد فرانسيمري: «هذا صحيح!» وأضاف: «عُقِد الزواج في لندن، قبل ثلاثة أشهر، بحضور الأم.»

فصاح تشيلفورد قائلًا: «إذن، فالسيدة براكسفيلد ستكون أشدَّ النساء غضبًا بين كل المسيحيين حين تعرف ذلك!» واستطرد: «فهي بالطبع كانت تتمنَّى أن يكون جاي قد مات منذ أمدٍ بعيد، وألَّا يكون أيُّ أحدٍ قد سمع أيَّ خبر عنه طوال سبع سنوات، وأن يرِث هاري اللقب، وتصير بوبي السيدة ماركنمور! حسنًا، لقد تلاشى ذلك الآن وصار سرابًا! أمرٌ غريب! ويقول كويلامين إنَّ مزيدًا من الحقائق قد يتكشَّف. فقد اتَّضح أنَّ جاي، الذي دائمًا ما كان يجني أموالًا طائلة في أعماله وصفقاته، وتُركَت كل هذه الأموال، بالطبع، للطفل الصغير بموجب وصيةٍ كُتبت مؤخرًا، كان يريد أن يتنازل عن بيت ماركنمور كورت بالكامل لأخيه وأخته، وكان يعتزم اتخاذ إجراءات التنازُل عنه حالَما يرثه. لكن حق وراثة الأملاك مقصور على فرعٍ مُحدَّد من العائلة وفق ترتيب مُعين! كل شيء صار من نصيب هذا الطفل! شيء مُثير للاهتمام من منظورِ محامٍ يا فرانسيمري، أليس كذلك؟»

وافقه السيد فرانسيمري قائلًا: «من هذا المنظور ... مُثير جدًّا. ومُعقد أيضًا.»

كان يتساءل في قرارة نفسه عمَّا إذا كان تشيلفورد يريد الإسهاب في الحديث عن تعقيدات الموقف، راجيًا ألَّا يكون كذلك؛ لأنه هو نفسه لم يكن في حالةٍ مزاجية مناسبة لمناقشة مسائل قانونية. لكن تشيلفورد سرعان ما رحل، ورحل معه بليك بعدما همس للسيد فرانسيمري بكلمة. ثم سارا معًا نحو القرية، التي كان تشيلفورد يعيش على أطرافها.

سأله تشيلفورد قبل أن يفترِقا: «هل حالفك أيُّ نجاح في مساعيك، أيها الشاب؟»

فأجاب بليك: «قليل للغاية!»

فصاح تشيلفورد: «هذه أشدُّ القضايا التي سمعتُ بها غموضًا!» وأضاف: «ليس فيها ولو بصيص من نور!»

تركه بليك عند مُفترق الطرق، وانعطف إلى نزل سيبتر. ثم تذكَّر كرولي، وشعر برغبةٍ في محادثة ودية قبل الخلود إلى النوم؛ فتفقَّد حجرة الحانة، وسأل عنه. فهزَّ جريمسدِل رأسه بينما كان يقرأ صحيفة خلف نضد الحانة.

وأجاب قائلًا: «لم يَعُد قَط يا سيد بليك. طلب أن يكون عشاؤه جاهزًا في الساعة السابعة، لكنه لم يأتِ ليتناوله. لم أرَه منذ أن خرج بعد الفطور مباشرة، أظنه قد غيَّر رأيه وذهب إلى مكانٍ آخر. لكن ذلك غير مُهم إطلاقًا؛ لأنه دفع فاتورته!»

الفصل التاسع عشر

تحت الضغط

وُورِي جثمانا السير أنطوني ماركنمور وابنه الأكبر الثَّرى حسبَ الأصول المُتبعة في مقبرة الأسرة بباحة كنيسة ماركنمور في ظُهر اليوم التالي، بحضور حشدٍ من أناسٍ توافدوا إلى القرية القديمة من كل أنحاء الريف المُحيط بها. فقد اجتمع حشدٌ من شتَّى الأطياف والمستويات الاجتماعية في الكنيسة نفسها وتحت أشجار الدردار والطقسوس العتيقة التي كانت تُشكِّل سياجًا شجريًّا حول جدرانها الرمادية، وحين انتهت آخر المراسم، انقسموا إلى جماعات، وراحوا يناقشون آخرَ المُستجدات المتعلقة بمصير آل ماركنمور. فبحلول ذاك الوقت، كان كلُّ مَن في المنطقة يعرف أنَّ جاي ماركنمور قد خلَّف وراءه ابنًا، وأنَّ هذا الابن قد ورِث اللقب والأملاك؛ لذا سارع العديد من المُتفرجين إلى باحة الكنيسة على أملِ رؤية البارونيت الجديد. لكنَّهم لم يرَوا سوى هاري ماركنمور واثنين أو ثلاثة من أقربائه، فيما لم تحضر أيٌّ من نساء العائلة، ولم يكن يُوجَد شيء لافت أو مُثير، وأُسدل الستار على هذا الفصل من الحدث الحزين في سكونٍ وهدوء، وحين رأى الحاضرون جاي ماركنمور للمرة الأخيرة موضوعًا بجوار جثمان أبيه، وبالقُرب من أسلافه الكثيرين الراحِلين، لجئوا إلى السؤال المُتكرر مرارًا: مَن كان المسئول عن نهايته المأساوية؟

لم يرَ بليك أيَّ شيءٍ من هذه المراسم الجنائزية. فلم يكن مُكترثًا بالمتوفَّى. كان شغله الشاغل هو أن يضع يدَيه على شخصٍ حي، قاتل جاي ماركنمور. كان ذلك الشخص في مكانٍ ما، ربما بعيد آنذاك، وربما أقرب إلى مُتناوله مما كان يعرف. كانت مطاردة صعبة، والطريد كان مُختفيًا تمامًا عن ناظريه والخيوط المؤدية إليه كانت ضئيلة وواهية، لكن بليك كان يبحث بحثًا دءوبًا في كل مكان، على أمل أن ينجح بالمثابرة، وبمساعدة القليل من الحظ، في اقتفاء أثره حتى يجده. وكان من المؤكد أنَّ المعلومة الجديدة الغريبة التي عرفها يوم أمس والمسدس الآلي الذي عثر عليه، بمصادفة من حُسن حظه، سيُساعدانه في

بحثه. وبكمٍّ هائل من الأفكار والتكهنات بشأن مسدس آلي، فيما كان يحمل واحدًا آخر، انطلق مُتجهًا إلى سيلكاستر حالَما أنهى فطوره المبكر، وبحلول الساعة العاشرة، كان في اجتماع ثنائي سري مع قائد الشرطة. روى له بالتفصيل كل المُستجدات التي حصل عليها منذ صباح اليوم السابق.

أنصت قائد الشرطة إلى كلامه وراودته التساؤلات. وشأنه شأن بليك، ركَّزت أفكاره على هذا السؤال: هل كان لهذه المعلومات التي كُشِفت عن زواج جاي ماركنمور السري قبل سبع سنوات أيُّ علاقة بمقتله؟ ناقش احتمالية ذلك وأرجحيته بعض الوقت، لكنه انتقل فجأةً إلى موضوعٍ أكثر صِلةً بالقضية.

إذ قال: «ولكن كل هذه مجرد تكهنات، مع أنها، كما تقول، ربما تحمِل قدرًا كبيرًا من المنطق. لكنَّ العثور على هذا المسدس الآلي، بالقُرب من مكان الجريمة، مسألةٌ مختلفة تمامًا. الآن، كيف وصل بحق السماء إلى داخل هذا الجُحر، أو الحفرة، أو أيًّا ما كانت؟»

قال بليك: «بل تقصِدُ كيف وصل إلى هناك إلَّا إذا كان قد وُضِع عمدًا!» وأردف قائلًا: «بالطبع رماه هناك شخصٌ أراد التخلُّص منه! فكيف كان من المُمكن أن يصِل إلى هناك بغير هذه الطريقة؟ لنفترِض أنَّ هذا الشخص كان القاتل الفعلي. لقد غادر مسرح جريمته، وعبر جانب التل من أمام وودلاند كوتيدج ...»

فاقترح قائد الشرطة قائلًا وهو يلقي نظرةً على خريطة كبيرة معلقة على الحائط بجوار مكتبه: «الأرجح أنه اتبع درب الأيكات الواقع خلفه. فهذا الطريق من شأنه أن يُخفيه عن الأنظار.»

وافقه بليك قائلًا: «حسنًا، عبر هذا الطريق إذن. على أي حال، وصل إلى الممر العميق. وبعدما نزل إلى هناك، قرَّر التخلُّص من سلاحه. يُوجَد كمٌّ هائل من الحفر في الحدَّين الجانبيَّين المرتفعَين هناك، خلف الحدَّين والشجيرات السفلية عند سفح الأسيجة الشجرية العالية. فأزاح الشجيرات جانبًا، ورمى سلاحه في واحدة من أعمق الحفر. وكان من الممكن أن يظلَّ قابعًا هناك زمنًا طويلًا، لولا كلب فرانسيمري.»

فقال قائد الشرطة: «حسنًا، لقد وجدتَه، على أي حال، والشيء التالي الذي ينبغي فعله هو معرفة هوية صاحبه. مهمة شاقة، ولكن يُمكن إنجازها.» وأمسك المسدس الآلي الذي كان بليك قد وضعه أمامه، ونظر إليه نظراتٍ تخمينية. وقال: «يبدو جديدًا تمامًا. أتساءل عمَّا إذا كان قد اشتُرِيَ من أي شخصٍ قريب من هنا؟»

أجاب بليك: «سأتحرَّى عن ذلك فورًا. أظنُّ من الممكن شراء مثل هذه الأشياء من سيلكاستر؟»

ردَّ قائد الشرطة قائلًا: «يُمكن شراء بنادق ومسدسات رياضية بكثرة. وأشياء من هذا القبيل بلا شك. فيُوجَد في المدينة اثنان أو ثلاثة من صنَّاع الأسلحة، ويُوجَد فيها بالطبع تُجار أدوات حديدية وتُجار معدات يبيعون أسلحة نارية.» والتقط مُجلدًا صغيرًا من بين كومة كتب مرجعية مرصوصة على مكتبه. وأوضح قائلًا: «هذا دليل محلي. ستجد أسماء وعناوين هنا.»

أنشأ بليك قائمةً بعدَّة أسماء، وانطلق في رحلةٍ استكشافية. زار نصف دزينة من التجار، الذين حالما عرفوا هويته ومِهنته، وجعلهم يتعهَّدون بالتزام السرية التامة، كانوا على أتمِّ استعداد للحديث على نحوٍ مُنفرد مع مُحقق لندني شهير. لكنهم لم يستطيعوا منحه أيَّ معلومات؛ إذ لم يكن أحد منهم قد رأى المُسدس الآلي من قبل. وهكذا لم ينَل بليك أيَّ مساعدة أو أي دلالة على أنه قد يحصل عليها حتى الزيارة الأخيرة. ومع ذلك، ففي هذه الزيارة، كان صاحب المتجر مُتشككًا بعض الشيء في أنه قد رأى هذا المسدس بالذات من قبل، في وقتٍ ما.

إذ قال: «أظن أننا ربما نكون قد بِعنا هذا المسدس لكني لستُ مُتيقنًا. ولكنْ لدي اقتراح؛ فلتأتِ إلى هنا في حوالي الساعة السادسة من مساء اليوم، أو في أيِّ وقتٍ بين السادسة والسابعة. وسأخبرك بالسبب: لديَّ متجر فرعي في تشيلهامبتون، ومديري موجود هناك اليوم، ولن يعود قبل وقتٍ مُتأخر من العصر. إذا كنا قد بِعنا هذا المسدس — كما أظن — فسيكون على دراية تامة بذلك، وبهوية المشتري؛ فهو أدرى مني بهذا القِسم. تعالَ مُجددًا في حوالي الساعة السادسة، وإن لم أكن موجودًا حينئذٍ، اسأل عن السيد ووترز، وأخبِره بما أخبرتني به. تستطيع الوثوق به.»

شكرَه بليك وغادر. كان يُوجَد في هذه الأثناء شرطي واقف على الجانب المقابل من الشارع يُحدق حوله، فوقعت عيناه على بليك وعبر الشارع مُتجهًا نحوه.

قال حين وصل إليه: «لقد أرسلني القائد بحثًا عنك يا سيد بليك. إنه يسألك، هل تستطيع العودةَ إلى مكتبه؟ يُوجَد هناك شاب يطلُب لقاءك. قال إنَّ الأمر يتعلق بقضية ماركنمور هذه.»

هُرع بليك عائدًا إلى مركز الشرطة، وإلى غرفة قائد الشرطة. كان الشاب الذي تحدَّث عنه الشرطي جالسًا على كرسيٍّ بجوار المدفأة وهو يراقب قائد الشرطة، الذي كان يقرأ بعض الوثائق ويوقِّع عليها. رأى بليك أنَّ مظهره كان يُوحي بأنه شاب وديع ودمث جدًّا، وكان واضحًا أنه ذكي بعض الشيء. كان له جبهة عالية عريضة جدًّا، وشعر كثيف

أشعث طويل مُصفَّف منها إلى الوراء، وعينان كبيرتان لامعتان بعض الشيء، وفم عريض مرسوم بدقة، ومظهر سريع التوتُّر في العموم. لمَحَتْ عينا بليك الحادَّتان كل هذا في نظرةٍ خاطفة، ولاحظ أيضًا أنَّ معطف الشاب الأسود كان مُلطخًا بشدة من الأمام، كما لو كانت لديه تلك العادة السيئة المُتمثلة في سكب الأشياء عليه، وأنَّ أصابعه الطويلة ذات الشكل الرشيق الانسيابي أيضًا كانت مُلطخة؛ بل كانت يداه من المعصمين إلى الأنامل مُشوَّهتين ببقع غريبة خضراء وبنفسجية وقرمزية. ارتأى المُحقق أنه شاب غريب الشكل، لكنه ليس شابًّا عاديًّا.

وقَّع قائد الشرطة على ورقة كبيرة زرقاء، ودفعها بعيدًا عنه، ثم وضع القلم من يده واستدار بسرعة في كرسيه. ولوَّح بإحدى يديه نحو الشخص الجالس بجوار المدفأة.

قال ناظرًا إلى بليك: «لقد أتى هذا الشاب ليقول إنه قرأ عن قضية ماركنمور في الصحف، وإنه يظن أنه يستطيع أن يُدلي ببعض المعلومات عنها. انتظرتُ مَجيئك قبل أن أسمع ما سيقوله.» ثم أضاف مُومئًا برأسه إلى الزائر: «الآن، تستطيع البدء!» وأردف قائلًا: «هذا المُحقِّق الرقيب تشارلز بليك من قسم التحقيقات الجنائية، وهو مَن يتولى هذه القضية. تستطيع أن تُخبرني وإياه بكلِّ ما تشاء في سرية وخصوصية. ولكن أولًا وقبل أيِّ شيء، هلَّا تُعرِّفنا بنفسك؟!»

نظر الزائر إلى كليهما بالتناوب، وتحدَّث بنبرةٍ هادئة رزينة.

أجاب قائلًا: «اسمي سبيندلر، يوستاس سبيندلر، أعمل مساعدًا في شركة «موور آند سميث» للصيدلة وتجارة الأدوية، في مدينة فارشام.»

قال قائد الشرطة: «أعرفها؛ شركة ممتازة من صفوة الشركات. وعريقة.» ثم التفت إلى بليك، الذي كان جالسًا بالقُرب منه، وهمس له بملاحظة جانبية قائلًا: «هذا هو الرجل الذي حدَّثنا لانسبري عنه. الرجل الذي كان لديه سرٌّ تجاري يريد بيعه.» ثم التفت مُجددًا إلى الزائر. وتابع قائلًا: «حسنًا يا سيد سبيندلر، سأسعد بسماع أيِّ شيء تستطيع قوله.»

سأله سبيندلر قائلًا: «سيكون هذا في سِريةٍ تامة بالطبع.» وأضاف: «فيما بيننا فقط، في الوقت الحالي، على أيِّ حال.»

فقال قائد الشرطة مُصدقًا على كلماته: «كما قُلتَها بالضبط. حاليًّا، على أي حال.»

فتابع سبيندلر الحديث بإيماءة موافقة: «حسنًا، ما أردتُ إخباركما به كان، وما زال، هو الآتي؛ ويُمكنني القول إنني جئتُ إلى هنا لأريح نفسي بقدْر ما جئتُ لأُدلي بمعلومات. إنني، كما قلت، صيدلي مساعد، مساعد مُؤهَّل؛ أي إنني اجتزتُ جميع امتحاناتي بنجاح.

على مدار آخر عام أو اثنين، كنتُ أُمضي وقت فراغي في إجراء تجارب لتحضير أصباغ مُخلَّقة صناعيًّا. أظن أنكما أيها السيدان تُدرِكان أنَّ صبَّاغِينا في هذا البلد يعتمدون حتى الآن اعتمادًا شبه تامٍّ على ألمانيا في الحصول على احتياجاتهم من أصباغ الأنيلين ...»

فقال قائد الشرطة بجدية: «أجل!» واستطرد قائلًا: «من المعروف تمامًا يا سيد سبيندلر أنَّنا مُتخلفون تخلفًا مُخزيًا في هذا المجال، على ما أعتقد!»

قال سبيندلر مصدقًا على ذلك: «بالضبط، نحن كذلك. حسنًا، لأوضح المسألة باختصار، لقد اكتشفتُ سرًّا مُعينًا متعلقًا بتحضير صبغة مُخلَّقة قيِّمة؛ سرًّا مُهمًّا للغاية. وحين صرتُ مُتقنًا له تمامًا، أردت بطبيعة الحال جني بعض الأموال منه. لذا نشرتُ إعلانًا في صحيفة «ذا تايمز» أوضحتُ فيه ما أريد بيعه. ردَّ السيد جاي ماركنمور على إعلاني. وبناء على رسالته، ذهبت لألقاه في مكتبه في فولجريف كورت بلندن، بالقُرب من شارع كورنهيل. أخبرته بكل شيء عن اكتشافي، وسألني عن الثمن الذي أردتُهُ مقابل سرِّي. أنا رجل فقير، ولكنْ لدي أفكار جيدة، وأريد أن أحقق أشياء مُعيَّنة، أحدها أن أشتري شركة صيدلي مُصنِّع أستطيع الحصول عليها بسعرٍ معقول جدًّا؛ صحيح أنها ما زالت شركة صغيرة غير متطورة، لكنها تستطيع تحت إشرافي تحقيق تطورات هائلة. فكرتُ في الأمر مليًّا، وأخبرت السيد ماركنمور بأنني أريد ثلاثة آلاف جنيه نقدًا. ثم سألني عمَّا إذا كنتُ أستطيع ائتمانه على أوراقي — التي تحمل وصفةَ سرِّي الكيميائية، كما تعلمان — كي يتسنَّى له عرضها على خبير. فوافقتُ بشرط، أن يكون الخبير شخصًا أستطيع الوثوق به. ووقع الاختيار على البروفيسور السير توماس هودجز-ويلكينز، الأستاذ بجامعة كامبريدج، والكيميائي الشهير. بعدها أعطيتُ السيد ماركنمور الأوراق. وبعد ذلك بأسبوع، بعث إليَّ برسالة يقول فيها إنه سيشتري بالسعر الذي حددتُه إذا استطاع أن يُقنع مموِّلَين اثنين آخرَين بمشاركته في هذا المشروع. فرددتُ عليه برسالة وطلبتُ منه أن يعطيني المال نقدًا، إذا قرَّر الشراء. طلبتُ ذلك؛ لأنني كنتُ أنوي أن أدفع ثمن الشركة التي أشرتُ إليها نقدًا، وأردتُ ألَّا يعرفَ أيُّ أحدٍ كمَّ ما أملكه من المال، لا مصرفيون ولا أي أحد، كما تفهمان. ردَّ بالموافقة، وقال إنه سيزورني في فارشام، في غضون بضعة أيام على الأرجح، ويُسلمني النقود.» اختتم سبيندلر كلامه وهو يمد يديه النحيفتَين قائلًا: «وبعدئذٍ، لم أسمع أي شيء حتى قرأتُ خبر هذه الجريمة! وما أريد معرفته هو: أين أوراقي؛ سِرِّي القيِّم؟»

تمتم قائد الشرطة بملاحظةٍ جانبية لبليك، قائلًا: «وجنيهاتك الثلاثة آلاف!» ثم قال بصوت واضح: «حسنًا يا سيد سبيندلر، يُمكنني أن أؤكد لك أننا لم نعثُر على أوراق

علمية كتلك التي تحدثت عنها في جثة السيد جاي ماركنمور؛ لدَينا كلُّ ما عُثر عليه. ولكن هلا تُخبرني بشيء عن تركيبتك هذه؟ لنفترِض أنها وقعت في يدِ شخصٍ يعرف ماهيتها، أقصد يعرف فحواها، هل ستكون نافعة؟»

صاح سبيندلر بصوتٍ عالٍ قائلًا: «نافعة؟» وأضاف: «أعتقد ذلك! عجبًا، بالطبع، إنها تصف بالضبط كيفية تصنيع هذه الصبغة تحديدًا!»

سأله قائد الشرطة قائلًا: «إذن، سوف تستحق من أيِّ شخصٍ أن يتكبَّد عناء سرقتها؟»

فصاح سبيندلر: «تستحق؟» واستطرد قائلًا: «يا إلهي! ألم أُخبرك بأنَّ ماركنمور كان سيعطيني ثلاثة آلاف جنيه مقابل الحصول عليها؟»

«مقابل الأوراق فقط؟»

«السر مكتوب على الورقة — ورقة — مجرد ورقة رسائل عادية! كان معها بعض الأوراق الأخرى بالطبع، مذكرات. ولكن إذا وقعت الورقة في يدَي ... في يدَي أيِّ شخص، فسيكون سرِّي قد ضاع بالطبع! هل أنت مُتيقن من أنها لم تكن بحوزة جثة ماركنمور؟ مجرد ورقة! تبدو كوصفة طبية.»

وحينئذٍ أدركا لماذا أتى السيد يوستاس سبيندلر. ليس ليُدلي بمعلومات، بل ليعرف مُستجدات. ولم يكن لديهما أيُّ مُستجدات يستطيعان إبلاغه بها.

قال بليك: «لم تكن تُوجَد أوراق كهذه بحوزة ماركنمور. لكن ربما تكون موجودة في مكتبه بلندن، أو في مسكنه الخاص. سنفعل ما نستطيع فعله من أجلك يا سيد سبيندلر، وفي أقربِ وقتٍ ممكن.»

ولكن حين غادر سبيندلر، مهمومًا بشدة ومُستاء، التفت بليك إلى قائد الشرطة وهزَّ رأسه.

وقال: «نعرف ممَّا قاله لنا لانسبري أنَّ تلك الأوراق التي تحدَّث عنها هذا الشاب كانت بحوزة ماركنمور في تلك الليلة في نزل سيبتر!» وأضاف: «من المؤكد أنها كانت بحوزته؛ لأن نقاشهم آنذاك كان عنها وعن السِّر والسعر. أغلب الظن أنَّه كان يحمل بحوزته التركيبة الكيميائية ورأي هذا البروفيسور، الذي لا أتذكر اسمه، بشأنها. في هذه الحالة، فمن المؤكد أنَّ الأوراق كانت بحوزته حين غادر نزل سيبتر؛ وضعها كلَّها معًا مع الأوراق النقدية التي تبلغ قيمتها ثلاثة آلاف جنيه. وأخذها قاتله، أيًّا مَن كان، مع الأوراق النقدية!»

قال قائد الشرطة: «يُوجَد احتمالٌ آخر. لا شك أنَّ الأوراق النقدية كانت بحوزته. لكنه ربما سلَّم التركيبة الكيميائية ورأي الخبير إلى أحد شريكَيه.»

فقال بليك: «ليس إلى لانسبري. كان سيُخبرنا بذلك.»

قال قائد الشرطة بنبرةٍ ذاتِ مغزًى: «كان معهما رجل ثالث. فون إيكهاردشتاين.»

ذرع بليك الغرفة جَيئةً وذهابًا مرتَين أو ثلاثًا، منهمكًا في التفكير.

ثم صاح فجأة: «ليتنا استطعنا اتخاذ إجراءات أكثرَ بشأن ذلك!» وأضاف: «لقد اختفى هذا الرجل، ولم نفعل أيَّ شيءٍ لتَعقبِه والعثور عليه. ففي النهاية، كيف لنا أن نتيقن من أنه، وإن كان رجلًا ثريًّا حقًّا كما هو معروف عنه، لم يطلق الرصاص على جاي ماركنمور ولم يسرق المال والوصفة الكيميائية لأغراض شخصية؟»

وافقه قائد الشرطة قائلًا: «مُحتمَل!» واستطرد قائلًا: «ولكن بخصوص تعقُّبه، فقد فعلنا كلَّ ما يسعنا فعله هنا، وتأكَّدنا من أنه لم يظهر في أيٍّ من الأماكن التي عادة ما يتردَّد عليها في لندن، أو حي المال. ولكنه اختفى تمامًا بلا أي أثر! وفجأة أيضًا! السؤال الآن: لماذا؟»

أخذ بليك يجوب الغرفةَ جَيئةً وذهابًا مرةً أخرى، مُنهمكًا في التفكير بإمعانٍ أشدَّ.

ثم قال فجأة: «أتساءل عمَّا إذا كانت السيدة تريزيرو تعرف أكثرَ ممَّا أخبرَتنا به!» وأردف: «لدي قناعة — أو شيء أشبه بتخمينٍ حدسي — بأنَّها تُخفي شيئًا.»

ردَّ قائد الشرطة قائلًا: «يُراوِدني ظنٌّ كهذا طوال الوقت. أنا شخصيًّا لا أُصدِّقها إطلاقًا!»

فقال بليك بعد مزيدٍ من التفكير: «حسنًا، نستطيع فعلَ شيءٍ ما.»

«ما هو؟»

أجاب بليك: «نذهب إلى هناك، كِلانا، عصر اليوم. ونضعها تحت الضغط! نخدعها! نجعلها تتوهَّم أننا نعرف شيئًا ما. تعالَ معي، واترك لي مهمة الحديث معها. سأنتزِع منها معلومةً ما.»

وافقه قائد الشرطة قائلًا: «مُمتاز، لنذهب بعد الغداء!» وأضاف: «هذه فرصة!»

كانت السيدة تريزيرو وحدَها في مخدعها في وقتٍ متأخرٍ من عصر ذاك اليوم، ولم تتفاجأ أو تتضايق حين أبلغتها وصيفتها دافي هاليويل بمجيء قائد الشرطة والسيد بليك. فمن المُرجَّح أنَّ قائد الشرطة كان زائرًا مُستساغًا جدًّا بصفته ضابطًا عسكريًّا سابقًا من

ذوي الرُّتب، فيما كان بليك شابًّا وسيمًا وشخصيةً مُثيرةً للاهتمام. رحَّبت بكليهما مُبديةً بعض السرور.

قالت وهي توجههما بإشارةٍ منها إلى كرسيَّين قريبَين من كرسيها: «أرجو أن تكونا قد أحضرتما لي خبرًا ما عن البارون فون إيكهاردشتاين. من المُفجع تمامًا حقًّا أنني لم أسمع أيَّ خبر عنه حتى الآن، مع أنني مُتيقنة من أنني فعلتُ كلَّ ما بوسعي للعثور عليه في هذه المنطقة؛ إذ أرسلتُ فِرَق بحث منظمة وما إلى ذلك. هل أبلغك شرطيُّوك بأيِّ معلومات؟»

فأجاب بليك قائلًا: «الكثير يا سيدة تريزيرو!»

انتفضت السيدة تريزيرو ورمقَتِ المُحقِّق بنظرةٍ حادة. فلم تكن هذه هي النبرة التي كان يُحادثها بها في زيارته السابقة؛ إذ كان صوته في هذه المرة رسميًّا وحازمًا وشبه مُتوعِّد؛ كان يتحدَّث كرجلٍ ذي سطوة على مَن يُخاطبه. وبعد نظرتها الحادة إليه، اعتلاها قليل من الشحوب؛ كانت مُدركةً آنذاك أنَّ العيون الذكورية الأربعة تُحدِّق إليها، ليس إعجابًا، بل بشيءٍ أشبهَ بتدقيق صارم.

قالت مُتلعثمة: «ماذا ... ماذا تقصد؟» وأضافت: «ما هو ... ما الذي حدث؟»

فأجاب بليك: «ما حدث هو الآتي يا سيدة تريزيرو. نحن الآن نعرف ما هو أكثر بكثيرٍ ممَّا يبدو أنكِ تظُنِّينا نعرفه عمَّا فعله فون إيكهاردشتاين مُؤخرًا. لقد كان فون إيكهاردشتاين ثالث الرجال الثلاثة الذين التقوا في نزل سيبتر في ليل الإثنين الماضي؛ أوه، لا جدوى من اعتراضك يا سيدة تريزيرو! لقد كان كذلك بالفعل! كان هو مَن ذهب إلى هناك في الثانية صباحًا، و — لتضعي هذا في حسبانك! — كان آخرَ رجل شُوهِد معه جاي ماركنمور حيًّا!»

أطلقت السيدة تريزيرو صيحةً خافتة، وكان واضحًا أنها صيحةُ ذهول حقيقي.

صاحت قائلة: «لا، لا!» وأردفت: «لا أستطيع أن أُصدِّق ...»

فقال بليك مُتصنعًا اللامبالاة بكل إتقان: «ما تُصدقينه ليس مُهمًّا إطلاقًا. فنحن مُتيقنون من ذلك! والآن يا سيدة تريزيرو، كل قلقك المُصطنع هذا بشأن اختفاء فون إيكهاردشتاين إثر تعرُّضه لحادثٍ ما مَحضُ تظاهر زائف! أؤكد لكِ أننا على دراية ببعض الأشياء. أصغي إليَّ، أنتِ لم تكوني صريحةً معنا حتى الآن، وتُعرِّضين نفسكِ لخطرٍ داهم. فلتُفصحي عما تُخفينه يا سيدة تريزيرو! تعرفين جيدًا جدًّا أنَّ فون إيكهاردشتاين غادر بيتك في ساعةٍ مُتأخِّرة من الليلة قبل الماضية، عمدًا؟ فأين هو الآن؟»

انتظر الإجابةَ بلهفةٍ أسرَّها في نفسه، وحتى في ذلك الحين كان مُتشككًا في أنَّ السمكة قد لا تبتلع الطُّعم. لكن السيدة تريزيرو تحدَّثت، بنبرةٍ خافتة، بعدما نظرت نظرةً شبه مذعورة إلى وجه قائد الشرطة العابس.

«في باريس، على ما أعتقد!»

سألها بليك: «كيف رحل من هنا؟»

«انتظر حتى خيَّم السكون التام، ثم مشى إلى كارفانت، واستقلَّ سيارةً سارت به عبر الطريق الساحلي إلى نيوهافن، ليستقلَّ القارب المُتجه إلى دييب في الصباح الباكر.»

«ولماذا رحل هكذا؟»

أجابت السيدة تريزيرو بصوتٍ خفيض جدًّا، قائلة: «قال إنه سيفعل ذلك لأنه أراد ألَّا يُورَّط في التفاصيل الدنيئة لجريمة قتلٍ فظة، وإنه سيُسافر إلى أوروبا ريثما تقبضون على المجرم الحقيقي وتُحسَم المسألة.»

قام بليك من كرسيه، وأشار في صمتٍ إلى رفيقه كي يتبعه. وقامت السيدة تريزيرو أيضًا، شاحبة ومُرتجفة.

همست قائلة: «أنت ... أنت لا تظن أنه قتل جاي؟» وأضافت: «بالتأكيد لا تقصد هذا؟»

أجاب بليك قائلًا: «في الوقت الحالي لا نقصد أيَّ شيء.» وانصرف. ولكن حالما خرج من بيت الأرملة، التفت إلى قائد الشرطة.

قال له هامسًا: «أنت بمفعولٍ سحري!» وأضاف: «حسنًا، ما الخطوة التالية؟»

ثم تذكَّر صانع الأسلحة في سيلكاستر، وعاد مُسرعًا إلى هناك في عربة قائد الشرطة الصغيرة الخفيفة.

قابله صانع الأسلحة بينما كان يدلف إليه عند باب متجره، وتنحَّى به جانبًا.

قال له هامسًا: «أحطتُ بما تريد معرفته عن ذاك المسدس الآلي. نحن مَن بِعناه! منذ حوالي ثلاثة أشهر. بعناه للسيد هاري ماركنمور، من بيت ماركنمور كورت. أتريد أن ترى قيدَه في دفتر الحسابات؟»

الفصل العشرون

أقاويل في القرية

كان قائد الشرطة قد دخل متجر صانع الأسلحة خلف بليك مباشرة، وسمع المعلومة المهموس بها. ولمَّا لم يكن مُعتادًا التحفظَ في كلامه والحفاظ على جمود تعبيراته مثل بليك، تفوَّه بكلمةِ ذهولٍ كبحها بالكاد. لكن بليك لم يقُل شيئًا، واكتفى بإبداء إيماءة موافقة على اقتراح صانع الأسلحة، فذهب الثلاثة معًا إلى الجزء الخلفي من المتجر، حيث كان شابٌّ أنيق المظهر مُنشغلًا بدفاتر الحسابات.

قال صانع الأسلحة مُعرِّفًا مدير متجره: «مدير المتجر، السيد ووترز. ووترز، هلا تُطلِع هذين السيدين على ذاك القيد المُسجَّل الذي بحثنا عنه ووجدناه منذ بعض الوقت.»

أخرج ووترز دفترًا للحسابات اليومية، وقلَّب في صفحاته، ومرَّر أصابعه على الأسطر، وأشار بصمتٍ إلى قيدٍ مُسجَّل في الدفتر وبعض الأرقام. فنظر إليها بليك نظرةً سريعة.

ثم التفت إلى المدير وسأله: «هل تتذكَّر أنك بِعتَ مُسدسًا آليًّا من طراز ويبلي-فوسبيري إلى السيد هاري ماركنمور؟» وأضاف: «أقصد، هل بِعتَه بنفسك؟»

أكَّد ووترز ذلك قائلًا: «بِعتُه. أتذكَّر ذلك جيدًا جدًّا. أراد مُسدسًا، فرشَّحتُ له ذلك المسدس.»

سأله بليك: «هل تستطيع أن تتعرَّف على ذاك المُسدس إذا رأيتَهُ مجددًا؟»

أشار ووترز إلى بعض الأرقام والحروف في القيد.

وقال: «هذا هو الرقم.»

عرض عليه بليك السلاح الذي كان قد التقطه من تحت قدَمَي كلب الإيرديل المُنشغلتَين بالحفر.

وسأله: «أهذا هو؟»

قَلَب ووترز المُسدس الآلي في يده، وتفحَّص الأرقام والحروف المدموغة على الحلية المعدنية.

وأجاب قائلًا: «هذا هو!» وأردف: «أوه، أجل، ولكن كان ينبغي أن أعرفه مُجددًا دون الحاجة إلى ذلك.»

قال بليك: «ألا يُوجَد شكٌّ في ذلك؟» وأضاف: «ولا احتمال لوجود أيِّ خطأ؟ هل أنت مُتيقِّن من أنَّ هذا هو المسدس الذي بِعْتَه، في ذاك التاريخ، إلى السيد هاري ماركنمور؟»

فأجاب ووترز بثقة: «ليس لديَّ أدنى شك. ومُستعد للقَسَم على ذلك!»

أعاد بليك المُسدَّس الآلي إلى جيبه، وأشاح بوجهه بعيدًا.

وقال: «آمُلُ ألَّا يكون ذلك ضروريًّا يا سيد ووترز. ومع ذلك …» وهنا نظر إلى صانع الأسلحة — الذي كان هو وقائد الشرطة واقفَين بجوارهما يشاهدان ويستمعان — «احفظا كلَّ ذلك طيَّ الكتمان في الوقت الحالي، ولا تُخبرا به أيَّ أحد. ربما يجِب أن أخبركما، بيني وبينكما، بأنني وجدتُ هذا المُسدَّس واقعًا في مكانٍ ما، على نحوٍ بريء تمامًا، وربما يكون صاحبه قد فقده. لذا، في الوقت الراهن، التزِما الصمتَ التام!»

أومأ صانع الأسلحة ومديره إيماءةً مُتفهِّمة، وخرج بليك وقائد الشرطة إلى الشارع، ومشَيا مسافةً قصيرة صامتَين.

همس بليك أخيرًا، قائلًا: «ها هي عقدة أخرى!» وأضاف: «وأظن أنَّه من الممكن أن يكون هاري ماركنمور قد أردى أخاه قتيلًا بالرصاص وتخلَّص من هذا الشيء في الممرِّ العميق! مُحتمل! لكني أرى أنَّ ذلك مُستبعَد تمامًا! ومع ذلك، سأتأكَّد من هذا قريبًا.»

سأله قائد الشرطة: «كيف؟»

فأجاب بليك قائلًا: «وفقًا لشهادة الطبيب، قُتِل جاي ماركنمور بالرصاص في منخفَض ماركنمور هولو في حوالي الساعة الرابعة صباحًا. وكان هذا هو الوقت نفسه تقريبًا الذي تُوفِّي فيه السير أنطوني ماركنمور في قصر ماركنمور كورت، وأتصوَّر أنَّ ابنه الأصغر كان بجوار فراشه آنذاك. لا يمكن أنَّ يكون هاري ماركنمور موجودًا في مكانَين في آنٍ واحد. ولكن، كيف وصل هذا المسدس الآلي إلى داخل جُحر الغرير ذاك؟ يجب معرفة إجابة هذا السؤال، بطريقةٍ أو بأخرى! لأنه بلا شك قد رُمِيَ هناك بأيدي شخصٍ أراد التخلُّص منه.»

وفجأة، وضع قائد الشرطة إحدى يدَيه على ذراع المُحقِّق، وأشار بيده الأخرى عبر الجانب الآخر من الشارع.

صاح قائلًا: «ها هو بالضبط الرجل الذي سيكون على درايةٍ بما كان هاري ماركنمور يفعله، ومكان وجوده بالضبط ليلة وفاة أبيه!» وأضاف: «لنعبُر الشارع!»

نظر بليك إلى الاتجاه المُشار إليه، ورأى براكسفيلد. كان كبير الخَدَم المُسن، الذي بدا جادًّا جدًّا وشديد الاهتمام بالتفاصيل في ثياب الحِداد التي كان يرتديها، خارجًا للتوِّ من متجر صيدلي، حاملًا في يدَيه صُررًا صغيرةً متنوعة. رفع عينَيه مُجفلًا حين دنا منه قائد الشرطة وبادره بالكلام.

قال قائد الشرطة بنبرةٍ ودية: «طاب مساؤك يا براكسفيلد. كيف حالك في هذه الأوقات العصيبة؟»

هزَّ براكسفيلد رأسه.

وأجاب قائلًا: «إنها عصيبة حقًّا يا سيدي!» وأضاف: «لقد شعرتُ في هذا الأسبوع يا سيدي كما لو أنَّ الدنيا انقلبت رأسًا على عقب؛ دُنياي أنا بالأحرى! لم أشهد أوقاتًا كهذه قَطُّ يا سيدي، ولم أتوقَّع أن أشهدها!»

فقال قائد الشرطة بتعاطُف: «من المؤكد أنك عانيتَ متاعبَ كثيرةً في ماركنمور يا براكسفيلد. لا شك أنها فترةُ اضطرابٍ وقلق شديدَين على كلِّ مَن كان يعيش حياةً هادئة قبل ذلك، مثلك حسبما أظن.»

هزَّ براكسفيلد رأسه، وبدا في حالةِ حِداد كثيابه.

ردَّ قائلًا: «لا تؤلِمني المتاعِب يا سيدي ولا الهموم، وإن كانت سيئةً جدًّا، بقدْر تألُّمي من المفاجآت المُتوالية!» واستطرد قائلًا: «إنها تقع واحدةً تلو الأخرى، حتى صار رأسي المسكين يتألَّم بشدة تحت وطأتها! مجيء السيد جاي، ثم وفاة أبيه، ثم تلك الجريمة الشنعاء، ثم سماع أنَّ ربيبتي مُتزوجة سرًّا من السير هاري، حسبما كنَّا نظنه حال وراثته اللقب، ثم إحضار هذا الصبي الصغير وتقديمه بوصفه الوريثَ الحقيقي، وكل الأحداث الأخرى؛ عجبًا يا سيدي، ويكأنَّ المرء صار لا يدري ما يُمكن توقع حدوثه تاليًا!»

قال قائد الشرطة: «آه، حسنًا، سيرتاح بالك ويزول ألُمك بمرور الوقت يا براكسفيلد. من المؤكد أنَّ الصبي الصغير كان مُفاجأةً صاعقة. كيف استقبل السيد هاري هذا التغيُّر المفاجئ في مصيره؟»

أجاب براكسفيلد قائلًا: «استقبل السيد هاري والآنسة فالنسيا الأمرَ بأفضلِ طريقةٍ مُمكنة. لقد حظي السيد الصغير — السير جاي بالطبع — بأدفأ تَرحاب؛ إذ اعتنى به عمُّه وعمَّته كما لو كانا يعرفانه منذ أن كان في المهد صبيًّا. فهذا الشعور العائلي يا سيدي قوي في مِثل بيوتنا!»

سأله قائد الشرطة رامِقًا بليك بنظرةٍ جانبية سريعة تكاد تكون غير ملحوظة: «أفترض أن السيد هاري كان مُغرمًا بأبيه، السير أنطوني؟» وأضاف: «وأعتقد أنه كان مُواظبًا جدًّا على العناية به وخدمته؟»

أجاب براكسفيلد: «كان السيد هاري، يا سيدي، ابنًا بارًّا للغاية بأبيه، لا سيما مع اقتراب أجَل السير أنطوني. كان يُلازِم جوار فراشه طوال الوقت، ولم يكن يتركه قَط، إلا حين كانت الآنسة فالنسيا تحلُّ محله.»

فسأله قائد الشرطة، وقد وصل أخيرًا إلى السؤال الذي أراد بليك معرفةَ إجابته: «أكان معه حين مات؟»

فقال براكسفيلد: «أجل يا سيدي!» واستطرد قائلًا: «كان السيد هاري مع سيدي الراحل طوال تلك الليلة، منذ لحظة رحيل السيد جاي حتى وفاة السير أنطوني في أثناء نوبة نومٍ خفيف. أجل يا سيدي، لم يُقصِّر السيد هاري إطلاقًا في معاملته لأبيه، وكنتُ أتمنَّى يا سيدي أن يكون هو وريث اللقب والأملاك. لكني أعتقد أنَّ القانون يجب أن يأخُذ مجراه يا سيدي، كما تعرف أفضل منِّي بالطبع؛ وبذلك تُصبح ماركنمور كلها واللقب القديم مِلكًا للصبي الصغير! تغيراتٌ غريبة حقًّا يا سيدي، ولكن هلَّا تسمحان لي بالرحيل أيها السيدان؛ فأنا أرى سائسنا ينتظرني في عربتنا الصغيرة، ولا يزال هناك بضعة أشياء أُخرى عليَّ شراؤها.»

رحل كبير الخدَم العجوز مُسرعًا بعد انحناءةٍ مُهذبة، والتفت قائد الشرطة إلى بليك.

وهمس قائلًا: «هذا يدحض أيَّ شكٍّ إزاء احتمالية ارتكاب هاري ماركنمور تلك الجريمة. لقد قضى تلك الليلة بجوار فراش أبيه. لذا من المُستحيل أنَّه كان في مُنخفض ماركنمور هولو آنذاك.»

قال بليك: «لم أظن قَطُّ أنه كان هناك. لكني أظنُّ أنَّ مُسدسه الآلي كان هناك. والآن، سأعود إلى سيبتر لأتناول عشائي الذي أحتاج إليه بشدة، وأفكر قليلًا.»

قال قائد الشرطة: «غدًا يوم الأحد.»

ردَّ بليك قائلًا: «أعرف ذلك. ولأنَّني أعتقد بناء على سببٍ وجيه أنَّ الأحد يوم مُناسب جدًّا للقيل والقال بين أفراد المجتمعات الريفية، أعتزِم سماع ما يقوله أهالي ماركنمور القرويون هؤلاء. أتصوَّر أنهم يقولون الكثير فيما بينهم.»

فسأله قائد الشرطة ضاحكًا: «وكيف ستستطيع سماعهم؟ أنت غريب عنهم!»

أجاب بليك قائلًا: «بسهولة. فكل القيل والقال قي القرية يبدأ أو ينتهي في حانة القرية. أظنني سأسمع أشياءَ لا حصر لها في سيبتر.»

وافقه قائد الشرطة قائلًا: «هذه إحدى طُرق معرفة المعلومات، بالتأكيد. حسنًا، سواء أكان الأحد أم لم يكن كذلك، أبلِغني يا بليك إذا سمعتَ أيَّ شيءٍ وثيق الصلة بالقضية حقًّا.»

وعده بليك بذلك واتَّجه إلى ماركنمور، وفي تلك الليلة، ولغرضٍ مُحدَّد في نفسه، صفَّى ذهنه تمامًا من عمله، وقضى أمسيةً هادئة في قراءة كتب تاريخ القرية المحلي والسجلَّات الإرشادية المحلية التي كان قد اشتراها من سيلكاستر في بداية إقامته في نزل سيبتر. كانت هذه الكتب تحوي قدرًا كبيرًا من المعلومات المُثيرة للاهتمام، وقبل أن يخلُد إلى النوم، صار يعلم الكثير عن حي ماركنمور وآل ماركنمور، الذين كانت شجرة سلالتهم الطويلة والمتشابكة مذكورة بالكامل في أحد المُجلدات. وفي صباح اليوم التالي، بقي في فراشه حتى وقتٍ مُتأخِّر، واسترخى ذهنيًّا وجسديًّا، ولم يفكِّر في مشكلته المِهنية إطلاقًا إلا بعد غدائه الذي تناوله في منتصف النهار. وذُكِّر بها أول مرة في هذا اليوم حين كان يتمشَّى عبر الشارع الهادئ في منتصف عصر يوم الأحد الساكن، وصادف بيني كريبس، خادم الكنيسة، الذي كان جالسًا على دكة حجرية أمام البوابة المسقوفة لباحة الكنيسة يُدخِّن غليونه. لاحت في عين بيني نظرةُ دعوةٍ، فجلس بليك بجواره.

قال له: «ترتاح قليلًا من أعمال يوم الأحد الشاقة، هاه؟» وأضاف: «هذا مكان جميل لتُدخِّن غليونك فيه.»

أجاب بيني: «هذه عادتي. دائمًا ما أُدخِّن غليونًا أو اثنين من التبغ هنا في عصر يوم الأحد، كل سنة، سواءٌ أكان الجوُّ ممطرًا أم معتدلًا. أواظب على ذلك. إذا كان الجو معتدلًا، أفعل ذلك على هذه الدكة الحجرية العتيقة؛ أمَّا إذا كان مُمطرًا، أفعلُه تحت هذه البوابة المسقوفة الموجودة هناك. وأظلُّ أتأمَّل بينما أُدخن.»

سأله بليك: «في ماذا؟»

أجاب خادم الكنيسة قائلًا: «موضوعات مختلفة في أوقاتٍ مختلفة. إذا كنت تريد أن تعرف طبيعة تأمُّلاتي بالضبط هذه المرة، فبوسعي إخبارك بأنَّني كنتُ أُفكِّر فيك حين جئتَ!»

فقال بليك: «فيَّ أنا، هاه؟» وأضاف: «وما الذي يستدعي التفكير فيَّ؟»

فأجاب بيني قائلًا: «كنتُ أُفكِّر في أنك إذا كنتَ تسعى إلى اكتشاف حقيقة هذه الجريمة، فأمامك أخدود طويل يجب أن تشقَّه أولًا!» وأردف: «وتربة صلبة جدًّا يجب أن تحرثها! أعتقد أنك لم تُحرِز تقدُّمًا كبيرًا منذ آخر مرة رأيتُك فيها؟»

اعترف بليك قائلًا: «لا!»

فأخرج خادم الكنيسة غليونه الفخاري الطويل من بين شفتيه، وفرك أنفه بجذع الغليون مُنهمكًا في تفكيرٍ عميق.

ثم قال بعد سكوتٍ لحظي: «حسنًا!» واستطرد قائلًا: «يُعتقَد أنني أحكم مِن أيِّ رجلٍ آخرَ هنا في هذه الأبرشية، وأنا أظن أنَّ أصلَ كُلِّ هذا اللغز امرأة، بكل تأكيد!»

صاح بليك قائلًا: «امرأة؟»

واصل بيني قائلًا: «حسنًا، ربما عدَّة نساء. امرأة واحدة أو نساء عديدات، لا فارق! فالنساء سمٌّ! ما مِن شرٍّ وقع منذ أن خُلِقَت هذه الدنيا القديمة من العدم، كما ذُكِر في الإصحاح الأول من سِفر التكوين، إلا وكانت النساء أصلَه! أؤكد لك يا سيدي أنَّ النساء هُنَّ مَن يُسبِّبن كل الأذى! الرجال حيوانات مُسالِمة، لكن النساء مخلوقات مُربكة ومُثيرة للمتاعِب.»

فسأله بليك: «ماذا ستقول زوجتك إذا سمعتك؟»

ردَّ بيني: «لستُ مُتزوجًا!» وأضاف: «هذا لا يعني أني لم أتزوَّج قط! لقد تزوَّجتُ ثلاث نساء، في فتراتٍ مُختلفة في الماضي، دفنتُهنَّ كلهن، وآخرهن كانت قبل خمس سنوات. قلتُ لنفسي حين واريتُها الثرى إنني لن أتزوَّج مرة أخرى أبدًا؛ قلتُ لنفسي هذا يكفي! لقد كُنَّ بغيضاتٍ مُسنَّات بشِعات، كلهن، وأنا أحظى بحياةٍ أفضل بكثيرٍ وأنا أرمل. إذا لم تكن مُتزوجًا، فلا تُحاول الزواج أبدًا يا عزيزي؛ فلن تستفيد شيئًا!»

فقال بليك: «سأضع نصيحتك في الحسبان. فمن الواضِح أنك جرَّبتها جيدًا. ولكن بالمناسبة، مَن المرأة التي تظنُّها وراء هذه القضية؟»

أجاب بيني قائلًا: «ربما تكون واحدة، وربما تكون أُخرى. لستُ مرتاحًا إطلاقًا في قرارة نفسي إزاء تلك الشابة إيزابيل التي تسكن بيت الأرملة؛ فثمَّة هالة من الغموض الشديد والأحداث الغريبة تُحيط بها إلى حدٍّ لا تستسيغه نفسي. أعرفها منذ أن كانت طفلةً صغيرة جدًّا، وكان عهدي بها دائمًا أنها شخص مُثير للشغب والأذى. أعتقِد أن لها صلةً بهذه القضية، وأنها تُضمِر هذه الصلة في غياهب عُمق شديد يُضاهي عُمق بئري. وكذا السيدة براكسفيلد، لا أستحسِنُها إطلاقًا!»

سأله بليك قائلًا: «لماذا، ما خطْبُها؟» وأردف: «إنها امرأة محترمة جدًّا، أليس كذلك؟» تنشَّق بيني تنشُّقًا ينمُّ عن استيائه.

وأجاب قائلًا: «هذا يعتمد على ماهيةِ ما تصِفه بأنه مُحترم جدًّا. لا تُطلِق وصفَ محترمة جدًّا، ولا مُحترمة أصلًا، على امرأةٍ كانت تملك نزلًا عامًّا وتُديره لكي تُقدِم على تزويج ابنتها الصغيرة، زواجًا سِريًّا، برجلٍ نبيل من عائلة عريقة! أَصِفُ هذا بأنه تصرُّف وضيع! لكنها كانت ترى هذه فرصةً سانحة لتُصبِح ابنتها الليدي ماركنمور؛ كان هذا تصوُّرها. ولن أتفأجا إذا اتضح أنها وراء هذه الجريمة، بطريقةٍ أو بأُخرى. فالنساء، كما قلتُ لك، دائمًا ما يكُنَّ أصلَ كلِّ الضغائن! لو كنتَ مُلِمًّا بالإنجيل جيدًا مثلي — وإن كان هذا مُستبعدًا، نظرًا إلى كوني أحد أعمدة الكنيسة — كنتَ ستعلم أنَّ ما أقوله حقيقة إنجيلية؛ إنه كذلك حقًّا! ألم تسمع قطُّ ما قيل عما فعلَتْهُ حواء بآدم العجوز المسكين؟»

اعترف بليك قائلًا: «سمعتُ بهذه الواقعة. كانت قاسيةً قليلًا، أليس كذلك؟»

قال بيني مُصدقًا على ذلك: «أتفق معك يا بُني! وقد كنَّ هكذا دائمًا؛ فطالما كانت النساء أصل كل الشرور! أستطيع أن أروي لك من قصص النساء أكثر ممَّا يُمكن أن تجده في عشرات الكتب، وهذا ما كنتُ سأفعله، لولا أنَّه قد حان موعد قدوم قسِّ أبرشيتنا ليُعلِّم هؤلاء الأطفال الصغار المُزعجِين الذين تراهم يتوافدون حشودًا إلى كنيستي، ويجب أن أذهب وأحافظ على النظام بينهم. لكني أقول لك بكل صراحة يا عزيزي، وأنت تبدو شابًّا مُحترمًا مُهذبًا، مع أنك لندني بالتأكيد، وهذا شيء لا أستحسِنُه، إنك إذا أردتَ أن تسبر غَور هذه القضية، ففتِّش عن المرأة! فالمرأة أصل كل المعارك وجرائم القتل والوفيات المفاجئة، ولا تنسَ ذلك!»

لم يحظَ بليك بأيِّ معلومات من هذه المقابلة، لكنها جعلته يُفكِّر مليًّا. فهو أيضًا كان مُرتابًا جدًّا في أمر السيدة تريزيرو. لقد انتزع منها اعترافًا بأنها كانت على درايةٍ تامة برحيل فون إيكهاردشتاين، وكان من الواضح أنها أرسلت فِرَق البحث في اليوم الذي تلا رحيله المُدبَّر تمامًا لكي تُضلِّل سلطات الشرطة. لكنه استصعب تصديق أنها كانت تعلم بالجريمة سلفًا؛ إذ أخبره شيءٌ ما في نفسه بأن اتهامها المُتهوِّر لهاربورو في البداية كان حقيقيًّا، وكذلك ارتأى الصِّدق في قلقها الواضح حين سألته، في عصر اليوم السابق، عما إذا كان يعتقد أنَّ فون إيكهاردشتاين هو قاتل جاي ماركنمور. ومن ثَمَّ، فإذا كانت تعرِف شيئًا ما وتكتُمُه، فما هو إذن؟ وما غرضها من كتمانه؟ ثم انتقل من التفكير فيها إلى التفكير في وصيفتها؛ هل كانت دافي هاليويل تعرف أيَّ شيء؟ إذ رأى بليك أنها تُعطي

المرء انطباعًا بأنها واحدة من أولئك النساء المُعتادات على، أو الموهوبات في، معرفة خبايا الأمور.

تمتم لنفسه قائلًا: «وأظنها ذكية إلى حدٍّ مُذهل في كتمان تلك الخبايا حين تكون على دراية بها!»

في مساء ذلك اليوم، كان قد سئم قراءة التاريخ المحلي والطوبوغرافيا المحلية، فذهب إلى حانة نزل سيبتر، وجلس في ركنٍ بعيد هادئ. كان في الحانة عدة رجال من صغار المزارعين وحرفيِّي القرية، ورغم أنهم كانوا يعرفون هوية بليك، فلم يكترثوا بوجوده كثيرًا؛ إذ كانوا يتحدَّثون بكل صراحة وحرية. وللمرة الأولى، لم يكن جريمسدِل موجودًا وراء نضد حانته، بل حلَّت محله النادلة التي تعمل في غرفة القهوة الصغيرة وجاءت لتؤدِّي مهامَّه بدلًا منه؛ لم تكن النادلة منشغلة بكثيرٍ من العمل، ولَمَّا رآها بليك تبدو شاعرة بالوحدة والمَلَل بعض الشيء، ولأنه كان ودودًا بطبعه، اتَّكأ على نضد الحانة مائلًا نحوَها وحادثها. لكنه ظلَّ مُصغيًا بإحدى أُذنيه إلى كلِّ ما كان الرجال يقولونه من خلفه. فقد كان يُدرك من واقع خبرته أنه قد يعرف معلوماتٍ كثيرة من تعليقٍ عابر أو تلميح شارد.

كان الرجال بالطبع يتحدَّثون عن أحداث ليل الإثنين وصباح الثلاثاء من الأسبوع الماضي، وكانوا عاكفين على الحديث عنها طوال الأيام الستة السابقة، وكانوا سيواصِلون الحديث عنها لعدة أيام قادمة، وكان بليك مُتيقنًا من أن الحديث سيطول بهم لأكثر مما هو مُعتاد في مثل هذه الأحداث التي تأتي جالبةً معها جَلبةً وصخبًا.

قال أحدهم: «أراه شيئًا غريبًا لعينًا أن تشهد بلدةٌ مسيحية حادثًا كهذا يُردى فيه شابٌّ قتيلًا برصاصةٍ في رأسه، ويلقى حتفه جرَّاء ذلك، ولا يعرف أحدٌ هوية الفاعل! وكما قلت، مرارًا، منذ أن حدث له ذلك وأُردِّده مُجددًا، وسأظل أردِّده: ما جدوى رجال الشرطة؟ لو كنتُ مكانهم، لكنتُ قد وجدتُ مَن فعلها، وعلَّقتُه من عنقِه عاليًا جدًّا كبرج كنيستنا، قبل بلوغ الوقت الحالي!»

فسأله مُستمعٌ ساخر: «ولماذا لم تجِدْه إذن يا بوب جرافوس؟» وأضاف: «لا شيء يمنعك!»

ردَّ بوب جرافوس قائلًا: «ليست تلك وظيفتي!» ثم أضاف بغمزةٍ خبيثةٍ ناحيةَ بليك: «فأنا لستُ شرطيًّا. لكني أعتقد، إن لم أكن مُخطئًا، أنَّ لدَينا هنا شابًّا من أولئك اللندنيِّين

الأذكياء ذوي النفوذ، الذين يُطلِقون عليهم مُحقِّقين، وأظنه يعرف عن ذلك أكثر بكثيرٍ مما نعرف على الأرجح!»

وهنا شعر بليك بأن عيون هؤلاء الرجال مُسلطة على ظهره، فالتفتَ نحو آخِرِ مَن تكلَّم.

وقال له: «فلتهدأ بالًا يا صديقي!» وأضاف: «فأنا لا أعرف أكثر ممَّا تعرف، على ما أظن. إنني أرغب في معرفة المزيد والمزيد.»

فقال بوب جرافوس: «لكنك مُحقِّق يا سيدي كما أقول، أليس كذلك؟» وأضاف: «لقد سمعتُ أنك كذلك، على أي حال.»

اعترف بليك قائلًا: «حسنًا، لك أن تعتبرني كذلك. لكني لا أستطيع أن أرى عَبر جدارٍ من الطوب أكثر ممَّا تستطيع رؤيته!»

فقال أحد الرجال بجدية وتجهُّم: «هذا قول صائب!» واستطرد قائلًا: «أجل، بالطبع، فقُدرات الإنسان الفاني محدودة للغاية، إن جاز القول. تُوجَد أشياء يستطيع الرجل المَولود من رحِم امرأة أن يفعلها، وتُوجَد أشياءُ أخرى لا يستطيع فعْلها. وعلى حدِّ علمي ليس فينا أيُّ رجلٍ على الإطلاق يستطيع أن يرى عبر جدارٍ من الطوب. قول صائب!»

فقال رجل آخر: «حسنًا، هوية الفاعل محض لُغز مُعقَّد، وأعتقد أن صعوبة معرفتها تُضاهي صعوبة رفع كاتدرائية سيلكاستر برافعة لولبية. ولا يُمكنك التجوُّل في أنحاء الحي وتسأل واحدًا تلو الآخر: «هل أنت مَن ارتكبتَ هذا الفعل الشرير البشِع؟» لا يُمكنك، إطلاقًا! لماذا؟ لأنهم جميعًا سيقولون إنهم لم يفعلوا ذلك!»

سرَت همهمةُ إجماعٍ عام بين الحاضرين على هذا الرأي الحكيم. لكنَّ رجلًا داكن الوجه، كان جالسًا في أحد أركان الحجرة وكان حتى تلك اللحظة يستمِع في صمتٍ تام، رفَع قدح جِعته فجأة، وتجرَّع منه رشفة، ووضعه على الطاولة مُجددًا بدويٍّ لافتٍ حاد.

ثم صاح قائلًا: «أقول لكم رأيي، الذي لا جدال فيه!» وأضاف: «هذه الواقعة التي أطلِقَ فيها النار على السيد جاي ماركنمور والتي تتحدَّثون عنها بكل حُرية من دون إحراز أيِّ تقدُّم، أظنُّ أنَّ السيدة براكسفيلد، التي تعيش بالأعلى في وودلاند كوتيدج، هي مَن أطلقت عليه النار! هذا رأيي. السيدة براكسفيلد، التي كانت تملك هذا النزل وتديره في وقتٍ ما، هي مَن فعلت ذلك!» فالتفت بليك فجأةً من مواجهة النَّضد، والتفتَ الرجال الآخرون إلى المُتكلم، وخيَّم على الغرفة صمتٌ مُطبِق كَسَره أخيرًا صوتٌ جادٌّ رزين.

قال الصوت: «من الأفضل أن تنتبِهَ إلى كلامك يا بيل كارفر!» وأردف: «يُوجَد قانون لأولئك الذي يفترون على غيرهم، سوف تُؤخَذ إلى المحاكِم! وفوق ذلك، لقد أُردي السيد جاي برصاص مُسدَّس. والسيدة براكسفيلد ليس لدَيها أيُّ مُسدَّسات، ولا تستطيع إطلاق النار حتى لو كان لدَيها!»

فصاح بيل كارفر بتهكُّم وازدراء قائلًا: «ليس لدَيها حقًّا؟» وأضاف: «إذن، أؤكد لكَ أنها لديها! لقد رأيتُها مرارًا تُطلِق النيران بمُسدَّس في الصباح الباكر حين كنتُ أمرُّ عبر تلك الروابي. رأيتها تطلق النيران عشرات المرات على الثعالب التي كانت تطارد دجاجها. وحين تسألون مَن أطلق النار على السيد جاي ماركنمور، أقول إنَّ السيدة براكسفيلد هي مَن أطلقت عليه النار! هذا رأيي، ولا أكترث بمن يسمعني أقول ذلك! ألستُ حرًّا في إبداء رأيي؟ هذا بلد حر!»

الفصل الحادي والعشرون

اعتقال

أعقبت فترةٌ من الصمت المُتوتر هذا التصريح الجريء وانتهت أخيرًا بصوتِ جرجرة قدمَين وسعلات مُستاءة جافة مُتتالية. ثم خرج صوتُ شخصٍ من أعماق ركن بعيدٍ مُعبَّأ بالدخان.

قال الصوت: «صحيح أنَّنا في بلدٍ حرٍّ كما تقول، لكنني أعتقد أنه ليس حرًّا إلى الحد الذي يسمح لرجل بأن يتَّهِم امرأةً جُزافًا بجريمة قتل! هذا ما يُسمُّونه افتراءً وتشهيرًا بالباطل، وما يذهب الناس إلى المحاكم بسببه، هذا فعلٌ يُعاقِب عليه القانون. أحسَب أنك ستوقِع نفسك في ورطةٍ شديدة يا بيل كارفر إذا طفتَ هنا وهناك قائلًا إنَّ السيدة براكسفيد هي مَن قتلَت السيد الشاب المسكين جاي؛ هذا ما سيحدُث لك!»

ردَّ بيل كارفر قائلًا: «لا أقول إنها قتلته!» وأوضح: «بل أقول إنها أردته قتيلًا بالرصاص، هذه مسألة مُختلفة تمامًا! ربما يكون ذلك قد حدث بالخطأ، أو ما شابه!»

فقال الصوت المُقوِّم: «أوه، إذا كان ذلك قد حدث بالخطأ، أو ما شابه، فسيكون الموقف مُختلفًا تمامًا!» وأضاف: «أعترف بوجود الكثير من الجرائم البشِعة الدموية ارتُكِبَت بالخطأ! ولكن يبدو غريبًا أن تكون هذه الكارثة قد وقعت هكذا. فالسيدة براكسفيلد لم تقُل أيَّ شيءٍ عن ذلك، حتى الآن!»

فقال بيل كارفر: «من المُستبعَد أن تقول. إنها أرجح عقلًا من أن تفعل ذلك! فعلى حدِّ علمي، لا سبب يدعو أيَّ رجلٍ أو امرأة إلى الإقدام بمحض إرادتهم على اتهام أنفسهم بارتكاب أفعال شنيعة. لن يكون تصرُّفًا رشيدًا من أي شخص، في ظل ما حدث، أن يتطوَّع من تلقاء نفسه ويقول إنه الفاعل! ولن يكون تصرُّفًا مُوافقًا لتعاليم المسيحية من أيِّ شخص أن يدخل مصيدةً بكامل وعيِهِ، على ما أعتقد.»

فأكد ذلك واحدٌ آخرُ مِن مُدعي المعرفة قائلًا: «هذا صحيح تمامًا!» وأضاف: «كلَّا؛ لا أظن أنَّ أيَّ مواطنٍ سويِّ الطباع مُلتزم بالقانون لديه أيُّ سببٍ يدفعه إلى إدانة نفسه، هذا ضد الدين والطبيعة الإنسانية، وهما قوَّتان قيِّمتان لا يُستهان بهما. كلَّا! أعتقد أنَّ السيدة براكسفيلد، لو كانت قد فعلتْ ذلك بالخطأ، بالمُسدس الذي أشار إليه بوب كارفر، فستكون قد قالت لنفسها: «حسنًا، لقد ابتُليت بمُصيبة مُحزنة، ولكن لا سبب يدفعني إلى الإفصاح عنها.» ومن ثَم، لم تقُل أيَّ شيءٍ بالطبع. هكذا جرى الأمر، هذا هو التفكير المنطقي الرشيد، إن جاز القول. ونعرف كلنا أنَّ الحوادث تُصيب أكثرنا وداعة!»

قال بيل كارفر ضاحكًا وهو يقوم من ركنه ويتَّجِه نحو الباب: «أظنني سيُصيبني حادث إذا لم أعُد إلى المنزل؟» وأضاف: «فامرأتي المُسِنَّة تنتهي من إعداد العشاء في التاسعة في ليالي الأحد، وإذا لم أعُد إلى المنزل في الموعد المُحدَّد بالدقيقة، ستُسمِعني صوتَ لِسانها. أتمنَّى لكم جميعًا ليلةً طيبة!»

وخرج وسط كلماتِ وداعٍ جماعية في آنٍ واحد من الحاضرين، لكنه استُوقِف في الصالة؛ إذ أوقِفَ بنقرةٍ على ذراعه، والتفتَ ليجد بليك بجواره.

قال بليك: «أريد أن أُحادثك على انفراد. ادخل هنا.» قاد كارفر إلى غرفة جلوسِه، وأغلق الباب. ثم تابع بصوتٍ خفيض: «أتعرف مِهنتي يا كارفر؟» واستطرد قائلًا: «مُحقِّق! حسنًا جدًّا، لقد سمعتُ ما قلتَه هناك. أصحيحٌ أنَّك كنتَ ترى السيدة براكسفيلد تُطلِق النار على حيواناتٍ بمُسدَّس في الصباح الباكر؟»

أجاب كارفر: «صحيح تمامًا يا سيدي. رأيتُها تفعل ذلك مرارًا. كنتُ أعمل بالأعلى في الغابة طوال الشتاء والربيع من هذا العام، وكنتُ أذهب إلى عملي في وقتٍ مُبكر للغاية مع بزوغ أول ضوء للصباح. وكنتُ أرى السيدة براكسفيلد تتجوَّل حول منزلها بين الحين والآخر وهي تُحاول إطلاق النار على الثعالب؛ إذ يُوجَد الكثير من تلك الحيوانات المُزعجة في الأعلى هناك، وقد سمعتُها تقول إنَّ تلك الحيوانات دائمًا ما تُطارد دجاجها. أوه، أجل، رأيتُها مُمسكة بمُسدسها!»

«ألم ترَها صباح الثلاثاء الماضي؟ ذلك الصباح الذي أُطلق فيه الرصاص على جاي؟»

«لم أرَها يا سيدي؛ لأنني لم أكن موجودًا في هذه المنطقة إطلاقًا في ذلك اليوم؛ بل كنتُ على الجانب الآخر من جرايكلويستر، على بُعد ميلَين.» وسكت رامِقًا المُحقِّق بنظراتٍ تنمُّ عن درايته بشيءٍ ما. ثم أضاف فجأة: «لا أريد أن أُسبِّب أيَّ مشكلة يا سيدي، ولكن كان بإمكاني أن أقول هناك في الداخل أشياءَ أكثرَ بكثيرٍ ممَّا قلتها!»

سأله بليك: «ماذا؟» وأضاف: «إذا كنتَ تعرف أيَّ شيء، قُله!»

قال كارفر: «لا أعرف شيئًا مُحددًا. لكني قُلت هناك في الداخل إنَّ ذلك ربما حدث بالخطأ! والآن، يقول أناس في القرية إنه كان مُتعمَّدًا!»

سأله بليك: «هل تقصد أنَّ في ماركنمور أناسًا يقولون إنَّ السيدة براكسفيلد تعمَّدَت إطلاق النار على السيد جاي؟» وأردف: «أهذا صحيح؟»

أجاب كارفر: «صحيح يا سيدي!» واستطرد قائلًا: «هذا ما يقوله، بعضهم، في أرجاء المنطقة التي أعيش فيها، على أحد الطرُق المؤدية إلى ميتبورن. لكنَّ ذلك لم يُذكَر إلَّا بعدما تبيَّن أنَّ ابنة السيدة براكسفيلد — بوبي الصغيرة — مُتزوِّجة من السيد هاري. فحين تبيَّن ذلك، بدأ الناس يتحدَّثون بما أخبرتُك به. «أجل! هذه هي حقيقة الأمر إذن! أطلَقَتِ النار على السيد جاي كي يتسنَّى لشقيقه المسكين أن يرث اللقب ويُصبِحَ السير هاري وتُصبح تلك الآنسة الصغيرة الليدي ماركنمور!» هكذا يقولون. ويرَون أن هذه هي الحقيقة بلا شك. ولكن ضع في حسبانك يا سيدي أنني لا أقول ذلك. بل أقول إنها أطلقت عليه النار بالخطأ، على الأرجح.»

لم يكترث بليك برأي كارفر الشخصي؛ إذ كان مُنشغلًا بالتفكير في الأقاويل المتداولة. سأله: «هل يقول الكثيرون منهم ذلك؟» وأضاف: «أقصد جيرانك!»

قال كارفر: «كلهم يقولون ذلك!» واستطرد قائلًا: «فالمنطقة التي أعيش فيها، كما تفهم، تقع في الطرف الأقصى من القرية. أما أولئك الرجال الذين تراهم في هذه الحانة، فهُم ينتمون إلى هذا الطرف من القرية، فلا نعرف آراءهم. ولكن عندنا في المكان الذي أعيش فيه، فتلك هي الأقاويل المتداولة: أطلقَت النار على السيد جاي كي يرث السيد هاري اللقب ويصير السير هاري وتصير الفتاة الشابة ليدي ماركنمور! أتفهم يا سيدي؟» ثم سكت مُجددًا، وعاود النظر مُجددًا أيضًا إلى المُحقق بنظرةٍ ماكرة تنمُّ عن دراية. ثم واصل الحديث فجأة قائلًا: «أُنثى سريعة الحركة والبديهة، تلك السيدة براكسفيلد! أستطيع إخبارك بأكثر من ذلك، لولا أنَّني لا أودُّ أن أوقع أيَّ شخصٍ في مشكلة. لكني أستطيع!»

قال بليك: «إذا كنتَ تعرف أيَّ شيء، فيجِب أن تقوله. والآن، ما الذي تقصد قوله عن السيدة براكسفيلد؟»

قال كارفر بعد سكوتٍ لحظي: «حسنًا يا سيدي، سأُخبرك. ربما لم ترَني، لكني كنتُ حاضرًا ذلك التحقيق في ملابسات الوفاة الذي أُجري في بيت كورت. لقد دخلت السيدة براكسفيلد مقصورةَ الشهود وأدلت بشهادتها. قالت إنها رأت السيد هاربورو في مكانٍ

مُعيَّن على جانب التل من نافذة غرفتها، في وقتٍ مُعيَّن من صباح ذاك الثلاثاء. سيدي، أؤكد لك أنها لم تفعل شيئًا من هذا! لم يكن بإمكانها رؤية ذلك المكان من نافذة غرفتها! هذا مُستحيل! لقد أسهمتُ في تشييد بيتها — وودلاند كوتيدج — ومن نافذة غرفتها، لا يستطيع أحد رؤية ذاك المكان الذي قالت إنها رأت السيد جون فيه. لكنها كانت تستطيع رؤية ذاك المكان، والسيد جون، أو أيًّا مَن كان هناك، من مكانٍ آخر، كانت موجودةً فيه على الأرجح!»

سأله بليك: «أين؟»

فأجاب كارفر: «أجمةٌ صغيرة من الأشجار الكثيفة، تقع مُقابل مُنخفض ماركنمور هولو مباشرة. رأيتُها هناك، مرارًا، تُطارد تلك الثعالب.»

وهنا تذكَّر بليك فجأة خريطته التفصيلية الكبيرة الصادرة من هيئة المساحة، التي كانت لا تزال مُعلَّقة على الحائط. فقاد كارفر إليها، وأشار إلى معالمَ مُعينة.

قال كارفر: «رأيتُ رسمًا كهذا من قبل يا سيدي. السيد تومبكينز العجوز، الذي يسكن في «بيتش فارم»، لديه واحدة منها، مؤطَّرة، في حجرة جلوسه الخاصة، لقد طالعتُها مرارًا حين كنتُ أنتظر السيد العجوز هناك ليُعطيني الأوامر. وسأُريك ما أقصده بما أقول.» وأخرج عود ثقاب خشبيًّا من جيبه، وبدأ يُحدِّد أماكنَ ويرسُم خطوطًا على الخريطة المُعلَّقة أمامه. «الآن، ها هو وودلاند كوتيدج يا سيدي، مرسوم بوضوح شديد لم يسبق له مَثيل، وذاك هو المكان الذي قالت السيدة براكسفيلد إنها رأت السيد هاربورو فيه. ولكن، كما ترى، يُوجَد بين المكانين تلةٌ صغيرة مرتفعة! لذا لم يكن بإمكانها أن ترى عَبر تلك التلة، بأيِّ حال من الأحوال، أليس كذلك؟ كلَّا! ولكن إذا مضيتَ قُدُمًا هنا، مجازًا، من بيتها عبر جانب التل إلى تلك الأجمة الصغيرة من الشجر، على حافة مُنخفض ماركنمور هولو، فسترى أنها كانت تستطيع من تلك البُقعة أن ترى، أمامها مباشرة، المكان الذي قالت إنها رأت السيد هاربورو فيه، إنه مرئي بوضوح تام، إن جاز القول، من تلك البقعة. ربما لا يكون ثمَّة شك في أنها قد رأت السيد هاربورو في ذاك المكان تحديدًا في صباح ذلك اليوم، لكنها لم ترَه من نافذة غرفتها؛ لأنها لم تكن تستطيع ذلك! لو أنها قد رأته أصلًا، فإنها رأتْهُ من تلك الأجمة، التي أؤكد لك أنني رأيتُها مرارًا عندها تحاول إطلاق النار على تلك الثعالب.»

سأله بليك: «هل رأيتَ المُسدس الذي استخدمَته من قبل؟» كان مُتيقنًا بحلول ذاك الوقت من أنه قد أمسك بطرف خَيط مؤكد أخيرًا، وارتأى أن لا بأس من أن يتبعه حتى مُنتهاه.

أجاب كارفر قائلًا: «رأيتُه في يدِها مرارًا.»

فأخرج بليك المُسدَّس الآلي فجأة ومدَّ يدَه به إلى رفيقه.

سأله قائلًا: «أكان هذا هو؟»

نظر كارفر إلى المُسدَّس المعروض وفي عينيه بريق فضول.

ثم صاح قائلًا: «حسنًا!» وأضاف: «إذا لم يكن هو، فهو نسخة طبق الأصل من ذاك الذي كنتُ أراها مُمسكةً به! لكني أعتقد أن هذه الأشياء تتشابه كثيرًا يا سيدي.»

أعاد بليك المُسدس الآلي إلى جيبه، ووضع يده على ذراع كارفر.

وقال: «الآن، أصغِ إليَّ!» واستطرد قائلًا: «فلتُبقِ كلَّ ذلك طيَّ الكتمان أيها الرجل الطيب! لا تقُل ولو كلمة واحدة عن ذلك لأيِّ شخص، ولا حتى لزوجتك. أرجو ألَّا تقع في أيِّ متاعبَ بسبب تأخرِك على عشائك. ولكن الزَمِ الصمت التام ... ولا كلمة!»

ردَّ كارفر بابتسامةٍ عريضة تنمُّ عن درايةٍ وفطنة، قائلًا: «أفهمك يا سيدي. ولن أنبس ببنت شفة إلى أن تأذن لي بذلك. ومع ذلك، أرجو أن تتذكَّر يا سيدي أنَّ ما أقوله هو أنَّ ذلك ربما حدث بالخطأ! فالنساء لسنَ ماهرات إطلاقًا في إطلاق النار بالبنادق والمُسدَّسات، كما تعلم.»

حين غادر كارفر النزل في جنح الليل، ظل بليك يجوب غرفة جلوسه جَيئةً وذهابًا عشر دقائق كاملة، مُنهمكًا في التفكير. وبنهاية ذلك الوقت، صعد إلى غرفة نومِه وارتدى معطفًا طويلًا واستعدَّ للخروج. وحين نزل إلى الصالة، قابل جريمسدِل، الذي كان داخلًا إلى النزل للتو.

سأله صاحب النزل بابتسامة: «أذاهب في تمشيةٍ مُتأخِّرة يا سيد بليك؟» وأضاف: «ليلة جميلة أيضًا!»

فأجاب بليك: «أنا ذاهب إلى سيلكاستر، وأصغِ إليَّ، لا أظن أنني سأعود الليلة، سوف أبيت في فندق مايتَر. ستراني في وقتٍ ما من صباح الغد.»

أومأ جريمسدِل إذعانًا، وأخرج نزيله. ورحل بليك عبر الطريق المُضاء بالنجوم نحو سيلكاستر، وهو ما زال يفكِّر ويتكهَّن وينسج التفاصيل الجزئية معًا، وكانت كل أفكاره وتكهُّناته تلتقي عند نقطةٍ ما عند السيدة براكسفيلد.

كانت السيدة براكسفيلد في مطبخها المُرتَّب في الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي تُوجِّه تعليماتها إلى خادمة النظافة، التي دائمًا ما كانت تأتي إلى وودلاند كوتيدج في أيام الإثنين، حين دوَّت طرقةٌ على بابها الأمامي. ففتحت الباب بنفسها، ووجدت

أمامها بليك وقائد الشرطة ورجلًا آخرَ في ثيابٍ مدنية، ولكن كان واضحًا أنه شرطي. ورأى الرجال الثلاثة، الذين كانوا يُحدِّقون إليها بشدة، أنها انتفضت وعَبَست وشحب لونها. لكنهم تظاهروا بأنهم لم يلاحظوا أيَّ شيءٍ غير عادي، وكان صوت قائد الشرطة مُهذبًا ومُبتهجًا وهو يخاطبها.

قال: «طاب صباحك يا سيدة براكسفيلد!» وأضاف: «جئنا فقط لنتحدَّث معك قليلًا يا سيدتي. هل لنا أن ندخل؟»

استدارت السيدة براكسفيلد عائدة إلى الصالة، ثم فتحت بابًا، وأشارت لزوَّارها بدخول الغرفة التي كان بليك قد استمع فيها إلى قصة السيد فرانسيمري قبل ذلك بثلاث ليالٍ. فدخلوا وكان الرجل ذو الثياب المدنية آخرَ مَن دخل، فأغلق الباب بحرصٍ وظلَّ واقفًا أمامه.

سألت السيدة براكسفيلد قائلة: «ماذا تريدون؟» كان لون بشرتها الطبيعي قد عاد إلى وجنتَيها، وبدت غاضبةً بوضوح، وكان الغضب باديًا كذلك في صوتها.

أجاب قائد الشرطة قائلًا: «نريد التحدُّث إليك بشأن صباح الثلاثاء الماضي يا سيدة براكسفيلد. مجرد مُحادثة هادئة فيما بيننا.»

صاحت السيدة براكسفيلد بحدةٍ واضحة للغاية: «لستُ واثقة من عبارة «فيما بيننا» تلك!» وأردفت: «يبدو لي أن بعض الناس، حين يقولون «فيما بيننا»، يقصدون العكس تمامًا. أعتقد أنَّ بعضكم — وهنا رمقت بليك بنظرة ساخطة — بعضكم يتحدَّث عنِّي، من وراء ظهري! فها هي خادمة النظافة التي تعمل لديَّ أتت للتوِّ من القرية، وتقول إنَّ ثمَّة أقاويلَ مُتداولةً هناك عني وعن جريمة القتل! كلَّا! بل ثمَّة ما هو أدهى من ذلك! البعض يقول إنني على صلةٍ بها، ويقول بعضهم إنني ارتكبتُها بنفسي، هكذا بكل صراحة! والآن أريد أن أعرف منشأ كل ذلك؟ لكني سأعرف، وحينئذٍ سأرى ما رأي مُحاميَّ في ذلك!»

وافقها قائد الشرطة قائلًا: «أتفق معك يا سيدة براكسفيلد. سيكون من حقِّك تمامًا أن تفعلي ذلك إذا كانت ثمَّة شائعات كاذبة مُنتشرة عنك. لكننا سمعنا هذه الشائعات، ونريد طرح بضعة أسئلة. وأنا واثق من أنَّك سترَين أنَّ الإجابة عليها ستكون أفضل لكِ؛ أليس كذلك يا سيدة براكسفيلد؟»

ردَّت السيدة براكسفيلد وهي لا تزال غاضبة: «هذا يعتمد على ماهيتها!» وأضافت: «سأفعل ما يُرضيني!»

تابع قائد الشرطة كلامه وقد صارت نبرته أشدَّ جديةً وصرامة بعض الشيء: «حسنًا، الشيء الأول هو الآتي. يؤسِفني القول إنكِ لم تذكُري الحقيقة الدقيقة في التحقيق قبل

بضعة أيام. قلتِ إنكِ رأيتِ السيد جون هاربورو في مكانٍ مُعيَّن على جانب التل من نافذة غرفتك، نافذة غرفة نومك. الآن يا سيدة براكسفيلد، لم يكن بإمكانك رؤيته في ذلك المكان من نافذة غرفة نومك؛ إذ تُوجَد تلة مُرتفعة بين بيتك وبين ذلك المكان تحديدًا. فما قولك في ذلك؟»

شحبت السيدة براكسفيلد مُجددًا، وانتفضت انتفاضةً واضحةً عند سماع ذلك، واعتصرت شفتيها ببعضهما للحظة.

ثم قالت بتجهُّم شديد: «لقد رأيتُه على أيِّ حال!» وأردفت: «ربما اختلط عليَّ الأمر وأخطأتُ في تحديد المكان الذي رأيته منه بالضبط، لكن ...»

سألها قائد الشرطة: «الآن، من أين رأيتِه؟» وأضاف: «هيا! لا يُمكن أن تكوني قد نسيتِ ذلك؛ فهذه مسألة مهمة!»

لكن السيدة براكسفيلد اعتصرت شفتيها ببعضهما مُجددًا، وفي وسط وجنتَيها الشاحبتَين، بدأت بقع حمراء غاضبة في الظهور.

فقال قائد الشرطة: «إذا لم تتكلَّمي، سأنعش ذاكرتك. ألم يكن المكان الذي رأيتِه منه هو حافة تلك الأجمة الصغيرة القريبة من مُنخفض ماركنمور هولو؟ هيا أجيبي.»

ردَّت السيدة براكسفيلد على السؤال بمثله قائلة: «ماذا لو كان كذلك؟»

سألها قائد الشرطة: «ماذا كنتِ تفعلين هناك في ذلك الوقت من الصباح؟»

قالت السيدة براكسفيلد بتحدٍّ مُفاجئ: «هذا شأني الخاص!» وأردفت: «ما شأنك بذلك؟»

هزَّ قائد الشرطة رأسه.

وأجاب قائلًا: «أوه، حسنًا!» واستطرد قائلًا: «إذا كنتِ ستتَّبِعين هذا الأسلوب يا سيدة براكسفيلد، فيجب أن نكشف لكِ مزيدًا من أوراقنا. أصغي إليَّ يا سيدة براكسفيلد، نحن نعرف معلوماتٍ مُعينة. أنتِ مُعتادة الذهاب إلى تلك الأجمة، أو مكان قريب منها، لتُطلقي النار على الثعالب؛ إذ سمعنا أنَّ الثعالب تُزعِجك بمطاردة دجاجك وطيورك. أهذا صحيح؟»

سألته السيدة براكسفيلد: «ماذا لو كان كذلك؟» وأردفت: «هل تعتقِد أني سأترك الثعالب تسرق طيوري ودجاجاتي الغالية؟ كلَّا لن أسمح بذلك! ولو من أجل كل مُمارسي الصيد في البلاد! وليكن ما يكون! ليتني أستطيع إطلاق النار على كل ثعلبٍ يركض في المنطقة! ومع ذلك، فكلُّ ما فعلته كان لتخويفها.»

قال قائد الشرطة بنبرةٍ مرحة: «تستطيعين تسوية أمورك المُتعلقة بالثعالب مع المسئول عن كلاب صيد الثعالب يا سيدة براكسفيلد. صحيح أنَّ مُمارسي الصيد يرَون إطلاق النار على الثعالب جريمةً شنيعة حقًّا، لكنها لا تندرِج ضمن لوائح الشرطة. لكن المُهم الآن يا سيدة براكسفيلد، ماذا استخدمتِ لإطلاق النار على الثعالب؟ أكان بندقيةً عادية أم بندقية رياضية أم مُسدسًا؟ أم ... كان مُسدسًا آليًّا؟ هيا!»

نظرت السيدة براكسفيلد إليهم بالتناوُب. كانت عيون الثلاثة مُثبتةً عليها بكل ثبات.

صاحت فجأة: «مَن الذي أخبركم بكل ذلك؟» وكرَّرت قائلة: «مَن الذي ...»

فأصر قائد الشرطة على سؤاله قائلًا: «كان مُسدسًا آليًّا، أليس كذلك؟» وأضاف: «هيا يا سيدة براكسفيلد، لماذا لا تُجيبين بصراحة؟»

تمتمت السيدة براكسفيلد قائلة: «وماذا لو كان كذلك؟»

فواصل قائد الشرطة قائلًا: «إذن، فقد كان كذلك!» وأضاف: «حسنًا جدًّا، والآن، من أين حصلتِ عليه؟»

جلست السيدة براكسفيلد فجأةً على أقرب كُرسي، بعدما كانت واقفةً حتى ذلك الحين بجوار المنضدة التي توسَّطت الغرفة في مواجهة زوَّارها الثلاثة، ووضعت إحدى يديها على الأخرى فوق حِجرها، وظلَّت تنظُر إليهم بهدوءٍ واحدًا تلوَ الآخر.

ثم قالت بهدوءٍ بعدما ثبَّتت ناظريها أخيرًا على قائد الشرطة: «أصغِ إليَّ!» واستطردت قائلة: «مِن المؤكد أنَّك تظنُّ أنك تتحدَّث بكل وضوح وصراحة، وما إلى ذلك، ولكن إذا كنتَ تريد معرفةَ أيِّ معلومات منِّي، فعليك أن تكون أوضح بكثير! وأؤكد لك بكل صراحةٍ أنَّك لن تدفعني إلى إدانة نفسي! لم أقُل إن لديَّ أيَّ مُسدَّس آلي. قُلت لي: «هل كان السلاح الذي استخدمتِهِ لتخويف الثعالب مُسدسًا آليًّا؟» فأجبتُ قائلة: «ماذا لو كان كذلك؟» هذا لا يعني أنه كان كذلك، أو أنني كنتُ أملك أيَّ مُسدس أصلًا. أنا مُستعدة لتقديم أيِّ معلوماتٍ أستطيع تقديمها، لكنك تعاملني بارتياب، ولن أجبَرَ على الإدلاء بأيِّ اعترافٍ من المُرجح أن يكون مُضرًّا ... مُضرًّا بي وبآخرين. فلتُعامِلني بإنصاف، و...»

فقاطعها قائد الشرطة قائلًا: «سيدة براكسفيلد، لا نُريد أيَّ شيءٍ سوى أن نُعاملك بإنصاف. لكننا نعرف أشياءَ مُعينة، وعلينا أن نطلُب منك بعضَ التفسير. الآن، لمَّا طلبتِ مني أن أكون أوضح، فسأفعل! لا مانع من أن أُخبرك بأنَّنا عثرنا على مُسدَّسٍ آلي.»

سكت قائد الشرطة فجأة. كانت السيدة براكسفيلد، من هَول المفاجأة والذهول، قد صارت شاحبة حتى شفتَيها، وتصلَّبت يداها. فانتفضت انتفاضةً ملحوظة.

وصاحت قائلة: «عثرتم عليه!»

فقال قائد الشرطة بجدية صارمة: «عثرْنا عليه يا سيدة براكسفيلد!» وأضاف: «ولا أحتاج إلى أن أسألك عمَّا إذا كنتِ تعرفين أيَّ شيءٍ عن المكان الذي عُثِر عليه فيه؛ فأنا أظنك تعرفين. الآن، يحمِل هذا المسدس علامةً ورقمًا بالطبع، وقد تعرَّف عليه صانع أسلحة في سيلكاستر قائلًا إنه قد باعه، منذ وقتٍ قريب نسبيًّا، إلى السيد هاري ماركنمور، زوج ابنتك. والآن يا سيدة براكسفيلد، نعرِف بما لا يَدع مجالًا للشك أنكِ كنتِ مُعتادة استخدام مُسدسٍ آلي من ذلك النوع تحديدًا لتخويف الثعالب أو إطلاق النار عليها. كوني صريحة. هل أعطاك السيد هاري ماركنمور المُسدَّس الذي كنتِ تستخدمينه؛ المُسدَّس الذي نتحفِظ به في حوزتنا الآن؟ هيا!»

ظلت السيدة براكسفيلد صامتةً بعض الوقت. كانت تنظُر بالتناوب بين الحين والآخر إلى سائلها، وإلى الخواتم التي تُحيط بأصابعها، والتي أخذت تَلُفها مرارًا وتكرارًا بعفوية. وبدا الوقت الذي مرَّ قبل أن تتكلَّم طويلًا. ولكن حين تكلَّمت، كان كلامها مصحوبًا بنظرةٍ بها عنادٌ وتحدٍّ غير عاديَّين.

قالت: «لن أنطق بكلمة أخرى!» وأردفت: «ولتضعوا في حسبانكم، جميعًا، أنني لم أعترِف بأيِّ شيء!»

نظر قائد الشرطة إلى بليك وتنهَّد تنهيدةَ رجلٍ مُجبَر على أداء واجبٍ ثقيل جدًّا على نفسه، رغمًا عن إرادته.

قال بهدوء: «حسنًا يا سيدة براكسفيلد. إذن ليس لديَّ خيار آخر، ستُضطرِّين إلى المجيء معنا.»

سألته السيدة براكسفيلد بهدوء مشوب بالريبة: «هل تعني أنكم ستأخذونني إلى سيلكاستر؟» واستطردت قائلة: «حسنًا! وسوف تندَم أشدَّ الندم على ذلك، كما سترى! حسنًا جدًّا، أظن أن بإمكاني الصعودَ إلى الطابق العلوي والاستعداد!»

فقال قائد الشرطة: «لا!» وأضاف: «ليس بعيدًا عن عينيَّ بالطبع! لديك امرأة في المنزل، تستطيعين استدعاءها بالجرس وتُخبرينها بأن تُحضر لك كلَّ ما تريدينه. وبعدئذٍ لدَينا عربة أجرة في انتظارنا بالخارج.»

قالت السيدة براكسفيلد بنبرةٍ حاقدة: «آه!» وأردفت: «أنتم فقط تفعلون ما كنتم تعتزمون فعله من البداية! حسنًا، أيها السيد قائد الشرطة، وأنتما الاثنان الآخران، ستأسفون كلكم على ذلك!»

لكن قائد الشرطة أشار في صمتٍ إلى بليك كي يقرع الجرس لاستدعاء الخادمة.

الفصل الثاني والعشرون

حيلة السيدة براكسفيلد

بعد ذلك بخمس دقائق، كانت خادمة النظافة مذهولةً باكية ومُمسكة بطرف مئزرها استعدادًا لوضعه على عينَيها، وهي تُشاهد الموكب الصغير يبتعِد عبر حديقة وودلاند كوتيدج، وعلى جانب التل، إلى حافة الدرب العُشبي الذي كانت العربة تنتظِر عنده. وظلَّت تتابع السيدة براكسفيلد بعينَيها إلى أن توارَت عنها، لكنَّ السيدة براكسفيلد لم تنظُر إلى الوراء قط. فقد كانت عيناها مُسلَّطتَين على العربة التي كانت ستنقلها بعيدًا. كان ثمَّة رجلان في ثيابٍ مدنية مسئولان عن العربة: أحدهما في صندوق العربة، والآخر عند بابها، وحين رأتهما السيدة براكسفيلد، ضحكت ساخرة.

قالت بنبرةٍ مريرة: «لقد أتيتُم مُستعدين تمامًا، على ما أظن!» وأضافت: «أستطيع رؤية ما كان يجول في أذهانكم! هذا ما تُسمُّونه حديثًا فيما بيننا، والصراحة والوضوح، وما إلى ذلك! هراء!»

فقال قائد الشرطة: «كلُّ ما عليكِ أن تكوني صريحةً يا سيدة براكسفيلد، وحينئذٍ لن يكون من الضروري أخذك من بيتك. إذا أخبرتِني فقط ...»

ردَّت السيدة براكسفيلد قائلة: «لن أقول أيَّ شيء!» وتابعت: «لا شيء على الإطلاق! ولا كلمة واحدة! إلَّا بعدما ألتقي بمُحاميَّ، السيد كرو. أظنك لن تحرِمني من حق مُقابلته حين أصل إلى حيثما ستأخذونني؟»

أكَّد قائد الشرطة ذلك قائلًا: «ستلتقِين السيد كرو في غضون عشر دقائق من وصولك إلى سيلكاستر. سوف أعطي أوامر بذلك. سيحرص رجالي الموجودون معي هنا على أن تحظَي بالراحة التامة، وأن تحصلي أنتِ والسيد كرو على كل التسهيلات التي تُريدانها، وأرجو يا سيدة براكسفيلد، لأجل مصلحتك، أن تكوني قد فكرتِ في المسألة تفكيرًا أفضلَ،

بحلول موعد عودتي إلى سيلكاستر، وأن تكوني أكثر وضوحًا وصراحةً مع مُحاميكِ ممَّا كنتِ معي!»

قالت السيدة براكسفيلد: «هذا شأني الخاص. أستطيع فعل ذلك بلا نصيحةٍ منك. ولكن ألن تعود الآن؟ سيريد السيد كرو لقاءك.»

فقال قائد الشرطة: «ليس الآن. ستذهبين مع رجالي؛ فأنا والسيد بليك ذاهبان الآن لنلتقي السيد هاري ماركنمور.»

توقَّفت السيدة براكسفيلد عن مُواصلة التقدُّم نحو العربة. وظهرت في عينَيها نظرةُ فضول.

ثم همست قائلة: «إنك لن ... لن تعتقِله؟» وأضافت: «فهو ...»

قال قائد الشرطة: «دعينا نتدبَّر شئوننا الخاصة بأنفسنا إذا سمحتِ يا سيدة براكسفيلد. هيا اصعدي إلى داخل العربة! ستُعامَلين بكلِّ احترام، كما سترَين.» وأضاف مُلتفتًا إلى الرجل الذي رافقه هو وبليك إلى بيتها: «يا مارشال!» وأمره قائلًا: «حالَما تصِلون إلى سيلكاستر، أودع السيدة براكسفيلد في غرفتي، وأرسِل روبنسون في الحال إلى السيد كرو، ليطلُب منه الحضور حالًا لمُقابلتها. وأنت تعرف الباقي، سأعود إلى هناك بأسرع ما يُمكن.»

وانطلقت العربة مُحمَّلة بثلاثة رجال بوجوهٍ جامدة وامرأة مُستشيطة غضبًا، وخلع قائد الشرطة قبَّعته الشرطية ذات الحافة البارزة والمُزينة بجديلة عسكرية، ومسح جبينه.

وقال: «أف!» وأضاف: «يا لها من مُهمة بغيضة يا بليك! لماذا لم تكن المرأة الحمقاء صريحةً بحق السماء بدلًا من أن تتصرَّف بطريقةٍ من شأنها أن تؤدي حتمًا لإثارة الشكوك؟ مجرد بضع كلمات، وشرح مُناسب، وما كنَّا سنُضطر إلى تكبُّد هذا العناء!»

أجاب بليك وهو يفكِّر، قائلًا: «امرأة صلدة وعنيدة. ولكن بالنسبة إليَّ، ما كنتُ سأقتنع بأي قدْرٍ من الشرح. فليس لديَّ مثقال ذرة من الشك في أنها هي مَن ألقت هذا المسدس الآلي في جُحر الغرير، وإذا لم يكن ذلك ضارًّا بها، لا أعرف ما الذي سيكون كذلك!»

فسأله قائد الشرطة: «إذن، فأنت تعتقد أنها في الأغلب هي مَن أطلقت النار على جاي ماركنمور؟»

فقال بليك بصراحة: «حسنًا، إذا كنتَ تريد أن تعرف، فهذا اعتقادي بالفعل! من المُحتمَل أنها فعلت ذلك دون تدبيرٍ مُسبق، لكنني أظنُّ أنها فعلته. فبناءً على ما رأيتُه منها،

أظنها امرأةً لا تسمح لأي شيءٍ مهما كان بأن يردَعَها عن هدفها. من الواضح أنها كانت تحمِل طموحاتٍ عالية جدًّا لابنتها تلك، وكانت ترغب بشدة في أن تُصبح ابنتها الليدي ماركنمور بدلًا من أن تكون السيدة هاري فحسب. يستطيع فرانسيمري أن يُخبرك بأن السيدة براكسفيلد استاءت أبلغَ الاستياء حين عرفت أنَّ جاي قد ترك ابنًا، وأنَّ هاري لن يرِث رتبة البارونيت. وبغضِّ النظر عمَّا قد يتبيَّن لاحقًا، ثمَّة سبب قوي جدًّا للاشتباه فيها. فلن تكون أول امرأةٍ تلجأ إلى ارتكاب جريمة قتل من أجل الارتقاء بأسرتها؛ لن تكون بالطبع!»

قال قائد الشرطة: «ترُى ما الذي جعلها تجفُل حين قُلتُ إنَّنا سنلتقي هاري ماركنمور؟» وأردف: «وما الذي جعلها تسأل عمَّا إذا كنا ننوي اعتقاله؟ من المؤكد أنه إذا كانت ضالِعة في هذا الأمر، فهو ليس الفاعل؛ ألا يُمكن أن يكون مُتواطئًا؟»

أجاب بليك باقتضاب: «لا أعرف!» وأضاف: «لكنها صُدِمَت. ومع ذلك، ها هو هاري ماركنمور، لسنا بحاجةٍ إلى الذهاب إلى منزله لنقابله.»

كان قد عَبَر هو ورفيقه المَمرَّ العميق آنذاك، وكانا في هذه اللحظة يجتازان المُتنزَّه نحو بيت ماركنمور كورت. وهناك، على بُعد مسافةٍ قصيرة أمامهما، رأيا هاري ماركنمور يُشرِف على عمل ثلاثة رجال أو أربعة كانوا مُنهمكِين في قطع شجرة دردار ضخمة. رآهما في اللحظة نفسها، وسرعان ما أقبل نحوهما على مهَل، وكانت عيناه تنضحان بنظرةٍ استفسارية حين قابلهما.

بادره قائد الشرطة بالحديث قائلًا: «طاب صباحُك يا سيد ماركنمور. كنا ذاهبَين للتو إلى منزلك كي نقابلك.» ثم تابع خافضًا صوته لاإراديًّا مع أنه ورفيقيه كانا واقفَين وحدَهما بمعزل عن الآخرين: «الحقيقة أنَّ ثمَّة موقفًا مُزعجًا جدًّا قد نشأ فيما يتعلق بوفاة أخيك. الآن يا سيد ماركنمور، تستطيع مساعدتنا في استجلاء مُلابساته، بطريقةٍ أو بأخرى، إذا أعطيتنا بعض المعلومات؛ فربما يُمكن تفسير المسألة برمَّتها بسهولة تامة؛ على أي حال، أنا واثق من أنك ستساعدنا إن استطعت.»

سأله هاري: «كيف؟» كان يقف واضعًا يدَيه في جيبيه، ونظر إلى أحدهما أولًا، ثم إلى الآخر، وهنا ارتأى بليك أنه يبدو مُتوترًا. «ماذا تريد أن تعرف؟»

أجاب قائد الشرطة بهدوءٍ قائلًا: «حسنًا، بادئ ذي بدء، من الأفضل أن نُخبرك بما نعرفه. الآن، لا تنزعِج أو تتضايق يا سيد ماركنمور ممَّا سأقوله ...»

وفجأة ظهر حول شفتَي هاري ماركنمور تعبيرٌ غريبٌ بدا متأرجحًا بين ظهورٍ واختفاء، ورمق بليك بنظرةٍ غريبة بالقدْر نفسه.

تساءل قائلًا: «ولِمَ قَد أنزعج أو أتضايق؟» وأضاف: «هذا مُستبعَد تمامًا!»

وافقه قائد الشرطة قائلًا: «بالضبط يا سيد ماركنمور، بالضبط!» واستطرد قائلًا: «هذا مُستبعَد تمامًا، لكنك تعرف قصدي. حسنًا، والآن، لقد اكتشف المُحقِّق الرقيب بليك في سياق تحرياته أنَّك اشتريت، منذ وقتٍ قريب، مُسدَّسًا آليًّا من طراز ويبلي-فوسبيري من متجر «ويدينجتون» لصُنع الأسلحة في سيلكاستر. أهذا صحيح يا سيد ماركنمور؟»

أجاب هاري: «صحيح بالتأكيد. وهو ليس شيئًا سِريًّا أيضًا.»

قال قائد الشرطة: «كنتُ مُتيقنًا من أنه ليس سِريًّا. حسنًا جدًّا، هل تستطيع أن تتعرَّف على هذا المُسدَّس إذا رأيته؟»

أجاب هاري: «بعلامته ورقمه ... نعم!»

التفت قائد الشرطة إلى بليك، الذي أخرج المُسدَّس الآلي من جيبه فورًا وناوَلَه إلى هاري. وظلَّا يشاهدان بفضولٍ بينما كان هاري يتفحَّصه.

قال هاري: «إنه هو!» وأضاف: «ولكن كيف ...»

فقاطعه قائد الشرطة قائلًا: «سيد ماركنمور!» وأردف: «هنا مَكمن الجزء المُزعِج من المسألة! لقد عثر المُحقِّق الرقيب بليك على هذا المُسدَّس مُلقًى في جُحر — جُحر غرير — خلف الشجيرات في المَمرِّ العميق هناك، مساء يوم الجمعة الماضي. والآن يا سيد ماركنمور، هل لديك أيُّ فكرة عن كيفية وصول مُسدَّسِك إلى هناك؟ لأنَّ هذا هو المسدس الآلي الذي اشتريتَهُ من متجر «ويدينجتون»؛ لقد تحقَّقنا من الرقم والعلامة.»

كان الشحوب قد اعتلى هاري ماركنمور، الذي كان لَون بشرته طبيعيًّا حتى تلك اللحظة، وكان يُحدِّق إلى المُسدس الآلي بعبوسٍ يمزج بين الغضب والحيرة.

صاح قائلًا: «أنا!» وأضاف: «كيف لي أن أعرف كيف وصل إلى هناك؟»

قال قائد الشرطة: «ولكن من المؤكد أنك تعرف ما فعلتَهُ بالمُسدس حين اشتريتَهُ يا سيد ماركنمور!» وتابع قائلًا: «لقد استنتجتُ من قولك الأخير أنه لم يكن بحوزتِك. الآن يا سيد ماركنمور، كن صريحًا معنا! مَن الذي أعطيتَهُ المُسدس؟ أو مَن الذي أعرْتَه إيَّاه؟ مَن الذي كان المسدس بحوزته، على أي حال؟»

أعاد هاري ماركنمور المُسدس إلى بليك، ووضع يدَيه في جيبيه مُجددًا.

ثم قال لقائد الشرطة بهدوء: «أصغِ إليَّ!» وأضاف: «من الأفضل أن تكون صريحًا أنت أيضًا. هل تُلمِّح إلى أنَّ أخي قد مات برصاصةٍ من هذا الشيء؟»

أجاب قائد الشرطة قائلًا: «نظنُّ ذلك مُرجَّحًا للغاية يا سيد ماركنمور. لقد عرضناه على طبيب الشرطة الليلة الماضية، وهو يرى أنه من نفس نوعية السلاح الذي استُخدِم.»

سأله هاري: «ومَن الذي تشكُّ في أنه استخدَمَه؟» وأصرَّ قائلًا: «هيا أجبني؟»

كان قد تولَّى دور المُستجوِب آنذاك، وكان ينظُر إلى الرجلَين بحِدةٍ كما كانا ينظُران إليه قبل قليل. وتردَّد قائد الشرطة.

وقال: «أُفضِّل أن تُخبرنا بما فعلتَهُ بالمسدس. أظن ...»

فقاطعه هاري قائلًا: «وأنا أُفضِّل أن تُخبرني بهوية الشخص الذي تشكُّ في أنه قد استخدمه لإطلاق النار على أخي. أيًّا كان ما تُفضِّله، فلن أقول أيَّ شيء قد يُدين أناسًا أبرياء تمامًا! هذا قرار قاطع ونهائي أيضًا!»

نظر قائد الشرطة إلى بليك. فأومأ له بليك الذي كان بدأ في تقدير أبعاد الموقف. وتمتم قائلًا له: «أخبره!»

قال قائد الشرطة: «حسنًا يا سيد ماركنمور. سأُبادر أنا. نعتقد أنَّ ثمَّة سببًا وجيهًا يجعلنا نشتبِهُ في السيدة براكسفيلد. فقد اكتشفنا أنها اعتادت، منذ فترةٍ ما، أن تطلق النار من مُسدس آلي بالقُرب من أجمة عند حافة مُنخفض ماركنمور هولو لتخويف الثعالب وإبعادها عن دجاجها، وأنها شُوهدت هناك مرارًا في الساعات الأولى من الصباح. والآن يا سيد ماركنمور، هل كان ذاك المسدس الذي استخدمَتْهُ مُسدَّسَك؟»

فسأله هاري بهدوء: «وما قول السيدة براكسفيلد نفسها في ذلك؟»

أجاب قائد الشرطة: «ترفُض السيدة براكسفيلد قولَ أيِّ شيء، باستثناء اعترافها بأنها أحيانًا ما تُطلِق النار على الثعالب في المكان الذي ذكرتُه والأوقات التي ذكرتُها. والنتيجة أننا اضطُررنا إلى أخذها إلى سيلكاستر، في انتظار إجراء مزيدٍ من التحريات والاستجوابات ...»

اكفهرَّ وجه هاري ماركنمور فجأةً من شدَّة الغضب.

وصاح قائلًا: «ماذا؟» وأضاف: «هل ... هل اعتقلتموها؟»

فقال قائد الشرطة بتحوُّل مفاجئ إلى نبرةٍ رسمية صارمة: «إنها مُحتجزة إلى حين إجراء مزيدٍ من التحريات. كلُّ ما عليها أن تُعطينا تفسيرًا مُقنعًا ...»

فقال هاري ماركنمور بعلوِّ صوته فجأة: «سُحقًا!» وأردف: «هل تعرف أنَّ السيدة براكسفيلد والدة زوجتي؟ ما الذي تقصده بحق السماء بمُجرد التلميح إلى أنها قتلت شقيقي؟»

فقال قائد الشرطة: «على رِسلك يا سيد ماركنمور!» وأضاف: «ساعِدْنا في استجلاء مسألة المسدس الآلي تلك! أخبِرْنا هل أعطيتَ السيدة براكسفيلد إيَّاه ولماذا، وهل تستطيع تفسير إلقائه هكذا؟ وحينئذٍ ...»

لكن هاري تمتم لنفسه غاضبًا، واستدار فجأة وانطلق مُسرعًا نحو ماركنمور كورت، ومع أنَّ قائد الشرطة ناداه، مُناشدًا إيَّاه أن ينصت إلى صوت العقل، فقد واصل السير دون أن يُبالي به. نظر كِلا الرَّجُلَين إلى الآخر.

وسأل بليك قائلًا: «هل سنتركه يذهب؟»

فأجاب قائد الشرطة: «وما الذي نستطيع فعله؟» وأردف قائلًا: «سُحقًا ...»

قال بليك: «أظنُّ أنني كان ينبغي أن أُصِرَّ على التوجُّه معنا إلى سيلكاستر. فلو واجَه السيدة براكسفيلد ...»

غير أنَّ قائد الشرطة كان قد التفت نحو القرية.

وقال: «أوه، حسنًا!» وأضاف: «تُوجَد طريقةٌ لجعله يتحدَّث! سيُضطر إلى الحديث عن الدور الذي اضطلع به إذا وقف في مقصورة شهود. لنذهب إلى سيلكاستر، وإذا لم تكن تلك المرأة قد عادت إلى رُشدها بناءً على نصيحة مُحاميها كرو، فسأتَّهِمها، رسميًّا، وأجعلها تمثُل أمام قضاة الصُّلح، سيعقدون جلسةً في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم.»

قال له بليك: «هل ستصِل إلى هذا الحد؟»

قال قائد الشرطة: «أجل!» وأردف: «ولي مُبرِّري في ذلك، بناءً على ما نعرفه بالفعل. هيا، سنستقِلُّ عربةً صغيرة من عند نزل سيبتر.»

بعد ذلك بنصف ساعة، حين وصل هو وبليك بالعربة إلى مركز الشرطة، قابلا كرو، المُحامي، خارجًا من هناك. فنظر كرو إلى قائد الشرطة بابتسامةٍ جافة تحمِل شيئًا من الدهاء.

ثم قال له وهو يتنحَّى به جانبًا: «إممم!» واستطرد قائلًا: «أظنُّك عاملت السيدة «بي» بتعسُّف شديد! لكنها، عملًا بنصيحتي، ستُخبرك الآن بما أردتَ معرفته. وبعدئذٍ، لو كنتُ مكانك، كنت سأتركها تعود إلى منزلها بهدوء. إنها غاضبة جدًّا، وقد أعطتْني تعليماتٍ مُعينة ربما ستُساعدك، مع أنني، بيني وبينك، أرى هذا تصرُّفًا أحمقَ منها!»

قال قائد الشرطة باقتضاب: «لا أفهمُك.»

فلوَّح كرو بورقةٍ كان يحملها نحو مركز الشرطة.

وردَّ قائلًا: «إذن، ادخل وقابلها!»

أشار قائد الشرطة إلى بليك بأن يتبَعَه إلى غرفته. كان أحد الرجال ذوي الثياب المَدَنية يقف خارج الغرفة، أمَّا في داخلها، فكانت السيدة براكسفيلد جالسةً تتحاور بأسلوبٍ ودِّي مُسالِم مع الاثنين الآخرين، اللَّذَين خرجا بإشارةٍ من رئيسهما.

قال قائد الشرطة وهو يجلس إلى مكتبه: «حسنًا يا سيدة براكسفيلد، لقد التقَينا مُحاميك للتو وأخبرني بأنكِ ستُعطيني الآن كل المعلومات التي أردتُها. ولكن لا مانع أن أُخبرك بأنني سئمتُ هذا الوضع قليلًا، وأريد إجاباتٍ واضحة وصريحة على أسئلتي. والآن، هل ذاك المُسدَّس الآلي الذي كنتِ تستخدمينه لتخويف الثعالب قد أعطاك إيَّاه السيد هاري ماركنمور؟»

أجابت السيدة براكسفيلد بعبوس: «أجل!»

«لأي غرضٍ أعطاك إيَّاه؟»

«حسنًا؛ حدث ذلك بعد فترةٍ من إتمام خطبته على ابنتي، بمُوافقتي. كان مُعتادًا، بالطبع، أن يأتي إلى وودلاند كوتيدج لزيارتنا في المساء. وقال لنا مرارًا إننا نعيش في وحدةٍ مُوحِشة جدًّا بالنسبة إلى امرأتَين مثلنا؛ لأنَّ براكسفيلد نادرًا ما كان يأتينا آنذاك. وذات يوم، أحضر إلينا هذا المُسدَّس، وأرانا كلتينا كيفية استخدامه. وحين بدأت تلك الثعالب تُهاجم دجاجي، خطر المُسدس ببالي، واستخدمتُهُ لتخويفها. لكني لم أُصِب أيًّا منها قط، على حدِّ علمي.»

سألها قائد الشرطة: «أين ذاك المُسدس؟»

فأجابت السيدة براكسفيلد على مَضَض واضح: «حسنًا!» واستطردت قائلة: «كان ذلك تصرُّفًا أحمقَ مني! بعدما سمعتُ بمقتل جاي ماركنمور، توتَّرْت ... ارتعبت. فكرتُ في أن الشرطة ربما ستجري تفتيشًا — مَن يدري — وكان وجود مُسدس لديَّ سيبدو شيئًا غريبًا، ولذلك ... حسنًا، تخلَّصتُ منه.»

«أين؟»

قالت السيدة براكسفيلد: «في قاع حفرةٍ عميقة خلف الشجيرات في الممر القريب من بيتي.»

قال قائد الشرطة: «سؤال آخر. هل رأيتِ جاي ماركنمور على الإطلاق، في أي مكان، في صباح الثلاثاء الماضي، وهل أطلقتِ الرصاص من هذا المسدس في ذاك الصباح؟»

قالت السيدة براكسفيلد: «لا!» واستطردت: «لم أرَ جاي ماركنمور قَط؛ لم أرَه منذ سبع سنوات، ولم أُطلِق الرصاص من هذا المسدس قَط في ذاك الصباح؛ فلم يكن بِحَوزتي.»

أخذ قائد الشرطة بليك جانبًا، وتحدَّثا معًا بضع دقائق بنبرةٍ خفيضة. ثم استدار قائد الشرطة أخيرًا.

قال: «حسنًا يا سيدة براكسفيلد. لن أحتجزك مَزيدًا من الوقت. لا تلُومي إلَّا نفسك على قدومك إلى هنا. تستطيعين الرحيل الآن.»

قامت السيدة براكسفيلد من كُرسيها بكبرياء.

وقالت: «إني راحلة!» وأضافت: «وبئس مصير أيِّ شخص يحتجزني مَزيدًا من الوقت! تمامًا كمصير أيِّ شخصٍ ينشُر مزيدًا من الشائعات عني! لكني اتبعتُ حيلةً ستفاجئ بعضكم. ولا مانع أن أُخبركم أيها الشرطيون بماهيتها؛ فهي حيلة كان عليكم أن تأتوا بها من قبل. لقد كلَّفتُ كرو بأن ينشر، فورًا، في صباح هذا اليوم تحديدًا، إعلانًا يعرض مكافأةً كبيرة لأيِّ شخص يُدلي بمعلومات من شأنها أن تؤدي إلى اعتقال قاتل جاي ماركنمور وإدانته، ولو أنَّ بديهتكم أيها الشرطيون كانت حاضرة ولو بنصفِها فقط، لفعلتُم ذلك منذ فترةٍ طويلة! فليُباركْكم الرب، هل تظنُّون أنَّ ماركنمور ليس فيها أناسٌ يعرفون شيئًا ما؟ عجبًا، لا يُوجَد إنسان في هذه المنطقة ليس مُستعدًّا للتنازُل عن أُمِّه مُقابل ورقةٍ نقدية بخمسة جنيهات! وأؤكد لكما أنني أملك الكثير من أوراق الجنيهات الخمسة! أستطيع شراء ماركنمور كلها إن شئتُ!»

فقال قائد الشرطة: «طاب صباحُك يا سيدة براكسفيلد.» ثم، حين تذكَّر أنَّ السيدة براكسفيلد أتت إلى هناك رغمًا عنها، أضاف بتأدُّب: «هل ستكون في انتظارك عربةُ أجرةٍ لتُقلك إلى البيت؟» وأردف: «سوف أطلب واحدةً في الحال.»

قالت السيدة براكسفيلد وهي تخرج بسموٍّ وشموخ: «شكرًا لك، أستطيع طلب عربات الأجرة بنفسي، ودفع أجرتها أيضًا. لا أريد صنائع من أحد!»

تنهَّد قائد الشرطة حين رحلت السيدة براكسفيلد.

وقال: «أظن أنَّ هذه هي الحقيقة الصادقة، بشأن المُسدَّس الآلي على الأقل. لماذا لم يستطِع هاري ماركنمور إخبارنا بذلك!»

فأجاب بليك قائلًا: «أظنُّهُ لم يكن يعرِف أنها قد تخلَّصَت منه.» كان يمشي جيئةً وذهابًا في الغرفة، وبدا واضحًا أنه كان قلقًا وغير مُقتنع، وأخيرًا، استقرَّ عند نافذة مُطلة على الشارع. صاح فجأة قائلًا: «ها هو هاري ماركنمور بنفسه، مع تشيلفورد. لا بدَّ أنه استقلَّ العربة حالما تركنا في المُتنزَّه. لقد التقيا السيدة براكسفيلد الآن، وأظنُّها تُذيقهما عذوبة لسانها!»

فقال قائد الشرطة: «دَعها!» وأضاف: «لقد سئمتُها!»

قال بليك: «لستُ مُقتنعًا بما سمِعناه عنها هي وهاري ماركنمور وذلك المُسدَّس. فرغم كل شيء، لا نملِك دليلًا على ادعاءاتها سوى روايتها، ولم نسمع روايته بشأن ذلك على الإطلاق. لو صحَّ أنه قد أعطاها المُسدَّس للسبب البريء جدًّا الذي ذكرَتْهُ — أي للاحتفاظ به في المنزل وسيلةً لحمايتها — فلماذا لم يستطِع قول ذلك، بصراحة، دون كل هذا الغموض والغضب الشديد الذي انتابه؟ هذا ليس مُقنعًا كثيرًا!»

فقال قائد الشرطة: «أظنه استشاط غضبًا لأنَّ السيدة براكسفيلد حماته، ولأنه كان سيُضطرُّ إلى إخبار زوجته بماهية الشكوك التي بدا أنها تُراوِدنا. وهذا ليس موقفًا لطيفًا لشابةٍ دخلت عائلةً في ظروف غريبة. لا أظنني كنتُ سأحبُّ ذلك لو كنتُ مكان هاري ماركنمور، أن أضطر إلى الذهاب إلى زوجتي الشابة وأقول لها: «أصغي إليَّ! الشرطة اعتقلت أُمك لأنهم يشتبِهون في أنها قتلت أخي!» أكنتَ ستُحبُّ ذلك؟ لذا يُمكنني أن أعذُرَه في غضبه.»

لم يردَّ بليك. بل واصل التحديق إلى الخارج عبر النافذة في صمتٍ بضع دقائق. ثم تحدَّث فجأة.

قال: «تشيلفورد يَعبُر الشارع قادمًا إلى هنا. لقد ظلَّ هذان الاثنان يُثرثران إليه كثيرًا جدًّا!»

وبعد قليل دخل تشيلفورد الغرفة، وهزَّ رأسه ناظرًا إلى الرَّجُلين بتوبيخٍ مُصطنع.

قال: «عجبًا، عجبًا!» واستطرد قائلًا: «أظنها إجراءات تعسُّفية بعض الشيء أن تعتقلا السيدة براكسفيلد هكذا، بعد محاولةِ إجبارها على إدانة نفسها، هاه؟ أيُعقَل! لا أُصدِّق أنَّ أيًّا منكما يظنُّ حقًّا أنَّ السيدة براكسفيلد من المُحتمَل أصلًا أن تكون غبيةً إلى الحد الذي يجعلها تقتُل رجلًا صارت من أصهاره للتو، بل وفردًا من آل ماركنمور أيضًا! أنا مُتفاجئ حقًّا من ...»

فقاطعه قائد الشرطة وقد احمرَّت أُذناه قليلًا: «أصغِ إليَّ يا تشيلفورد!» وأضاف: «لك أن تتفاجأ كما تشاء! ليس للسيدة براكسفيلد أن تلومَ إلا نفسها، ولم نُخرِجْها من هنا إلَّا على مَضضٍ منَّا. قُل لها أن تكون شاكرةً إذا لم نُعِدها مُجددًا ونحتجزها!»

استعاد تشيلفورد هدوءه فاغرًا عينيه.

وقال: «أوه!» واستطرد قائلًا: «آه! أوه، حسنًا جدًّا، إذا كنتَ ستتحدَّث هكذا، فليس لديَّ شيءٌ آخر أقوله، باستثناء أننا، أنا وكرو، سنتعاون ونُفكِّر معًا في كيفية الدفاع عن

مصلحة العائلة. لسنا راضِين إطلاقًا عن أداء شرطتك؛ فأنتم لا تسلكون المسار الصحيح. لماذا لا تُدركون مرةً واحدة وللأبد أنَّ السبب الحقيقي لقتل جاي ماركنمور كان المال! المال بطريقةٍ أو بأخرى، المال!»

وبتكرار كلمته الأخيرة تكرارًا مُشدَّدًا آخر، استدار فجأة وغادر الغرفة.

الفصل الثالث والعشرون

النظرية المهنية

نظر قائد الشرطة إلى بليك حين خرج تشيلفورد، وقد اكتست عيناه بنظرةٍ جوفاء ومُرتابة بعض الشيء.

صاح قائلًا: «ما الذي يقصده بكل ذلك بحق السماء؟»

قال بليك: «يقصد أنَّ سبب الجريمة الحقيقي مُتعلِّق بالمال. فرغم كل شيء، ما زلْنا لم نعرف مصير تلك الأوراق النقدية التي تُقدَّر بثلاثة آلاف جنيه! فلا يبدو أنَّ ثمَّة شكًّا إطلاقًا في أنَّ هذه الأوراق النقدية كانت بحوزة جاي ماركنمور حين غادر نزل سيبتر، ومن المؤكد أنها لم تكن بحَوزته حين تفحَّصنا ثيابه. فأين هي؟ من الواضح أنَّ القاتل أخذها.»

فكَّر قائد الشرطة هنيهة.

ثم قال أخيرًا: «الشيء الغريب، من وجهة نظري، هو الآتي: لو صحَّ أنَّ الجريمة قد ارتُكِبَت بدافع السرقة، فكيف لم يأخُذ القاتل بقيةَ المُتعلقات التي كانت بحوزة جاي ماركنمور؟ أظنُّ أنه كان بحوزته أموال، بل الكثير منها، وأشياء ثمينة، وساعة ذهبية وسلسلة، وما إلى ذلك. وكان معها خاتم ألماس ثمين جدًّا أيضًا، أليس كذلك؟»

قال بليك: «الشيء الغريب أنَّ خاتمًا آخر — ترتدي السيدة تريزيرو نسخةً طبق الأصل منه — قد اختفى. اختفى! وهو شيء عديم القيمة المالية نسبيًّا، مجرد تُحفة غريبة، في حين أنَّ خاتمًا ألماسيًّا، يساوي الكثير من المال، قد تُرِك حول الإصبع نفسه! ولكن ما الجدوى من التنظير؟ فالحقائق كما هي! إذا لم يكن ثمَّة جدوى فيما سُنسمِّيه مسار السيدة براكسفيلد؛ حسنًا، فسأظل بذلك بلا أي دليل حقيقي!»

فقال قائد الشرطة: «تشيلفورد يقول: المال! المال! المال!» وأضاف: «ليتنا كنا نعرِف المزيد عن شئون جاي ماركنمور المالية! ولكن بمناسبة الحديث عن المال، أظنُّ أنَّ الحيلةَ

الذكية التي أتت بها الأم براكسفيلد ربما تحمِل قدْرًا من الصواب والمنطق. فقد صرتُ أعرف أهالي القرية جيدًا الآن! ما قالته صحيح تمامًا؛ لا يُوجَد أيُّ شخص تقريبًا بينهم ليس مُستعدًّا للتنازُل عن أمه مُقابل ورقة نقدية بخمسة جنيهات! بالطبع ثمَّة قليل من المُبالغة في ذلك! لكنه صحيح من حيث المبدأ.»

بدا بليك مُتشككًا ومتفاجئًا.

وسأله قائلًا: «هل تقصد أنَّ تقول إنه بافتراض أنَّ ماركنمور فيها أناس يعرفون شيئًا ما حقًّا عن هذه القضية، فإنهم يكتمونه حتى الآن؟ لا أقصد أناسًا ربما قد يُدينهم الاعتراف أو كشف المعلومات، لكن أناسًا لديهم معلومات ويكتمُونها هكذا بلا سبب؟»

أكَّد قائد الشرطة ذلك بتأكيدٍ قاطع نابع من خبرة: «هذا احتمال مُرجَّح جدًّا!» واستطرد قائلًا: «القرويون هُم أكثر الناس ثرثرةً ونميمة عن أحوال غيرهم على وجه الأرض! لا تُوجَد قرية في إنجلترا ليست مَرتعًا مثاليًّا للنميمة المولودة من رحِم الحسد والكراهية والغلِّ وكل القسوة الكامنة في النفوس! ولكن إيَّاك أن تُخطئ يا عزيزي! فالقرويُّون، بالرغم من تلك النزعة، ربما يكونون أشدَّ الناس كتمانًا على الإطلاق! وحينئذٍ، قد يكون من الأسهل لك أن تحاول إخراج الزبد من فم كلب من أن تُحاول استخراج سرٍّ من فم أحدِهم لا يريد الإفصاح عنه. حسنًا، سأسوق إليك أكداسًا من الأدلة على ذلك من واقع تجربتي الشخصية! أتذكَّر قضيةً وقعت بالقُرب من هنا، منذ فترة ليست بعيدة. أُطلق الرصاص على وكيل أراضٍ وأصيب بجرح بالِغٍ في إحدى الليالي بينما كان عائدًا إلى منزله، ولم نكتشِف قَط هوية الشخص الذي اعتدى عليه وشرع في قتله حتى الآن. ولكن لا يُراودني أيُّ شكٍّ في أنَّ كل رجل وامرأة تقريبًا في ذلك المكان يعرفون هويته، لكنهم لن يفصحوا عنها؛ لأن أسفَهم الوحيد كان على أنَّ الضحية لم يَمُت. أرأيت!»

فقال بليك بضحكةٍ ساخرة: «ولكن حسب كلام السيدة براكسفيلد — الذي يبدو أنك تتَّفِق معها فيه — فهؤلاء الناس مُستعدون لإفشاءِ ما يعرفونه مقابل خمسة جنيهات. فلماذا لم تُجرِّب ذلك في القضية التي تتحدَّث عنها؟»

أجاب قائد الشرطة قائلًا: «ما زال هذا مُمكنًا. ولكن يبدو أنَّ الضحيةَ نفسه راغب في كتمان الأمر، خوفًا من عواقبَ أسوأ، ولكن ربما قد نُجرِّب عرضَ مُكافأة. ولكن في قضية ماركنمور هذه، أتصوَّر أنَّ السيدة براكفسيد ستعرض مكافأةً مالية، بدافعٍ من الغيظ المَحض! ولن أتفاجأ إذا أثمر ذلك شيئًا ما. لو كنتُ مكانك يا بليك، لأرهفتُ سمعي طَوال الساعات الأربع والعشرين القادمة. لا أعرف ما الذي ستعرِضه السيدة براكسفيلد، ولكن إذا كان شيئًا مُجزيًا، فسينشأ طمع هائل بين أولئك القرويين؛ أنا أعرفهم!»

قام بليك من الكرسي ذي المسندين الذي كان، منذ رحيل تشيلفورد المفاجئ، جالسًا عليه مُمدِّدًا ساقيه وواضعًا يدَيه في جيبيه، وهو يبدو مُتحيرًا وتعيسًا بعض الشيء.

تمتم قائلًا: «إذن، فأفضل خيارٍ لديَّ الآن أن أعود أدراجي إلى النزل. لستُ أعرف إطلاقًا حتى الآن ما إذا كنَّا قد تركنا السيدة براكسفيلد ترحل بسهولةٍ مُبالَغ فيها!»

ردَّ قائد الشرطة بإيماءةٍ ذاتِ مغزًى برأسه: «لن تهرُب. وإذا كان كل ذلك خدعة ...»

سكت حين دخل الغرفةَ شرطيٌّ ووضع بطاقةً أمامه.

قال الشرطي: «السيد صاحب تلك البطاقة ينتظِر بالخارج يا سيدي.»

نظر قائد الشرطة إلى البطاقة، فانتفض والتفت إلى بليك.

تمتم قائلًا بدهشةٍ: «السير توماس هودجز-ويلكينز!» واستطرد قائلًا: «ذاك العالِم الكبير! أستاذ كمبريدج الذي حدَّثنا عنه ذاك الرجل سبيندلر. ما الذي قد يُريده بحق السماء؟ أدخِله يا جارفيس.» وأضاف قائلًا: «ضَع كرسيًّا هناك.» ثم نظر إلى المُحقِّق مُتسائلًا. وتمتم قائلًا: «تطوُّر جديد!» وسأله: «ماذا الآن؟»

لم يردَّ بليك. فقد كان يراقِب الباب، الذي ظهر منه فجأة رجلٌ ذو مظهر مُختلف تمامًا عما كان بليك يتوقَّع رؤيته. فلم يكن أستاذ الكيمياء الجامعي الشهير عجوزًا ومُتجهمًا وأصلعَ ومُلتحيًا وذا نظارة بعدستَين ومُرتديًا ثيابه بعشوائيةٍ وإهمال، بل كان حسن الهندام ومُتيقظًا وذا مظهر عسكري بعض الشيء وشديد التأنُّق في ثيابه ومُرتديًا نظارةً ذاتَ عدسةٍ واحدة وليس نظارة بعدستَين، وذا هيئة مرحة وابتسامة مُبهجة رسمها على وجهه بكل طلاقة في وجه شاغليْ الغرفة الاثنين وهو يدخل ويقعد بجوار مكتب قائد الشرطة، الذي وضع على حافته صحيفتَين أو ثلاثًا كانت تحمِل علاماتٍ كثيرةً هنا وهناك مُحدَّدة بقلم رصاص أزرق.

صاح قائلًا: «طاب صباحكما، طاب صباحكما!» وأضاف: «لا أعرف ما إذا كنتما ستُخمِّنان مِهنتي من اسمي، أو ما إذا كنتما تعرفان أيَّ شيء عنها بالفعل؟ لكني كنتُ أقرأ تقارير الصحف عن قضية ماركنمور هذه، وارتأيت، الليلة الماضية، أنَّ واجبي يُحتِّم عليَّ المجيء إلى هنا وإخباركما بشيءٍ ما. وبادئ ذي بدء، لتوضيح الأمور، هل جاء إليكما هنا شابٌّ اسمه سبيندلر، يعمل صيدليًّا مساعدًا، من فارشام؟»

أجاب قائد الشرطة: «أجل!»

«هل أخبَركما بأيِّ شيء تضمَّن اسمي؟ وإذا كان قد فعل، فما هو؟»

«أخبَرَنا — هذا هو المُحقِّق الرقيب بليك، الذي كان معي حين جاء ذاك الرجل المدعو سبيندلر — بأنَّه عرض على جاي ماركنمور أن يبيع له سِرًّا مُعينًا خاصًّا به، بشأن طريقة تحضير صبغةٍ ما، وأنَّه أرسل إليك هذا السرَّ مع ماركنمور لتُبدي رأيك الخبير فيه.»

«بالضبط! هذا صحيح. لقد أخذ ماركنمور رأيي. والآن، إلى أيِّ مدًى وصلت تلك المسألة؟»

أجاب قائد الشرطة قائلًا: «وصَلت إلى الآتي. حين قُتل ماركنمور، كان بحوزته ثلاثة آلاف جنيه في صورة أوراق نقدية، ونعتقد أنه كان يعتزم تسليمها إلى سبيندلر في صباح ذاك اليوم نفسه ثمنًا لسرِّه.»

«كان سبيندلر سيبيع مقابل ثلاثة آلاف جنيه؟»

«نعم؛ هذا ما قاله لنا.»

لفَّ أستاذ الكيمياء نظارته ذات العدسة الواحدة ليُثبتها أكثرَ في تجويف عينه، وألقى نظرةً غريبة شديدة التدقيق إلى الرجلين.

وسألهما مُتحيرًا: «هل تعتقدان، هل تفترضان أنَّ ماركنمور قُتل من أجل الثلاثة آلاف جنيه؟» وأضاف: «من المؤكد أنَّ ذلك يبدو واضحًا بعض الشيء!»

أجاب قائد الشرطة قائلًا: «لدَينا نظرية كهذه قائمة حاليًّا. فقد كان المبلغ بحوزته في الساعة الثالثة من صباح الثلاثاء، واختفى بلا أثرٍ حين عُثر على جثته بعد ذلك ببضع ساعات!»

فقال الأستاذ الجامعي بضحكةٍ قصيرة: «نعم!» واستطرد: «واختفى معه شيء آخر أيضًا! الآن، أصغيا إليَّ! لستُ شرطيًّا، لكنني ذو قدْرٍ من الذكاء. سأخبركما بسبب مقتل جاي ماركنمور، وسأراهِن بكل أموالي مقابل أرخص شيء في العالَم على أننى مُحق تمامًا. لقد قُتل جاي ماركنمور من أجل تركيبة سبيندلر، بكل تأكيد!»

ضحك الأستاذ الجامعي مُجددًا، وصفع المكتب الذي كان جواره بيده المُكتسية بقفاز أنيق. فحدَّق إليه المُستمعان، ثم حدق كلاهما إلى الآخر. وكان بليك هو مَن تحدَّث هذه المرة.

إذ سأله قائلًا: «هل لنا أن نفهم من ذلك يا سير توماس أنَّ تلك التركيبة كانت ذاتَ قيمةٍ كبيرة؟ أكبر من ثلاثة آلاف جنيه؟»

فقال العالِم الشهير: «لقِّبني بالبروفيسور. باختصار وتوفيرًا للوقت، نعم. لكما أن تفهما ذلك! ثلاثة آلاف جنيه! لو كان هذا سِرِّيًّا، لَمَا بِعتُه ولو بثلاثين ألف جنيه! هذا

الشاب سبيندلر أحمقُ أو جاهل تمامًا بأسعار السوق؛ فلو كان قد احتفظ به لنفسه، لجنى منه ثروة طائلة، بطريقة أو بأخرى. لا أعرف ما إذا كنتما على دراية بمسألة أصباغ الأنيلين هذه؟ لكنكما ستعرفان، على أي حال، من صُحُفكما، إذا كنتما تطالعانها، أنها مسألةٌ بالغة الخطورة، مسألة إنقاذ صنعةٍ مملوكة لنا أصلًا من مُغتصبيها الألمان. تعرفان ذلك؟ حسنًا جدًّا، لقد اكتشف هذا الشاب من فارشام — ويا له من شاب ذكي حقًّا! — تركيبةً كيميائية غريبة! لا داعي إلى الخوض في التفاصيل، لكني أعرف ما يكفي لأكون على يقينٍ تام، في قرارة عقلي، من أنَّ ماركنمور قد قُتل بيد شخصٍ ما كان يعرف أنَّ التركيبة بحَوزته، وكان يعتزم الحصول عليها لنفسه بأي وسيلة. من المُرجَّح أنَّ هذا الشخص تعقَّبه إلى هنا، وراقبه، واعتدى عليه في المكان المهجور الذي قرأتُ عنه في الصحف.»

فقال بليك: «هذا يقتضي أن يكون ثمَّة شخصٌ ما في لندن كان يعرف أنها بحوزته.»

قال البروفيسور مؤيدًا ذلك: «من المؤكد قطعًا أنَّ شخصًا ما — في لندن أو مكانٍ آخر — كان يعرف. نظريتي الشخصية هي أنَّ ماركنمور أخبر أناسًا آخَرين — ربما مُضاربين ماليين — بهذا السر، وربما قد أطلعهم على رأيي بصفتي خبيرًا. لكني سأخبركما بالدور الذي أدَّيتُه في هذه الصفقة. ربما تعرفان أنني أشتهر في أوروبا بأنني كيميائي. حسنًا، أرسل إليَّ ماركنمور رسالةً، تتضمَّن تركيبة سبيندلر وأجرًا ماليًّا مُجزيًا، طالبًا منِّي إخباره برأيي فيها. فأدركت القيمة الهائلة لهذه التركيبة فورًا، وكتبتُ رأيي، وأعدت التركيبة مع رأيي إلى ماركنمور. كنت شديد الحرص على أنَّ يبقى سِرُّ التركيبة طيَّ الكتمان إلى حدٍّ أنني اتبعت احتياطاتٍ استثنائية وأنا أرسل إليه الأوراق (التي لم يرَها أيُّ إنسان سواي حين كانت بحوزتي)؛ فبدلًا من أن أرسلها بالبريد، سلَّمتها، مُوصدةً بأختامٍ شمعية مُحْكمة، إلى واحدٍ من مُساعديَّ المؤتمنِين — مساعد يعمل في مختبري — كان ذاهبًا في نفس ذلك التوقيت إلى لندن لقضاء إجازة، كي يُسلمها إلى ماركنمور نفسه، باليد، في مكتبه في فولجريف كورت. وأنا أعرفُ أنها سُلِّمت إليه على هذا النحو. فقد كان هذا المساعد الذي أشرتُ إليه، مع أنه لم يكن يعلم ماهية ما يحويه الطرد بالتحديد، يعرف أنَّ مُحتواه ذو أهمية بالغة، وقيمة مالية هائلة بالطبع، وكان حريصًا أشد الحرص على أن يُسلِّم الطرد إلى ماركنمور شخصيًّا. وحين أتى ماركنمور إلى هنا في تلك الليلة، كانت الأوراق بحوزته؛ التركيبة نفسها، ورأيي فيها. وأُكرِّر لكما مرةً أخرى أنني أعتقد

أنَّه أطلَع شخصًا آخرَ على السِّر، وأنَّ هذا الشخص تعقَّبه، وراقبه وقتله! تركيبة سبيندلر هي السبب الأصلي وراء المسألة برمَّتها!»

أعقب ذلك فترةٌ من الصمت، نَظَر خلالها الرجال الثلاثة إلى بعضهم. ثم كسرَها البروفيسور أخيرًا بسؤال مباشر.

«أليس لديكما أيُّ دليل حتى الآن؟»

أجاب بليك: «كلَّا!»

فقال البروفيسور: «سيتعين عليكما العودة إلى الوراء. إلى لندن! ومعرفةِ بعضٍ مما كان ماركنمور يفعله هناك مؤخرًا. الآن، بينما كنتُ آتيًا عبر لندن من كمبريدج يوم أمس، مررتُ في طريقي بمكتب ماركنمور في فولجريف كورت لأجري بعض التحريات. فأعطاني كبير مُوظفي ماركنمور بعضَ المعلومات. تذكَّر زيارة مُساعدي، السيد كارتر، إلى المكتب. لقد رأى بنفسه كارتر يُسلِّم إلى ماركنمور رسالتي المُوصَدة بالأختام الشمعية، ورأى ماركنمور يُعطي كارتر إيصالًا بالاستلام، أرسله لي كارتر بالبريد. إنه معي في جيبي الآن. ويقول كبير الموظفين إنه رأى ماركنمور يفضُّ أختام رسالتي، فور رحيل كارتر، ويُخرِج منها ورقتَين ويقرؤهما. وحالما أنهى ماركنمور قراءتهما، دلف إلى كُشك الهاتف الموجود في بهو بِنايتهم، ومن المُرجَّح أنه اتَّصل بشخصٍ ما. وفي غضون نصف ساعة بعد ذلك، أتى رجل كان غريبًا تمامًا على كبير الموظفين؛ فهو مُتيقن من أنه لم يرَ ذاك الرجل هناك من قبل، لكنه يتذكَّره جيدًا — رجل أجنبي، حسبما بدا من مظهره — ويستطيع أن يصفه لكما وصفًا دقيقًا. رأى كبير الموظفين ماركنمور يُخرِج رسالتي الموصدة بأختام شمعية — أقصد بعد فض أختامها، بالطبع — ويُطلع ذاك الرجل الغريب على الورقتَين اللتَين كانتا داخلها. وبعد ذلك ببضع دقائق، خرجا معًا. الآن، مَن هو هذا الرجل؟ سيتوجَّب عليكما أن تعثُرا عليه.»

نظر قائد الشرطة إلى بليك.

وقال له: «يبدو بذلك أنك ستُغيِّر مسرح عملياتك.»

لكن بليك نظر إلى البروفيسور.

وسأله قائلًا: «ما الوصف الذي ذكره لك موظف ماركنمور لذاك الغريب؟»

أجاب البروفيسور في الحال: «رجل داكن الشعر والبشرة، ومُتوسط الحجم، وفي منتصف العمر، وفي غاية الأناقة. قال إنه من نوعية الرجال الذين يراهم المرء كثيرًا في أوساط المال. أشبه بعض الشيء بيهودي أجنبي، من وجهة نظر الموظف.»

قال بليك: «لو أنَّ رجلًا كهذا قد جاء إلى هذه المنطقة، فمن المؤكد أنه كان سيلفت الانتباه. لقد أجريتُ تحريات دقيقة عن الغرباء الذين شُوهِدوا مُؤخرًا في كل محطات القطارات ...»

فقال البورفيسور: «توجَد وسائل مواصلات أخرى غير القطارات. ولكن على أي حال، ثمَّة شيء واحد مؤكَّد: لقد أطلع ماركنمور هذا الرجل على التركيبة ورأيي فيها!»

جاب بليك أرجاء الغرفة هُنيهة، بوضعيته المُفضلة: خافضًا رأسه وواضعًا يديه في جيبيه. ثم التفت أخيرًا إلى قائد الشرطة.

وقال: «حسنًا، سأعود إلى ماركنمور. ينبغي أن أُباشر بعض الأمور هناك. وبعدئذٍ ...»

ردَّ قائد الشرطة قائلًا: «يجب أن نتحدَّث أكثر. بعدئذٍ ... كما تقول.»

ونهض البروفيسور وأخذ قُبعته وعصا سيرِه.

وقال: «سأمكث في فندق مايتَر هنا يومًا أو اثنين. وبذلك، فإذا أردتُماني، ستعرفان أين تجداني. ولكن إبَّان وجودي هنا، أودُّ أن أرى مسرح كل هذا اللغز، وإذا كنتَ ذاهبًا إلى هناك أيها الرقيب، فسأذهب معك، إن جاز لي ذلك.»

ردَّ بليك قائلًا: «بكل سرورٍ يا سيدي.»

واصطحب البروفيسور إلى الخارج وعبر شوارع سيلكاستر إلى الطريق المُستقيم الطويل المؤدي إلى ماركنمور. وبينما كانا يسيران عبر الطريق، ذكر له بالتفصيل كلَّ إجراءاته التي اتَّخذَها، بدءًا من العثور على الجثة إلى ما حدَث مع السيدة براكسفيلد في ذاك الصباح.

واختتم كلامه قائلًا: «لا أعرف ما إذا كان عرْض مكافأة سيُجدي أيَّ نفع. لو كان أيُّ شخصٍ قد رأى مثل هذا الغريب الذي تقول إنه ربما أتى إلى هنا، فكان من المُفترَض أن أعرف ذلك قبل الآن.»

فقال البروفيسور: «آه، سيكون عليك أن تعود أدراجك، سيكون عليك أن تعود أدراجك!» وأضاف: «أنا على يقينٍ من أنَّ السِّرَّ يكمُن بعيدًا في الوراء. كل النظريات خاطئة، حتى الآن! السبب ليس المال، أو على الأقل ليس النقد الجاهز. بل تركيبة سبيندلر، بما تحمِلُه من إمكانيات هائلة. والآن، ما المكافأة التي تعرضها السيدة براكسفيلد مقابل المعلومات؟»

فأجاب بليك: «لا أعرف؛ فلم تقُل شيئًا عنها. لكننا سنعرف قريبًا. انظر هناك!»

مرَّت بجوارهما عربةُ لاصِق إعلاناتٍ يقودها رجلٌ ذو حلةِ عملٍ كتانية بيضاء، وكانت تسير مُسرعة صوب القرية.

تابع بليك قائلًا: «لقد تحدَّث مُحاميها عن الإعلان عن هذه الأشياء فورًا. من الواضح أنه لم يُضيِّع وقتًا؛ فها هو هذا الرجل ذاهب لينشُرَها.»

فقال البروفيسور: «يؤسِفني أنها لن تُجدي نفعًا!» وأضاف: «فأنا أرى أنَّ المسألة كلها دُبِّرت بإحكامٍ فائق. لن يظهر شيء هنا.»

ردَّ بليك: «لا أحد يدري. كل أنواع الأشياء تُجدي ولو نفعًا صغيرًا.»

واصلا المسير حتى بلغا مدخل القرية. وهناك، كان لاصق الإعلانات مُنشغلًا بالفعل بلصق اللافتة على أول جدار فارغ صادفَه، وكان حوله حشد من نساء وأطفال فاغِرين أفواههم.

توقَّف الرجلان بينما كانت اللافتة الورقية المُربعة الكبيرة، التي تحمل كتابة سوداء ثقيلة، تُلصق على الجدار رطبةً ولامعة. فضبط البروفيسور نظارته ذات العدسة الواحدة، وقرأها بصوت عالٍ:

مكافأة مائة جنيه

في ظل العثور على سيد ماركنمور كورت النبيل المُبجل الراحل، جاي ماركنمور، مقتولًا بالرصاص على الروابي، بالقُرب من منخفض ماركنمور هولو، في صباح الثلاثاء الموافق ٢٤ أبريل الماضي، والاعتقاد بأنه قُتِل: يُرجى العِلم بأنَّ المبلغ المالي المذكور أعلاه، مائة جنيه إسترليني، سيُقدَّم إلى أيِّ شخصٍ يُدلي بمعلومات تؤدي إلى اعتقال القاتل وإدانته. يُمكن تقديم مثل هذه المعلومات إلى الشرطة، أو مباشرةً إليَّ.

جيلبرت كرو
المُحامي في سيلكاستر

قال البروفيسور وهو يُشيح بوجهه عن المُلصَق بابتسامةٍ ساخرة بعض الشيء: «إممم!» وأضاف قائلًا: «يبدو أنَّ سيدتكم — ماذا كان اسمها؟ — براكسفيلد ليست مُبالِغة في الكرم! ليتها قالت خمسمائة! هاه؟»

فقال بليك وهو يُلقي نظرةً خاطفة على حشد الناس الذين كانوا يتَهَجَّوْن بصعوبةٍ محتوى المُلصق بلهفة: «لقد قالت السيدة براكسفيلد بسخريةٍ لي ولقائد الشرطة إنَّ

ماركنمور ليس فيها رجل ولا امرأة ليسوا مُستعدِّين للتنازُل عن أُمَّهاتهم مقابل خمسة جنيهات! والآن، تُوجَد عشرون خمسة في المائة؛ لذا ...»

فقال البروفيسور ضاحكًا: «أي قَدْر المبلغ المُغري عشرين مرة!» وأردف قائلًا: «مهارة حسابية جيدة، على أي حال! نعم، حسنًا يا صديقي، لا أظنُّ أنَّ هذا سيُجدي نفعًا كبيرًا. ولكن، من باب الفضول، أودُّ الحصول على نسخةٍ من ذلك الإعلان. هل تظنُّ أنَّ صديقنا الفاضل صاحب إناء المعجون اللاصق والفرشاة سيُعطينا نسخة؟»

فقال بليك: «أظنه سيكون في غاية السعادة بذلك. لا سيما إذا أعطيتَهُ ثمن نصف لتر من شراب المَزَر، فلصق الإعلانات يُعَدُّ عملًا يُسبِّب العطش على ما أعتقد.»

ضحك البروفيسور مُجددًا، ودنا من لاصق الإعلانات، وأخذ نسختَين من إعلاناته من تلقاء نفسه، وأعطاه نصف كراون.

ثم سأله بينما كان يُسلِّم نسخةً إلى بليك ويطوي النسخة الأخرى واضعًا إياها في جيبه: «أظنك ستلصق هذه الأشياء في كل أنحاء الريف؟» وأردف قائلًا: «فالهدف منها إثارة اهتمام واسع النطاق، هاه؟»

أجاب لاصق الإعلانات: «شيء من هذا القبيل يا سيدي. هكذا كانت التعليمات التي تلقَّيتُها. معي مائتا نسخة من هذا المُلصَق في عربتي، ويجب أن أنتهي من نشرها كلها قبل موعد العشاء، في كل أنحاء هذه القرية.» ثم أضاف بغمزةٍ من عينه: «ولن تُجدي أيَّ نفع إطلاقًا! ... في رأيي.»

سأله البروفيسور: «أتظنُّها لن تُجدي نفعًا؟» وأضاف: «لماذا؟»

فقال لاصق الإعلانات: «لأنَّ ثمَّة أمرًا يكمُن عميقًا جدًّا في هذا اللُّغز!» وأردف قائلًا: «عميقًا جدًّا، جدًّا، جدًّا أيها السيدان! عمل من أعمال الظُّلمة! ولن يُكتشَف سريعًا. لكن العمل عمل، وعليَّ مُواصلة عملي، الذي يتمثَّل حاليًّا في إثارة الجميع وإيقاظ مشاعر الطمع والجشع في نفوسهم!»

قال البروفيسور بينما كان لاصِق الإعلانات يرحَل مُسرعًا: «فكاهي!» ثم واصل المَسير إلى داخل القرية بجوار بليك، ناظرًا حوله بعينَين فضوليتَين. وفجأة وقعت عيناه على سيبتر. فقال: «آها!» ثم أردف قائلًا: «إذن، فهذا هو النزل الذي شهد لقاء منتصف الليل؟ أودُّ زيارته سريعًا، هل بوسعهم مَنْحنا بعض الغداء يا تُرى؟»

ردَّ بليك قائلًا: «أنا مُقيم هناك. هذا مَقرِّي. ولديَّ فيه غرفةُ جلوس خاصة. إذا مَنحتَنِي شرف ضيافتك يا سيدي، فسأطلُب الغداء وقتما تشاء؛ فلدَيهم كمٌّ وفير منه.»

أعرب البروفيسور عن سروره، وظلَّا طوال الساعة أو الساعتَين التاليتَين هو وبليك يناقشان مُعضلة ماركنمور بكل تشعُّباتها وتداعياتها، على مائدة الغداء وأمام نيران المدفأة. وفي الثالثة عصرًا، خرجا ليتفقَّدا مسرح المأساة، وكانت وجهتهم النهائية هي مُنخفض ماركنمور هولو. ولكن بينما كانا يتمشَّيان عبر الطريق، وقعت عينا بليك على دافي هاليويل فجأة، عند عتبة البوابة الصغيرة الواقعة وسط البوابة الكبيرة لبيت الأرملة، ورأى كذلك أنَّ دافي أومأت في صمتٍ برغبتها في مُحادثته.

الفصل الرابع والعشرون

الرجل الذي استطاع التخمين

وبينما كانت دافي تُشير إلى بليك، تراجعَت خطوة أو اثنتَين وسط الشجيرات الكثيفة، وكان التعبير البادي في عينَيها يُوحي برغبة في السرية والحذَر. فأشار بليك، بدَوره، لرفيقه بأن يتبعه، وهمس له جانبًا بكلامٍ جانبي وهما يتركان الطريق ويمرَّان عبر البوابة الصغيرة.

تمتم قائلًا: «هذه إحدى النساء اللاتي حدثتُك عنهن. وصيفة السيدة تريزيرو، دافني هاليويل، أخت الفتاة مايرا هاليويل، التي تزوَّجَت جاي ماركنمور. أي إنها خالة البارونيت الجديد! وهي عميقة للغاية. تعالَ معي، سأجعلها تظنُّ أنك مساعدي.»

فقال البروفيسور: «ممتاز!» واستطرد قائلًا: «مغامرة! بالطبع يا رفيقي العزيز! تبدو هذه المرأة كما لو كان لدَيها شيء تريد الإفصاح عنه.»

فأجاب بليك: «هذا مُرجَّح!» وأضاف قائلًا: «فهي عميقة للغاية تُخفي الكثير كما قلت.»

كانت دافي قد تراجعَت مزيدًا من الخطوات في الممرِّ الواقع بين شجيرات الغار والبهشية، وكانت في هذه اللحظة تقِف مُنتظرة اقترابهما، وبينما كانا يدنوان منها، نظرت بإمعانٍ إلى البروفيسور، لا سيما ثيابه العصرية. ثم نظرت إلى بليك نظرة مُتسائلة.

فهمس لها بليك قائلًا: «اطمئني!» وأردف قائلًا: «هذا رفيقي في المِهنة. ما الأمر؟»

فقالت دافي: «أريد أن أُحادثك.» نظرَت حولها إلى مُحيطهم، ثم إلى طريقٍ أضيقَ على مقربةٍ منهم كان مُنفتحًا على الممرِّ الذي كانوا واقفين فيه. وأضافت قائلة: «تعالَيَا معي من هنا. يُوجَد هناك كوخ صيفي قديم لا يُستخدَم أبدًا، سنكون في مأمنٍ هناك.»

تَبِع الرجلان دافي بقوامها الممشوق عبر متاهةٍ من الشجيرات حتى وصلا إلى سقيفةٍ ريفية من أغصانٍ غيرِ مُشذَّبة وسط أشجارٍ عالية. وبعدما دخلوا هذه السقيفة التي كانت مُتهالكة ومُتعفِّنة، استدارت وواجهت بليك رامقةً البروفيسور بنظرةٍ جانبية أخرى.

وقالت بنبرة خفيضة: «أردتُ أن أحادثك يا سيد بليك. كنتُ أنتظر هناك عند البوابة منذ بعض الوقت على أمَل أن أراك تخرج من نزل سيبتر. لقد ذهبت سيدتي بالعربة إلى سيلكاستر؛ لذا لن يطلُبني أحد، ومن المُستبعَد أن يأتي أحد إلى هنا؛ لذا فنحن في أمانٍ كافٍ للتحدُّث قليلًا. أصغِ إليَّ! لقد أُعلِنَت مكافأة، أليس كذلك؟»

أكد بليك ذلك وهو يُحدِّق إليها بإمعان: «مائة جنيه.»

لَوَت دافي قسمات وجهها عابسة.

وقالت: «أوه حسنًا!» وأردفت قائلة: «إنه مبلغ زهيد، لكني لا أُريده، ولا أعرف أيَّ شيء يُمَكِّنني من الحصول عليه. ولكن الآن، سيكون ما سأقوله سرًّا بيننا، أليس كذلك؟»

فقال بليك: «بالطبع!» وأضاف قائلًا: «سيكون هكذا تمامًا. أخبريني بأيِّ شيءٍ تريدين وتستطيعين قوله.»

أجابت دافي قائلة: «حسنًا، أعرف شخصًا ما أعتقِد أنه توصَّل إلى تخمينٍ جيد جدًّا بشأن حقيقةِ ما حدث لجاي ماركنمور.» وتابعت: «وهو رجل سيسعَد بمائة جنيه؛ لأنه يريد الهجرة.»

سألها بليك: «مَن هو؟»

خفضت دافي نبرة صوتها.

وقالت هامسة: «جيم روبر!» وسألته: هل سمعت عنه؟»

أجاب بليك: «نعم.» كان يتساءل في قرارة نفسه بالفعل عن مدى الثقة التي يمكن أن يُوليها لما ستقوله؛ فعلى حدٍّ ما استشَّف من طباعها، كان يرى أنَّ دافي ليست بالمرأة التي يُمكن أن تُفشي أيَّ شيءٍ لن تستفيد منه. ولكن ربما كان لديها أسباب لإفادة جيم روبر لم تتَّضِح بعد. كرَّر إجابته قائلًا: «نعم، سمعتُ عن جيم روبر. إنه الرجل الذي كان يريد أن يتزوَّج أختك، مايرا، أليس كذلك؛ أختك التي هربت مع جاي ماركنمور وتزوَّجته؟»

أكدت دافي ذلك قائلة: «بالضبط. وبسبب أنَّ روبر كان على وشْك الزواج من مايرا حين هجرته ورحلت مع جاي ماركنمور، لم يتحدَّث. لكنَّ مائة جنيه ربما ستحثُّه على التحدُّث!»

سألها بليك: «ما الذي تقصدينه، بالضبط، بأنه لم يتحدَّث بسبب ذلك؟» وأضاف: «وما الذي لم يتحدَّث عنه أصلًا؟»

ردَّت دافني بنظرةٍ شملت الرجلَين كليهما: «حسنًا، الأمر كالتالي، روبر رجلٌ يُمكنك أن تصفه بأنه سريع الغضب، ودائمًا ما كان هكذا. من ذاك النوع الذي لا ينسى ولا يغفر. دائمًا ما كان راغبًا في الزواج من مايرا، وهي أيضًا وعدته بذلك. وفي الحقيقة، كانا على وشك أن ينشرا إعلان زواجهما المُرتقَب في الكنيسة حين هربت فجأةً مع جاي. وبالطبع لا أحد — ولا حتى أنا، شقيقتها — عرف مصيرها قَط إلَّا مُؤخرًا، حين تكشَّفت تلك المسألة المُتعلقة بزواجهما. عندما رحلَت في البداية، ذهب روبر إلى لندن مرارًا ليبحث عنها. ولم يعثُر على أيِّ أثر لها بالطبع، لكنه دائمًا ما كان يُقسِم على أنَّ جاي ماركنمور هو مَن أغواها وأبعدَها عنه. وكان يُقسِم على شيءٍ آخر أيضًا؛ أنه سيقتُل جاي ماركنمور إذا صادفه، حتى ولو شُنِق عقابًا على ذلك في الحال. وكان يقصد ذلك أيضًا! كان هذا آخِرَ ما قاله لي قبل ذهابي إلى الهند، مع السيدة تريزيرو، وأول ما سمعتُه يقوله حين عُدتُ إلى هنا، بعد ذلك بسبع سنوات.»

قال بليك: «كان لا يزال ينوي فعل ذلك؟ بعد سبع سنوات؟»

ردَّت دافني: «أعتقِد أنه كان سيفعل ذلك حتى لو كان قد قابل جاي ماركنمور بعد سبع عشرة سنة!» واستطردت قائلة: «إنه من ذلك النوع! كنتُ أراه يزداد سوءًا كلما فكَّر في هذه المسألة. كانت شغله الشاغل والوحيد. قبل أسبوعين فقط، التقيتُهُ بالقُرب من هنا يومًا ما، وتصادَف أن ذكرتُ أنَّ السير أنطوني العجوز في أواخر أيامه، وتساءلتُ آنذاك عمَّا إذا كان جاي سيعود ليرِث اللقب ويُصبح سيد العائلة، فعَبَس وقال إنَّ جاي إذا عاد في أيِّ يومٍ من الأيام، فسيكون مصيره الوحيد طعنة غائرة بسكينٍ في جسده! وأصدُقُكَ القول، بما أنَّ الكلام سرٌّ بيننا، إنني حين سمعتُ بمقتل جاي ماركنمور، كنتُ على اعتقادٍ تام بأنَّ روبر قد التقاه ذاك الصباح وأجهز عليه؛ كنتُ أعتقد ذلك حقًّا!»

سألها بليك: «وصرتِ لا تعتقدين ذلك الآن؟»

قالت دافني بنبرة تأكيد: «لا!» وأضافت: «لكني أعتقد أنَّ روبر لدَيه فكرةٌ جيدة جدًّا عن هوية القاتل. وفي الحقيقة، ربما تكون أكثر من مجرد فكرة؛ لعلَّه يعرف بالفعل. وأقول لك إنه قد يرغب في إخبارك مُقابل مائة جنيه؛ لأنه يعلَم الآن أنَّ مايرا قد ماتت، ويريد الرحيل عن هنا والهجرة إلى الخارج.»

سألها بليك: «ولماذا تَظنِّين أنَّ روبر يعرف شيئًا ما؟» وأردف: «فلتُخبرينا بصراحة! هل قال لكِ أيَّ شيء؟»

أجابت دافي: «أجل!» واستطردت: «التقيتُه منذ ليلةٍ أو اثنتَين، حين كان آتيًا إلى القرية ليتسوَّق. تحادَثْنا عند تلك البوابة التي التقيتَني عندها قبل لحظات، وبالطبع كان حديثنا كله عن جريمة القتل. سألتُه صراحةً عمَّا إذا كانت له أيُّ صِلة بذلك؟ فقال إنه ليس له صِلة به، لسوء حظه! ثم قال المزيد. لقد قال: «أستطيع الإفصاح عن شيءٍ ما عن هذا، لكني لن أفعل؛ لأنَّ الواقعة قد حدثت وقُضِي الأمر بالفعل. لن أساعد الشرطة. دعيهم يؤدُّوا عملهم بأنفسهم.» كان هذا هو كلَّ ما قاله، ثم رحل.»

سألها بليك: «ألم يُعْطِكِ أيَّ فكرة أخرى سوى ذلك؟»

أجابت دافي: «لم يقُل سوى ذلك. لكني مُتيقنة من أنه يعرف شيئًا ما. ولكن، إذا بدأت استجوابه، فمن أجل الربِّ لا تجعله يعرِف أنني قد أخبرتُك!»

قال بليك مُطَمْئِنًا إيَّاها: «أستطيع تدبُّر ذلك بسهولة، إذا أخبرتِني بالآتي. هل صدر من روبر أيُّ تهديداتٍ أو وعيد ضدَّ جاي ماركنمور في وجود أيِّ شخصٍ آخر غيرك؟ أقصد في الماضي؟»

قالت دافي مؤكدة: «أوه، لقد فعل ذلك بالتأكيد في الماضي! قبل ذهابي إلى الهند. سمعتُه يقول أشياء فظيعة في نزل سيبتر. أظنك ستجد في القرية رجالًا كثيرين قد سمِعوه.»

وهنا عادت ذاكرة بليك إلى المحادثة الأولى التي استرق السمع إليها في نزل سيبتر، وتعليقات بعض رجال القرية على مشاعر العدَاء التي يُكِنها عدة أشخاص من أهالي الحي، لم تُذكَر أسماؤهم، تجاه جاي ماركنمور.

قال: «حسنًا. لن يأتي أيُّ ذِكر لاسمك. سأتظاهر بأنني سمعتُ معلوماتٍ عن تهديدات روبر ومشاعره في مكانٍ آخر. ولكن الآن، أين يعيش روبر؟»

أجابت دافي: «وحدَه، في كوخ وسط الغابة على الجانب الآخر من الروابي، خلف مُنخفض ماركنمور هولو. يعيش مُنعزلًا في الأعلى هناك، ولا ينزل إلى هنا أبدًا، سوى مرةٍ في الأسبوع ليشتري احتياجاته من البقالة واللحوم.»

فسألها بليك: «أيُّ نوع من الرجال هو؟»

أجابت دافي: «كان شابًّا لطيفًا جدًّا مِثلما يُمكن أن يكون أيُّ شاب، حتى هربَتْ مايرا. لكن ذلك أفسده وجعله بغيضًا. صار رجلًا كئيبًا مُتجهمًا صامتًا، نادرًا ما يتكلَّم

ولا يبتسِم أبدًا. لا أعلم ما إذا كنتَ ستعرف أيَّ شيءٍ منه أم لا، لكنني على يقينٍ تام من أنه إما يعرف شيئًا ما أو خمَّن شيئًا ما.»

سألها بليك رامِقًا إيَّاها بنظرةٍ متفحصة: «أأنتِ مُتيقنة تمامًا، في قرارة عقلك، من أنَّ روبر نفسه بريء؟»

فنظرت دافي هاليويل إلى كِلا الرجُلَين وضحكت ضحكةً غريبة.

وصاحت قائلة: «أجل!» ثم أضافت: «أنا مُتيقِنة من ذلك!»

فسألها البروفيسور، مُتحدِّثًا للمرة الأولى منذ بداية المُحادثة: «لماذا يا تُرى؟» وأردف قائلًا: «لماذا أنتِ متيقنة؟»

أحالت دافي نظرتَها إلى السائل الثاني مُختصةً إيَّاه بانتباهٍ أكبر. وبعدما نظرت إليه بإمعانٍ دقيقةً كاملة، تحدَّثت.

قالت له فجأة: «يبدو أنَّك ستفهم، بغضِّ النظر عن حقيقة هويتك. ولا أُصدِّق أنَّك شرطي، سواء أكنتَ في ثيابٍ مدنية أم غير ذلك! أنا مُتيقنة من أنَّ جيم روبر لم يقتُل جاي ماركنمور؛ لأنه لو كان قد فعل ذلك، لكان هو نفسه أول مَن سيُعلِن أنه أخذ ثأره! وما كان سيكترِث مثقال ذرة إذا شنقوه في اليوم التالي!»

تبادل بليك مع دافي بعض الحديث بشأن مكان روبر بالتحديد، ورحل مع رفيقه. سار البروفيسور على طول الطريق صامتًا بعض الوقت.

ثم قال أخيرًا: «تلك المرأة لديها فراسة ثاقِبة في فهم الشخصيات. ستكون عضوةً نافعة إذا التحقت بأفراد قوَّتك يا بليك! أنا واثِق من أنها مُحقَّة تمامًا فيما قالته للتو. فرجلٌ بتلك الشخصية كما وصفته، ظلَّ يُضمِر رغبته في الثأر طوال هذه السنوات، ما كان سيكترِث كثيرًا بمَن سيعرف أنه أشبعها أخيرًا. فمن وجهة نظره، كما تَفهم، كانت هذه ستكون مُنتهى غايته من الحياة! وكلُّ ما دُونها سيكون بلا قيمة.»

قال بليك: «وماذا عن غريزة البقاء وحفظ الذات؟»

أجاب البروفيسور مُنهمكًا في التفكير: «لا أظنُّه كان سيكترث بذلك إطلاقًا. لا! حدس المرأة صائب. أظننا يجب أن نَعُدَّ ذاك الرجل المدعو روبر بريئًا. من الواضح أيضًا أنه أُوذِيَ وَظُلِم بشدة. لديَّ فضول لرؤيته.»

قال بليك: «أظنُّنا سنجده قريبًا. سيكون في مكانٍ ما في الغابة.»

قاد بليك رفيقه صاعدًا معه الممرَّ العميق، ومرَّا ببيتِ ذا وارن وبيت وودلاند كوتيدج، حتى وصلا إلى قمة الأرض المُرتفعة فوق مُنخفض ماركنمور هولو. لم يكن بليك قد

تخطَّى هذه النقطة قَط؛ لذا تفاجأ حين وجد نفسه ينظُر إلى امتدادٍ ريفي، كان يتناقَض تناقضًا صارخًا، في تنوُّعه وقفرِه مع الريف الرعوي المزروع، الذي تركه ورفيقه خلفهما للتو. ففي هذا المكان، على الجانب الشمالي من الأراضي المُرتفعة، كانت جوانب التلال مُنقسمة إلى وهادٍ ووديان ضيقة عميقة مُظلمة، وكانت تبرُز من المُنحدرات كتلٌ ضخرية ضخمة، فيما كانت تُوجَد أشجار يابسة قديمة قاتمة على كل الجوانب بدا المرور من بينها مُستحيلًا، وقف الرجلان ينظران حولهما إلى ذاك المشهد بطابعه شبه المُوحِش، ولاحظا عدم وجود أيِّ مسكنٍ بشري في نطاق رؤيتهما القُصوى.

قال البروفيسور: «مشهد مُقفر!» وأضاف: «إنه مهجور!»

لكن بليك رفع إحدى يديه.

وقال: «أصغِ!»

من مكانٍ ما على يمين البُقعة التي كانا واقفَين فيها، دوَّى صوتُ ضربة فأسٍ قوية على جذور شجرةٍ ما، دَوِيًّا واضحًا لا تُخطئه الأذن. فالتفتا إلى هذا الاتجاه، ورأيا قمَّة شجرة صنوبر طويلة نحيفة تتأرجح وتتداعى وتتلاشى وسط الأشجار المُنخفضة التي كانت تقف وسطها، ثم سمعا صوت ارتطامٍ مكتوم.

قال بليك: «من المؤكد أنَّ هذا رَجُلنا مُنهمكًا في العمل.»

اجتاز الرجلان جانب التل، في صمت، صوب الاتجاه الذي أتى منه صوت الفأس المُتأرجِحة، التي كان واضحًا في هذه اللحظة أنها وُضِعت جانبًا. وفي غضون بضع دقائق، وصلا إلى حزامٍ من الأشجار رأيا، من خلال فتحة فيه، رقعةً مستوية خالية من الأشجار في الغابة التي وراءه. وهناك، بجوار شجرة الصنوبر الساقطة، كان ثمَّة رجلٌ واقفًا يُشعل غليونه الفخاري القصير في تلك اللحظة. كانت فأسه موضوعة على الشجرة التي قطعتْها للتو، وبالقُرب منها، كان يُوجَد كلب يرقُد مُتقوقعًا أمام معطف سيده. أمال الكلب إحدى أُذنَيه وفتح إحدى عينَيه عند اقتراب الغريبَين، ثم أصدر زمجرةً خفيضة، فالتفت الرجل ورمق زائرَيه الاثنين بنظرةٍ مُتجهمة متسائلة.

تمتم البروفيسور لرفيقه قائلًا: «يا له من رجل ذي مظهر مُرعب!» وأردف قائلًا: «وفأسه سلاح مُخيف يا بليك! ينبغي أن أتحدَّث إليه بتأدُّب شديد ومُجاملة بالغة في البداية.»

فابتسم بليك.

وقال: «لن أُخيفه!» وأردف قائلًا: «فالإقناع يفوق القوة.» واصل الحديث بلُطفٍ وهما يقتربان من الرجل الذي كانا يبحثان عنه: «طاب مساؤك!» وسأله قائلًا: «أأنت جيمس روبر؟»

أجاب الحطَّاب: «هذا اسمي أيها السيد.»

فقال بليك وهو يُبرِز إحدى بطاقاته المِهنية: «وهذا اسمي. ربما تكون قد سمعتَ عنِّي. أقيم في نزل سيبتر.»

أخذ روبر البطاقة، ورمقَها بنظرةٍ خاطفة هي وبليك، ثم أعادها بلامبالاة.

وأجاب قائلًا: «سمعتُ شيئًا من هذا القبيل.»

جلس بليك على شجرة الصنوبر المقطوعة، وأخرج غليونه والتبغ.

وقال: «أردتُ أن أعرف ما إذا كنتَ تستطيع أن تُعطيني قليلًا من المعلومات يا روبر. تعيش هنا، أليس كذلك؟»

ردَّ روبر بنبرةٍ تُشير إلى أنَّ مكان سكنه ليس من شأن بليك: «بالقُرب من هنا.»

تابع بليك: «إذن، فأنت تعرف هذه المنطقة — أي هذه الغابات وجوانب التلال والروابي — بل تعرفها جيدًا جدًّا، على ما أظن. فمن المُؤكد أنَّك تخرُج وتسير عليها وبينها في الصباح الباكر، وربما في وقتٍ مُتأخِّرٍ ليلًا؟»

لم يُجِب روبر. كان في ذلك الوقت قد نفخ في غليونه إلى أن بلغ ذروةَ اشتعاله، وأمسك في هذه اللحظة بفأسِه، وبدأ يُزيل بها الغصينات العلوية والفروع النحيلة الرقيقة للشجرة التي جلس بليك عليها. تقبَّل بليك صمته، ولزم الصمت هو الآخر، ثم توقَّفت الفأس، واتَّكأ روبر على مقبضها الطويل ونظر إلى سائله.

قال له عابسًا: «لقد صعدتَ إلى هنا هباء!» وأضاف: «ما الذي تسعى إلى معرفته؟ سمعتُ أنك تتحرَّى بشأن تلك الواقعة التي حدثت في ماركنمور هولو. لا أعرف شيئًا عنها. ربما خَطَر ببالك أنني، لو كنتُ أعرف، كنتُ سآتي إليك في مكانٍ ما أو أذهب إلى الشرطة في سيلكاستر، وأُدلي بما أعرفه.»

ردَّ بليك رامقًا الرجل بنظرةٍ خبيثة: «وربما خطر ببالي أنك ما كنتَ ستفعل ذلك. لقد علمتُ الكثير منذ أن أتيتُ إلى هذه المنطقة. كنتَ تُضمر ضغينةً شديدة تجاه جاي ماركنمور، هاه؟»

اشتدَّ عبوس روبر عن ذي قبل.

وتمتم قائلًا: «لكني لا أعرف شيئًا مؤكدًا عن الكيفية التي لَقِيَ بها حتفه على أي حال. وأما بخصوص الضغائن ومشاعر الغل، فيُوجَد أناس بالقُرب من هنا يعرفون كيف عاملَني هذا الحقير! ألا يحق لرجلٍ محترم، مثلما كنتُ وما زلت، أن يُكِنَّ مشاعرَ تجاه رجل عاملَهُ بسوء؟»

فوافقه بليك قائلًا: «يحقُّ لك أن تُكِنَّ ما تشاء من المشاعر، كأي إنسان. مَن قال إن هذا ليس من حقك؟»

وهنا بدا روبر وقد هدأ بعض الشيء.

قال رويدًا: «حسنًا، بسبب مثل هذه المشاعر التي أُكِنُّها، ما كنتُ لأرفع إصبعًا واحدًا لأُنقذ ذلك الرجل من الأذى! لقد نال ما يستحقه أمثاله. لكنني لا أعرف ما يُمكنك أن تُسميه فكرة مُحدَّدة عن هوية الشخص الذي جزاه هذا الجزاء.»

قال بليك مُلمحًا: «تقصد إنك لا تعرف تفاصيلَ دقيقة. ولكن، أصغِ إليَّ الآن يا روبر. إنك تتجوَّل كثيرًا في هذه المنطقة، في أوقاتٍ مبكرة ومُتأخِّرة على السواء، وأظنك تملك عينَين ثاقبتَين وأُذنَين مُرهفتَين أيضًا. لقد مات جاي ماركنمور! — ولنقُل إنه كان غُمَّةً وأُزيحت، إذا شئت! — لا أهتمُّ بذلك بالتأكيد. ولكن إذا كنتَ تعرف أيَّ شيءٍ من أي نوع عنه، قُبيل موته مباشرة، فما المُشكلة في أن تُفصِح عنه، لا سيما إذا كان ذلك سيعود عليك بالنفع؟ مثلًا، في أثناء تجوُّلِك، كما تفعل عادة، هل رأيتَ أيَّ شيءٍ مريب أو صادفتَ أيَّ أشخاص مُريبين؟ هل سمعتَ أو رأيتَ أيَّ شيءٍ غير عادي؟»

ظلَّ روبر ينظُر إلى زائرَيه بالتناوب. وكان البروفيسور يُدخِّن سيجارًا وهو يُحدِّق إليه باهتمام.

ثم قال روبر فجأة: «لم أسمع شيئًا عن أيِّ نفع قد يعود على مَن يُفصِح عن أيِّ شيءٍ ربما عرفه بالصدفة.»

أخرج بليك من جيبه نُسخته من إعلان المكافأة في صمت، وناولَها إلى الحطَّاب، وهنا رأى البروفيسور، الذي كان مُنتبهًا بشدة، عينَي روبر تلمَعان عند رؤية الكتابة الثقيلة التي طُبِعَت بها تفاصيلُ مكافأة السيدة براكسفيلد. قطَّب الرجل حاجبَيه الكثيفَين وهو يقرأ تفاصيل العرض بصعوبةٍ شديدة.

بعد قليل سأله بليك قائلًا: «ما رأيُك في هذا؟» وأضاف: «مائة جنيه ستكون من نصيبِ أيِّ شخصٍ يُدلي ولو بالقليل من المعلومات. فإن كنتَ تعرف أيَّ شيء — ولتضعْ

في حسبانك يا روبر أنني لا أُلِّح ضمنيًّا إلى أنك تعرف بالفعل! — ولكن أقول، إذا كنت تعرف، هاه؟»

بدأ روبر يطوي إعلان المكافأة، وكان يحدق إلى الأشجار الموجودة أمامه مُنهمِكًا في التفكير وهو يعيد الورقة إلى المُحقِّق.

قال له بليك: «احتفظ به!» وأردف قائلًا: «إنه منشور في كل أرجاء المنطقة. إذا تصادَف أنك تعرف أيَّ شيءٍ على الإطلاق يا روبر، فكُن سبَّاقًا!»

فقال روبر ببطء: «ذاك المبلغ المذكور؟ الجنيهات المائة. أهو مضمون؟»

أجاب بليك قائلًا: «سأضمَن لك ذلك!» وأضاف: «إنه مضمون تمامًا! لأيِّ شخصٍ يستطيع الإدلاء بمعلوماتٍ دقيقة. ألديك أيٌّ منها؟»

سأله روبر: «مال فوري؟»

فأكَّد بليك ذلك قائلًا: «مال فوري!» وأردف قائلًا: «الدفع نقدًا!»

كان غليون روبر قد انطفأ. فجلس فجأة على الشجرة المقطوعة، وبدأ يُعيد إشعال التبغ بتروٍّ أظهَر أنَّه كان مُتروِّيًا بالقدر نفسه في تفكيره.

وقال فجأة: «أنا في أمسِّ الحاجة إلى مائة جنيه!» وتابع قائلًا: «صحيح أنه ليس مبلغًا كبيرًا، لكنه سينفعني. لقد تعبتُ من هذه المنطقة وسئمتُها، وأريد الرحيل، أريد بدء حياة جديدة في مكانٍ بعيد! ذاك الرجل جاي ماركنمور شطر حياتي نصفَين، إن جاز القول، والآن ... حسنًا، إذا حصلتُ على المال، فسأرحَل عن هنا في الحال، وأرى أماكنَ ووجوهًا جديدة، وأحاول النسيان. لقد أفرطتُ في العيش وحيدًا، و...»

لم يكن بليك مُستعدًّا لهذه الدفقة العاطفية المُفاجئة، ولم يكن مُستعدًّا كذلك لما أبداه البروفيسور من دفقةٍ عاطفية مُشابهة اندفاعية تمامًا ومفاجئة كتلك.

إذ صاح البروفيسور قائلًا لروبر: «أصغِ إليَّ يا صديقي!» وأضاف: «صحيح أنك لا تعرفني — لكن ذلك ليس مُهمًّا! — فها هو بليك يعرفني. الآن، إذا كنتَ تريد بدايةً جديدة، حياة أخرى، هاه! فسأعطيك مائة جنيه إضافةً إلى هذه المكافأة المالية — بكل سرورٍ بالطبع — وحالًا! ولكن إذا كنتَ تعرف أيَّ شيء، قُله!»

حدَّق روبر في ذهولٍ إلى البروفيسور، الذي أومأ برأسه بكل حماس.

وقال فجأة: «شكرًا لك يا سيدي!» وأضاف قائلًا: «أرى أنك تعني ذلك بالفعل، أنت رجل طيب القلب! حسنًا، لا أعرف شيئًا مؤكدًا، لكنني أستطيع أن أُخمِّن شيئًا ما تخمينًا جيدًا جدًّا!»

الفصل الخامس والعشرون

قبضة الشيطان

كان البروفيسور مائلًا إلى الأمام مُتكئًا على عصا سيرِه، فيما كان المُحقق يُراقب الحطَّاب بنظرةٍ حادة جانبية، وشعر الاثنان بأنهما على وشك كشفٍ جديد. لكن عقل بليك كان مُنشغلًا بشكٍّ غريب غامض. لقد تحدَّث روبر عن التخمين، ولم يكن بليك يُريد تخمينًا، كان يتساءل في قرارة نفسه عمَّا قصدَه روبر بالتخمين. ومع ذلك، فرغم كلِّ ما كانوا يعرفونه، ربما يكونان في تلك اللحظة قابَ قوسين أو أدنى من الحقيقة التي كانا يتلهَّفان إلى معرفتها.

قال أخيرًا: «حسنًا؟» وكرَّر قائلًا: «حسنًا؟ ما هو؟»

ردَّ روبر قائلًا: «يبدو تافِهًا حين سردِه، إن جاز القول، وأنا لستُ بارعًا.» وأضاف: «ولكن، ها هو ذا! كان ذلك في ليل الإثنين الماضي، عشيةَ العثور على جاي ماركنمور، وراء تلك البقعة هناك، في ماركنمور هولو. في تلك الليلة، بعدما تناولتُ عشائي، غادرتُ كوخي مُتجهًا إلى ميتبورن سيرًا؛ إذ كنتُ أريد لقاء رجلٍ هناك. سلكتُ جانب التل، خلف وودلاند كوتيدج بالضبط، وانطلقت عبر ذاك الدرب العُشبي الذي يمتدُّ أعلى الروابي من هناك إلى مكانٍ قريب من محطة قطار ميتبورن. وبعد أن قطعتُ ربما ميلًا أو نحو ذلك على ذاك الدرب، سمعتُ رجلَين قادمَين نحوي ...»

قاطعه بليك مُتسائلًا: «في أيِّ وقتٍ حدث ذلك يا روبر؟»

«في حوالي الساعة الثامنة والربع، وكان يُخيِّم على الأجواء ظلامٌ جميل. لَمَّا كان لديَّ أسبابٌ خاصة تجعلني لا أريد أن يراني أحد على طريق ميتبورن؛ لذا فحين سمعتُ هذين الرجُلين قادمَين نحوي، تسللتُ إلى خلف كتلةٍ كبيرة من أشجار الجولق كانت قريبةً مني، ووقفتُ ساكنًا بلا حراك. وبعد ذلك بوقتٍ قصير، سار هذان الاثنان حتى صارا على مسافةٍ أقربَ إليَّ؛ رأيتهما ظِلَّين أسودَين بلا ملامح مُقابل اللون الرمادي الذي كان

يكسو السماء فوق طريق سيلكاستر، أتفهمني. رجل طويل القامة بعضَ الشيء، ورجل قصير بعض الشيء. وعلى بُعد بضع ياردات منِّي، توقَّف الرجل الطويل وأشعل سيجارًا. فرأيتُ وجهه في ضوء عود الثقاب. وحينئذٍ صُدِمت للغاية؛ لأنه كان الرجل الذي لم أتوقَّف قطُّ عن التفكير فيه طوال سبع سنوات مريرة، ولك أن تُخمِّن مَن كان؛ جاي ماركنمور! رأيتُهُ بوضوحٍ شديد — لدقيقة واحدة فحسب — كما أراك الآن، وأنا واثق من أنني لم أخطِئْه؛ لأن وجه هذا اللعين لم يطرأ عليه تغيير كبير كذلك التغيير الذي أعترفُ بأنه كان سيُلاحظه في وجهي لو رآني. كان واقفًا هناك، ولولا ذلك الرجل الآخر الذي كان معه، لهاجمته فورًا حيثما كان. لكن لم أفعل! واصَلا المسير وهما يتحدَّثان، ولم يسكُتا قَطُّ منذ رأيتهما لأول مرة ...»

سأله بليك: «هل سمعتَ ما كانا يقولانه؟»

«لا أتذكر، مجرد كلمات متقطعة. حتى صارا أمامي بالضبط، حينئذٍ، وبينما كانا يمرَّان بي، سمعتُ شيئًا واضحًا بما يكفي. كان جاي ماركنمور هو مَن قاله؛ إذ قال: «سآتي إلى هنا في حوالي الرابعة صباحًا لألحق بشيءٍ ما في الرابعة من ميتبورن إلى فارشام.» ثم ضحك. وقال: «ستكون مُطمئنًا تُشخِّر في فراشك آنذاك، بلا شك.» فقال له الرجل القصير: «لا تُبالِغ في يقينك من ذلك!» وأردف قائلًا: «فأنا أستيقظ مُبكرًا جدًّا كالطيور حين أكون في الريف!» ثم واصلا السير، نحوَ ماركنمور، ورأيتُهما يختفِيَان خلف ناصية أجمةٍ من الشجيرات موجودة هناك. وبعدئذٍ ...»

فقاطعه بليك قائلًا: «لحظة يا روبر. ذاك الرجل الثاني، الشخص القصير الذي وصفتَه. هل كان يتحدَّث كرجلٍ ريفي؟ كأي شخص موجود هنا في هذه المنطقة، كما تعلم؟»

فأجاب روبر بتأكيدٍ قاطع: «لا!» واستطرد قائلًا: «لم يكن كذلك! بل كان يتحدَّث بلكنة لندنية. لم يكن شخصًا من أهالي هذه المنطقة، على حدِّ علمي. فقد ذهبتُ إلى لندن، مع الأسف! وأظنه لندنيًّا، في رأيي.»

«ألم ترَ وجهه؟»

«لم أرَ شيئًا منه، سوى قامته، إن جاز القول. كان يقِف بعيدًا، إن جاز التعبير، خارج نطاق الضوء حين كان جاي يُشعِل سيجاره؛ لذا لم أرَ شيئًا من ملامح وجهه. لكنه كان رجلًا قصيرًا وعريضًا بعض الشيء. لم أُولِهِ انتباهًا كبيرًا بالتأكيد؛ لأنني كنتُ أتمنى لو أنه لم يكن موجودًا هناك أصلًا!»

سأله بليك: «حسنًا، وماذا بعد؟»

قال روبر: «واصلتُ السير إلى ميتبورن، وقضيتُ حاجتي مع الرجل الذي كنتُ أريد لقاءه، وحين انتهيتُ من ذلك، شربتُ بعضًا من شراب المزر معه في حانة كوك آند باي، وبعدئذٍ عُدتُ إلى بيتي مُجددًا.»

قال بليك: «حسنًا. كما توقَّعتُ بالضبط! و…» وهنا سكت ورمق روبر بنظرةٍ تنمُّ عن دراية كبيرة. ثم سأله: «أهناك أيُّ شيء آخر؟»

قال روبر: «لن أكتم أيَّ شيء. لديَّ شيءٌ آخر. لا تنسَ أنني أبقيتُ جذوةَ مشاعري تجاه جاي ماركنمور مُشتعلة طوال سبع سنوات! فأي رجل أُسِيءَ إليه وظُلِم مثلما حدث معي لا ينسى بسهولة. وحين عُدتُ إلى كوخي، وحدي، في تلك الليلة، بعد مَجيئي من ميتبورن، جلستُ أفكِّر. وتذكَّرت — لأنني لم أكن ناسيًا! — ما قاله جاي لذلك الرجل الذي كان معه، عن أنه سيكون موجودًا على ذلك الممشى المؤدي إلى ميتبورن في الرابعة من صباح اليوم التالي. لذا استيقظتُ في الساعة الثالثة، وانطلقتُ لألقاه عازمًا، إذا وجدتُه هناك، أن أُسوِّي معه المسألة العالقة بيننا إلى الأبد!»

فسأله بليك بهدوء: «وهل وجدتَه؟»

نظر روبر نظراتٍ خاطفة إلى المُحقِّق والبروفيسور بالتناوُب.

وأجاب بهدوءٍ مُماثل قائلًا: «أجل!» وتابع: «وجدته! ولكن بعدما سبقَني إليه شخصٌ آخر. كان جسده دافئًا آنذاك، لكنه كان ميتًا تمامًا، برصاصةٍ اخترقت دماغه!»

تنهَّد البروفيسور تنهيدةً بسيطة، لكن بليك لم يُبدِ أيَّ أمارة دهشة، وكان صوته، حين تحدَّث، أشدَّ جمودًا من أيِّ وقتٍ مضى.

قال: «أي أنَّ الأمر كان قد وقع بالفعل قبل أن تصِل إلى هناك للتو؟» ثم سأله: «أرأيتَ أيَّ أحدٍ بالقُرب من هناك؟»

هزَّ روبر رأسه.

وأجاب قائلًا: «حين وجدته، ظننتُه أطلق الرصاص على نفسه. لكنِّي نظرتُ حوله عن قربٍ وبدقة، ولم أرَ سلاحًا، لا مُسدسًا، ولا طبنجة، ولا أيَّ شيء من هذا القبيل. ثم نظرتُ في كل الأرجاء من حولنا، فلم أرَ أيَّ أحد! كان هذا الصباح ضبابيًّا، ولم يكن المرء يستطيع أن يُبصِر مَدًى بعيدًا جدًّا من الرؤية، كان ثمَّة ضبابٍ بين الأجمات وكُتَل الشجيرات الكثيفة، وكان الضباب مُموَّجًا على طول قِمَم الروابي. كلَّا، لم أرَ أحدًا … لم أرَ سواه، ميتًا.»

سأله بليك فجأة: «هل لمستَه؟»

اعتلت وجه الحطَّاب نظرةٌ مُتجهمة بغرابة، ونظر في هذه اللحظة، ليس إلى المُحقِّق، بل إلى البروفيسور، كما لو كان يشعُر بأنه يحظى ببعض التعاطُف والتفهُّم في وجوده.

ثم تمتم قائلًا: «إنه شيء غريب، لكني قبل أن ألقاه بدقيقةٍ واحدة، لم يكن شيء أحبَّ إليَّ من أن أضعَ يديَّ عليه! كنتُ سأمسكه من رقبته وأنتزِع روحه كما ينتزِع الكلب روحَ فأر! ولكن حين رأيته راقدًا هناك عند قدَمَي، مُزهَق الروح، شعرت ... شعرت بأنني لا أطيق أن ألمس جسدَه بيدي! لقد كان ... كان ميتًا! لكني مع ذلك فعلتُ شيئًا ما، وعرفت بذلك الشيء الذي فعلتُهُ أنه كان لا يزال دافئًا.»

قال البروفيسور بهدوء: «هيا أكمِل ... هيا!» وأضاف: «ما هو يا تُرى؟»

أجاب روبر مباشرة قائلًا: «رأيتُ خاتمًا حول إصبعه. خاتمًا من تلك الخواتم التي يبيعها هؤلاء النساء الغجريَّات على الطرقات هنا؛ شيئًا بلا قيمة، كما تفهم، لكنه لافت للنظر. وقد خطر ببالي — ولا أعرف لماذا — أنَّ مايرا قد أعطتْهُ ذلك الخاتم. فنزعتُهُ من حول إصبعه، ورحلتُ آخذًا إيَّاه معي، تاركًا ماركنمور هناك، مُحدِّقًا إلى السماء!»

تنهَّد البروفيسور تنهيدةً طويلة. لكن بليك تحدَّث.

إذ تساءل قائلًا: «ماذا فعلتَ بذلك الخاتم يا روبر؟»

فقال روبر وهو يضع إصبعَين في جيب صداره: «إنه هنا!» وأضاف: «أظن أنَّ فتاتي المسكينة قد أعطتْهُ إياه! إذ كانت مُغرَمة بِمثل هذه الحُلي الصغيرة التافهة. لقد خدعَها هؤلاء النساء الغجريَّات مرارًا وكُنَّ يَبِعْن لها بعضًا من مثل هذه التفاهات الرديئة مقابل أموال طائلة. لكني ظننتُ في قرارة نفسي أنَّ هذا كان خاتمها، وما كنتُ لأسمح له بأن يحمِلَه معه إلى قبره!»

فقال له بليك بصراحةٍ قاسية: «حسنًا، لقد كنتَ مُخطئًا. فالسيدة تريزيرو هي مَن أعطت جاي ماركنمور هذا الخاتم، وقد أعطاها خاتمًا آخرَ مِثله بالضبط. اشترياهما من متجرٍ للتُّحَف القديمة في بورتسموث هارد. أي إنه لم يكن خاتم مايرا قط.»

حدَّق روبر إلى المُحقِّق. فأومأ بليك برأسه إيماءة تأكيد. وعندئذٍ، رمى روبر الخاتم على الأرض أمامه فجأة بإيماءة اشمئزاز، بعدما كان يُقلِّبه في راحة يده.

وتمتم قائلًا: «ظننتُ أنه ربما يكون خاتمها!» وأضاف: «ولكن بما أنه ليس كذلك ...»

أخذ بليك الخاتم من الأرض، ثم نهض واقفًا على قدمَيه.

وقال: «والآن يا روبر، هل هذه هي الحقيقة كلها؟»

أجاب روبر: «هذا كلُّ ما أعرفه. لا أعرف كلمةً أخرى زيادة على ذلك يا سيدي.»

سأله بليك: «وهل ستُصِرُّ على ما قلتَه؟»

قال روبر مؤكدًا: «أُصِرُّ على كل كلمةٍ قلتُها.»

أضاف المُحقِّق وهو يلتفت إلى البروفيسور قائلًا: «هذا ما وصلتْ إليه المسألة. لقد سمعنا الآن أنَّ رجلًا كان برفقة جاي ماركنمور عشيةَ جريمة القتل، وعرِف أنَّ جاي سيكون موجودًا على الروابي في الرابعة من صباح اليوم التالي. فمَن ذاك الرجل؟»

أجاب البروفيسور قائلًا: «من المُرجَّح أن يكون هو الرجل الذي حدَّثني عنه موظف مكتبه. هذا رأيي، على أي حال.»

فقال بليك: «حسنًا، لنذهب. سألقاك مُجددًا يا روبر؛ لقد أعطيتَنا طرَف خيطٍ سيقودنا إلى شيءٍ ما، بلا شك.»

لكن البروفيسور تباطأ في خُطاه.

وقال وهو يلتفِتُ إلى الحطَّاب: «أصغِ إليَّ يا صديقي. أتعرف فندق مايتَر في سيلكاستر؟ جيد جدًّا؛ أنا مُقيم هناك. تعالَ وزُرْني هناك الليلة، هاك بطاقتي، اسأل عني. إذا كنتَ تُريد الهجرة، فسأُدبِّر لك المال. الليلة، تذكَّر هذا، في أيِّ وقتٍ تشاء بعد الساعة الثامنة.»

ثم نكز مرفق بليك، ورحل به مُسرعًا خارج الغابة قبل أن يستطيع روبر شُكرَه، وسار بوتيرةٍ سريعة حتى صار ورفيقه عند جانب التل مُجددًا.

قال: «هذا الرجل مُستسلِم لاكتئابٍ وحزنٍ بالغٍ يا صديقي!» وأردف قائلًا: «مسكين! مسكين! أشعر بأسًى عميقٍ وصادق عليه. لقد قضى سبع سنوات مُنعزلًا وحيدًا يفكِّر في حبه القديم؛ يا للفظاعة!»

قال بليك: «يؤسِفني القول إن لديك نزعةً عاطفية قوية جدًّا يا سيدي!» وأضاف: «أنا أيضًا أشعر بالأسى على هذا الرجل؛ فمِن الواضح أنَّ هُجران مايرا له وارتباطها بشخصٍ آخر قد ترك في قلبه أثرًا سيئًا بالغًا. لكني سأُخبرك برأيي أيها البروفيسور؛ أنا أرى أنَّ السيد روبر يجِب أن يكون شاكرًا جدًّا لأنني لم أطلُب منه أن يسير معي إلى مركز الشرطة في سيلكاستر! فلو لم أكن مُؤمنًا بأنَّ السيكولوجيا علمٌ، لكنتُ رغبتُ في مثوله هناك بالتأكيد. لكني قيَّمتُ شخصيته، وراقبتُه عن كثب، وأظنُّ أنني أتفهَّم العمليات الغريبة التي تدور في ذهنه، وأعتقد أنه أخبرَنا بالحقيقة. كنتُ أتمنى فقط لو أنه جاءني وأطلعَني على هذا السرِّ قبل أسبوع!»

فقال البروفيسور بصِدق وصراحة: «أتعرف، أظنُّ أنني ربما كنتُ سأفعل ما فعله بالضبط، لو كنتُ مكانه؟» وأردف قائلًا: «لقد تعاطفتُ تمامًا مع هذا الرجل التعيس. لكن الشيء المُهم الآن، يا صديقي العزيز، هذا الشخص المجهول؛ كيف ستتعقَّبه وتعثُر عليه؟»

قال بليك: «الشيء الغريب في ذلك أنَّ صعوبته واضحة، على أقل تقدير. إذا افترضْنا أنَّ رواية روبر صحيحة — مثلما أفترض — فنحن بذلك لدَينا رجل غريب، ذو لكنةٍ لندنية، كما قال روبر، وهو ما كان يقصد به على الأرجح أنه رجل من الطبقات ذات التعليم الراقي، كان موجودًا على الروابي مع جاي ماركنمور، في وقتٍ مُتأخِّر من مساء يوم الإثنين. فمن هو؟ وهل أتى إلى هنا مع ماركنمور من لندن؟ أم إنهما التقَيا في القطار؟ أم إنهما التقَيَا على الطريق بين ميتبورن وماركنمور؟ لا نعرف. ولكن تُوجَد أسئلة أهمُّ من أيٍّ من هذه الأسئلة، أحدُها على سبيل المثال، إلى أين كان ذلك الرجل ذاهبًا؟ وثانيها: إلى أين ذهب حين افترق عن ماركنمور؟ وثالثها وأهمها: إذا كان هو الرجل الذي أردى جاي ماركنمور قتيلًا بالرصاص في صباح اليوم التالي، فأين كان موجودًا منذ أن افترقا حتى وقت الجريمة؟ أين قضى ليل الإثنين؟ لا يمكن أن يكون قد قضاه بعيدًا عن هذه المنطقة، إذا صحَّ أنه انتظر مُتربصًا بضحيته في الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي!»

قال البروفيسور معترفًا: «أمر مُحيِّر!» وأضاف قائلًا: «ومع ذلك، أظنُّ أنَّ الرجل، إذا كان سيحظى بغنيمةٍ كبيرة، فلم يكن ليُمانع تحمُّل الانتظار بضعَ ساعاتٍ في هذه الغابة حتى اغتنامها؛ فالليالي دافئة في الوقت الراهن، وتُوجَد ملاذات كثيرة هنا، في هذه الوديان. الآن، ما يُحيرني هو ذا: إذا كان هذا الرجل هو مَن قتل جاي ماركنمور، وأنا مُتأكد من ذلك، فلماذا لم يقتله في ليل الإثنين ويهرُب في الظلام؟»

ضحك بليك.

وأجاب قائلًا: «سأُخبرك بالسبب. لقد كان رجلًا أسرَّ إليه جاي ماركنمور بمسألة الصبغة هذه. جاء معه إلى هنا، وهو على درايةٍ تامة بما كان جاي يفعله. كان يعلم أن الأمور المالية للصفقة كانت ستُسوَّى في تلك الليلة على الأرجح. وانتظر حتى الصباح ليستطيع الاستيلاء على الأموال والتركيبة التي حدَّثْتنا عنها، مع رأيك الذي كان مُرفقًا بها. من المُرجَّح أنه هو الرجل الذي حدَّثك عنه موظف مكتب ماركنمور في فولجريف كورت، وسيتوجَّب علينا محاولة العثور عليه. لكن الخيط الذي نملِكه واهٍ وضعيف، حتى الآن.»

أومأ البروفيسور برأسه، وسكت ونظرَ حوله. كانا، في أثناء مُحادثتهما، قد مشَيَا ببطءٍ على طول جانب التل حتى بلغا امتدادًا ريفيًّا أشدَّ وحشة وخلوًّا من مظاهر الحياة

بكثير. كانا يقِفان في هذه اللحظة على حافةِ وادٍ عميق مَحفور في الأرض الواقعة بالأسفل على عُمق حوالي مائتي قدم، وكان الانحدار شديدًا جدًّا عند أجزاء مُتفرقة من الحافة؛ وفي التجاويف والفرجات المُظلمة المُوحشة التي كانت تقع على عمقٍ سحيق بالأسفل، كانت تُوجَد تَكَتلات كبيرة من أشجار الطقسوس والصنوبر تتخلَّلها كُتل ضخمة من الحجر الجيري الرمادي وتفصِل بعضها عن بعض، وكان كل شيء يُخيم عليه صمتٌ كئيب وغريب. لكن البروفيسور كسرَه فجأة.

إذ صاح قائلًا: «يُوجَد شخصٌ ما يلوِّح لنا!» وأضاف: «هناك بالأسفل! إنها امرأة!»

نظر بليك في الاتجاه المُشار إليه، وانتفض مذهولًا. فعلى بُعدٍ شديدٍ أسفلهما، إلى يمينهما قليلًا، رأى هيئة امرأةٍ واقفة بالقُرب من أيكة أشجار عند سفح الجزء الأشدِّ انحدارًا من الوادي. وكانت، كما قال البروفيسور، تسعى جاهدةً إلى جذب انتباههما.

فقال: «يا إلهي!» وأضاف: «تلك الآنسة فالنسيا ماركنمور! ما الذي تفعله هناك؟ هل تعرف ما الاسم الذي يُطلِقونه على هذا المكان؟ قبضة الشيطان! وأظنُّ أنَّ القبضة هنا تعني شقًّا عميقًا شديد الانحدار في الأرض. ولكن ما الذي قد تريده؟»

قال البروفيسور مُقترِحًا: «لنشُقَّ طريقنا إلى الأسفل. فمن الواضح أننا مَطلوبان. عجبًا! يُوجَد رجلان أيضًا!»

كانت هيئتا رَجُلَين قد خرجتا للتوِّ من وسط كتلةٍ من شجيرات الصنوبر بالقُرب من مكان وقوف فالنسيا. فعرف بليك فجأة أنهما هاربورو والسيد فرانسيمري. وحين أدركا هوية المُحقِّق بدورهما، بدآ هما أيضًا يُلوِّحان له.

تمتم بليك قائلًا: «يُوجَد خَطْبٌ ما بالأسفل!» وأضاف: «يبدو لي كأنهم اكتشفوا شيئًا ما. انظر هنا يا سيدي! هذا الرجل الطويل هو هاربورو، الذي اتَّهمتْهُ السيدة تريزيرو بالقتل، كما أخبرتُك، والآخر هو السيد فرانسيمري، ذلك السيد العجوز الذي اضطلع بدورٍ كبير في القضية.»

ردَّ البروفيسور قائلًا: «أعرف فرانسيمري بالاسم فقط. إنه عضو في جمعية أَثَرية أنتسِب أنا أيضًا إليها، وكنتُ أتواصل معه بالمُراسلة. والآن، كيف نستطيع الوصول إلى هناك دون أن ينكسِر عُنقانا؟»

قال بليك: «من المؤكد أننا سنجِد ممشًى للشياه بالقُرب من هنا. وحيثما تستطيع الشاة المشي، نستطيع نحن أيضًا، إذا اقتضتِ الحاجة.»

لكنهما ظلَّا يبحثان لبضع دقائق قبل أن يجدا سبيلًا للنزول إلى أعماق الوادي، حيث كان الآخرون ينتظِرون قدومهما. وحالَمَا وصل البروفيسور إلى تجاويف الوادي، كان مذهولًا من طابع الجرف الذي شقَّا طريقهما عبره؛ إذ بدا أشبه بالهاوية. وفوق البُقعة التي كانت فالنسيا ورفيقاها يقفون عندها، كانت الجدران الجرانيتية شاهقةَ الارتفاع وشبيهةً بجُرُف عالٍ، وكان يُوجَد، عند مكانٍ مُعين، انخفاضٌ شديد الانحدار عن حافة الجرف مقداره حوالي مائتَي قدمٍ ينتهي بكتلةٍ بدائية مهجورة ذات نمَطٍ متقطِّع من صخور وشجيرات مُتداخلة، وكان الثلاثة يقفون عند الحافة السفلية لهذا الجزء المُقفر، ناظرين بالتناوب إلى تجاويفه، وإلى الرجُلَين اللَّذين كانا يُهرعان نحوهم على أرضية الوادي المستوية. وخلف السيد فرانسيمري مباشرة، كان كلبُه الإيرديل ممسوكًا بزمامٍ صُنع من منديل سيِّدِه وهو مُهتاج ويئنُّ مُتذمرًا، وكان من الواضح أنه يرغب بشدة في معاودة اختراق شجيرات الجولق التي جُرَّ من وسطها بفظاظة.

قال بليك: «هذا كلب فرانسيمري؛ ذلك الكلب النجيب الذي نبش الأرض واكتشف المُسدَّس الآلي!» وأضاف: «هل اكتشف شيئًا آخرَ يا تُرى؟»

أقبل هاربورو نحوَهما رويدًا. وبينما كان يدنو، رمق بليك بنظرةٍ تحذيرية وأشار إلى أشجار الصنوبر.

قال بصوتٍ خفيض بينما كانا يدنوان منه: «أصغِيَا إليَّ! يُوجَد رجل يرقُد ميتًا في الداخل هناك! لا بدَّ أنه سقط من فوق الجرف. لقد وجدَه الكلب، لم نستطِع أن نُبعِده، فدخلتُ لإحضاره ورأيتُ هذا الرجل ميتًا، كما قلت. تعالَيَا وانظُرا!»

كانا قد وصَلا إلى الاثنين الآخرَين في ذلك الوقت، وبلا أي سؤالٍ آخر أو أي تحيَّاتٍ رسمية، اندفع بليك وسط الأشجار، وتبِعَه الرجال الثلاثة.

تساءل قائلًا: «أين هو؟ ومَن هو؟» وأضاف: «أهو شخص تعرفونه؟»

قال هاربورو: «بل غريب، يبدو أشبَهَ بسائح!» واستطرد قائلًا: «هنا، عند سفح الصخور!»

أزاح هاربورو أغصان الصنوبر، التي كانت مُتشبِّثة بمَوضعها وصعبة التحريك، وثبَّتها بيدَيه جانبًا ليكشف فجأة عن جثةِ رجل راقِد في وضعية مُلتوية غريبة عبر كتلة حجرية حادَّة الحواف. كانت نظرة واحدة إلى الأعلى كافيةً لإظهار ما حدث له؛ لقد انزلق من أعلى حافة الهاوية الواقعة على ارتفاعٍ شاهق، وهوى مباشرةً دون أن يعترِضَه شيء

حتى ارتطم بالمكان الذي كان راقدًا عليه، وبالقُرب منه، كانت تُوجَد عصا السير التي سقطت من يدِه في أثناء وقوعه.

وثب بليك فجأةً إلى الأمام بصيحة حادة، وقَلَب وجه الجثة — الذي كان حتى هذا الحين مُنسحقًا وسط وسادة من الطحالب والخلنج — نحو الضوء. ثم قام وهو يُحدِّق إليه.

قال: «يا إلهي!» وأضاف: «إنه كرولي؛ الرجل الذي التقيتُه ...»

لكنَّ البروفيسور أطلق صيحةً أقوى وأشدَّ ذهولًا بكثيرٍ حين رأى بدوره وجه الرجل الميت.

إذ قال: «كرولي؟» وأردف قائلًا: «كرولي؟ يا إلهي! هذا كارتر! كارتر! أؤكد لك أنه كارتر!»

شعر بليك وكأنَّ هذا الإيضاح قد غمر دِماغه مثل موجةٍ باردة كالثلج. فالتفت إلى البروفيسور رامقًا إيَّاه بنظراتٍ متفحصة مُدققة.

وصاح قائلًا: «كارتر!» وأضاف: «مساعدك؟»

«أجل، مساعدي!»

«الرجل الذي حمل رسالتَكَ المُوصَدة بأختامٍ شمعية إلى جاي ماركنمور؟»

قال البروفيسور مؤكدًا بجدية شديدة: «هو بعَينه!» وأضاف: «يا إلهي! ما معنى كل ذلك؟»

هوى بليك فجأة جاثيًا على رُكبتَيه بجوار الرجل الميت، وأدخل إحدى يدَيه فجأة في جيبٍ داخلي في ثيابه، ثم جيبٍ ثانٍ، ثم ثالث. وبحركةٍ مفاجئة مُماثلة، أخرج حافظة رسائل، وسحَبَ من داخلها رزمة من الأوراق النقدية وورقتَين. رمى النقود بلا مُبالاة على الحجارة، وفتح الورقتَين على عجل، وبعد ثانيةٍ واحدة، وضعهُما في يد الأستاذ بقوة.

وقال بهدوء: «هذا معناه!» واستطرد قائلًا: «ها هي تركيبة سبيندلر، وها هو رأيك فيها. و… هذا هو الرجل الذي قتل جاي ماركنمور!»

ثم نظر حوله إلى الرجال الثلاثة. كان البروفيسور يُحدِّق بعينَين جامدتَين إلى الورقتَين اللَّتَين سُلمتا إليه للتو، وكان السيد فرانسيمري يُحدِّق إلى البروفيسور، فيما كان هاربورو، الذي بدا قلقًا وحائرًا، ينظر بارتيابٍ إلى الرجل الميت. وكان هو أول مَن تحدَّث، مُلتفتًا إلى المُحقق.

سأله بصوتٍ خفيض: «هل تظنُّ أنه ... أنه قتل جاي ماركنمور ليأخُذ تلك الأشياء؟»

قام بليك من جثوِه.

وقال بهدوء: «وهل من تفسيرٍ آخر غير ذلك؟» وتابع قائلًا: «لقد اتَّضحَتِ لي المسألة برمَّتها الآن! كنتُ أنا والسير توماس، الواقف هنا بيننا، نعرف شيئًا ما عن ذلك سلفًا، لكنني حتى ما قبل بضع دقائق لم أكن أشكُّ في هذا الرجل. غير أنَّ المسألة، كما قلت، صارت واضحةً لي الآن تمامًا. هذا الرجل، الذي التقيتُه منذ بضع ليالٍ في نزل سيبتر، وادعى أن اسمه كرولي، وقال إنه كان يقضي إجازةً ويجوب أرجاء هذه المنطقة الريفية سيرًا على الأقدام، هو في الحقيقة كارتر، أحد مساعدي السير توماس في مُختبره بكمبريدج. كان هو مَن ائتمَنَه السير توماس على طردٍ مُوصَدٍ بأختام شمعية وكلَّفه بتوصيله مباشرة إلى جاي ماركنمور في لندن؛ لأنه، أي كارتر، كان سيمرُّ على لندن في طريقه إلى هنا لقضاء إجازته. الآن، مع أنَّ كارتر لم يكن يعرف طبيعة محتوى ذاك الطرد بالضبط، كان قد عرف من السير توماس أنَّ مُحتواه ذو أهميةٍ علمية بالغة وقيمة مالية هائلة. كُلِّف آنذاك بتوصيله إلى يدَي جاي ماركنمور شخصيًّا. وقد فعل ذلك. وفي وقتٍ لاحِق من ذلك اليوم، سافر جاي ماركنمور إلى هنا. وكذلك كارتر. ربما التقَيَا على متن القطار، أو ربما سافرا معًا. ولكن في كل الأحوال، اكتشفتُ أنا والسير توماس للتوِّ أنهما كانا معًا على الرَّوابي في وقتٍ متأخِّر من تلك الليلة يتحدَّثان معًا سرًّا. كان جاي ماركنمور، مما عرفتُه عنه، رجلًا ثرثارًا غير مُتحفِّظٍ وصريحًا ومُعتادَ البَوح بما في نفسه، ومن المُرجَّح أنَّه، حين علم أنَّ كارتر كان مساعد السير توماس، أفضى إليه بالسِّر. وقد تيقنتُ أنا والسير توماس للتوِّ من أنَّ جاي ماركنمور أخبر كارتر بأنه سيكون موجودًا عند مُنخفَض ماركنمور هولو أو بالقُرب منه في ساعةٍ مُبكرة جدًّا من صباح اليوم التالي. فماذا يفعل كارتر؟ ينسُج خطةً يعتزِم بموجبها التسكُّع طوال الليل — ولتتذكَّروا أنها كانت ليلةً دافئة! — ثم التربُّص بجاي ماركنمور في الصباح الباكر وقتله من أجل الحصول على السرِّ والأموال، التي كان من المُزمَع تجميعها ثمنًا لهذا السِّرِّ في تلك الليلة من جاي ولانسبري والبارون فون إيكهاردشتاين. ونفَّذ كل ذلك بالفعل. وماذا يفعل بعدئذٍ؟ يرحَل بهدوءٍ بين هذه التلال والغابات مُواصلًا جولة سَيره؛ فمن سيشْتَبِهُ في رجلٍ سائر ذي مظهرٍ بريء؟ لكنه، بعدما قرأ الصحف في تلك الأثناء، شقَّ طريقه سيرًا، بصفته سائحًا، إلى نزل سيبتر حيث التقيتُه، وأعترفُ بأن كذبته انطلَتْ عليَّ تمامًا هناك. وتلك، كما تفهمون، هي إحدى عادات القاتل القديمة، وهي أن يحوم حول مسرح جريمته، مُفعمًا بفضولٍ مَرَضِيٍّ لمعرفةِ ما يُقال وما يُفعل. لم يشتبِهْ أيُّ أحدٍ في هذا الرجل إطلاقًا، وحتى أنا نفسي لم أتصوَّر قطُّ

أنه قد يكون ذا صلةٍ بهذه القضية. مكث ليلته في سيبتر، ورحل عابرًا هذه الروابي. وهنا! ... هنا تعرَّض لهذا الحادث المُميت، ولولا ذلك، ولولا أننا وجدْنا هذا، وهاتَين الورقتَين بحوزته، لا أعتقد أننا كنا سنعرف أبدًا أنه هو مَن قتل جاي ماركنمور! لكننا ها نحن أُولاءِ نعرف الآن.»

ثم انحنى إلى الأسفل وسحب قُبعة الرجل الميت الليِّنة على وجهه ليُغطيه بها. وحين رفع ناظريه مُجددًا، كان البروفيسور لا يزال يُحدِّق في تأمُّلٍ إلى الورقتَين اللتَين كان يُمسكهما، وكان السيد فرانسيمري يُحدِّق إلى البروفيسور، مُتجهِّمًا على غير عادته. لكن هاربورو كان بالفعل يبتعِد بخطواتٍ طويلة سريعة عبر الأشجار، نحو فالنسيا.


هنداوي